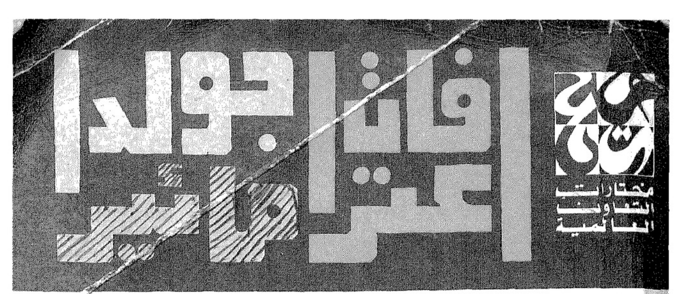

اعترافات جولدا مائير
مختارات
التعاون
العالمية

مختارات التعاون العالمية

إعترافات جولدا مائير

ترجمة
عزيز عزمى

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر
مركز الدراسات الصحفية

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير العام

ممدوح رضـا

رئيس التحرير التنفيذى

عبد القادر السعدنى

سكرتير التحرير

سيد قنديل

المراسلات :
دار التعاون ــ ٦ شارع عبد القادر حمزة
« جاردن سيتى »



تقديم

بقلم ممدوح رضا

لا أدرى كيف يمكن أن يصدر كتاب هام ، يتصل بقضيتنا الكبرى ، ويظل ـ لفترة طويلة ـ بعيدا عن القارىء العربى ، والسياسى العربى ؟

ولا أعرف ـ على وجه التحديد ـ من يمكن أن يوجه اليه اللوم ، ازاء تقصير من هذا النوع ؟

هل هى جامعة الدول العربية ، بمكاتبها وأجهزتها المختلفة ؟ أم وزارة الخارجية ، بسفاراتها العديدة ؟ أم هيئة الاستعلامات ، بمكاتبها الاعلامية ؟

أيا كانت الاجابة ، فالامر الذى لا أعتقد بوجود خلاف حوله : هو : أن تهمة التقصير تمس جميع الأجهزة التى ذكرتها !

●●●

هذا الحديث ، يتصل بكتاب « حياتى » الذى كتبته جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل الراحلة ، والذى ظهر في أوربا قبل شهور ! والذى يقدمه مركز الدراسات الصحفية بمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر في سلسلته الجديدة (مختارات التعاون العالمية)

الكتاب بالغ الأهمية ، لأنه يكشف الكثير من الاسرار ، ويلقى بالكثير من الاضواء على فكر القيادة العليا في اسرائيل ...

... وهو بالغ الأهمية - أيضا - لانه يتضمن أول اعترافات مكتوبة لجولدا مائير ، حول حرب أكتوبر المجيدة ..

... وهو بالغ الأهمية - أخيرا - لان المعلومات التى أجبرت مائير - بعد هزيمتها - على الاعتراف بها ، تصفع في قوة ، رواد المقاهى والحانات من أدعياء التقدمية ، الذين سمحوا لانفسهم - خلال حرب أكتوبر المجيدة ، وفي أعقابها - بأن يصفوا الحرب بأنها كانت تمثيلية ، اتفق على توزيع أدوارها ، وأتقن اخراجها !

●●●

وجولدا مائير - صاحبة الاعترافات - كما نعلم .. لم تكن

مجرد سياسية في اسرائيل ! ولكنها ـ كانت من ابرز زعمائها !

فقد تولت ـ في اعقاب حرب عام ١٩٤٨ ـ وزارة الخارجية .. وقادت أعنف المعارك الدبلوماسية ضد العرب

ثم ...

انتخبت زعيمة لحزب الاغلبية ، واختيرت رئيسة للوزارة .. وظلت لسنوات طويلة تجمع بين المنصبين .. ونشبت ـ في عهدها ـ حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ ! .

ولقد تصورت مائير ـ يوما ـ أنها ستكون اعظم زعماء اسرائيل ، باعتبارها صاحبة أكبر الانتصارات الاسرائيلية .. أعنى : نتائج حرب ١٩٦٧ .. ولكنها لم تفكر ـ للحظة واحدة ـ في أنها ستعيش لترى أكبر هزائمها ـ أعنى : انتصاراتنا في حرب ١٩٧٣ ـ ولتعلن بنفسها أنها ستعيش بقية حياتها « بحلم اكتوبر المفزع » !

●●●

وأعود الى كتاب جولدا مائير ..

الكتاب باللغة الانجليزية ويقع في ٢٩٦ صفحة ، مقسمة الى ١٥ فصلا ..

وقد جاءت اعترافات مائير حول حرب اكتوبر ، في الفصل الرابع عشر .. وقد احتلت ٢٩ صفحة من الكتاب .

وقد بدأت مائير اعترافاتها بقولها : « ليس اشق على نفسى من الكتابة عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ .. حرب « يوم كيبور » !

ثم قالت : « ولن أكتب عن الحرب ـ من الناحية العسكرية ـ فهذا أمر اتركه للآخرين .. ولكنى سأكتب عنها ككارثة ساحقة ، وكابوس عشته بنفسى .. وسيظل باقيا معى على الدوام » !

●●●

وكما هو معروف ، فلقد كانت مائير في رحلة ـ خارج اسرائيل ـ قبيل اشتعال الحرب بأيام ...

وعادت من رحلتها يوم الثلاثاء ٤ اكتوبر ..

وفور عودتها ، عقدت اجتماعا مع « المطبخ السياسى » الذى يضم مجموعة العناصر البارزة في الوزارة والجيش ، لبحث الموقف !

وخلال الاجتماع ، جرى استعراض المعلومات التى كانت قد وصلتها في شهر مايو ـ أى قبل الحرب بخمسة أشهر ـ حول تعزيزات القوات المصرية والسورية على الحدود .. كما استعرضت نتائج المعركة الجوية العنيفة التى جرت بين سوريا واسرائيل في سبتمبر ـ الشهر السابق للحرب .. ثم استعرضت ، أخيرا ، تقارير المخابرات الاسرائيلية ، التى تؤكد عدم قدرة القوات المحتشدة ، على القيام بأى هجوم !

وخلال الاجتماع ـ وكما تقول مائير في اعترافاتها ـ كان الرأى الذى التقى حوله الجميع : « أن الموقف العسكرى يتلخص في أن اسرائيل لا تواجه خطر هجوم مصرى ـ سورى ! أما القوات المصرية المحتشدة في الجنوب ، فلا يتعدى دورها القيام بالمناورات المعتادة ! »

وتمضى اعترافات مائير :

● « ولم يجد أحد من المجتمعين ضرورة لاستدعاء الاحتياطى ! »

● ... « ولم يفكر أحد في أن الحرب وشيكة الوقوع » !

●●●

وفي يوم الجمعة ٥ أكتوبر ، عقدت مائير اجتماعا آخر لمطبخها السياسى ، لاعادة بحث الموقف ...

وخلال الاجتماع ، اقترح « اسرائيل جاليلى » تفويض مائير ووزير الدفاع سلطة استدعاء الاحتياطى ، واعلان التعبئة العامة ، اذا تطلب الامر ذلك ..

وتقول مائير في اعترافها ، حول هذا الاجتماع : « كان من واجبى أن استمع الى « انذار » قلبى ، وأستدعى الاحتياطى ، وآمر بالتعبئة »

.. ثم تصف شعورها ازاء هذه الخيبة ، بقولها : « لم يكن منطقيا أن آمر بالتعبئة مع وجود تقارير مخابراتنا العسكرية ، وتقارير قادتنا العسكريين ، التى لا تبررها ! لكنى - في نفس الوقت - أعلم تماما انه كان واجبا على أن أفعل ذلك ! وسوف أحيا بهذا الحلم المزعج بقية حياتى ! ولن أعود ، مرة أخرى ، نفس الانسان الذى كنته قبل حرب يوم كيبور »

●●●

وفي الساعة الرابعة من صباح يوم السبت ٦ أكتوبر ، تلقت مائير - كما تقول في اعترافاتها - معلومات « بأن المصريين والسوريين ، سوف يشنون هجوما مشتركا ، في وقت متأخر من بعد ظهر نفس اليوم »

وعلى الفور ...

عقدت مائير اجتماعا ثالثا لمطبخها السياسى ، جرى خلاله - من جديد - استعراض الموقف ...

ولكن - كما تقول مائير - « كان هذا اليوم ، هو اليوم الوحيد الذى خذلتنا فيه قدرتنا الاسطورية على التعبئة بسرعة » !

ثم ...

اجتمعت مائير - عقب هذا الاجتماع - بزعيم المعارضة : مناحم بيجين .. واجتمعت بالسفير الامريكى في اسرائيل !

وعند الظهر ، عقدت اجتماعا للحكومة الاسرائيلية ، للبحث في تعبئة قوات الاحتياطى !

وفجأة .. وقبل أن ينتهى الاجتماع ، فتح باب قاعة الاجتماعات ، واندفع سكرتير مائير العسكرى نحوها ، ليبلغها بأن الهجوم قد بدا ...

وتقول مائير : « وفي نفس اللحظة ، سمعنا صوت صفارات الانذار في تل أبيب ، وبدأت الحرب »

●●●

وتقول مائير في اعترافاتها :

« ليت الامر اقتصر على اننا لم نتلق انذارا في الوقت المناسب بل اننا كنا نحارب على جبهتين ، في وقت واحد ونقاتل اعداء ، كانوا يعدون انفسهم للهجوم علينا من سنين »

وتستطرد في اعترافاتها :

● « كان التفوق علينا ساحقاً من الناحية العددية ، سواء في الاسلحة أو الدبابات أو الطائرات أو الرجال ..

● « ... وكنا نقاسى من انهيار نفسى عميق

● « ... ولم تكن الصدمة في الطريقة التي بدأت بها الحرب فقط ، ولكنها كانت في حقيقة ان معظم تقديراتنا الاساسية ثبت خطؤها : فقد كان احتمال الهجوم في اكتوبر ضئيلا .. وكان

يقيننا بأننا سنحصل على الانذار الكافى قبيل الهجوم .. وكنا نؤمن بأن في استطاعتنا منع المصريين من عبور قناة السويس »

●●●

وتتحدث مائير ـ في اعترافاتها ـ عن اليوم الثانى للحرب ... ماذا تقول ؟

« لا أظننى سوف أنسى ذلك اليوم الذى سمعت فيه اسوأ التقديرات المتشائمة ! ففى عصر يوم ٧ أكتوبر ، عاد ديان من احدى جولاته على الجبهة ، وطلب مقابلتى على الفور ، ليبلغنى بأن رأيه : أن الموقف في سيناء قد وصل الى درجة من السوء ، تحتم علينا أن نقوم بانسحاب جذرى ، واقامه خط جديد للدفاع ! وقد استمعت اليه في فزع !

ثم تقول :

« كان المصريون قد عبروا القناة ، وكانت قواتنا في سيناء قد تحطمت .. وكان السوريون قد تغلغلوا في عمق مرتفعات الجولان .. وكانت الخسائر على كلتا الجبهتين مرتفعة جدا .. وثار سؤال قاتل : هل نبلغ الامة بمدى الحالة السيئة التى وصلنا اليها ؟ وكان تصورى بأننا يجب أن ننتظر قليلا ! ومع ذلك .. فقد كان من الضرورى اعلان أى بيان !

« ... وهكذا تحدثت في بداية الحرب الى ابناء اسرائيل .. وكان هذا الحديث من أشق المهام في حياتى ، لاننى كنت أعلم بأنه لا يجب أن أقول كل الحقائق !

●●●

ومن بين ما تقوله مائير ـ في اعترافاتها ـ أن موشى ديان ـ وزير الدفاع الاسرائيلى وقتئذ ـ قد عرض عليها تقديم استقالته ٣ مرات :

● المرة الاولى ـ في اليوم الثانى للحرب ، عندما جاءها ديان الى مكتبها ، وأغلق الباب خلفه ، ثم وقف أمامها يسأل : « هل تريدين أن أقدم استقالتى ؟ »

● والمرة الثانية ـ قبل وقف اطلاق النار الثانى عندما استقال وزير الدولة الاسرائيلى ، احتجاجا على عدم اقالة ديان .. فقد ذهب اليها ديان ، ليقول : « اذا كنت تريدين منى أن استقيل فأنا على استعداد »

● والمرة الثالثة ـ بعد صدور تقرير « لجنة اجرانات » الذى تضمن تحقيقاتها حول حرب أكتوبر .. وبالتحديد : في ٤ أبريل عام ١٩٧٤ .. عندما أبلغها ديان استعداده للاستقالة !

وتعقب مائير على استقالات ديان الثلاث ، قائلة : « اننى أعرف ماذا كان شعور ديان ! فقد كان متشائما الى حد كبير ،

طوال الايام الأولى للحرب ، وكان يريد أن يهىء الشعب الاسرائيلى لمواجهة تدهور الموقف .

●●●

وتصل جولدا مائير في اعترافاتها الى اليوم الخامس للحرب .. يوم الاربعاء ١٠ أكتوبر ، وهو اليوم الذى هرعت فيه الى الولايات المتحدة تستصرخها النجدة ..

ثم تشير الى حديثها مع السفير الاسرائيلى في واشنطن ، في الساعة الثالثة صباحا ..

قالت مائير للسفير الاسرائيلى :

ـ أين الجسر الجوى لانقاذنا ؟ ولماذا لم يبدأ بعد ؟

ورد السفير :

ـ لا يمكنني يا جولدا أن اتحدث مع أى من المسئولين ، الآن .. فالوقت ما زال مبكرا للغاية !

وصرحت مائير في غضب :

ـ لا يهمنى ما هى الساعة الآن ! أطلب كيسنجر حالا ! نحن في حاجة الى النجدة اليوم .. لانها قد تكون متأخرة جدا غدا !

ثم تتحدث مائير عن الجسر الجوى الامريكى . فتقول :

ـ « ان هذا الجسر الجوى ، لا يمكن تقدير قيمته ! انه لم يرفع روحنا المعنوية فقط ولكنه ساهم في توضيح الموقف

الامريكى ، أمام الاتحاد السوفيتى ! وساعدنا كثيرا من الناحية العسكرية ! وقد بكيت ـ لاول مرة منذ بداية الحرب ـ عندما علمت أن الطائرات الامريكية وصلت مطار اللد » .

●●●

وتعود مائير ـ في اعترافاتها ـ الى وصف حرب اكتوبر المجيدة ، فتقول : « لقد شنت علينا هذه الحرب ، بأسلحة مفزعة ، مثل الصواريخ المضادة للدبابات التى كانت تحيل الدبابات الى لهيب مشتعل « وتعجن » أطقمها داخلها ، الى درجة يستحيل معها التعرف على هوياتهم »

●●●

وبعد ...

فاننى أكتفى بعرض هذه المقتطفات السريعة من اعترافات جولدا مائير ..

وأترك للقارىء قراءة الاعترافات ، كاملة ـ وكما اعدها الاستاذ عزيز عزمى خبير الشئون الاسرائيلية ليعرف كل مصرى .. بل وكل عربى ، حجم النصر الذى تحقق ، وليزداد ـ مع الأيام ـ تقديرنا واعزازنا لاول قائد عربى استطاع أن يصنع النصر لامته ، واستطاع أن يعيد لكل عربى كرامته .

ممدوح رضا



لمركز الدراسات الصحفية :

بقلم : عبد القادر السعدنى

مقدمة

هذا الكتاب على الرغم من أنه كتب كسيرة ذاتية للسيدة جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل السابقة وأحد المؤسسين النشطين لدولة اسرائيل .. فانه يعد مرجعا هاما لتاريخ نشأة اسرائيل ، والصراع العربى - الاسرائيلى من وجهة النظر الاسرائيلية .

وقبل ان نناقش الدعاوى والمبررات التى أثارها الكتاب ، ننبه الى أن جولدا مائير راعت وهى تكتب هذا الكتاب أنه موجه - بالدرجة الاولى - الى القارىء الاوربى والأمريكى ، ولهذا كتبته وفق النمط الدعائى الاسرائيلى ، الذى يصف دولة اسرائيل بانها هذا الكيان الصغير - الذى لا حول له ولا قوة - المحاط بدول تناصبه العداء دون مبررات مقنعة ، وأن اسرائيل منذ الميلاد بل وقبله تسعى الى العيش في سلام مع جيرانها العرب .. لكنها كانت دائما تصطدم بنياتهم العدوانية التى لا ترضى بغير فناء شعبها بديلا !

ومع أن الاستراتيجية السياسية المصرية في المرحلة الراهنة تقوم على معالجة الصراع العربي-الاسرائيلى سلميا..فان هذا لا يسقط أن الدعاوى الصهيونية مازالت قائمة ، وانه يجب مناقشتها بالرأى والحجة ووضعها في الاطار العلمى - التاريخى الصحيح .. ليس لاقناع الصهيونيين أو اليهود بفساد دعاويهم وبالتالى اقناعهم بالتخلى عنها انما الهدف هو أن تكون الرؤيا اكثر وضوحا أمام أبناء الشعوب العربية ..

وتتضح أهمية وضوح الرؤيا هذه ، في أنه في مرحلة ما بعد السلام ، وبعد أن تستتب الأمور ، سينشب ان آجلا او عاجلا صراع حضارى بين العرب والصهيونيين ، سيحاول فيه كل طرف استيعاب الطرف الآخر وترويضه للوصول الى مصالحه ومخططاته المبيتة .. ولن يقتصر هذا الصراع على الحكومات لكنه سيوجه بالدرجة الاولى الى الشعوب ، وستكون اولى مراحله محاولة قهرها فكريا ثم غزوها ثقافيا فاقتصاديا ..

لذلك وغيره .. فان من الاهمية القصوى ان تنشط مراكز البحث المتخصصة والمثقفون لدراسة الفكر الصهيونى دراسة دقيقة ، والكشف عن مخططاته في مرحلة ما بعد السلام ، حتى لا نفاجأ بها ، كما فوجئنا باعلان دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ واندفاعنا الى حرب لم نكن مستعدين لها وبالتالى كانت سببا في كل الويلات المتلاحقة التى عانتها شعوبنا ولا تزال تعانى آثارها .

الدعوى الاولى : اليهود اختاروا الله :

المعروف ان الحركة الصهيونية تقوم على فكرة عودة الشعب اليهودى الى أرض آبائه - الى أرض اسرائيل كما يقال عنها في العبرية - وتقول جولدا مائير : « لكن الجميع حتى الآن ربما لم يدركوا أن هذه الحركة الرائعة (!) انبثقت تلقائيا قرابة نهاية القرن التاسع

عشر ، وفي مختلف ارجاء اوربا في نفس الوقت تقريبا ... فقد كان ما أسموه بالمسألة اليهودية وحقيقتها بالطبع هى المسألة المسيحية ، نتيجة أساسية لكون اليهود بلا وطن ، وأنها لن تحل الا اذا حصل اليهود مرة ثانية على وطن لهم ، وكان واضحا أن هذا الوطن لا يمكن الا ان يكون أرض صهيون ، الأرض التى نفى منها اليهود ق.ل الفى عام ، والتى ظلت مع ذلك مركزا روحيا لليهودية عبر القرون ، وعندما كنت طفلة كانت هذه الأرض وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى مقاطعة مهجورة ومهملة في الامبراطورية العثمانية تدعى فلسطين » .

تقصد جولدا مائير بما أسمته بالمسألة المسيحية ، اعتقاد المسيحيين ان اليهود هم قتلة السيد المسيح ، وبالتالى اضطهاد الاولين للآخيرين .. لكن ألم يكن الأحرى بجولدا مائير أن تتساءل وهى تكتب عن اضطهاد الشعوب وخاصة الاوربية ليهودها ، عن الأسباب الحقيقية لهذا الاضطهاد ؟!

لا شك أنها تعلم علم اليقين ان الخلافات الدينية ليست هى السبب الرئيسى لهذا الاضطهاد ، لكن هناك أسباب أخرى لعل أوضحها ما عبرت عنه هى نفسها عندما قالت : « لا أختلط الا باليهود ، ولم يكن لى صداقات مع غير اليهود ، وبقيت على هذا النحو طيلة عمرى » .

والمثير للدهشة أن غالبية زعماء الحركة الصهيونية ، نحوا منذ نشأتهم هذا المنحى .

فمثلا « بيرل كاتز نلسون » الذى تعتبره جولدا مائير الزعيم الروحى والقائد الموجه للحركة العمالية الصهيونية بلا منازع ، كان يكره الاختلاط بالآخرين الى حد أنه كان يكره الذهاب الى مكتبه عندما كان يشغل منصب سكرتير عام الهستدروت !!

وبن جوريون الذى قالت عنه جولدا مائير : « ان كلمتى « اسرائيل » و « بن جوريون » سترتبطان سويا ربما الى الابد في

أذهان الناس » .. هذا الرجل وصفته جولدا مائير بانه « لم يكن من السهل ان يكون الانسان قريبا اليه ، بل لا أعتقد انه كان قريبا لأحد فيما خلا زوجته باولا وابنته ريناتا .. ، فما لم يكن لديك عمل معه فلن تراه ، لم يكن يحتاج الى الناس مثلنا .. كان لديه اكتفاء ذاتى .. لكنه ايضا كان لا يعرف شيئا عن الناس .. » !!

●●●

اذن فما أسمته جولدا مائير بالمسألة المسيحية ، هى في الحقيقة المسألة اليهودية ، هى قضية انزواء اليهود على انفسهم وانفصالهم عن شعوبهم وأوطانهم .. ثم تسرب الاحساس بالعزلة الى نفوسهم ، وما يتبع هذا الاحساس من ردود أفعال سلوكية واقتصادية مضادة بحثا عن الحماية والقوة .. فانه من غير المنطقى أن تتفق غالبية الشعوب الاوربية المسيحية على اضطهاد أفرادها اليهود ، لمجرد أنهم يهود او بحجة أنهم المسئولون عن سفك دم السيد المسيح .. لسبب بسيط هو أن أوربا ما بعد عصر النهضة قد تجاوزت مرحلة سيطرة الفكر اللاهوتى ، ولم يعد يشغل ساستها وزعماءها الانتقام من اليهود الذين سفكوا دم السيد المسيح .. لكن كان يشغلهم سيطرة اليهود على اقتصاد دولهم والتعامل بما يتنافي مع واجبات المواطنة ..

الأجدر بزعماء الصهيونية العالمية أن يدرسوا لماذا قتل هتلر ما قتل من اليهود ، ولماذا كان يغير القوقاز على مراكز التجمع السكنى لليهود في روسيا القيصرية وغيرها من التجارب أو المحن التى مر بها اليهود في أوطانهم الأصلية بدلا من تركيزهم على مظاهر الاضطهاد ، فقد تفيد تلك الدراسات « شعب » اسرائيل في علاقاته مع جيرانه العرب في مرحلة ما بعد اتفاقية السلام .

أما قول جولدا مائير ان حل المسألة اليهودية لن يكون الا اذا حصل اليهود مرة ثانية على وطن لهم ، وكان واضحا أن هذا الوطن

لا يمكن الا أن يكون أرض صهيون التى كانت على حد قولها حتى نهاية الحرب العالمية الاولى مقاطعة مهجورة ومهملة في الامبراطورية العثمانية تدعى فلسطين .. فان هذا الادعاء مردود عليه بأن فلسطين لم يكن شعبها - في يوم من أيام التاريخ - بالكامل من اليهود او من العبرانيين .

فالثابت تاريخيا ان المنطقة بين شرق الاردن وحتى سوريا كانت تقطنها قبائل عديدة لم يتوافر لأى منها العناصر التى تجعلها قومية واضحة المعالم .. وقد اجمع المؤرخون على أن بنى اسرائيل كانوا من البدو الرعاة البسطاء ، بدأت صلتهم بمصر عندما سمح لهم بدخول شرق الدلتا « ليظلوا أحياء ، وتظل ماشيتهم حية » ، وتشير أحد النصوص الفرعونية القديمة الى انه كانت هناك أيام خاصة يستطيع فيها هؤلاء الاسرائيليون البدو أن يدخلوا بين استحكامات الحدود لترعى ماشيتهم .

●●●

ويقول المؤرخ الامريكى جون ويلسون في كتابه « تاريخ مصر القديمة » :

الأفراد الذين تكونت منهم فيما بعد الأمة العبرية وأخذوا يتقاسمون مصيرا واحدا - وكان يهوه يعمل من أجلهم - أتوا من شعوب مختلفة ، ولكن كانت تجمعهم صلات خاصة فقد أتوا الى مصر كأسرى يعملون فيها ..

وكان بعضهم مثل « الخبيرو » قد ذاقوا لذة الانتصار عندما تمكنوا من عبور نهر الأردن واستولوا على أرض كنعان في أيام العمارنة بمصر ، وعند إعادة بناء الامبراطورية في أيام سيتى الأول ورمسيس الثانى عاد اكثرهم فخضعوا للحكم المصرى .. وجىء ببعضهم الى مصر كأسرى

وأخيرا نجح فريق صغير من بينهم في الخروج من مصر ، وذلك بأن خادعوا فرعونا من الفراعنة ، وهربوا الى صحراء سيناء، وكان ذلك الفريق هو اكثر العبرانيين تمصرا ، وكانت أسماء بعضهم أسماء مصرية مثل : موسى ، هدفنى ، فنحاس ، پوتى ، ايل ، ومن هؤلاء تكونت قبيلة اللاويين الذين وصلوا الى كنعان فيما بعد ، وقد جاء شعب كنعان يحملون ديانة جديدة لإله واحد للجبل والصحراء ، وقالوا انه هو الذى انقذهم من العبودية في مصر .

وفي غمرة الحماس الدينى أخذت شعوب كنعان المختلفة تتحد فكونت تلك الوحدة الضرورية لتكوين شعب واحد ، وأصبح هذا الشعب قادرا على جمع تجاربه المختلفة ، فجعل منها تجربة واحدة كبيرة قائمة على حماية « يهوه » لهم ورضاه عنهم .

ومرت عليهم بضعة قرون وهم يعيشون حياة مستقرة في أرض كنعان ، ومرت ديانتهم بتقلبات الحضارة قبل أن يبحثوا عن أساليب في التعبيرات تشابه ما كان يستخدمه المصريون .

وقد عقد العلامة المؤرخ برستيد في كتابه « تاريخ مصر » مقارنة ليوضح الصلة بين ديانة الفرعون المصرى اخناتون وديانة العبرانيين (اليهودية) ولينتهى الى التشابه بين نشيد اخناتون للإله أتون وبين المزمور ١٠٤ ، مع ملاحظة أسبقية ديانة اخناتون على ديانة العبرانيين بعدة قرون .

ونحن نختار ثلاث فقرات لتوضيح هذا التشابه الكبير .

نشيد آتون	المزمور ١٠٤
وعندما تغرب في الأفق الغربى	عندما تغرب في الافق الغربى
تظلم الأرض كالموت	تجعل ظلمة فيصير ليلا
ويخرج كل أسد من عرينه	فيه يدب كل حيوان الوعر
وكل ما يزحف ، انها تلدغ	الأشبال تزمجر لتخطف
وعندما يطلع النهار وتشرق	الشمس فتجتمع وفي قاويها تربص

في الافق .. تسوق الظلام بعيدا
الانسان يخرج الى عمله ،
يستيقظ الناس ويقفون على أقدامهم
والى شغله في المساء
جميع من في الكون يعملون عملهم
ما اكثر أعمالك ..
ما أعظم أعمالك يارب
انها تخفى عن نظر الانسان
كلها بحكمة صنعت
أيها الاله الأوحد ، الذى لا مثيل له
لقد خلقت الأرض حسب مشيئتك
ملائة الأرض من غناك

وقد قال بعض الباحثين ان هذه التعبيرات المتشابهة تدل على الاشتقاق ، وأن واضع المزامير العبرى كان يعرف نشيد آتون (الشمس) ، وقد قيل انه على الرغم من أن الديانة الاتونية (نسبة الى آتون) تم القضاء عليها قبل كتابة المزامير بستة أو سبعة قرون ، فلابد أن نشيد آتون قد وجد طريقه الى آسيا عندما كان اخناتون في الحكم ، وانه نجا من القضاء عليه عندما ترجموه الى احدى اللهجات السامية .

اذن ففلسطين لم تكن ابدا عبرانية ، وان العبرانيين كانوا شيئا آخر مختلفا تمام الاختلاف عن الفلسطينيين ، بل ان هؤلاء العبرانيين بعد أن غزوا أرض كنعان وبعد أن استقرت لهم الأمور ، اختلطوا بالكنعانيين وحدث تزاوج بينهم مما ينفى الصفة العبرانية الكاملة عن كل يهودى سواء كان شرقيا أو غير شرقى .. بل ان اللغة اليبديش التى يتكلمها بعض غلاة اليهود الاوربيين هى شىء آخر غير اللغة العبرية التى يتكلمها اليهود الشرقيون الذين أجبرهم الحاخامات على تعلمها لانها لغة التوراة والصلاة

بعد ذلك هل يمكن أن تقف وحدة الديانة كعامل حاسم على وجود قومية أو شعب ؟!

ان كان الأمر كذلك لانقسمت شعوب العالم الى قوميات حسب الديانات التى تعتنقها فقط ، ولظل العالم الانسانى يعانى ويلات

التعصب المقيت .. اذن لماذا يجيز زعماء الصهيونية ما هو غير جائز ولا ممكن لأصحاب الديانات الأخرى ؟!!

●●●

ومما يدل ايضا على أن الفكرة الصهيونية لا تمت الى وقائع التاريخ أو الدين اليهودى بصلة .. وأنها مجرد فكرة سياسية حشد لها المفكرون الصهيونيون الأسانيد وبعضهـــا مزور منتهزين عدم اهتمام الرأى العام الاوربى والأمريكى بل وجهله بتاريخ بنى اسرائيل في الشرق وحقيقة صلتهم بفلسطين .. أن بن جوريون نصح جولدا مائير بعد بزوغ نجمها ان تغير اسمها الروسى « جولدا موشى اسحق مابوفتش » الى جولدا مائير العبرى ، وقد جرى نفس المجرى الكثير من الزعماء الاسرائيليين حتى يتقنوا اللعبة السياسية الصهيونية ! وهذا ما تكشفه الكثير من اليهود واعترفت به جولدا مائير ، فهى تقول : « كنت أعلم ان كلارا (أخت جولدا مائير) لن تأتى الى فلسطين (قبل اعلان اسرائيل) لشعورها أنها تنتمى الى الولايات المتحدة الأمريكية ، أما فريد (زوج كلارا) فقد أوضح لى انه يعارض كل أشكال المقومات (الدينية) وأنه ينظر الى الصهيونية على أنها حركة رجعية الى أقصى الحدود »

بل انها كتبت تقول عن زوجها موريس : « كان بطبعه العاطفى أقل تأكدا من الصهيونية منى ، فكان يحلم بعالم يسوده السلام ، أما الحكم الذاتى القومى فلم يكن يستثيره ، ولم يكن يعتقد أن دولة ذات سيادة يمكن أن تخدم اليهود »

وكعادة كل الفلسفات والافكار العنصرية ، فقد لجأت الصهيونية الى ترويج فكرة ان اليهود هم شعب الله المختار ، ولان الفكر المتحضر يرفض الفكر العنصرى الرجعى ، فان جولدا مائير تفضل أن تصف اليهود بقولها : « اليهود أول شعب اختار الله ، وأنهم أول شعب في

التاريخ يفعل شيئا ثوريا ، وكان اختيارهم هذا هو الذى جعلهم شعبا فريدا في نوعه »

وحتى هذا الوصف الأخير نعتقد أنها أخفقت فيه بعد الاسانيد التاريخية التى ساقها كل من جون ويلسون - رغم تعاطفه في كتاباته مع الفكر الصهيونى - وبرستيد

الدعوى الثانية : وعد بلفور واسرائيل

عندما تحدث الرئيس انور السادات في الكنيست الاسرائيلى عن أهمية وعد بلفور في اقامة دولة اسرائيل .. أبدى مناحم بيجين رئيس الوزراء وزعيم كتلة ليكود الاسرائيلية .. بعض التحفظات وقال ان هذا الوعد لم يكن له كل هذه الأهمية .. فهو لا يخرج عن كونه وعدا .. أما الحقيقة الثابتة فهى ان اسرائيل تم تحريرها بنضال الاسرائيليين ..

ونرد على ما ساقه مناحم بيجين بما كتبته جولدا مائير نفسها .. فهى تقول : « وافق موريس - تعنى خطيبها ثم زوجها - على الذهاب معى الى فلسطين ، رغم تحفظاته حول فلسطين ، ولا ريب أن قراره قد تأثر الى حد ما باعلان الحكومة البريطانية في عام ١٩١٧ تأييدها لاقامة وطن قومى للشعب اليهودى في فلسطين . وأنها سوف تستخدم مساعيها لتسهيل تحقيق هذا الهدف . وقد جاء تصريح بلفور - كما سمى لكونه ممهورا بتوقيع جيمس بلفور وزير خارجية بريطانيا آنئذ - في شكل رسالة موجهة الى اللورد روتشيلد .

وقد جاء في الوقت الذى كانت قوات الجنرال اللنبى قد بدأت تغزو فلسطين . وبرغم أن العبارات الغامضة التى جاءت في هذه الرسالة كانت مسئولة عن اراقة الدماء بلا نهاية في الشرق الاوسط ، فان الصهيونيين في تلك الأيام رحبوا بها باعتبارها على الاقل ارساء لقواعد الكومنولث اليهودى في فلسطين . ومن البديهى أن هذا الاعلان

ملأنى بالبهجة .. لقد انتهى النفى اليهودى .. ولا شك أننى وموريس سوف نكون من بين ملايين اليهود الذين سيتدفقون على فلسطين »

•••

وعلى الرغم من أن جولدا مائير كتبت فصلا في هذا الكتاب تحت عنوان « الكفاح ضد البريطانيين » فان الصهيونية نجحت في نقل ٧٠ الف يهودى اوربى الى فلسطين ، كما أن الرئيس الأمريكى السابق هارى ترومان طلب من بريطانيا ان تسمح بدخول مائة الف يهودى أوربى آخرين الى فلسطين في عام ١٩٤٦ ، وعندما كانت تحجز بريطانيا سفنا تحمل المهاجرين اليهود الى فلسطين ، فانها كانت تفعل ذلك ذراً للرماد في عيون الحكام العرب ، اذ سرعان ما كانت تفرج عن تلك السفن وتصل الى فلسطين بحمولاتها !

الواضح أن حكومات أوربا وأمريكا كانت تسمح بهجرة الأفراد اليهود من شعوبها ، ليس على سبيل الشفقة والرحمة او اقتناعا بالفكر الصهيونى ، انما لتلاقى أهدافها الاستعمارية مع الاهداف الصهيونية ثم لحل « المسألة اليهودية » أو المشاكل التى يسببها تقوقع اليهود على انفسهم داخل بلادهم .

فهل من الشفقة والرحمة فقط ان تجمع جولدا مائير من أمريكا على مدى اسبوعين أو ثلاثة وقبل نشوب حرب ١٩٤٨ خمسين مليون دولار لشراء السلاح ، بينما كان الهدف جمع ٢٥ او ٣٠ مليونا فقط ، وهل من الشفقة والرحمة ايضا ان تجمع ١٥٠ مليون دولار أخرى من أمريكا لحساب التسليح بعد توقيع الهدنة الاولى عام ١٩٤٩ بين العرب واسرائيل بينما كان الهدف جمع ٥٠ مليون دولار فقط ؟!

ان أوربا والولايات المتحدة حلت المسألة اليهودية بخلق المسألة الفلسطينية التى تلاقى وجودها مع أهدافها في المنطقة العربية ..

فالقول بأن أمريكا وأوربا زرعا اسرائيل زرعا في المنطقة العربية لاسباب امبريالية قول لا مغالاة فيه .

لكن هل تستطيع اسرائيل ان تنفصل عن تلك الاهداف والأسباب وتعيش في سلام حقيقى مع العرب ؟!

الدعوى الثالثة : الارهاب العربى

في عبارة غامضة كتبت جولدا مائير عن الياهو جولمب (قائد الهاجاناة منذ ١٩٣١ ـ ١٩٤٥) تقول : « لعله مما يدعو الى المرارة أن اكتب عن الياهو جولمب في عالم اثر أن يضفى رونقا على الارهاب العربى ، وأن يدخل الى هيئة الامم المتحدة رجلا مثل ياسر عرفات الذى لا يملك فكرة بناءة واحدة ، او تصرفا يحسب لصالحه ، والذى بصراحة ووضوح ليس الا مجرما عتيدا ، يرأس حركة كرست نفسها فقط لتدمير دولة اسرائيل ، وانه لإيمان عميق لدى ـ بل وعزاء ـ ان بذور فشل الارهاب العربى تكمن في مفهوم الارهاب نفسه » .

شتان طبعا بين الارهاب كارهاب الذى ندينه ونرفضه كخطف الطائرات المدنية وقتل المدنيين الابرياء .. وبين الصاق صفة الارهاب بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وبالتالى شتان بين الارهابى الياهو جولمب قائد الهاجاناة وبين ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ..

فالهاجاناة وكانت التنظيم العسكرى للحركة الصهيونية ، تاريخها حافل بالارهاب وقتل الفلسطينيين الابرياء لدفع الاخرين الى الفرار وترك ديارهم وأملاكهم .. وهى التى دبرت ونفذت قتل الكونت برنادوت مبعوث الأمم المتحدة الى فلسطين .

أما منظمة التحرير الفلسطينية فهى التى أخذت على عاتقها حل « المسألة الفلسطينية » سياسيا وعسكريا ، ولا يمكن أن يدين أحد قيام منظمة جماهيرية تعمل على استرداد حقوق شعبها المغتصبة .

ولعل هذا هو ما يؤرق الزعماء الصهيونيين .. اذ انه يهمهم بالدرجة الأولى ان يتعاملوا مع الشعب الفلسطينى كأفراد ، وليس مع منظمة تتحدث باسم الشعب ككل ..

الدعوى الرابعة : دائما مختلفون :

دائما التاريخ يعيد نفسه بالنسبة للأسلوب الذى تعالج به الحكومات العربية القضية الفلسطينية . فبعد هزيمة ١٩٦٧ اجتمع الملوك والرؤساء العرب في الخرطوم وانتهوا الى : لا صلح ، لا مفاوضة ، لا اعتراف باسرائيل .

ومعنى ذلك انه لا سبيل الى استرداد الأراضى العربية المحتلة إلا بالحرب ، ومعاملة اسرائيل على أنها كيان غير شرعى ويجب تصفيته .. أما كيف ؟ فطبعا بالقتال .

لكن عندما اتخذ الملوك والرؤساء العرب قرارهم هذا ، هل استقرأوا فيه الظروف والعلاقات الدولية في ذلك الوقت . والاكثر من ذلك ، هل كانت العلاقات الشخصية بين غالبيتهم تسمح بوجود تضامن عربى حقيقى يمكن ان يؤدى الى التكامل الاقتصادى والسياسى والعسكرى بين دولهم لتنمية القوة الذاتية العربية للقضاء على اسرائيل ؟

الحقيقة التى كان يعلمها الجميع أنه حتى الاتحاد السوفيتى الذى كان الحليف الأول لمصر وسوريا ومنظمة فتح كان تأييده يقف عند حد استرداد الاراضى المحتلة بعد عدوان ١٩٦٧ ، اما اذا تجاوزنا ذلك فلا شك أنه كان سيقف مساندا اسرائيل .. فما هى المبررات التى جعلت مؤتمر القمة بالخرطوم ينتهى الى اللاءات الثلاثة ؟!

تقول جولدا مائير : « وصلت لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين الى البلاد في مايو ٤٧ ، وكالعادة رفض العرب التعاون معها باى شكل من الاشكال ، بينما تعاون معها الجميع . وقضيت وقتا طويلا مع

أعضاء اللجنة الأحد عشر ، وأفزعنى جهلهم بحقائق الموقف والتاريخ ، وتحتم علينا أن نشرح لهم بسرعة » .

وطبعا استأثر الاسرائيليون بالشرح لاعضاء لجنة الأمم المتحدة في غيبة الفلسطينيين وممثلى الدول العربية ، وبالتالى حاز اقتراح التقسيم على اغلبية سبعة أعضاء .. وكعادة الحكومات العربية رفضت هذا الاقتراح ..

وظل الملوك والرؤساء العرب يتوارثون الرفض دون تقديم حلول ولو مرحلية ، حتى تفاقمت الأمور ولم تعد هناك وسيلة للحل سوى الحرب !

●●●

وأخيرا - وبعد حرب ١٩٧٣ - انتهى مؤتمر القمة العربى بالرباط الى الاعتراف بالواقع الدولى ووافق على مبدأ التفاوض مع اسرائيل مع تحديد استراتيجية واضحة للعمل العربى ..

وعندما اتخذ الرئيس السادات مبادرة السلام لتحريك الجمود الذى طرأ على الاعداد لمؤتمر جنيف .. ارتد الزعماء العرب الى موقف الرفض ، بينما كان الأحرى بهم ان يشجعوا المبادرة طالما وافقوا على مبدأ التفاوض مع اسرائيل ، بدلا من استسلامهم للحلقة المفرغة التى عادت القضية اليها ثم ركونهم الى السلبية .

●●●

ان هذا الكتاب على الرغم من أنه - كما قلنا - سيرة ذاتية لجولدا مائير ولنشأة اسرائيل .. فانه يعد في الوقت نفسه إدانة للأسلوب الذى اتبعته الحكومات العربية في معالجة القضية الفلسطينية ، ذلك الأسلوب الذى اتسم بالتشدد دون ان توفر المقومات التى تمكنها من

فرض ارادتها ، كما أنه يخبىء في كثير من . جـوانبه ان بعـض الزعامات العربية كانت وهى تفكر في حلول للقضية ، كانت تفكر بمعزل عن التأثيرات الدولية على القضية سلبا وايجابا ، في حين اتخذت زعامات أخرى من القضية شماعة لتبرر استمرارها في حكم شعوبها بالحديد والنار ، او لادانة او كبت الأصوات الحرة التى تطالب بالخروج من حلقة التخلف التى عشناها طويلا باسم : ألا يعلو صوت فوق صوت المعركة .

مرة أخرى اننا لا يجب ان نسلم بكل وجهات النظر التى أثارتها جولدا مائير ، لأن كل ما كتبته هو تعبير عن الفكر الصهيونى الذى لم يخجل عن ثنى الكثير من الحقائق لخدمة أهدافه .

عبد القادر السعدنى

قبل أن تقرأ هذا الكتاب

بقلم : عزيز عزمى

هذه قصة حياة جولدا مائير .

المرأة التى وصلت في السلم السياسى في اسرائيل إلى منصب رئيسة الوزراء ... ثم وصلت حياتها السياسية الطويلة إلى خاتمتها أثر انقشاع دخان حرب أكتوبر المجيدة (حرب رمضان) ١٩٧٣ .. بعد أن حطمت أقدام الجندى العربى الشجاع حصون الذل والعار .

ونحن نقدم قصة حياة هذه المرأة ، تماماً كما كتبتها باللغة الانجليزية في ٢٨٨ صفحة تحت عنوان My Life

●●●

ولقد قدم مركز الدراسات الصحفية بمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر ـ في العام الماضى ـ ترجمة لقصة حياة موشى ديان ، وزير خارجية إسرائيل الحالى ، ووزير دفاعها السابق ، وكان عنوانها باللغة العربية « ديان يعترف » .

ونحن نعتقد أن هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم تكملة واستكمال لقصة حياة موشى ديان . فهذان الكتابان لا يصوران فقط دقائق حياة رجل وامرأة (هما موشى وجولدا) . وإنما هما في النهاية ، وفى

واقع الأمر ، بمثابة « سيرة » و« تأريخ » للعمل الصهيونى الدءوب .. على أرض فلسطين ، وفي خارجها .

ولعله مما يزيد في اقتناعنا بأن الكتابين مكملان لبعضهما ، أن جولدا مائير تحكى عن بعض اليهود الذين جرى اسقاطهم خلف خطوط النازى في الحرب العالمية الثانية ، فاذا بهم هم نفس الأشخاص الذين تحدث عنهم موشى ديان في كتابه من قبل . فإذا قيل أن ذلك قد يكون من قبيل الصدف ، فهل هو من باب الصدفة أيضاً أن كتاب جولدا مائير صادر عن دار النشر الانجليزية Weiden Feld 2 Nico-Isor وهى نفس دار الطباعة التى نشرت من قبل كتاب موشى ديان ؟ !!

●●●

ولقد كانت هناك أمام ناظرنا عدة منطلقات وعوامل ، وضعناها في اعتبارنا عند ترجمة واعداد هذا الكتاب .

● أولها : اهتمامنا بتوسيع آفاق المعرفة والادراك أمام القارىء ، وخاصة في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ أمتنا العربية .

● وثانيها : ان الكتاب يضم قصة حياة واحدة من أبرز شخصيات اسرائيل ، ولأننا عندما خضنا معركة استرداد الكرامة في السادس من أكتوبر (رمضان) ١٩٧٣ قد حطمنا جدار الخوف ... فإن هذا العدو لم يعد يرهبنا .. وأصبح واجباً علينا أن نفهمه ونعيه في حجمه الصحيح .. وليس هناك ما يحقق هذا الغرض خيراً من أن ندرس شخصيات القادة الذين حكموه وسيروا أموره ، وفي مقدمتهم جولدا مائير .

● وثالثها : ان جولدا مائير هى رئيسة الوزراء التى كانت تتربع على قمة السلطة في إسرائيل عندما نشبت حرب أكتوبر (رمضان) . وإذا كانت دراسة ابعاد هذه الحرب واحدة من أهم واجباتنا ، فإن أهم

هذه الأبعاد هى الصورة الحقيقة والفعلية للعدو عندما فوجىء بالمارد العربى الجبار وهو يدك قلاعه وحصونه المنيعة في شجاعة مذهلة .. ونحن نعتقد بإخلاص أن ما كتبته جولدا مائير عن حرب يوم كيبور (يوم الغفران) ، واستهلته بقولها ان تلك الأيام كانت أقسى أيام عمرها ، أمر جدير بأن ندرسه جيداً .. وبعمق ..

● ورابع هذه العوامل : ان هذا الكتاب يعرض تاريخ حياة واحدة من أكثر الناس وأشدهم حقداً على العرب ، وانكارا لحقهم في أرض فلسطين . افليست هى التى قالت « انه لا يوجد شعب اسمه الشعب الفسطينى » ؟ .. بل انها في هذا الكتاب تصف صهاينة عتاة أمثال بن جوريون واسحق بن زفى بأنهم « هم الفلسطينيون » .

● وخامسها : ان الكتاب يرسم أوضح صورة للمخطط المنظم والجهود المتواصلة التى بذلتها الحركة الصهيونية من اجل السيطرة على أذهان يهود العالم ، ودفعهم للهجرة إلى فلسطين ، ثم احتلالها وانشاء « الدولة » فيها .

ويكاد المرء لا يستغرب أن يكون « العدوان » والنزعة العدوانية هى السمة الأساسية في المجتمع الإسرائيلى الذى قاده زعماء أمثال جولدا مائير ، التى تصف أباها في الفصل الأول من الكتاب بأنه « طيب » ولذا فهو في نظرها « فاشل » .

●●●

غير أن قراءة هذا الكتاب تشبه المشى على الشوك حافياً .. فهى تحتاج إلى الكثير من الحرص والوعى والادراك المتفتح ..

إذ أن جولدا مائير قد وضعت فيه كل الادعاءات والأباطيل الصهيونية الكاذبة .

ولو كنا غير امناء لحذفنا كل هذه الادعاءات والأكاذيب ، لكننا نطرحها كما هى ، وبألفاظها وأوصافها التى كتبتها بنفسها ، انطلاقاً من الثقة الهائلة التى استردها لنا الجندى العربى وهو يعبر بأقدامه حصون العدو المنيعة في حرب العاشر من رمضان المجيدة .

وحتى يسهل على القارىء العربى عبور بحر الأشواك الذى يضمه هذا الكتاب ، فإننا نستميحه عذراً في أن نقدم له بعض الملاحظات حول ما سوف يقابله في كل فصل من فصول تلك القصة التى كتبت بأسلوب روائى اختلطت فيه السيرة الشخصية ، بتفاصيل العمل الرسمى ، بوقائع الاستيلاء على الأرض والوطن من أصحابها الشرعيين .

ومجموعة الملاحظات هذه راعينا فيها أن نضع يد القارىء على السموم الكثيرة التى حفل بها الكتاب ، وأن « نتصيد » بعض المواقع التى يمكن فيها مهاجمة جولدا مائير وافحامها بنفس كلماتها أو تفنيد ادعاءاتها .. فصلا فصلا .

●●●

في الفصل الأول :

● المدخل إلى الكتاب رهيب .. فهو يتحدث على لسان جولدا « الطفلة » عن المذابح البشعة وانتظار الموت .. وهو الأسلوب الصهيونى الذى يستدر عطف الناس ويستجدى تعاطفهم مع اليهود في « محنتهم » .

● وجولدا لا تقبل القول بأن اليهود هم شعب الله المختار ، وانما ترى أن اليهود هم الذين اختاروا الله !!

● وهى تبرر احقية اليهود بفلسطين على أساس انهم قد نفوا منها منذ ٢٠٠٠ عام .. ولو أن هذا المنطق المعوج ساد لكان من حق العرب أن يعودوا إلى اسبانيا .. بل ان هذا السبب كفيل بإعادة الفلسطينيين إلى أرضهم فهؤلاء قد طردوا منها منذ ٣٠ عاما فقط ، لا الفين .

● وتنفى جولدا في حديثها واحداً من الادعاءات الصهيونية التى كانت تحاول ايهام العالم بأن المذابح التى جرت في روسيا القيصرية كانت هى السبب في هجرة اليهود إلى فلسطين . « وشهد شاهد من أهلها » .

●●●

في الفصل الثانى :

● النزعة التجارية لدى اليهود واضحة .. فأم جولدا لا تعرف كلمة انجليزية واحدة ، ولا عملت في دكان من قبل ، ولا تدرى شيئا عن السوق ، ومع ذلك فإنها بعد اسبوع من وصولها إلى ميلووكى تفتتح دكاناً .

● واذا كانت جولدا تتحدث عن مساعى انشاء اسرائيل ، فإنها تحكى عن الوطن القومى اليهودى الذى يريد الصهاينة (ان يخلقوه) في فلسطين .. أى أنه شىء مزروع .. دخيل .. وغير موجود اساساً . بل انها تقول أن أبرز شاعرة عبرية لم تكن تعرف حرفاً عبرياً واحداً عندما جاءت إلى فلسطين .

●●●

في الفصل الثالث :

ان رئيسة وزراء اسرائيل ، التى كانت تصدر القرارات بهدم أى بيت عربى يساعد فدائيا فلسطينياً ، قد نشأت في بيت كانت امها فيه تفتح الأبواب لايواء واعداد اى يهودى يهاجر إلى فلسطين للانضمام للفيلق اليهودى .

● وهى ـ كعادتها ـ تلوى الحقائق فتقول ان بن جوريون وبن زفى فلسطينيان .. في حين انهما ولدا من اباء مهاجرين إلى فلسطين ..

● وتعترف بأنها لم تعرف او تخالط سوى اليهود في ميلووكى ، ولم يكن لها اصدقاء من غير اليهود ، وانها ظلت على هذا النحو طيلة حياتها . وليس بعد ذلك من دليل على العنصرية المتأصلة فيها .

● ثم لماذا لم يقبل طلب جولدا للالتحاق بالفيلق اليهودي ؟ لأن المخطط الصهيونى كان يقضى في البداية بتجنيد الرجال فقط لكى يقاتلوا في فلسطين مع البريطانيين ، وبعدها يقاتلون لتحقيق الوطن القومى .

وتعترف جولدا بأن وعد بلفور ليس سوى (مجرد خطاب) من وزير خارجية بريطانيا إلى الثرى اليهودى روتشيلد .. أى أنه مجرد ورقة لا تمثل وثيقة ولا تلزم احداً اخر بها ، أو كما وصف « لقد أعطى من لا يملك وعداً لمن لا يستحق » .

● وهى تصف انطباعها عن أول مرة تشاهد فيها (الشرق الأوسط) فترسم صورة جموع الشحاذين بأسمالهم البالية والذباب يغطيهم . الغريب أن يصدر هذا الوصف منها وهى التى جاءت إلى المنطقة لا تملك شروى نقير ومرض السل يفتك بها . ولا يجب أن يغيب عن اذهاننا انها في كتابها تخاطب العالم الغربى ، ومن هنا فهى تريد

تشويه صورة المنطقة ليسهل عليها بعد ذلك وصف « الحضارة والتمدن » اللذين جاءا للمنطقة مع مجيء اليهود المهاجرين .

● ● ●

في الفصل الرابع :

● حتى المهاجرين (الرواد) الأوائل ، هاجر بعضهم تاركاً فلسطين بعد أن قضى فيها عامين .. وذلك دليل على فشل المخطط الصهيونى منذ بدايته .. ولا ننسى ان الهجرة المضادة من اسرائيل إلى الخارج حتى الآن لا تزال قائمة وباعداد كبيرة .

● الحديث عن الشجرة الصغيرة التى تنبت وسط الصحراء ، مقصود ، لانها تحكى بعد ذلك كيف قررت هى وزملاؤها مغادرة الفندق الذى اقاموا فيه لكى يضربوا جذورهم في الأرض مثل الشجرة .

● تطالب جولدا باسقاط ما تسميه بالادعاء بأن اليهود سرقوا أرض فلسطين . لماذا نسقط هذا الادعاء ، وهى نفسها تقول ان اليهود كانوا يشترون الأرض بالمال منذ ١٩٠٥ ؟

● تتولى جولدا مائير الرد على من يدعون أن الفلسطينيين باعوا أرضهم لليهود ، فهى تقول ان كل أراضى وادى جزريل قد تم شراؤها من عائلة واحدة غنية كانت تقيم في بيروت .. اذاً فلم يبع الفلسطينيون أرض بلادهم ، والدليل على ذلك أن تقرير حكومة الانتداب البريطانية عام ١٩٤٦ يؤكد أن كل ما اشتراه اليهود من أرض فلسطين حتى ١٩٤٥ لم يتعد ٥,٦ ٪ من مجموع أراضى فلسطين ، برغم الاسعار العالية التى كان اليهود يعرضونها لشراء الأراضى .

● ● ●

في الفصل الخامس :

● هذه صورة المجتمع اليهودى في فلسطين : تحصل جولدا على سند قيمته ١٠٠ قرش ، يأخذه منها البقال ويعطيها سندات قيمتها ٨٠ قرشا ، تبيعها بعد ذلك إلى بائعة الدجاج مقابل دجاجة ثمنها ٦٥ قرشا . هذا ليس الا مجتمع المرابين اليهود الذين يستفيدون من بعضهم مادياً .. تلك هى الحقيقة ، اما الرواد والطلائع والمثل الصهيونية .. فكلها غطاء وستار للأهداف المستترة .

● وتتحدث عن حائط المبكى بقولها انه بقايا معبد سليمان . طبعاً لا تريد جولدا ان تعترف بتقرير اللجنة الملكية البريطانية الصادر عام ١٩٢٩ والذى اعترف بأن الحائط الغربى (المبكى) هو من املاك المسلمين . لكننا نسألها : ما رأيها في الموسوعة اليهودية التى تقول ان هذا الحائط هو الحائط الخارجى لمدينة القدس وأنه لا يمثل بقايا أى معبد مقدس ؟!

● ما هو معنى النصيحة التى وجهها إلى جولدا ورفاقها زعيمهم بيرل بقوله : لا توافقوا على مشروع تقسيم فلسطين حتى لا تسجل عليكم موافقتكم وتستخدم ضدكم ؟ انها تعنى ان مخطط الاستيلاء على كل فلسطين كان جاهزا على الدوام ، وكان يحدد كل تصرفاتهم والا لوافقوا على التقسيم .

●●●

في الفصل السادس :

● يرى زوج اختها كلارا أن الصهيونية (حركة رجعية إلى أقصى الحدود) . وسبق لزوجها أن أكد لها أنه يرى من السخف تقبل ظروف الحياة الصعبة لمجرد أسباب ومبررات عقائدية فقط .

● ترى جولدا أن هتلر كان سيئاً لأنه حرم يهود المانيا من حقوقهم المدنية والسياسية . ونحن نسألها : لماذا أحلت اسرائيل لنفسها ما تراه حراماً على هتلر ؟ اليس الفلسطينيون الآن ممنوعون من ممارسة أى حق سياسى كالترشيح وتكوين الاحزاب السياسية .. الخ !!.

● وهى تدعى أن الحالة الاقتصادية في فلسطين كانت سيئة ، فكيف يستقيم ذلك مع قولها أن مستوى معيشة عرب فلسطين كان أعلى من مستوى العرب كلهم ، بل وأن عربا كانوا يهاجرون إلى فلسطين ؟ .

● تقول مائير انها اكتشفت ، وهى في ايفيان أنه (لا يكفى لشعب ضعيف أن يعرض فقط عدالة قضيته !) .. وهنا نهمس في اذنها : اليس هذا هو ما يفعله الفلسطينيون اليوم ؟ فلماذا تستبيح لنفسها هذا الحق وتنكره على ابناء فلسطين ؟

●●●

في الفصل السابع :

● تستخدم جولدا بمهارة أسلوب الدعاية الصهيونية المضللة .. فهى تقول ان كل ما كانوا يطلبونه من بريطانيا هو أن تسمح بادخال أكبر عدد ممكن انقاذه من الناجين من النازى إلى فلسطين ومن الواضح طبعاً أن كل ما كان مطلوباً في هذه الفترة هو ادخال أكبر عدد ممكن من اليهود إلى فلسطين تمهيداً لاحتلالها واعلان الدولة ، ففى الفصل قبل السابق تحدثت جولدا عن الحاجة الملحة إلى إعلان الدولة اليهودية اثناء مؤتمر فيلادلفيا .. وهى تقول ان شاريت كان ينظر إلى نفسه منذ عام ١٩٣٣ على أنه وزير خارجية الدولة اليهودية عند قيامها . باختصار كانت الدولة اليهودية في مخيلتهم امام انظارهم طول الوقت .

● تعمدنا أن نترجم رأى جولدا في ياسر عرفات ترجمة حرفية لكى يعرف القارىء رأيها الحقيقى في الفلسطينيين .

● اما حديثها عن محاكمة ايخمان فإنه يتعدى حدود التبجح والصفاقة .

● يحكم اسرائيل الآن مناحم بيجين الرئيس السابق لمنظمة الارجون زفاى ليومى ، ولعله يجدر بنا هنا أن نلفت النظر إلى الحكم الذى اصدرته جولدا على هذه المنظمة بقولها « ان جماعتى الشتيرن والارجون مخطئتان، وهما بالتالى خطر على الشعب اليهودى من البداية إلى النهاية » .

●●●

الفصل الثامن :

● نحن نورد حديثها عن مقابلاتها مع الملك عبد الله ، انطلاقا من مبدأ الامانة في نقل كتاب مائير كاملاً إلى القارىء العربى ، اما الحكم على صحة حديثها أو عدمه فأمر بعيد عن اختصاصنا .

● وحتى لو سلمنا ، جدلا بصحة حديثها هذا ، فعلينا أن ننظر بتمعن إلى المدخل الذى استخدمه اليهود للتقرب اليه ، إذ تقول له مائير : نحن اليهود حلفاؤك الوحيدون .. ثم يفصلون بينه وبين شعبه ، فتنصحه بالا يصلى في الجامع ولا يسمح لرعيته بتقبيل طرف ردائه .

● الغريب أن إعلان قيام الدولة اليهودية ، التى استغلت الدين اليهودى ذريعة لقيامها ، قد رفض بعض القادة التوقيع عليه لانه يذكر كلمة (الرب) الذى لا يؤمنون هم بوجوده .

● عندما يقول العرب ان هناك (مخططا صهيونيا مرسوما) فذلك عين الحق ، وإلا فليقل لنا احد كيف يمكن ان يكون قيام (دولة محسوبا إلى هذه الدرجة ؟ فلقد قامت الدولة بعد خمسين عاما من المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ ، وقد قال هرتزل من قبل ان من يعش خمسين عاما يرى الدولة اليهودية !!

● هنا تعترف جولدا بأن معسكرات اليهود الناجين من النازى كانت تجرى فيها تدريبات عسكرية على حمل السلاح .. اذاً فهذا هو سر الحاح القادة على تهجير هؤلاء اليهود إلى فلسطين للاشتراك في تنفيذ المخطط المرسوم .

●●●

في الفصل التاسع :

● لا نعتقد ان احداً سيصدق ما تقوله مائير من ان زوجة مولوتوف (وزير خارجية ستالين) قد القى القبض عليها لانها تحدثت اليها في حفل عام .

● حديث جولدا عن أول انتخابات تجرى في اسرائيل يؤكد أن هذه (الدولة) عنصرية منذ مولدها ، بدليل قيام حزب خاص باليهود الشرقيين (السفارديم) أى أن العنصرية ليست ضد العرب فحسب بل ضد اليهود انفسهم .

● تتحدث مائير عن مهاجرى عام ١٩٤٨ بازدراء فتصفهم بأنهم مرضى .. جهلة .. معدمون .. وهنا نسألها ، الم يقل إعلان قيام الدولة ان اسرائيل (ملجأ لكل يهود العالم) ؟ أم انها تريد فقط ان تكون الدولة ملجأ لليهود الاغنياء فقط ؟!

● كم كان سهلاً على قادة اسرائيل ــ ومازال ــ ان يواجهوا مشاكل قيام الدولة ، والمثال على ذلك ما تقوله جولدا من انها لم تجد مأوى

لاسكان ٦٨٠٠ مهاجر جديد ، فقررت التوجه إلى امريكا لجمع التبرعات والأموال اللازمة لمثل هذه المهمة ٠

● تدعى مائير ان قادة العرب نصحوا الأهالى بمغادرة أراضيهم ، وأن عربات تحمل مكبرات الصوت يقودها يهود كانت تقول للعرب لا تخافوا ولا تغادروا أراضيكم ومما هو جدير بالذكر أن أرسكين تشايلدرز عكف على تسجيل جميع اذاعات العالم في تلك الفترة فلم يعثر فيها على نداء واحد وجهه قائد عربى للأهالى بالهجرة ٠ بل انه يشهد بأن عربات اليهود كانت تطوف بالاحياء العربية ، حاملة مكبرات الصوت ، وهى تحذر العرب من أنهم ان لم يهاجروا فسوف يلاقون نفس مصير دير ياسين ٠

●●●

في الفصل العاشر :

● ها هى نصيحة بن جوريون لدولة اسرائيل: « الرأى العام العالمى بل والرأى العام أمور غير مهمة ، وسوف يحكم التاريخ على اسرائيل بسجل اعمالها لا بعدد المقالات المؤيدة لها في الصحافة العالمية » ٠ وواضح أن اسرائيل تتبع هذه النصحية حتى الآن بكل اخلاص ٠

● لا تذكر مائير اسم جمال عبد الناصر الا في الثلث الأخير من كتابها ، وبالتحديد في صفحة ٢٤٣ ، ولا تنسى طبعاً أن تسبق اسمه بلقب « البكباشى » ٠

● تمر جولدا على معركة سيناء عام ١٩٥٦ مرور الكرام ، بل وفي فقرتين فقط ، في حين أن موشى ديان يحكى عنها في كتابه في ثلاثة فصول ٠

● مرة أخرى تثير جولدا الادعاءات الصهيونية فتقول انها وجدت احوال اللاجئين الفلسطينيين مهينة وانه كان من الواجب اعادة توطينهم في أى بلد في الشرق الأوسط . هكذا تفترض الدعاية الصهونية السذاجة والغباء في المستمعين اليها .. ونقول لها انه كان من السهل على اية دولة عربية ان تعيد توطين اللاجئين الفلسطينيين فيها ، لكن الم يكن ذلك كفيلاً بتفصية المشكلة الفلسطينية ؟

●●●

في الفصل الحادى عشر :

● تشتكى جولدا من المعاملة السيئة التى تلقاها اسرائيل من الأمم المتحدة (برغم أننا أول مولود للأمم المتحدة) . ونحن نقول لها الم تعلن اسرائيل العصيان على الأمم المتحدة منذ اللحظة الأولى ؟ الم يربط قرار الأمم المتحدة قيام دولة اسرائيل بشرط تنفيذ القرارات الصادرة بشأن فلسطين من قبل ؟ وهل نفذت اسرائيل حتى الآن قرارا واحداً للمنظمة التى أنشأتها ؟

● بكل الخجل تحاول مائير تبرير قيام الدول الافريقية بقطع علاقاتها باسرائيل .

● مازالت معالم المخطط الصهيونى تتضح ، وتتأكد دقة تنفيذ خطواته .. فمحاولة التسلل الاسرائيلى لافريقيا تبدو في حقيقتها تنفيذاً للامنية التى عبر عنها هرتزل عندما تمنى ان يساعد على خلاص الافريقيين وتحررهم !!

●●●

في الفصل الثاني عشر :

● في هذا الفصل تتضح مشاعر جولدا تجاه ديان ، والتى تتلخص في كراهيتها له ، وان كان تعبيرها عن هذه المشاعر مهذبا . فهى تقول مثلا ان اشكول ، عندما كان وزيرا للدفاع عام ١٩٦٧ ، قد (أعد الجيش للمهمة المطلوبة دون دعاية أو ضجيج ودون أن يلفت اليه الأنظار) .. وواضح هنا انها تنفى الفضل عن ديان فيما حققه الجيش الاسرائيلى عام ١٩٦٧ ، وتنسبه الى اشكول ، دون أنتنسى التلميح الى حب ديان للدعاية والظهور .

● تدعى مائير أن القدس تحت الحكم الاسرائيلى أفضل حالاً مما كانت عليه تحت الحكم العربى . ولعل القدس تشهد الآن أن ما تفعله اسرائيل فيها لم يسبق حدوثه من قبل .. فالحفائر الاسرائيلية قد وصلت الى قاع القدس القديمة .. والمسجد الأقصى تعرض للحرق .. وتاج السيدة العذراء سرق .. والآثار والأوقاف تم هدمها لتوسيع ساحة حائط المبكى فأصبح امامه ميدان فسيح بدلاً من شارع ضيق عرضه أربعة أمتار ..

● تدعى ان اسرائيل حافظت بعد ١٩٦٧ على القوانين المحلية والقادة المحليين .. ترى هل نسيت جولدا ان اسرائيل اعلنت ضم القدس اليها في نفس شهر يونيو (حزيران) ٦٧ ؟ وانها بادرت إلى تغيير الادارة المحلية وطردت عمدة القدس العربى بل وغالبية الشخصيات القيادية فيها ؟

● تسهب مائير في الحديث عن قرار مجلس الأمن ٢٤٢ مستندة الى النص الانجليزى الذى دار الخلاف حول ما جاء فيه عن انسحاب اسرائيل من أرض محتلة «Teyritovies» أو الأرضى المحتلة «The tyritories» هذا في حين أن النص الفرنسى للقرار يذكر بصراحة كلمة « ال » أراضى المحتلة !!

●●●

في الفصل الثالث عشر :

● تكذب جولدا عندما تقول ان اسرائيل لم تكن لها مصلحة في اسقاط حكم جمال عبد الناصر .. بل ان موشى ديان يكذبها في كتابه عن قصة حياته عندما يقول ان واحدا من اهداف اشتراك اسرائيل في عدوان ١٩٥٦ كان اسقاط عبد الناصر .

● وعندما تتحدث عن رحيل جمال عبد الناصر ، فانها تكتفى بقولها : (توفى عبد الناصر في سبتمبر) .. هكذا فقط !! ان فترة حكم عبد الناصر بكل انعكاساتها على اسرائيل ، قد دفعت حتى موشى ديان الى الاطالة قليلاً عن ذلك في الحديث عن وفاته .

● تحاول مائير أن تبين أن عملية الاستيطان اليهودى في الأرض المحتلة ، عملية بريئة طاهرة . فاذا كان الامر كذلك ـ علماً بأن ذلك غير صحيح ـ فلماذا هذه الحمى في الاستيطان وزرع المستعمرات في الأرض المحتلة ، بل لماذا يتم تغيير الاسماء الغربية للاماكن التى تقام فيها المستوطنات ، وتطلق عليها أسماء عبرية بل والاسماء التى كانت تسمى بها ايام داود وسليمان ؟!

● أما منطقها في الحديث مع البابا في الفاتيكان ، فأقل ما يوصف به أنه (صفيق) .

●●●

في الفصل الرابع عشر :

● لعل هذا الفصل الذى تتحدث فيه مائير عن حرب يوم الغفران يعتبر واحداً من أصدق الشهادات التى صدرت حتى الآن عن فداحة الضربة التى هزت اسرائيل ومدى تأثير تلك الحرب العربية عليها .

● تقول مائير ان عائلات المستشارين الروس غادرت المنطقة قبل الحرب ، وتصحيحا لمعلوماتها نقول لها أن الروس أبعدوا ، لأن العرب قرروا أن يخوضوا معركتهم بأنفسهم غير معتمدين على أحد .

● تقرر جولدا بكل صراحة انها قررت اخفاء حقيقة ما حدث في الأيام الأولى للحرب عن شعبها !!

● أولئك الذين ينتقدون قبول مصر لوقف اطلاق النار عندما بدأ واضحاً انها لا تحارب اسرائيل وانما تحارب امريكا ، ننصحهم بأن يقرأوا في هذا الفصل ما قالته مائير في وصف الجسر الجوى الامريكى وكيف ادى الى انقاذ اسرائيل .

● في هذا الفصل تكشف مائير بصراحة عن مشاعر الكراهية المتأصلة لديها ضد ديان .

●●●

في الفصل الخامس عشر :

● تعترف مائير بما كان يسمى « حكومة المطبخ » ، حيث كانت تجمع ثلاثة أو اربعة من رفاقها المقربين في الحكومة ، ويتم في مطبخ بيتها اتخاذ القرارات الهامة والمصيرية .

● واضح في هذا الفصل انها تقف ضد موشى ديان على طول الخط ، وانها تناصر رئيس الأركان .

● مازالت جولدا تفكر في اسرائيل المستقبل بعد ألف عام ، على انها دولة يهودية صرفه !!

● كأنها في ختام كتابها تأبى الا أن تحتقر العالم كله ، فتقول : « لا يهمنا العالم والدول الكبرى ، وما يهم فقط هو رؤيتنا نحن الاسرائيليين » . وعندما تتحدث عن السلام ، فانها تقرنه بضرورة توفر عنصر القوة لدى اسرائيل .. حتى السلام بالقوة !!

●●●

وبعـد :

فها هو الكتاب الذى خطته جولدا مائير بيدها بين يدى القارىء ، بكل ما حواه من سموم ، وبكل ما ضم بين دفتيه من ادعاءات واباطيل ..

وهو ـ كما قلنا ـ ليس فقط مجرد قصة حياة أمرأة يهودية وصلت الى قمة السلطة في اسرائيل الدولة ، انما هو ايضاً ـ وفي الاساس ـ قصة قيام هذه الدولة .. وحقيقة افكارها وسياساتها ..

نقدمه للقارىء بكل شجاعة وجسارة حرب رمضان .. نقدمه له لكى يعرف عدوه على حقيقته ..

انه ليس مجرد كتاب ، وليس مجرد قصة ..

انه درس وعبرة لابد لكل عربى ان يفحصها بامعان وتؤدة ..

وليس عيبا أن نعلم عن اسرائيل ، وأن نتعلم عنها .. لكن العيب أن نعطيها أكثر مما تستحق .. صحيح اننا لا نستهين بها ، لكننا لا نهابها ، بل ولم نعد نخشاها .. بعد أن حطمنا كبرياءها وغرورها ، وعبرنا حصونها ، وهدمنا قلاعها ..

الفصل الاول

طفولتى

لم يبق في ذاكرتى الا القليل عن سنوات طفولتى المبكرة . خلال السنين الثمانية الاولى من عمرى ، وهى السنين التى يسمونها الآن بالسنين التى تتشكل فيها الشخصية • ومادام الامر كذلك ، فان من المؤسف اننى لا احتفظ باية ذكريات سعيدة او سارة عن تلك الفترة • وعلقت في ذهنى ـ خلال الاعوام السبعين التى عشتها ـ ذكريات تتصل بالمصاعب التى عانت منها عائلتى ، بالفقر ، بالبرودة ، بالجوع ، بالخوف • ولعل ابرز ما علق بذاكرتى هو اننى خائفة •

كنت في الثالثة والنصف او الرابعة من عمرى ، وكنا نعيش في الطابق الاول في منزل صغير في كييف • ومازالت ترن في اسماعى بوضوح تلك الاحاديث عن مذبحة سوف تحل بنا • ولم اكن اعى بالطبع ما هى المذبحة . لكننى كنت اعرف انها تتصل بكوننا يهودا ، وبالرعاع الذين يجتاحون المدينة ، ملوحين بالسكاكين والعصى وهم يصيحون « قتلة المسيح » خلال بحثهم عن اليهود ، وبهؤلاء الذين سيقترفون ضدى وضد عائلتى اشياء رهيبة •

واذكر الان كيف وقفت على السلالم المؤدية الى الطابق الثانى ، حيث كانت تسكن عائلة يهودية اخرى ، ممسكة بيدى ابنتهم الصغيرة ، ونحن نرقب والدينا وهما يحاولان سد المدخل بالالواح الخشبية • صحيح ان هذه المذبحة لم تتم . لكننى مازلت حتى يومنا

هذا اذكر مدى الرعب الذى اجتاحنى ومدى الغضب الذى استبد بى لان والدى لم يجد شيئا يفعله لحمايتى سوى دق الالواح الخشبية بالمسامير في انتظار وصول الاوغاد · ومازلت اذكر - فوق ذلك كله - ادراكى بان ذلك يحدث لا لسبب الا لكونى يهودية . وهو ما يجعلنى اختلف عن اقرانى من الاطفال الاخرين · ولقد مر بى هذا الشعور كثيرا خلال حياتى .. الخوف . الاحباط . الوعى بالاختلاف . والايمان الغريزى العميق بان الفرد اذا اراد البقاء على قيد الحياة . فلا بد له من ان يتخذ تحركا فعالا بنفسه لتحقيق ذلك ·

كذلك فاننى اذكر بوضوح شديد كم كنا فقراء · لم يكن هناك اطلاقا الكفاية من اى شىء . لا الطعام ولا الدفء ولا الملابس · واذكر - بدون اى مجهود - صورتى وانا اجلس في المطبخ اراقب امى وهى تطعم أختى الصغرى - زيبكا - العصيدة التى تخصنى . والتى كنت اكره ان يشاركنى فيها احد حتى ولو كان طفلا · ثم مرت الاعوام لامر بنفس التجربة مع اطفالى في محاولة لتحديد ايهم يأكل اكثر من الاخرين ·

لكننى في هذا المطبخ في كييف . عرفت - بالطبع - ان الحياة قاسية وانه لا يوجد عدل في اى مكان ·

كان والداى قد حلا في كييف مؤخرا فقد التقيا وتزوجا في بينسك . حيث كانت عائلة امى تعيش · وفي عام ١٩٠٣ عدنا جميعا الى بينسك عندما كنت في الخامسة من عمرى · ولد ابى في اوكرانيا لكنه ادى الخدمة العسكرية في بينسك . حيث رأته امى في الطريق واحبته من اول نظرة . وكان ذلك كافيا لكى تقنع ابويها بالموافقة على زواجهما رغم ان ابى يتيم الابوين ولم يكن يملك شروى نقير · لكنه لم يكن جاهلا . فقد درس في صباه في يشيفا (وهى دورة يهودية

دينية . وكان يعرف التوراة . وتلك امور لاقت هوى في نفس جدى .

كان ابواى يختلفان عن بعضهما الى حد كبير . فأبى - موشى اسحاق مابوفتش - كان رجلا دقيق الملامح .. متفائلا .. يؤمن بالناس الا اذا اخطأوا في حقه . وتلك سمات تعنى ان حياته لاتتصف بالفشل اما امى - بلوم - فكانت شقراء .. جميلة . مليئة بالطاقة والحيوية .. وكانت مثل ابى متفائلة .. اجتماعية . وكان منزلنا يمتلىء في امسيات كل يوم جمعة بالاقارب والاصدقاء . ومازالت امام ناظرى جموع العمات والخالات واولاد العمومة والخالة الذين لم ينج منهم احد من المذابح . وهم يجلسون حول مائدة المطبخ يحتسون الشاى في ايام السبت والعطلات وهم يغنون ساعات طويلة ..

ولم يكن بيتنا متدينا . لكن ابواى كانا يؤديان الطقوس اليهودية التقليدية . فكان الطبخ يتم بطريقة (الكوشير) وكنا نحتفل بالاعياد اليهودية . ولم يلعب الدين - بهذا الشكل - اى دور في حياتنا . ولا اذكر اننى كطفلة فكرت كثيرا في الله او الصلاة له . رغم اننى عندما كبرت - وكنا قد انتقلنا الى أمريكا - كنت اناقش امور الدين مع امى . واذكر انها ارادت في احدى المرات ان تثبت لى وجود الله فقالت لى « لماذا تمطر السماء او تهطل منها الثلوج مثلا ؟ » فشرحت لها ما تعلمته في المدرسة عن المطر . فقالت لى « حسنا يا جولديلا . مادمت حذقة الى هذا الحد . فانزلى المطر » ولم احر جوابا . اما فيما يتعلق بكون اليهود شعب الله المختار . فاننى لم اقبل ذلك قط . وبدا لى - ومازال يبدو لى - اكثر معقولية الا نؤمن بان الله اختار اليهود . وانما ان اليهود هم اول شعب اختاروا الله . وانهم اول

شعب في التاريخ يفعل شيئا ثوريا بحق . وكان اختيارهم هذا هو الذى جعلهم شعبا فريدا فى نوعه ·

وعشنا على هذا النحو بنفس الاسلوب الذى عاش به اليهود في مدن وقرى اوربا الشرقية · فكنا نذهب الى الشول (المعابد) في الاعياد وايام الصوم . وكنا نتبارك بيوم السبت . ونحتفظ بتقويمين احدهما روسى والاخر يتعلق بالارض البعيدة التى نفينا منها قبل الفى عام . والتى بقينا نحافظ على عاداتها القديمة ونحن في كييف او بينسك ·

وقد انتقل والداى الى كييف عندما كانت اختى شينا (التى تكبرنى بتسعة اعوام لا تزال صغيرة · ورغم ان كييف تقع في المناطق الروسية التى كان ممنوعا على اليهود ان يعيشوا فيها . فان ابى لكونه نجارا جيدا كان بمقدوره الحصول على تصريح بالعيش فيها فيما لو اجتاز اختبارات هذه المهنة · فصنع مائدة للشطرنج . اجتاز الاختبارات . وانتقلنا الى كييف يحدونا الامل · والتحق والدى بعمل في الحكومة . يصنع الاثاث لمكتبات المدارس . بل وحصل على منحة مالية . استطاع بها - وبقروض اخرى - ان يبنى ورشة للنجارة · ثم تبخرت الامال - كما يقول ابى - لكونه يهوديا . ولان معاداة السامية تركزت في كييف · وضاع العمل . ونفذت النقود . وتحتم دفع القروض · وهكذا وقعت الازمة ابان طفولتى ·

وبدأ ابى يبحث عن عمل . فكان طوال اليوم خارج البيت . ولا يعود الا ليلا فلا يجد طعاما . فيكتفى بالخبز والسمك المملح · اما امى فكانت لديها همومها هى الاخرى ؛ اذ مرض ابناؤها الاربعة وبنتها · ومات اثنان منهم قبل ان يبلغا العام من عمرهما ومات اثنان اخران خلال شهر واحد · وكغيرها من الامهات اليهوديات في ذلك الجيل . فانها تقبلت مشيئة الله · وما ان توفى اخر اطفالها حتى

عرضت عليها احدى الاسر الغنية العمل كمربية لطفلها • واشترطت هذه الاسرة ان ينتقل ابواى واختى شينا الى غرفة انظف واوسع وان تتلقى امى مبادىء تربية الطفل على يد ممرضة خاصة • وهكذا ، وبفضل هذا « الابن بالتبنى » تحسنت حياة شينا وولدت انا في جو صحى نظيف • وحرص اهل الطفل على ان يتوفر الطعام لدى امى • وسرعان ما اصبح لدى أبوى ثلاثة اطفال : شينا وزيبكا وانا • .

وفي عام ١٩٠٣ ، وعندما أصبحت في الخامسة ، عدنا الى بينسك . وصرف والدى النظر عن الفشل الذى حاق به في كييف ، وأصبح حلمه الجديد أن يذهب الى امريكا ، أو « المدينة الذهبية » كما كان اليهود يسمونها ، ليجرب حظه فيها . وكان علينا أن ننتظره في بينسك . وهكذا حمل امتعته القليلة وتوجه الى القارة المجهولة ، وانتقلنا نحن الى منزل اجدادى .

ولست ادرى ايا من اجدادى قد اثر في حياتى • كان جدى قد توفى قبل ان يلتقى ابواى • وكانت هناك جدة امى التى لم ارها ، والتى سميت باسمها •• كانت معروفة بارادتها الحديدية وبرئاستها للجميع • كانوا يقولون لنا ان احدا في العائلة لم يكن يجرؤ على اتخاذ اية خطوة دون استشارتها • بل ان والدى تزوجا بفضل موافقتها هى بعد ان كان جدى يعارض في الزواج • وقد عاشت جولدا الكبيرة حتى الرابعة والتسعين ، ومن الامور المثيرة ان والدى كانا يقولان لى اننى اشبهها الى حد كبير •

ولقد مات هؤلاء الناس ، ومات اولادهم واحفادهم ، لكننى لا انسى مدى الالم والمآسى التى صبغت حياتهم • وكنت اقص على اولادى ، واحفادى مؤخرا ، حكايات عن الحياة في تلك الايام ،

والسعادة تملؤنى لان هذه القصص لم تعد سوى درس في التاريخ . على الرغم من ان هذه الفترة هى التى اثرت في حياتى الى حد كبير . والغريب اننى لم اكن اشعر في اى وقت بالحنين الى هذا الماضى رغم تأثيره على معتقداتى . كان هذا الدرس هاما عن جزء هام من تراثهم لكن بدون ان يتعلقوا به او تكون لهم به صلة .

وقضى والدى ثلاثة اعوام وحيدا في امريكا . كان . كغيرة من آلاف اليهود الروس . قد جمع النقود لكى يسافر الى امريكا باعتبارها الامل الوحيد في تكوين الثروة والعودة بها الى روسيا من اجل حياة جديدة . وبالطبع لم يفلح لا هو ولا الآلاف . غير ان فكرة رجوعه هى التى جعلتنا نحتمل غيابه .

غابت كييف التى ولدت فيها عن ذاكرتى . لكننى بقيت احتفظ لها في داخلى بصورة خاصة لكثرة ما سمعت وقرأت عنها . بل ان كثيرين ممن قابلتهم في حياتى كانوا من كييف او المدن الصغيرة المحيطة بها . ومن هؤلاء عائلتا حاييم وايزمان وموشى شاريت . وقد عدت الى بينسك مرتين بعد ذلك . اولاهما في عام ١٩٣٩ عندما كنت في بولندا في مهمة لحركة العمل . ومرضت في يوم الزيارة فالغيت الرحلة . ثم في صيف عام ١٩٤٨ عندما عينت سفيرة لاسرائيل في الاتحاد السوفيتى . وتملكتنى رغبة العودة الى بينسك بحثا عن اقارب نجوا من النازيين . غير ان الحكومة السوفيتية رفضت ان احقق رغبتى . وفي اوائل عام ١٩٤٩ عدت الى اسرائيل فتأجلت زيارتى لبينسك نهائيا . ثم علمت فيما بعد ان واحدا فقط من اقاربى ظل على قيد الحياة .

كانت بينسك التى اذكرها مليئة باليهود . وكانت واحدة من اشهر مراكز الحياة اليهودية الروسية . بل ان اليهود كانوا اغلبية فيها

في وقت من الاوقات · وكان اليهود يتعيشون من النهرين اللذين تقع عليهما بينسك ، فيصيدون الاسماك وينقلون البضائع ويخزنون الثلوج في الشتاء لاستخدامها في التبريد صيفا · وكان اليهود الموسرون يعملون في صناعة الاخشاب وتجارة الملح . وكانت هناك عدة مصانع للكبريت والمسامير والخشب يملكها اليهود . ويعمل فيها بالطبع عشرات من العمال اليهود ·

وهناك العديد من الذكريات المفزعة في بينسك · فهناك مستنقعات الطين التى كان فرسان القوقاز يهجمون علينا عندها بجيادهم ونحن نلعب · وهناك الشحاذون المقعدون طوال الشعر جاحظو العيون · وكانت امى تكتفى بذكر هؤلاء الشحاذين لكى اقلع على الفور من الخطأ الذى ارتكبه · لكن الامور لم تكن كلها مفزعة على هذا النحو ، فقد كنت العب واضحك واغنى . بل وتعلمت من اختى شينا من الرياضيات رغم انى لم التحق بالمدرسة · وعلى اية حال فقد كنت اتعلم الحياة . ايضا على يدى شينا ·

كانت شينا في الرابعة عشرة من عمرها عندما سافر ابى الى امريكا · وكانت فتاة ذكية اصبحت ـ وظلت ـ واحدا من اكبر المؤثرات في حياتى . بل انها كانت أكبر هذه المؤثرات اذا ما استثنينا الرجل الذى تزوجته · كانت شخصا غير عادى . اعتبرتها نموذجا براقا لى . وكانت صديقتى ومعلمتى · بل اننا عندما تقدم بنا العمر واصبحنا جدات . ظل ثناؤها وتقديرها لاعمالى يعنى الشىء الكثير لى · كانت شينا جزءا لا يتجزأ من حياتى · وقد توفيت عام ١٩٧٢ ·

برغم الفقر في بينسك فان شينا رفضت ان تعمل · كانت العودة الى بينسك قاسية عليها . اذ كانت قد التحقت بمدرسة في كيف .

معتزمة ان تتلقى العلم والمعرفة . وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها ، اصبحت عضوا ثوريا ومخلصا في الحركة الصهيونية الاجتماعية ، الامر الذى جعلها من الاشخاص الخطرين في نظر الشرطة وعرضها للعقاب . ولم تكن هى واصدقاؤها « يتآمرون » فقط على قلب القيصر ، بل انهم اعلنوا ايضا عن حلمهم وهو ان ينقلوا الى خير الوجود دولة اشتراكية يهودية في فلسطين . ولم يكن صغر سنها ليحول دون احتمال ان تلقى الشرطة القبض عليها بتهمة النشاط المعادى .

كانت امى تلح عليها لتقطع صلاتها بالحركة ، حتى لا تعرض نفسها ، وتعرضنا بل وتعرض ابى في امريكا ، للخطر . وبقيت شينا على عنادها ، تحضر الاجتماعات السرية في الخارج وعندما تعود تجد القلق يعتصر امى وفي ايام السبت ، عندما كانت امى تذهب الى المعبد ، كانت شينا تنظم الاجتماعات في المنزل . وعندما كانت امى تكتشف هذه الاجتماعات لم يكن امامها ما تفعله سوى ان تزرع الطريق امام المنزل لكى تحذر المتآمرين الصغار اذا ما اقترب شرطى . وكان قلب امى يتمزق خوفا من ان يكون احد اصدقاء شينا من العملاء المدسوسين .

ولصغر سنى فلم اكن افهم تماما ما يجرى ، لكننى كنت اقضى الساعات الطوال ايام السبت جالسة استمع الى شينا واصدقائها في محاولة لفهم الامور . وكنت اتتبع ما تقوله شينا لامى شارحة لها ما تفعله وكان كل ما فهمته هو انها تشترك في نضال معين لا يتعلق فقط بالشعب الروسى ، وانما ايضا ـ وبشكل خاص ـ باليهود .

لقد كتب الكثير ، وسوف يكتب بالقطع ما هو اكثر ، عن الحركة الصهيونية . وقد اصبح لدى الكثير من الناس فكرة عما تعنيه الحركة

الصهيونية . وعن ارتباطها بعودة الشعب اليهودى الى ارض ابائه ـ الى ارض اسرائيل كما يقال عنها في العبرية ـ لكن الجميع حتى الآن ربما لم يدركوا ان هذه الحركة الرائعة (!) انبثقت تلقائيا قرابة نهاية القرن التاسع عشر . وفي مختلف ارجاء اوروبا في نفس الوقت تقريبا ٠ كان الامر كأنه دراما يجرى تمثيلها بطرق مختلفة وعلى مسارح مختلفة بلغات مختلفة . لكنها تعالج نفس الفكرة في كل مكان . فقد كان ما اسموه بالمسألة اليهودية وحقيقتها بالطبع هى المسألة المسيحية نتيجة اساسية لكون اليهود بلا وطن . وأنها لن تحل إلا إذا حصل اليهود مرة ثانية على وطن لهم وكان واضحا أن هذا الوطن لا يمكن الا أن يكون أرض صهيون . الأرض التى نفى منها اليهود قبل الفى عام . والتى ظلت مع ذلك مركزا روحيا لليهودية عبر القرون وعندما كنت طفلة كانت هذه الأرض . وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى . مقاطعة مهجورة ومهملة في الامبراطورية العثمانية تدعى فلسطين ٠

وفي عام ١٨٧٨ عاد اوائل اليهود الى صهيون ليؤسسوا قرية رائدة اسموها بتاح تكفاه (بوابة الامل) ٠ وفي عام ١٨٨٢ وصلت الى البلاد مجموعات صغيرة من الصهاينة من روسيا كانوا يسمون انفسهم (حوبيبى زيون ' (محبو صهيون) . وقد عقدوا العزم على استصلاح الارض وزراعتها وحمايتها ٠ اما ثيودور هرتزل ـ مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية . وبالتالى . الاب الروحى لدولة اسرائيل ـ فانه في عام ١٨٨٢ كان لا يزال غير مدرك لما يحدث لليهود في اوروبا الشرقية ولا بوجود محبى صهيون ٠ الى ان كان عام ١٨٩٤ . حين اصبح هرتزل مراسلا في باريس للصحيفة النمساوية « نيو فراى بريس » . عندما بدأ يهتم بمصير اليهود . وذلك عندما كلف بتغطية وقائع محاكمة الكابتن درايفوس ٠ وازاء الصدمة التى سببها الظلم الفادح الواقع على

هذا الضابط اليهودى والمعاداة الواضحة للسامية من جانب الجيش الفرنسى . وصل هرتزل ايضا الى قناعة بان هناك حلا واحدا ممكنا ودائما لموقف اليهود . واصبحت اعماله سواء ما انجزه او ما فشل فيه وهو القصة المذهلة لخلق الدولة اليهودية ـ جزءا من التاريخ الذى يتعلمه الاطفال الاسرائيليون بل ومن يريد ان يفهم حقيقة الصهيونية .

وكانت امى وشينا تعلمان عن هرتزل ، لكننى اذكر المرة الاولى التى سمعت فيها اسمه ، عندما جاءت احدى عماتى لتبلغنا ان هرتزل قد مات . ولا انسى ذلك الصمت الذى ران علينا اثر سماع هذا الخبر . اما شينا فقد قررت ان ترتدى ثيابا سوداء اللون حدادا عليه منذ يوم وفاته ولمدة عامين ، الى ان انتقلنا الى ميلووكى .

وعلى الرغم من ان حنين اليهود الى ارضهم لم يكن نتيجة مباشرة للمذابح (اذ كانت فكرة اعادة استيطان اليهود لفلسطين قائمة بواسطة اليهود بل وبغير اليهود قبل وقت طويل من ظهور كلمة مذبحة في قاموس اليهود الاوروبيين) فان المذابح الروسية التى شهدتها طفولتى عجلت بهذه العملية ، خاصة بعد ان ادرك اليهود ان الحكومة الروسية نفسها تستخدمهم ككبش فداء في صراعها من اجل اخماد الحركة الثورية .

وبرغم اتحاد غالبية الشباب الثورى اليهودى في بينسك في تصميمهم على انهاء النظام التقصيرى وحماسهم البالغ لتلقى العلم كوسيلة لتحرير الجماهير الروسية المكبوتة والمستغلة . فقد انقسموا الى جماعتين رئيسيتين :

اعضاء البوند (الاتحاد) الذين يؤمنون بان الحل لمحنة اليهود في روسيا وغيرها يكمن في تحقيق سيطرة الاشتراكية . فاذا ما تغير البنيان الاقتصادى والاجتماعى اختفت معاداة السامية كلية . ويستطيع اليهود في هذا العالم الاشتراكى ان يحافظوا على هويتهم الثقافية وان يتحدثوا اليديش وان يرعوا ما يشاءون من التقاليد والعادات . لكنه لا يوجد سبب واحد للتعلق بتلك الفكرة العتيقة القائلة بالوطن اليهودى .

اما بوعالى زيون (العمال الصهاينة) فقد اختلفت نظرتهم الى الامر كلية . فكانوا يؤمنون بان هناك جذورا اخرى لما يسمى بالمسألة اليهودية ولذلك فان حلها لابد ان يكون ابعد من اصلاح الاخطاء الاقتصادية والظلم الاجتماعى .

وكان تعلقهم بمثال قومى اعلى قائم على اساس مفهوم الشعب اليهودى واعادة تأسيس الاستقلال اليهودى .

وبرغم ان هاتين الجماعتين كانتا سريتين وغير قانونيتين . فانه لما يدعو للسخرية ان اعضاء البوند كانوا الد اعداء البوعالى زيون .

ولقد تعلمت في تلك الايام درسا هاما غير سياسى . هو ان الامور لا تحدث فجأة . وانه لا يكفى ان يؤمن المرء بشىء ما وانما يجب ان يكون لدية الجلد على مواجهة العقبات والكفاح من اجل قهرها . ولا بد اننى عندما بلغت السادسة او السابعة قد ادركت الفلسفة التى تقوم عليها كل افعال شينا . وانه ليس هناك الا طريق واحد لعمل اى شىء . هو الطريق الصحيح .

وحتى عندما عدنا الى ما كان من قبل فلسطين . ثم اصبح اسرائيل . فان شينا حرمت نفسها من متع الحياة ورفاهيتها . وفي

الستينات فقط كانت الثلاجة الكهربائية (البراد) هى وسيلة الرفاهية الوحيدة لديها . وكانت تستعمل موقد الكيروسين في المطبخ · كانت صارمة . قاسية . على نفسها وعلى الاخرين . والا لكانت على الاقل قد استجابت لمخاوف امى من الاجتماعات المتكررة داخل منزلنا فى بينسك ·

والتقت شينا بشاماى كورنجولد . الذى تزوجها فيما بعد . وكان قد ترك دراسته لينضم للحركة الثورية · ونما بينهما حب صامت . واصبح شاماى واحدا من قادة الشباب الصهيونى الاشتراكى · وعلمت من خلال محادثاته الهامة مع شينا ان يهود بينسك يعدون انفسهم للدفاع ضد هجمات القوزاق المرتقبة · وطورت شينا وشاماى نشاطهما الى ضم اعضاء جدد · واستبد الفزع بامى فاخذت رسائلها الى ابى تتسم بالخوف الشديد مؤكدة انه لا حل سوى ان ننضم اليه جميعا في امريكا ·

وكتب الى امى يبلغها انه قد انتقل من نيويورك الى ميلووكى وانه سيلحق بعمل في السكك الحديدية وسيجمع تكاليف سفرنا · وفي عام ١٩٠٥ جاءتنا الرسالة من ابى لاتخاذ استعدادنا للرحيل · وكانت ترتيبات السفر مرهقة لسيدة وثلاثة اطفال مازال اثنان منهما صغارا · وبالنسبة لشينا فإن ترك روسيا كان يعنى ترك شاماى وترك كل ما خاطرا من اجله كثيرا · وكان السفر من بينسك الى ميلووكى في تلك الايام كأنه سفر الى القمر · ولاشك ان الخوف الذى كان يعترينا كان ممكنا ان يكون اقل حجما لو اننا عرفنا عندئذ ان هناك آلافا آخرين من العائلات كانت ايامها تقوم بنفس الرحلة متجهة نحو العالم الجديد · ولو ان اهلى علموا اننى سوف اعود الى روسيا كسفيرة او كرئيسة للوزراء لكان وداعهم لنا اخف ولكانت دموعهم اقل ·

ولم يبق في ذاكرتي عن الرحلة في عام ١٩٠٦ الا ما حكته لى امى وشينا ٠ لكننى اذكر اننا اضطررنا الى عبور الحدود عند جاليسيا سرا ، اذ ان والدى عندما عبر هذه المنطقة قبل ثلاثة اعوام اصطحب معه زوجة رجل اخر واطفالها على انهم زوجته واطفاله ٠ وهكذا تحتم علينا أيضا أن ندعى أننا أناس آخرون .. ومع أنا حفظنا أسماءنا الجديدة عن ظهر قلب فإن عبورنا تم بعد رشوة الشرطة وضاعت معظم امتعتنا اثناء الزحام ٠ ثم ركبنا القطار عبر ڤيينا وانتورب حيث ركبنا باخرة توجهت بناء الى امريكا وإلى ابى ٠

واستمرت الرحلة الشاقة على ظهر الباخرة اربعة عشر يوما ، واصيبت امى واخواتى بدوار البحر .لكنى لم اتأثر به ٠ وكانت السفينة ملأى بالمهاجرين . وكنت الهو مع الاطفال الاخرين ونحكى قصصا عن الثروات التى تنتظرنا في الارض الذهبية . لكننا جميعا كنا ندرك اننا نتجه الى بلد لا نعرف عنه شيئا والى اماكن غريبة عنا بالمرة ٠

الفصل الثانى

مراهقة سياسية

استقبلنا أبى في ملووكى . وبدا غريبا بعد أن حلق لحيته واتخذ مظهر الامريكيين · ولانه لم يوفق في ايجاد شقة لنا فقد نزلنا في غرفته في منزل يملكه يهود بولنديون مهاجرون · وقد سحرتنى ملووكى خلال الايام الاولى ·· فالطعام جديد . واللغة مختلفة . وكنت قد نسيت أبى ·· ونقلنى ذلك كله إلى عالم بعيد عن الواقع إلى حد أنى اذكر وقوفى في الشوارع وأنا أتساءل من أنا وأين أنا ؟

بل اننى اعتقد انه لم يكن من السهل على أبى ايضا ان يعتاد علينا بعد هذه الغربة · وفي صباح اليوم التالى لوصولنا اصر على ان يشترى لنا ثيابا جديدة وكأنه يتصور ان ذلك في حد ذاته كفيل بتحويلنا في مدى اربع وعشرين ساعة الى فتيات امريكيات المظهر ؛ بعد ان جئنا من « العالم القديم » · واشترى اولا لشينا ثيابا وقبعه جميلة قائلا هكذا اصبحت تشبهين البشر · لكن شينا رفضت اطلاقا ان ترتدى شيئا مما اشتراه لها · واعتقد ان هذه الجولة في الاسواق كانت هى البداية الفعلية لسنوات من التوتر بين شينا وأبى ·

لم تكن هاتان الشخصيتان مختلفتين فحسب . بل ان والدى ظل يتلقى طوال ثلاثة اعوام رسائل من أمى تشكو له فيها من سلوك شينا الانانى الامر الذى لا شك انه اسر لها في قلبه لوما لانها ضيعت عليه

فرصة العودة الى روسيا واضطرت العائلة إلى الهجرة لامريكا · ولم يكن أبى تعيسا في ميلووكى . بل كان على العكس جزءا من حياة المهاجرين هناك ·· فكان يعمل في ورش السكك الحديدية وانضم إلى احد المعابد واستطاع ان يجمع بعض المال · وكان في سبيله إلى ان يصبح يهوديا امريكيا كاملا . وكان ذلك يلقى هوى في نفسه · وكان آخر ما يرجوه هو أن تأتيه ابنة غير مطيعة تريد ان ترتدى في ميلووكى نفس الثياب التى كانت ترتديها في بينسك · وانقلب النقاش الذى دار في محل الملابس الى صراع خطير ·

اما أنا فقد كنت سعيدة بملابسى الجديدة . وبالصودا والآيس كريم وناطحات السحاب . اذ كان هذا البيت هو اول بيت اراه من خمسة طوابق · وكانت ميلووكى بالنسبة لى رائعة بشكل عام . فقد كان كل شيء يبدو مرحا وكأنه قد خلق لتوه . وكنت اقضى الساعات وأنا اشاهد السيارات والناس · وكانت أول مرة اركب فيها سيارة عندما استقبلنا أبى · وكنت احدق خلال سيرى في دكاكين الحلاقة والصيدليات . وانظر في حسد إلى البنات الصغيرات في ثيابهن الجميلة وأحذيتهن العالية والعرائس في ايديهن . وفي النساء وهن يرتدين جونلاتهن الطويلة . وفي الرجال وهم يرتدون القمصان البيضاء وربطات العنق · كان الامر كله غريبا ·· يختلف كلية عن اى شيء عرفته ·· وقضيت الأيام الاولى في ميلووكى في غيبوبة ·

وسرعان ما انتقلنا إلى شقة في الجزء اليهودى الفقير من المدينة · وهذا الجزء من المدينة يسكنه الآن السود الذين يسودهم الفقر مثلما كنا · ومع أن شقتنا لم تكن فيها كهرباء ولا حمام . فقد كنت اراها قمة في الرفاهية · وكانت تتكون من غرفتين ومطبخ صغير وردهة تؤدى في النهاية إلى دكان خال . صممت أمى على استغلاله . لكن أبى

نفض يديه من أية مسئولية بالنسبة لهذا الدكان الذى اصبح منغصا في حياتى · واستخدمناه كمغسله ثم كمحل للبقالة . لكنه لم يزدهر ابدا ·

ولا يسعنى إلا ان اعجب بأمى وإرادتها كلما عدت بالذاكرة إلى قرارها هذا · فلم تكن قد انقضت أيام على وصولنا . ولم تكن تعرف كلمة واحدة بالانجليزية ولا دراية بالسلع الرائجة في السوق . بل ولم يسبق لها ان اشتغلت في دكان قبل ذلك · ولان نساء الحى كن من المهاجرات الجدد مثلنا . فقد التفقن حول أمى وعلمنها بعض الجمل وكيفية البيع واستعمال الموازين ·

وجاء قرار أمى . الذى يماثل قرار أبى بشراء الملابس . من رد فعلها لحقيقة وجودهما في مجتمع اجنبى · لكن كلا القرارين كان لهما آثار خطيرة على أنا وعلى شينا · كان ذهاب أمى صباحا إلى السوق لجمع البضائع يعنى ضرورة وجود من يرعى الدكان · ورفضت شينا ذلك الدور نهائيا . تماما مثل والدى ؛ وكانت تقول اننى لم آت إلى أمريكا لاصبح صاحبة دكان . أى ان اصبح من الطفيليات على المجتمع · وقد آثار موقفها غضب أبوى لكنها لم تأبه وعملت لدى احدى الخياطين حيث كانت تصنع عراوى الزرائر · وكانت تكره هذا العمل الشاق . على الرغم من انها اصبحت على هذا النحو واحدا من البروليتاريا وبعد ان جمعت ثلاثين سنتا في ثلاثة أيام اجبرها أبى على ترك العمل ومساعدة أمى · لكنها كانت تتحين الفرصة لترك الدكان . وكنت أنا اضطر للوقوف فيه خلال غياب أمى · ولم يكن ذلك بالعمل السهل لطفلة في الثامنة أو التاسعة ·

ودخلت المدرسة واحببتها · ولا ادرى كم من الوقت مر لكى اتعلم اللغة الانجليزية فلم نكن نتكلم في المنزل سوى الييديش . بل وفي شارعنا كله ؛ لكننى لا اذكر ان ذلك مثل مشكلة أمامى فلابد أنى

تعلمتها بسرعة · وبسرعة ايضا كونت عددا من الصداقات ؛ بقيت اثنتان منهما اصدقاء لى طوال عمرى وكلتاهما تعيشان في اسرائيل الآن ؛ اولاهما ريچينا هامبورجر والأخرى ساره فيدر التى أصبحت من قادة الصهيونية العمالية في الولايات المتحدة · وكنت في اغلب الأحيان أذهب إلى المدرسة متأخرة عن موعدها ، واحيانا لا اذهب بالمرة لاضطرارى للوقوف في الدكان مع أمى · وقد تعلمت الكثير في هذه المدرسة

بعد ذلك بأكثر من خمسين عاما ، عندما كنت في الحادية والسبعين رئيسة لوزراء اسرائيل ، عدت إلى المدرسة فوجدتها على نفس حالها لم تتغير فينا عدا ان غالبية تلاميذها كانوا من السود لا اليهود كما كان الحال في عام ١٩٠٦ · وكان استقبالى حافلا كأننى ملكة ، ومن بين الهدايا تسلمت نسخة من شهادتى في احدى السنوات ، وكانت درجاتى فيها كما يلى ؛ ٩٥ في القراءة ـ ٩٠ في التهجية ـ ٩٥ في الرياضيات ـ ٨٥ في الموسيقى ـ و ٩٠ درجة في مادة لا اذكرها لعلها الاشغال اليدوية ·

وتعترينى سعادة بالغة كلما تذكرت السنين الخمس التى قضيناها في ميلووكى ، بالطبع اذا ما استثنيت التعاسة التى لفت شينا لأنها فارقت شاماى الذى بقى في روسيا ، وكانت تفتقده كثيرا · وكادت ذكرى بينسك تنمحى ازاء كثرة ما رأيته وتعلمته ·

وفي شهر سبتمبر (ايلول) ، وكنا قد قضينا ثلاثة اشهر في امريكا ، طلب الينا والدى ان نهتم بمشاهدة استعراض يوم العمل الذى سيشترك فيه · وارتديت أنا وأمى وزيبكا ملابسنا وانتحينا ناحية في الشارع نشاهد منها الاستعراض · وما أن شاهدت زيبكا رجال الشرطة راكبى الخيول في المقدمة حتى اعتراها خوف رهيب ؛ وصاحت

« القوقاز قادمون ! » واضطررنا لارجاعها الى المنزل • وتمثلت امام ناظرى الحرية الامريكية . فرجال الشرطة بخيولهم يحرسون المشتركين في العرض . لكنهم لا يفرقونهم ويدوسونهم بخيولهم كما كانوا يفعلون في روسيا ؛ وشعرت بتأثير الحياة الجديدة في نفسى •

وتميزت ميلووكى بادارتها الليبراليه . وكانت تسيطر عليها التقاليد الإشتراكية . وعمدتها اشتراكى . وخرج منها أول نائب اشتراكى في الكونجرس هو ڤيكتور برجر • وكانت المدينة مليئة بالمهاجرين . وقد فر اليها كثير من الليبراليين والمثقفين الألمان اثر الثورة الفاشلة في عام ١٨٤٨ . واشتهرت باتحاداتها التجارية القوية • على اية حال • كانت مشاهدتى لأبى في هذا العرض في يوم العمل بمثابة الخروج من الظلام الى الضوء •

ولا شك أن الأمور كانت ستصبح افضل لو لم تعمل أمى كثيرا . او لو سايرت شينا أبوى ومع ذلك فإن السنوات المبكرة التى قضيتها في ميلووكى كانت جيدة بالنسبة لى • لكنها لم تكن كذلك بالنسبة لشينا . فقد كان كل شيء خاطئا •• فلا هى تعلمت الانجليزية . ولا هى كونت صداقات . وصعب عليها أن تتواءم مع الحياة الجديدة • وكانت بلا أسباب تبدو دائما متعبة فاترة الهمة . خاصة ازاء المحاولات الغبية من جانب أبوى لتزويجها وكأن شاماى غير موجود • ووصلت حياتها في سن الثامنة عشرة إلى العدم • وبعد عدة أعمال . اشتغلت في حياكة ملابس النساء في شيكاغو . لكنها عادت بإصبع مصاب اضطرها إلى البقاء في المنزل عدة أسابيع • وخلال هذه الفترة كنت امشط شعرها وأساعدها في إرتداء ملابسها . وهكذا توثقت العلاقة بيننا •

وذات يوم ابلغتنى شينا انها تلقت رسالة من إحدى عماتى في بينسك تدور حول شاماى • كان قد القى القبض عليه ثم فر من سجنه

. وهو الآن في طريقه إلى نيويورك · وبعثت عمتى بعنوانه . فكتبت إليه شينا · وعندما وصلها رده كان اصبعها قد شفى وتسلمت عملا جديدا وبدأت تعد العدة لوصوله إلى ميلووكى ·

ولا أحسب أنى في حاجة للإعراب عن إبتهاجى بارتفاع معنويات شينا اخيرا . فبدأت تشعر بالسعادة وتغير جو المنزل · وكنت اترقب وصوله رغم اننى لم اكن اتذكره ومن سوء الحظ أن والدى وخاصة أمى . استقبلا هذه الأنباء بشكل مختلف وكانت حجتهما في عدم الموافقة على زواجهما ان شاماى معوز والفرص المتاحة امام مستقبله ضيقة · والغريب أن شاماى كان من عائلة موسرة لا يمكن ان توافق على زواجه من اختى الفقيرة ·

وكالعادة مضت شينا فيما اعتزمته . واستاجرت لشاماى غرفة في ميلووكى · ووصل غير واثق من نفسه لكنها كانت على يقين من انهما سيتمكنان سويا من قهر كل العقبات · وعمل في مصنع للسجائر ، وبدءا يتعلمان الانجليزية ليلا لكن شينا سقطت فريسة لمرض السل ، فتركت الغرفة وعادت إلى المنزل وسط توبيخ أبوى وتأنيبهما· وخلال أسابيع تغيرت الأحوال ثانية . فسافرت شينا إلى دنفر لدخول مستشفى المصدورين اليهودى . وسافر شاماى إلى شيكاغو بحثا عن عمل · وكنت ادخر مصروفى ، وأحيانا « أستعير » النقود من حافظة أمى ، لكى ابعث إلى شينا بالطوابع كى تراسلنى · وهكذا اصبحت أنا الصلة الوحيدة بينها وبين العائلة . وكان ذلك كافيا لتبرير الجريمة · ·

كانت فرصة العمل أمام أبى في ميلووكى قليلة وكان يتقاضى ٢٥ سنتا عن كل ساعة يعملها ؛ وساهمَ في تدهور الموقف أن أمى رقدت في فراشها عدة أسابيع اثر اجهاضها · وهكذا تعين على أن اطبخ وأغسل في المنزل وان اعتنى بالدكان واديره والدموع تخنقنى لاضطرارى للتغيب

عن المدرسة ٠ وقد اخفيت عن شينا هذه الأمور المزعجة ، لكننى كنت احيطها دائما بحقيقة الموقف ٠

ومرت الأعوام سريعة واستغرقتنى المدرسة في الاوقات التى كنت اترك فيها الدكان ، ورغم اننى كنت في المنزل اساعد أمى واختى زيبكا التى إعاد ناظر المدرسة تسميتها بكلارا ٠ وقليلا ما كنت اذهب أنا وريچينا هامبورجر إلى المسرح أو السينما حيث كنت احكى قصة ما اشاهده على أمى وكلارا ٠

ووقع حادث هام في حياتى عندما كنت في الصف الرابع ، اذ قمت بأول « عمل عام » لى عندما انشأت صندوقا لجمع الأموال اللازمة لشراء الكتب المدرسية لغير القادرين ٠ وكانت تلك هى أول تجربة لى كجامعة تبرعات ، لكنها لم تكن الأخيرة ٠ وقمت باستئجار قاعة ووجهت الدعوات باسم جمعية الاخوات الامريكيات الصغار ، والقيت كلمة حول اهمية توافر الكتب للتلاميذ والقت اختى كلارا مقطوعة من الشعر الاشتراكى بلغة اليديش ٠ وقد امطروالداى وكلارا وأنا بالمديح والثناء على ما قمنا به ، لكنى تمنيت أن تكون شينا موجودة ٠ ثم ارسلت اليها صورتى التى نشرتها احدى صحف ميلووكى

وكانت أمى قد الحت على أن اكتب كلمتى ، لكنها كانت نابعة مما اشعربه في قلبى ٠ وقد بقيت على هذا النمط طيلة نصف قرن ٠ ففيما عدا البيانات الحكومية الرسمية في الأمم المتحدة أو الكنيست (البرلمانى) فقد كنت افضل دائما ان « القى كلمتى من دماغى » كما وصفتها في رسالتى لشينا في صيف عام ١٩٠٩ ٠

وخلال فترة عطلة الصيف ، عملت أنا وريچينا لأول مرة في أحد المحال الكبرى ، حيث كنا نلف الطرود أو نلبى بعض طلبات الزبائن واستطعنا جمع عدة دولارات كل اسبوع واعفيت من الوقوف في دكاننا

طيلة اليوم . وحل والدى محلى على مضض . وكنت اشعر بالاستقلالية عندما اقوم بكى ملابسى كل مساء واستيقظ في الفجر لأسير مسافة طويلة الى عملى . واشتريت اول شيء من نقود اكسبها وكان معطفا شتويا .

وانهيت دراستى الابتدائية في الرابعة عشرة من عمرى ، وبدا المستقبل مشرقا امامى فها انذا سوف التحق بالمدرسة العليا ، بل ربما اصبحت مدرسة وهو ما كنت اتمناه . كنت ارى ومازلت ـ ان التدريس هو أنبل المهن . فالمدرس يفتح آفاق الدنيا أمام تلاميذه . وكنت اعلم اننى قادرة على التدريس . وكنت أنا وريچينا وساره نقضى الامسيات ونحن نتحدث حول مستقبلنا وما نريد ان نكون . اما الزواج فكنا نراه امرا بعيدا لا يستحق الحديث .

أما أمى فقد كانت ترى أننى وقد نلت هذا القسط من التعليم واجدت اللغة الانجليزية بعد أن نما قوامى ، ان بإمكانى ان اعمل في الدكان طيلة اليوم . وأن اسرع بالتفكير جديا في الزواج خاصة وان قوانين الولاية كانت تحرم زواج المدرسات . اما اذا اعتزمت مواصلة الدراسة فكانت ترى ان اتعلم السكرتارية والاختزال . على الاقل حتى لا اغدو عانسأ . ووافقها أبى على ذلك قائلا ان الرجال « لا يحبون الفتيات الأذكياء » . وكما حدث مع شينا . فإننى حاولت اقناعهما بكل الوسائل اننى لا اريد الزواج في الوقت الحاضر . وان التعليم امر هام حتى للسيدة المتزوجة واننى افضل الموت على العمل كسكرتيرة .

لكن توسلاتى ودموعى ذهبت سدى اذ كان والداى يريان في ذهابى إلى المدرسة نوعا من الرفاهية غير مطلوب وشجعتنى شينا في رسائلها من دنفر هى وشاماى حيث لحق بها هناك بعد ان شفيت من مرضها . وابلغانى انهما برغم تحذيرات الطبيب المعالج . قد قررا

الزواج . وكانت تلك اسعد الزيجات التى مرت في حياتى . والتى استمرت ـ برغم تحذيرات الطبيب ـ ثلاثة واربعين عاما واثمرت ثلاثة أطفال . واستاء والداى . وخاصة أمى . من هذه الانباء . أما بالنسبة لى فكان الامر يعنى انه قد اصبح لى أخ اخيرا .

وبرغم استمرار الخلاف فقد التحقت في خريف عام ١٩١٢ بالمدرسة العليا . وكنت اقوم خلال عطلات نهاية الأسبوع بأعمال مختلفة كما لا اطلب من والدى اموالا . ورغم ذلك فقد استمر الخلاف . وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير هى محاولة أمى ايجاد زوج لى . كانت لا تريد لى الزواج فورا . ولكنها كانت تريد لى زوجا قادرا (لا غنيا بالطبع فذلك امر بعيد عن الذهن) . ثم تبين لى انها تتفاوض مع رجل طيب وميسور الحال من جيراننا هو المستر جودستاين لكن عمر هذا الرجل كان ضعف عمرى !! وسارعت بكتابة رسالة ملتهبة إلى شينا . تلقيت ردا عليها برجوع البريد . وفي هذا الرد وجهت شينا وشاماى الدعوة لى للحاق بهما في دنفر حيث يمكننى ـ كما قال لى ـ ان اواصل دراستى وان احصل على كل ما احتاجه من طعام وملبس

مست هذه الرسالة الرقيقة شغاف قلبى . وكانت بمثابة نقطة تحول في حياتى : ففى دنفر بدأت دراستى الحقيقية ونموى الفعلى صحيح اننى لم اكن سأتزوج المستر جوردون وكنت سأستمر في نوع من الدراسة : لكن هذه الرسالة التى جاءتنى في شهر نوفمبر (تشرين الثانى) . ١٩١٢ كانت بمثابة حبل انقاذ . وقد تمسكت به . اما آخر رسالة من شينا قبل لحاقى بها في دنفر . فقد تضمنت نصيحة منها ان « أهم شيء هو الا أثور » وان اهدأ واتصرف ببرود . هذه هى الوسيلة الكفيلة بتحقيق افضل النتائج « وكونى شجاعة » . .. ظلت هذه النصيحة رائدة لى خلال عمرى كله .

لم يكن الاعداد للسفر سهلا فلم نكن نتوقع ان يوافق والداى ، ولذا كان القرار هو السفر ببساطة دون ابلاغهما وقدمت لى ريجينا كل المساعدات اللازمة سواء في جمع نفقات السفر أو الاعداد له (ولعلها كانت تظن أنى سوف اهرب مع عشيق ، او بتهريب (صرة) ملابسى ليلا .

وفي ليله السفر كتبت رسالة لوالدى ابلغهما أننى قررت العيش مع شينا لكى اتمكن من الدراسة واننى سوف اكتب لهما من دنڤر ولم اختر الكلمات بعناية . فقد كنت في الخامسة عشرة والمشاعر المختلفة تجتاحنى ودخلت إلى الغرفة التى تنام فيها اختى كلارا وقبلتها وأنا أوقن أن سفرى سيجعل حياتها وحدها في المنزل مع والدى اكثر يسرا وسهولة .

وفي الصباح المبكر توجهت إلى المحطة في انتظار القطار ؛ وقد سهى على أن أحسب حساب مواعيد قيام القطار .. اذ كان والداى قد قرآ رسالتى لهما . لكننى - كما يقول المثل باليديش - كان حظى أكبر من عقلى ؛ فلم يفكر احد في البحث عنى في المحطة صحيح اننى آذيت مشاعر والدى بهذا السفر لكنه كان امرا ضروريا بالنسبة لى . وخلال العامين اللذين قضيتهما في دنڤر كنت اكتب الرسائل لوالدى . وتلقيت من والدى ردا . واحدا وعدة ردود من أمى .

وتلقيت رسالتين من كلارا وريجينا تصفان لى رد الفعل الذى حدث في منزلنا . كانت رسالة كلارا مليئة بالاتهامات . ووصفت لى كيف بكت أمى كثيرا ثم جففت دموعها وتوجهت إلى منزل أم ريجينا ليتحدثا عن المساعدة المشينة التى قدمتها لى ابنتها اما رسالة ريجينا فكانت مليئة بالاعتذارات وحكت لى فيها كيف تصوروا اننى هربت سرا مع شخص إيطالى .

وانفتحت الدنيا أمامى بالفعل في دنفر ، رغم ان شينا وشاماى تشددا معى في معاملتهما مثل أبوى وكان شاماى يعمل نصف الوقت حارسا لشركة التليفونات ويبقى في المغسلة التى يمتلكها بقية الوقت وهكذا تقرر ان اذهب إلى المدرسة بعد الظهر ، على ان احل محل شاماى في المغسلة صباحا وهناك يمكننى تأدية واجباتى المدرسية فإذا أراد أحد الزبائن كى ملابسه قمت بذلك أيضا .

وكانت شينا ، خلال الامسيات ، تلح على في انهاء واجباتى المدرسية ، لكننى كنت افضل على ذلك الجلوس مع الأصدقاء الذين تستمر مناقشاتهم السياسية إلى ساعة متأخرة من الليل . وكان المنزل قد تحول إلى مركز لليهود الروس المهاجرين إلى الغرب الذين يتلقون العلاج من السل في دنفر . كانت الغالبية العظمى منهم من العزاب ، وكان بعضهم من الفوضويين والبعض الآخر من الإشتراكيين والبعض من الصهاينة الاشتراكيين . كما انهم جميعا كانوا اما مرضى تم شفاؤهم أو مازالوا يعالجون . وكانوا يتناقشون بل ويتشاجرون ، حول ما يجرى في العالم من احداث وما يجب أن يكون كانوا يتحدثون عن الفلسفة الفوضوية لإيما جولدمان وبيتر كروبتكين ، وعن الرئيس ولسون والموقف الأوروبى ، وعن الحلول السلمية ، ودور المرأة في المجتمع ومستقبل الشعب اليهودى . وكانوا يحتسون أكواب الشاى بالليمون الواحد وراء الآخر وكنت اتطوع بتطهير الاكواب من العدوى بعد مغادرتهم المنزل .

وكنت بطبيعة الحال اصغر الموجودين في هذه الاجتماعات ، ولم تكن معلوماتى في لغة الييديش تسمح لى بمتابعة كل ما يقولون ولم أكن اعرف ما هى الجدلية ، بالضبط ، ولا من هو هيجل او كانت او شوبنهاور ، لكننى عرفت أن الاشتراكية تعنى الديمقراطية وحق

العمال في حياة افضل وفي ان يعملوا ثمان ساعات والا يقعوا تحت نير الاستغلال . وفهمت ان الطغاة ينبغى الإطاحة بهم لكننى لم اتقبل على الاطلاق فكرة الديكتاتورية ، حتى ولو كانت للبروليتاريا .

وكنت اولى اهتمامى للاستماع إلى من يتحدثون بالذات عن الصهيونية الاشتراكية . وكانت فلسفتهم ذات مغزى كبيرا لدى فقد فهمت وتجاوبت كلية مع فكرة الوطن القومى لليهود - في مكان على وجه الأرض يمكن لليهود فيه ان يكونوا احرارا مستقلين - وكنت اؤمن كقضية مسلم بها انه في مثل هذا المكان لن يوجد محتاج ولا من يقع ضحية للاستغلال او للخوف من الاخرين . وكنت اولى اهتماما بنوع الوطن القومى اليهودى الذى يريد الصهيونيون خلقه في فلسطين . اكثر من اهتمامى بالموقف السياسى في دنفر او حتى بما يحدث في روسيا .

وهكذا كنت اهتم بكل الموضوعات التى يدور حولها النقاش في منزل شينا . لكنهم يكادون يتحدثون عن اناس مثل أعارون داڤيد جوردون الذى ذهب إلى فلسطين عام ١٩٠٥ وساهم في تأسيس مستعمرة دجانيا (التى اقيمت بعد ذلك بثلاثة اعوام . حتى كنت احلق في سماوات ساحرة مطلقة . واجد نفسى احلم باللحاق بالرواد في فلسطين ولا اذكر أول من حدثنا عن جوردون . لكننى اذكر جيدا انه حدثنا عن هذا الرجل ذى اللحية البيضاء الذى وصل الى فلسطين وهو في الخمسين من عمره لكى يفلح الارض ويزرعها . رغم انه لم يزاول عملا يدويا من قبل . ثم يكتب عن « دين العمل » كما اصبح مريدوه يعرفون مبادئه بهذا الاسم . وكان ايمان جوردون بأن بناء فلسطين هو اكبر مساهمة تقدمها اليهودية للانسانية وسيجد اليهود في أرض إسرائيل الفرصة لصنع مجتمع عادل من خلال عملهم الجسمانى .

وتوفى جوردون عام ١٩٢٢ ، بعد عام من وصولى الى فلسطين ، ولم أره مطلقا لكننى اعتقد ان هذا الرجل فقط ، من بين كل المفكرين والثوريين الذين سمعت عنهم هو الذى كنت اتمنى ان اعرفه شخصيا وان يقابله احفادى ٠

كذلك فتنتنى القصة العاطفية لراشيل بلوستاين . وهى ، فتاة روسية جاءت إلى فلسطين في نفس الوقت تقريبا مع جوردون وتأثرت به إلى حد كبير ٠ وكانت شاعرة موهوبة ، عملت في الزراعة في مستعمرة جديدة قرب بحر الجليل وهناك كتبت اجمل اشعارها ٠ ورغم انها لم تكن تعرف كلمة واحدة باللغة العبرية قبل مجيئها إلى فلسطين ، فإنها اصبحت واحدة من أول الشعراء المحدثين للعبرية . وتم تلحين معظم اشعارها ومازالوا يغنونها في اسرائيل ٠ ثم سقطت فريسة للسل (وماتت في الاربعين) وكنت قد سمعت عنها في دنفر من اناس كانوا يعرفونها في روسيا ٠

وكلما اشتدت السخرية من جيلنا وحماسه وولائه ، كلما اتجه تفكيرى نحو المثقفين الثوريين امثال جوردون وراشيل وغيرهما من الرواد في مطلع هذا القرن ٠ لقد كانوا ابناء تجار ومثقفين بل وعائلات موسرة اندمجت مع غيرها من غير اليهود ٠ ولو كانت الصهيونية فقط هى حافزهم الوحيد لكانوا قد جاءوا إلى فلسطين واشتروا بيارات البرتقال واستأجروا العرب للقيام بالعمل فيها ٠ واذاً لكان الامر اسهل ٠ لكنهم كانوا تقدميين حتى اعماقهم آمنوا بأن العمل اليدوى قادر على تحرير اليهود من عقلية الجيتو (الحى اليهودى المغلق) وتيسير اصلاح الارض وكسب الحق المعنوى فيها ، بالاضافة إلى الحق التاريخى وقد جمع فيما بينهم حبهم للتجربة وبناء مجتمع مختلف عن العالم كله ٠ واننى لعلى يقين من ان المجتمعات التى بنوها وهى كيبوتزات اسرائيل

ـ قد استمرت فقط بسبب المثل الاجتماعى الثورى الأصيل الكامن وراءها ·

على أية حال ، لعبت هذه الليالى من النقاش في دنفر دورا هاما في تشكيل معتقداتى في المستقبل وفي رفض أو قبول الافكار · لكنّ اقامتى في دنفر كانت لها نتائج اخرى ايضا · كان هناك واحد من الزوار ، رقيق الحاشية ، عذب الحديث هو موريس مايرسون ، الذى كانت اخته قد التقت بشينا في المصحة وكانت عائلته قد هاجرت من لتوانيا مثلنا إلى امريكا ، وكانوا فقراء ، وكان ابوه قد توفى وهو صغير فاضطر إلى العمل كى يعول امه وثلاث اخوات · وعندما التقينا كان يعمل خطاطا ·

ولم يكن صوته يعلو حتى في اعصف الجلسات ؛ لكنه جذب انتباهى باختلافه عنى وعن كل اصدقاء شينا في انه كان يعرف شيئا لا نعرفه جميعا اذ كان يحب الشعر والفن والموسيقى ويفهم الكثير عنها ، وكان على استعداد لان يتحدث طويلا عن هذه الامور لاى انسان مهتم (او جاهل بها) مثلى وعندما توثقت المعرفة بيننا ، كان يصطحبنى الى الحفلات الموسيقية في الحدائق ويشرح لى دقائق الموسيقى الكلاسيكية ، او يقرأ لى لبايرون وشيلى او رباعيات الخيام ، أو يأخذنى لسماع محاضرات في التاريخ والأدب والفلسفة وكان ذلك ابان ربيع وصيف عام ١٩١٣ ·

وقد تملكنى اعجاب هائل بموريس ـ اكثر من اى شخص آخر فيما عدا شينا ـ لا بسبب معلوماته الواسعة فحسب بل ايضا لرقته وذكائه وروحه المرحة كان يكبرنى بستة اعوام ، لكنه كان يبدو اكبر منى رزانة وثباتا ودون ان ادرى وقعت في حبه ، وأحبنى هو الآخر لكننا لم نبح لبعضنا بمشاعرنا ·

ومن حسن الحظ ان شينا كانت مغرمة بموريس فسمحت لى برؤيته مرارا . لكنها اصرت بشدة على ضرورة الاهتمام بما جئت من اجله من ميلووكى وهو الدراسة ؛ واستمرت تراقبنى كالصقر وازدادت الرقابة حتي شعرت بالقلق والضيق واثر تعنيف شديد من شينا قررت ان الوقت قد حان لكى اعيش بمفردى وغادرت المنزل بملابسى التى كنت ارتديها طوال اليوم دون ان احمل حتى لباسا لليل .

وبحثت عن مأوى إلى ان دعانى اثنان من اصدقاء شينا للبقاء معهما وكان الاثنان في مراحل متقدمة من مرض السل ولا اجد سوى ما كانت أمى تسميه « حظ الحمقى » سببا لعدم اصابتى بالعدوى وكان سكنهما في غرفة بها كوة ومطبخ وكانا ينامان مبكرا لمرضهما فلم اكن استطيع استعمال الضوء للقراءة . وهكذا لم اكن اجد امامى سوى الحمام حيث كنت الف نفسى ببطانية واستغرق في قراءة اكوام الكتب التى يعطيها لى موريس .

وعندما بلغت السادسة عشرة وكنت قد عثرت على مكان اقيم فيه وصلت إلى قرار بأن المدرسة العليا لا مجال لها في حياتى الآن ووجدت ان التلاؤم مع الحياة بمفردى اكثر اهمية من التعليم والتحقت بعمل في قياس الجونلات الجاهزة وما زلت حتى يومنا هذا امسك بحافة اية جونلة وأخيط مثلها بكل ثقة .

وكنت أشعر بالوحدة والوحشة خاصة في الاوقات التى لم يكن موريس فيها معى . وكنت أتمنى لو عدت إلى شينا وشاماى وطفلتهما جوديث ؛ لكننا بعنادنا لم نكن على استعداد للاعتراف بالخطأ وكان لى أنا وموريس صديق جاء من شيكاغو هو يوسيل كابلوف الذى اصر على العمل كحلاق لكى يجد وقتا للقراءة .

وبعد ان بقيت وحدى عاما كاملا . تلقيت رسالة من أبى هى الوحيدة التى كتبها لى خلال هذه الفترة وكانت الرسالة مختصرة وواضحة : اذا كانت لحياة أمى قيمة فيجب أن احضر فورا · وفهمت على الفور أن القيام بالكتابة إلى وابتلاعه لكرامته يعنى ان البيت في حاجة إلى وجودى وتناقشت مع موريس في الأمر واستقر رأينا على أن اعود إلى ميلووكى وإلى عائلتى والمدرسة العليا . رغم أن ذلك كان يعنى أن اترك موريس في دنفر إلى أن تبرأ اخته من مرضها · وفي الليلة السابقة لسفرى . ابلغنى موريس - على استحياء - انه يحبنى ويريد أن يتزوجنى - وبسعادة - وباستحياء مماثل - ابلغته اننى احبه ايضا . لكننى مازلت صغيرة على الزواج واتفقنا على أن ننتظر على أن تستمر علاقتنا طى الكتمان وان نواصل الكتابة لبعضنا وسافرت إلى ميلووكى والبهجة تغمرنى ·

الفصـــل الثالث

اننى أختــار فلسطين !

وجدت المنزل قد تغير . فقد تحسن المستوى الاقتصادى لوالدى واصبحت كلارا في سن المراهقة . وكانت العائلة قد انتقلت الى شقة جديدة في شارع يموج بالناس والحركة . وكان والداى يسلمان بأننى سوف ادخل المدرسة العليا ، بل انهما لم يحتجا بالمرة عندما تخرجت منها والتحقت في أكتوبر (تشرين الأول) بكلية تدريب المعلمين . ولا أظن انهما كانا يعتقدان أننى في حاجة الى مزيد من التعليم لكنهما تركانى افعل ما اريد ، وتحسنت علاقتى بهما وان تشاجرت امى معى احيانا . وكانت احدى هذه المشاجرات حول رسائل موريس لى . اذ كانت ترى ان من واجبها أن تعرف كل شيء ، بل انها دفعت اختى كلارا الى قراءة مجموعة من هذه الرسائل وترجمتها لها الى اليديش اذ كنا نتبادل الرسائل بالانجليزية . وبعدئذ افشت لى كلارا هذا السر واقسمت انها لم تخبر ابى بما حوته الرسائل من امور شخصية . واصبحت رسائل موريس ترد لى بعدئذ على عنوان ريجينيا .

لم تحاول امى تنمية شخصيتها ، وبقيت على حبها لبينسك . وتعلمت منها فنون الطبخ اليهودى الذى مازلت اطهوه حتى الآن . وان كان ابنى واحد احفادى لا يحبانه . ولم يكن منزلنا يخلو من الضيوف .

وخلال الحرب العالمية الاولى حولت امى منزلنا الى مقر للشباب المتطوعين في الفيلق اليهودى وهم في طريقهم للحرب تحت العلم اليهودى في اطار الجيش البريطانى لتحرير فلسطين من الاتراك . وهكذا فان معظم من انضموا من ميلووكى الى هذا الفيلق (وكانوا معافين من التجنيد لانهم مهاجرون) قد غادروا منزلنا حاملين اوشحة الصلاة التى طرزتها امى في حقائب صغيرة مع حقائب كبيرة ملأى بالاطعمة المطبوخة في فرنها . وبهذا ادارت منزلا مفتوحا بقلب مفتوح .

وارتبط ابى ايضا بالحياة اليهودية في المدينة . وكان معظم الذين مروا بمنزلنا في تلك السنين من الاشتراكيين (الصهيونيون العماليون) في الشرق ومن الـ « بناى بريث » (وهى التألف الأخوى اليهودى الذى انضم اليه أبى) . باختصار اصبح والداى منغمسين كلية . واصبح منزلهما نوعا من المؤسسة . بالنسبة لما يتعلق بالمجتمع اليهودى في ميلووكى أو زائريه . وكان من بين الذين قابلتهم اناس اثروا الى حد كبير لا في حياتى فحسب بل في الحركة الصهيونية ، وخاصة الصهيونية العالمية . ومنهم من اصبح من الاباء المؤسسين للدولة اليهودية .

من بين الأناس الاولين اذكر مثلا نحمان سيركين وهو يهودى روسى هاجر الى الولايات المتحدة بعد عام ١٩٠٥ وأصبح زعيما للبوعالى زيون (الصهيونيون العالميون) في امريكا . وكان سيركين يؤمن بأن الامل الوحيد لليهود (الذين اسماهم « عبيد العبيد » أو (بروليتاريا البروليتاريا) يكمن في الهجرة الجماعية لليهود الى فلسطين ؛ وكان يدعو الى احياء اللغة العبرية في حين كان امثال الدكتور حاييم زيتلوفسكى يدعون الى التمسك باليديش كلغة قومية لليهود .

وهناك ايضا شماريا ليفن اعظم خطباء اليهود في هذا العصر ، الذى سحر آلاف اليهود في كل انحاء العالم والذى كنا انا وصديقاتى نعبده . وكان يتميز بالمرح . ويقول لنا مثلا ان فلسطين بلاد رائعة يمكن فيها قضاء الشتاء في مصر والصيف في جبال لبنان . وقد انتقل الى فلسطين في عام ١٩٢٤ وكثيرا ما كنت القاه .

اما اوائل الفلسطينيين الذين قابلتهم فكانوا اسحق بن زفى (الذى سيصبح الرئيس في دولة اسرائيل) ودافيد بن جوريون . وكانا قد جاآ الى ميلووكى لتجنيد اليهود في الفيلق اليهودى عام ١٩١٦ . وذلك اثر نفيهما من فلسطين بواسطة الاتراك والتنبيه عليهما بعدم العودة مطلقا . وكانت تلك هى اول مرة اسمع فيها قصصا عن هؤلاء القوم او اراهم . وعرفت مدى ما يعانون تحت حكم الاتراك . وكانا على قناعة بأن من الممكن طرح المطالبة اليهودية بأرض اسرائيل بعد الحرب ، شريطة ان يلعب الشعب اليهودى دورا عسكريا ملموسا في الحرب بوصفهم يهودا . وبلغ من حماسى لما سمعته ان قررت التطوع في الفيلق اليهودى . لكننى تحطمت عندما علمت انهم لا يقبلون الفتيات .

اصبحت لدى معلومات بالطبع عن فلسطين . لكنها كانت نظرية .. اما هؤلاء الفلسطينيون فلم يحدثونا عن الرؤية او النظرية الصهيونية . وانما حدثونا عن واقعها .. عن الخمسين مستوطنة يهودية التى تم انشاؤها .. عن مستوطنة جوردون .. عن تل ابيب التى تم وضع اساساتها على ابواب يافا .. وعن الهاشومير (وهى المنظمة التى انشأها اليهود للدفاع عن انفسهم) ... وحدثنا بن زفى عن امرأة تدعى راثيل يانيت (ستصبح زوجته فيما بعد) كنموذج للمرأة اليشوف (المجتمع اليهودى في فلسطين) التى اثبتت ان المرأة تستطيع ان

تشارك كزوجة وكأم وكرفيقة للسلاح دون ان تشكو وباخلاص كبير .
وبدا لى ان هذه المرأة وامثالها يدفعون قضية جنس المرأة قدما - دون اية رعاية - اكثر مما فعلته اشد المدافعات عن حقوق المرأة .

وكنت انتهز كل فرصة لكى استمع الى هؤلاء الفلسطينيين ، وهم يجتمعون حول المائدة يغنون باليديش ويجيبون على اسئلتنا عن فلسطين بكل صبر . ولم يكن من السهل التحدث مع بن جوريون بعكس بن زفى الذى كان رقيقا في سلوكه وحديثه . اما بن جوريون فإننى لم اقابله اذ كان مقررا ان يلقى كلمة في ميلووكى . في نفس الليلة التى كان موريس (الذى كان في ميلووكى عندئذ) قد دعانى الى حفل موسيقى . وعابا على عدم استماعى للكلمة التى القاها ، فقد تقرر الغاء غداء له في منزلنا . وقد التقيت ببن جوريون فيما بعد ، لكننى اذكر اننى بقيت اخشاه فترة طويلة . وكان من الشخصيات التى لا يمكن التقرب منها بسهولة او السعى لمعرفتها .

وببطء بدأت الصهيونية تملأ عقلى وحياتى . وتعاظم ايمانى بأننى كيهودية انتمى الى فلسطين واننى كصهيونية عمالية استطيع اداء واجبى في تحقيق اهداف المساواة الاجتماعية والاقتصادية . ولم يكن الوقت قد حان بعد لكى أقرر العيش هناك . ورفضت ان انضم الى الحزب الصهيونى العمالى الى ان اتخذ قرارا ملزما .

وفي نفس الوقت كانت هناك المدرسة وموريس . وكان تراسلنا مستمرا . واذا ما قرأت رسالة. بعد كل هذه السنين فاننى اجد فيها المآسى والمخاوف التى تمر في حياة كل فتاة . لماذا لم يكن لى شعر اسود وعيون كبيرة براقة ؟ لماذا لم اخلق اكثر جاذبية ؟ كيف احبنى موريس ؟ هل هو يحبنى حقا ؟ ولا ريب اننى كنت اعد رسائلى له بهدف خفى هو ان اتلقى منه التأكيدات . وكان دائما يوافينى بهذه

التأكيدات برغم انه لم يكن يراعى حسن صياغتها . فمثلا يقول لى « لقد طلبت منك مرارا الا تعارضينى في مسألة جمالك » او « انك تقفزين لى بين الحين والحين بنفس الملاحظات الخجولة والناقدة التى لا استطيع احتمالها » .

وحاولنا في بعض الرسائل ان نرسم خططا مشتركة للمستقبل كانت تنتهى دائما بفلسطين . لكنه بطبعه العاطفى كان اقل تأكدا من الصهيونية منى .. فكان يحلم بعالم يسوده السلام . اما الحكم الذاتى القومى فلم يكن يستثيره . ولم يكن يعتقد ان دولة ذات سيادة يمكن ان تخدم اليهود حقا ، فتلك لن تخرج عن كونها دولة اخرى بكل ما في الدولة من مشاكل . وفي احدى رسائله في عام ١٩١٥ قال لى انه لا يدرى ان كان سعيدا او آسفا بحماسى القومى . وانه لم يشارك في احد الاجتماعات اليهودية لانه لا يهتم كثيرا بقضية ان يعانى اليهود في روسيا او في الارض المقدسة .

وفي عام ١٩١٥ كان ابى قد شرع في مجموعة من اعمال الاغاثة لليهود . عملت فيها معه . فتوثقت علاقاتنا ببعض . وخلال الحربين العالميتين قامت « لجنة التوزيع المشتركة » بدور هام لاغاثة اليهود . وكان مقر اللجنة في نيويورك يتعرض لانتقادات واسعة . فقررت الجماعات العمالية اليهودية تأسيس منظمة خاصة بها هى « لجنة الشعب للاغاثة » وإنضممت اليها انا وابى . وكان ابى يمثل اتحاد التجارة بينما كنت انا امثل جماعة ادبية صهيونية عمالية صغيرة . وكانت هذه الجمعية ـ التى لا اذكر اسمها ـ تدعو محاضرين من شيكاغو لعقد ندوات حول الادب الييديش .

وولدت قرب نهاية الحرب حركة يهودية كبيرة هى المؤتمر الامريكى . التى لعبت دورا كبيرا في تشكيل المؤتمر اليهودى العالمى في

الثلاثينيات . ورغم ان البوند (التى انتقلت الى امريكا) لم تعارض أنئذ في تشكيل المؤتمر ، فانها عارضت بشدة توجيهه نحو فلسطين . وفي عام ١٩١٨ جرت في كل انحاء امريكا الانتخابات للمؤتمر . وكانت تلك هى اول مرة يجرى فيها اليهود انتخابات خاصة بهم .وانضممت أنا وابى الى المؤتمر مؤيدين وقوفه مع الصهيونية في مواجهة البوند .

وقررت ان اخوض الحملة الانتخابية في انسب الاماكن وهى المعابد اليهودية . فكنت اقف فوق صندوق خارج المعبد لاخطب في الناس . وثارت ثورة ابى الذى رفض ان تقف ابنته في الشوارع لتتحدث للناس . ووقفت امى بيننا كحكم في مباراة . واقسم ابى ان يشدنى من ضفيرتى امام الناس اذا ما عدت لذلك . ولم آبه لذلك لكنى طلبت من صديقاتى الوقوف عند ناحية الشارع لتحذيرى اذا ما رأينه . والقيت كلمة ، وبعض من الخوف يعترينى ، ثم عدت الى المنزل لكى اجد ابى نائما ولتخبرنى امى انه جاء وسمع كلامى كله لدرجة انه نسى وعيده . وكانت تلك هى انجح الخطب التى القيتها في حياتى .

وكنت قد بدأت العمل بالتدريس في مدرسة يهودية في المركز اليهودى في ميلووكى ، حيث كنت اقوم ايام السبت والاحاد بتعليم اللغة اليديش والادب والتاريخ . وتلك هى اللغة الدافئة ، الطبيعية ، التى وحدت شعبا مشتتا . لكننى الآن اجدنى في تلك الأيام متعصبة لليديش .. اذ كنت لا اقرا ابدا خلط اليديش بالانجليزية ، وانه لابد لليهود في فلسطين ان يتحدثوا بلغتين : العبرية واليديش .. فلا يمكن ان تزول اليديش في فلسطين بالذات ، بل ان كل من يريد الانضمام للبوعالى زيون لابد ان يعرف اليديش . لكننى لو كنت اعلم ما يخبئه القدر لتعلمت العبرية ، صحيح اننى تعلمتها

عندما ذهبت الى فلسطين . لكنى لم أتفوق فيها ابدا مثل تفوقى في اليديش ٠

وقررت تنظيم مسيرة احتجاج في المدينة اثر المذابح المعادية للسامية في اوكرانيا وبولندا ٠ وعندما دعانى أحد اصحاب المتاجر الكبرى في المدينة . وهو يهودى . وابلغنى انه سيغادر المدينة لو قمت بهذه المسيرة . لم اعره أى اهتمام وبينت له ان تعاطفنا مع اليهود وراء البحار كفيل بكسب تعاطف المدينة معنا ٠ وقد نجحت المسيرة وساهم فيها المئات من اليهود ٠ وهنا لابد من ان اشير الى ان ميلووكى هى المكان الوحيد الذى لم اشهد فيه اى معاداة للسامية . على الرغم من أننى كنت اعيش في حى يهودى ولا اختلط الا باليهود ولم تكن لى صداقات مع غير اليهود . وبقيت على هذا النحو طيلة عمرى ٠

واعتقد اننى خلال سيرى في المسيرة في هذا اليوم اكتشفت اننى لا يجب أن اؤجل قرارى بالسفر الى فلسطين . مهما كان ذلك قاسيا على اعز الناس لدى ٠ وشعرت ان فلسطين . وليس المسيرات في ميلووكى . هى الاجابة الوحيدة على مذابح اوكرانيا ٠ وان اليهود يجب ان تكون لهم ارضهم الخاصة بهم مرة ثانية . واننى يجب ان اساعد في ذلك . لا بالخطب ولا بجمع التبرعات . بل بالعيش والعمل هناك ٠

وكأول خطوة لى نحو فلسطين . إنضممت الى حزب الصهيونيين العماليين (بوعالى زيون) ٠ ومع ان العضوية كانت لمن بلغ الثامنة عشرة . فقد قبلت عضويتى وانا في السابعة عشرة ٠ واصبح على الآن ان اقنع موريس بالذهاب معى الى فلسطين ٠

كنت اعلم ضرورة بقائنا عاما أو اثنين الى أن نجمع أجر السفر . لكننى أردت أن يعلم موريس اننى قد صممت على ان اعيش هناك كنت اتوق الى الزواج منه وكنت مصرة على الذهاب الى فلسطين ؛

وقلت له « اتوسل اليك ان تأتى معى » فأجابنى بأنه يحبنى لكنه يحتاج الى وقت لاتخاذ قرار بشأن الذهاب لفلسطين . ولعله ـ كما استشف الآن من قراءة رسائله ـ كان يفكر مليا فيما اذا كانت حياتنا سويا سوف تنجح مع وجود هذه الاختلافات بين شخصيتينا .

وتركت المدرسة ، وسافرت الى شيكاغو حيث عملت في المكتبة العامة . والى شيكاغو ايضا جاءت شينا وشاماى وطفلاهما . وكذلك ريچينا . وكنت اراهم كثيرا لكننى كنت تعيسة ، اذ كان الخيار دائما امامى بين موريس وفلسطين . وكنت اقوم بنشاط حزبى واسع خلال وقت فراغى . الامر الذى انتزعنى دائما من الاهتمام بأمورى الخاصة ، وهو ذات الموقف الذى سارت عليه حياتى في الستين عاما التالية .

لكن موريس ، لحسن الحظ ، وافق على الذهاب الى فلسطين معى ، رغم تحفظاته حول فلسطين . ولا ريب ان قراره قد تأثر الى حد ما باعلان الحكومة البريطانية في عام ١٩١٧ تأييدها « لاقامة وطن قومى للشعب اليهودى في فلسطين » وانها سوف تستخدم « مساعيها لتسهيل تحقيق هذا الهدف » . وقد جاء تصريح بلفور ـ كما سمى ـ (لكونه ممهورا بتوقيع چيمس بلفور وزير خارجية بريطانيا انئذ) في شكل رسالة موجهة الى اللورد روتشيلد . وقد جاء في الوقت الذى كانت قوات الجنرال اللنبى قد بدأت تغزو فلسطين . وبرغم ان العبارات الغامضة التى جاءت في هذه الرسالة كانت مسئولة عن اراقة الدماء بلا نهاية في الشرق الاوسط ، فان الصهيونيين في تلك الايام رحبوا بها باعتبارها على الاقل ارساء لقواعد الكومنولث اليهودى في فلسطين . ومن البديهى ان هذا الاعلان ملأنى بالبهجة .. لقد انتهى النفى اليهودى .. ولا شك اننى وموريس سوف نكون من بين ملايين اليهود الذين سيتدفقون على فلسطين .

في خضم هذا الحدث التاريخى تزوجنا في ٢٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٧ في منزل والدى . وكنا نريد زواجا مدنيا . غير أن امى اصرت على أن يكون زواجنا تقليديا . رغم ان مبادءنا الاشتراكية لا تؤمن به . وازاء الحاحها تم القران التقليدى على يدى الحاخام شونفيلد . وبقيت امى الى ان ماتت وهى تتحدث بفخر عن هذه الزيجة التى اجراها الحاخام شونفيلد .

بذلك بدأت حياتى الجديدة . كنت في العشرين . واستأجرنا غرفة اقمنا فيها سنتين . ولان الحرب لم تكن قد انتهت فقد كان علينا ان ننتظر . واصبحت اقضى نصف وقتى تقريبا في السفر خارج ميلووكى لالقاء الخطب الحزبية كصهيونية عمالية . نظرا لاجادتى اللغتين الانجليزى واليديش .

وقرر الحزب اصدار صحيفة . وعهد إلى بمهمة بيع الأسهم . وعارضنى ابى لكن موريس فهم اننى لا استطيع معارضة الحركة . واستمرت مهمتى عدة اسابيع . كنت اتقاضى فيها ١٥ دولارا في الاسبوع . بالاضافة الى ثمن الوجبات دون حساب ثمن الحلوى والآيس كريم فكنت ادفعه انا . وكنت ابيت في بيوت اعضاء الحزب بل في اسرتهم احيانا . وعندما وصلت الى كندا اكتشفت اننى لا املك جواز سفر لعبور الحدود . فلم يكن موريس قدإكتسب المواطنة . ولم يكن ممكنا استخدام جواز سفر ابى الذى بقى غاضبا منى . وتسللت الى كندا . وما ان ترجلت من القطار حتى بدأت سلطات الهجرة في استجوابى . اذ لم أت فقط من ميلووكى – وهى مدينة اشتراكية – وانما ايضا من روسيا . وبدا وكأنهم قد القوا القبض على عميل من البلاشفة لكن عضوا بارزا في الحزب الصهيونى العمالى هرع لانقاذى .

واستطعت ترويج اسهم هذه الصحيفة (واسمها دىزايت ـ اى التايمز) لكنها مع ذلك لم تعش طويلا ٠

كان موريس متسامحا ازاء غيابى الطويل عنه . واعتقد الآن اننى كنت استغل طيبته ٠ ولم تكن رسائلى اليه تتناول علاقتنا بقدر تناولها للاجتماعات والخطب او للموقف في فلسطين ٠ وكان يعزى نفسه بترتيب المنزل واعداده لاستقبالى عند عودتى . او بالعناية بأختى كلارا واصطحابها الى حفلات الموسيقى والمسرح ٠ وكان اكثر من في العائلة مصاحبة لكلارا . فكانت تعبده وتخبره بكل اسرارها ٠

في شتاء عام ١٩١٨ عقد المؤتمر اليهودى الامريكى اول اجتماع له في فيلادلفيا ٠ وكان هدفه الرئيسى صياغة برنامج (لتقديمه الى مؤتمر السلام في فرساى) بشأن ضمان الحقوق المدنية لليهود في اوروبا ٠ وكان من دواعى دهشتى واغتباطى ان اخترت من بين مندوبى ميلووكى ٠ وكم احسست بالزهو وانا بين الوفد الذى يمثل مجتمعى ومدينتى ٠ وعندما يسألنى الصحفيون عن البداية الحقيقية لحياتى السياسية . فإنه سرعان ما تقفز الى مخيلتى وقائع هذا الاجتماع بمناقشاته الحارة التى كنت اجلس الساعات مستغرقة في سماعها ٠ وكتبت الى موريس خطابا تملأه النشوة اصف له ما حدث بأن « هناك بعض الدقائق التى نصل فيها الذروة ونموت بعدها سعداء » ٠

لكن خطابات شينا لى لم تكن تملؤها النشوه . اذ كانت تحذرنى من اننى انغمس في امور عامة اكثر من اهتمامى بشئونى الخاصة التى يجب ان اتمسك بها واحافظ عليها ٠ وقد اكدت لموريس اننا عندما نصل الى فلسطين سوف اكف عن التحرك ٠

بحلول شتاء عام ١٩٢٠ بدأنا نعد عدتنا للسفر . فانتقلنا انا وموريس الى شقة في نيويورك شاركتنا فيها ريجينا ويوسل كوبلوف ٠ وتخلصنا من كل ما لدينا من امتعة واثاث . على اعتبار اننا سوف نقيم في الخيام في فلطسين . ولم نبق الا على الجراموفون والاسطوانات ٠ وابتعنا بطاقات السفر على احدى البواخر . وبدأنا جولة لتوديع الاقارب ٠

وتوقفنا في شيكاغو لتوديع شينا وشاماى وابنتهما جوديث (١٠ سنوات) وابنهما حاييم (٣ سنوات) وبعد ان حكينا لهما كل استعداداتنا فوجئنا بشينا تقول انها ايضا تريد ان تذهب الى فلسطين ٠ ولم تكن المفأجاة شديدة الوقع : فشينا صهيونية منذ حداثتها . ومرتبطة بالقضية نفسها بشكل عميق ٠ ويهمنى ان أؤكد انه لا شينا ولا موريس قد ذهبا معى الى فلسطين لحراستى . لكنهما فعلا ذلك لانهما وجدا ان فلسطين هى المكان الذى ينبغى ان يكونا فيه ٠

وكم كان شاماى رقيقا عندما وافق على سفر شينا مصطحبة اولادها ، لكنه طلب اليها فقط الانتظار الى ان تهدأ الامور في فلسطين ٠ وكانت الاضطرابات الواسعة النطاق قد عمت فلسطين اثر الهجمات العربية على المستوطنات اليهودية في اول مايو (ايار) ١٩٢١ ومقتل اربعين من المهاجرين اليهود من بينهم واحد من ميلووكى ٠ ولم تستطع السلطات البريطانية المدنية (التى تسلمت الامور من العسكريين) السيطرة على الموقف ٠ لكن شينا اصرت على حزم امتعتها ٠

كان وداع عائلتى مؤثرا . اذ انهمرت الدموع من عينى ابى بينما بدت امى وكأنها تذكر رحلتها عبر المحيط ٠ لكننا كنا على ثقة من

انهما . ومعهما اختى كلارا بعد ان تنهى دراستها في جامعة ويسكونسن سوف يلحقون بنا في فلسطين .

وهكذا كانت صفحة حياتى في امريكا في سبيلها لأن تطوى. وقد عدت اليها كثيرا في اوقات طيبة واخرى سيئة . لكننى خرجت منها ولدى الشىء الكثير : الفهم لمعنى الحرية - معرفة الفرص التى تتيحها الديمقراطية الحقيقية للفرد - وحنينا دائما لجمال الريف الامريكى . لكننى . لا أنا ولا شينا . ندمنا على تركها والذهاب الى فلسطين .

ويمكننى ان اكتب كتابا كاملا عن رحلتى الى فلسطين على متن هذه الباخرة التعيسه . فلم تكن الباخرة صالحة للسفر . وقد اضرب البحارة حتى قبل ان نقلع . وبدأنا الرحلة يوم ٢٣ مايو (ايار) ١٩٢١ . ثم اعلن البحارة العصيان احتجاجا على الشركة الملاحية . ومضى اسبوع الى ان وصلنا من نيويورك إلى بوسطن . وهناك بقينا تسعة ايام . وجاءنا وفد من الصهاينة العماليين لزيارتنا والتسرية عنا ووصفونا بأننا (وكنا ٢٢ فردا في البداية) رفاقهم الابطال . ونزل من الباخرة ثلاثة من زملائنا في بوسطن . وتلقت شينا برقية من شاماى يرجوها فيها النزول ايضا . لكنها رفضت .

وعندما وصلت الباخرة الى جزر الآزور تبين القبطان انها في حاجة الى اصلاح يستمر اسبوعا . وتم القاء القبض على اربعة من البحارة . الذين لم تكن ثورتهم قد انتهت . لانهم كانوا يعتزمون اغراق الباخرة . وعندما اقلعنا ثانية كان قد مضى علينا شهر من السفر : ثم انفجر براد (ثلاجة) الباخرة فاضطررنا الى الاكتفاء بالارز والشاى . ومات احد الركاب فألقوا بجثته من الباخرة . ثم اصيب شقيق القبطان بتصلب في

جسده وهذيان فحبسوه في غرفته . واخيرا . وقبل ان نصل الى نابولى . اطلق القبطان الرصاص على نفسه . وان كان البعض يقولون انه قتل .

كانت الشائعات قد وصلت الى ذوينا أننا غرقنا مع الباخرة. فما ان وصلنا الى نابولى حتى كتبنا اليهم بسلامتنا . ثم ركبنا القطار ـ بعد خمسة ايام ـ الى برنديزى . وهناك التقينا بمجموعة من الصهيونيين العماليين من لتوانيا . كانوا قد ذهبوا الى فلسطين مرتين لكنهم طردوا منها . وكانت تلك اول مرة اشاهد فيها « روادا » في نفس عمرى . فشاهدت فيهم صورة الاخلاص والعزم الذى كنت احلم بأن اكونه . وظل هؤلاء متباعدين عنا متعالين علينا اذ كانوا ينظرون الينا على اننا مهاجرون « ناعمون » من البورجوازية الامريكية ولن نحتمل البقاء في فلسطين لاكثر من ثلاثة أسابيع .

وعلى متن الباخرة التى كانت ستنقلنا الى الاسكندرية. اقترحت على رفقائى ان نترك غرفنا ونشارك المجموعة الليتوانية على السطح . والححت عليهم اننا يجب ان نثبت اخلاصنا لاهدافنا بأن نحيا معهم نفس الظروف القاسية . خاصة وان راكبى السطح لاحق لهم في وجبات ساخنة . واخيرا وبعد تردد وافقوا . وزالت الحواجز بيننا وبين جماعة لتوانيا. وانطلقنا جميعا نغنى بالعبرية واليديش .

وفي الاسكندرية صعد رجال الشرطة المصريون الى سطح الباخرة بحثا عن اثنين من « الشيوعيين » يدعيان رابابور . وتصادف وجود اثنين من زملائنا يحملان هذا الاسم . فأخذوهما وأعادوهما بعد ساعات طويلة مرهقة من التحقيق . وقد القى هذا الحادث علينا جميعا ظلالا من الخوف والقهر . الامر الذى جعلنا نقرر السفر بالقطار وتوجهنا الى المحطة لنسافر الى القنطرة واثناء الطريق الى المحطة ذقنا اول طعم

للشرق الأوسط بكل مرارته ، اذ شاهدنا جموع الشحاذين وهم يرتدون الاسمال البالية والذباب يغطيهم • وعلى الفور قفزت الى ذهنى صورة شحاذى بينسك ، وتصورت اننى سوف اصرخ لو ان احدا منهم لمسنى • لكننا كنا قد تعودنا على المآسى ، فشققنا طريقنا وسط قذارة لا يمكن وصفها • وكانت الحرارة شديدة ولم يكن هناك اى مصدر للماء • واخيرا ركبنا القطار ، منهكين ، لكننا مع ذلك كنا نغنى فرحا « بعودتنا الى صهيون » •

وفي القنطرة وجدنا المسئولين عن الهجرة يعملون في بطء لانهاء اوراقنا • وقبيل الفجر تحرك القطار مخترقا صحراء جزيرة سيناء متجها نحو فلسطين ، وجلست على المقعد المترب ، افكر لاول مرة منذ غادرت ميلووكى ، هل سنصل حقيقة الى تل ابيب ؟!

الفصــل الرابع

بداية حياة جديدة

لم أكن أتوقع أن تكون تل أبيب بهذا الشكل الذى رأيته من نوافذ القطار صباح ذلك اليوم الحار من شهر يوليو (تموز) . اذ بدت لى كقرية كبيرة غير جذابة . ولم نكن نعرف عنها سوى أن ستين عائلة من اليهود المتفائلين هى التى اسستها في عام ١٩٠٩ . دون ان يحلموا بأنها ستصبح عاصمة كبيرة يقطنها ٤٠٠,٠٠٠ نسمة . او انها ستصبح في عام ١٩٤٨ العاصمة المؤقتة لدولة اسرائيل .

وكان الاتراك قد طردوا كل سكان تل أبيب خلال الحرب . لكننا عند وصولنا اليها كان فيها ما يقرب من ١٥٠٠ نسمة . وكانت بعض اجزائها جميلة تصطف فيها المنازل الانيقة بحدائقها وتخترقها شوارع مرصوفة . غير أن اجزاء اخرى منها لم تكن المنازل فيها مبنية وفق اى خطة أو تنسيق أو جمال . وكانت احداث واضطرابات يوم العمال في عام ١٩٢١ ـ قبل وصولنا بقليل ـ قد دفعت الى تل أبيب بمئات من اليهود اللاجئين من يافا الذين ظلوا يعيشون في اكواخ او خيام .

وكان جل سكان تل أبيب من المهاجرين الذين جاء معظمهم من لتوانيا وبولندا وروسيا فيما سمى بالموجة الثالثة للهجرة الصهيونية . وكانت الغالبية العظمى منهم من العمال . في حين لم يخل الأمر من بعض « الرأسماليين » الذين اقاموا مصانع صغيرة ودكاكين . وكان

الاتحاد العام للعمال اليهود (الهستدروث) قد قام قبل ذلك بعام ، وخلال اثنى عشر شهرا ضم في عضويته اربعة آلاف عامل .

وعلى الرغم من أن عمر تل أبيب لم يكن قد تعدى الاثنى عشر عاما ، فإنها كانت تحت حكم ذاتى ، اذ سمحت لها حكومة الانتداب البريطانى بأن تفرض ضرائبها على المبانى وان تدير مرفق الماء فيها . بل كانت فيها قوة شرطة خاصة تتكون من خمسة وعشرين رجلا . وكان الشارع الرئيسى فيها (وهو شارع ثيودور هرتزل) يضم مدرسة هرزليا العليا . كما كان هناك حى تجارى وخزان للمياه يتجمع عنده الشباب . وكانت وسائل المواصلات فيها اما سيارات اوتوبيس صغيرة او عربات تجرها الجياد . وكان العمدة ، ماير ديزنجوف ، يمتطى خلال جولاته حصانا رائعا أبيض اللون .

وكانت الحياة الثقافية فيها مزدهرة . وقد استقر فيها عدد من الكتاب من بينهم الفيلسوف اليهودى الكبير آحاد هاعام ، والشاعر حاييم نحمان بياليك . وكانت فيها مجموعة مسرحية من العمال ، وعدد من المقاهى التى تجرى فيها مناقشات ساخنة حول الامور السياسية والثقافية . لكن ذلك لم يكن واضحا امام اعيننا ونحن نقف على محطة القطار دون ان نجد احدا في استقبالنا رغم اننا كنا قد كتبنا بوصولنا الى من هاجروا الى فلسطين قبل ذلك بعامين . وعلمنا فيما بعد ان هؤلاء كانوا في نفس هذا اليوم قد توجهوا الى القدس لانهاء ترتيبات مغادرتهم فلسطين .

المهم ان حلمنا تحقق أخيرا . وها نحن في تل أبيب ، في جزء من الوطن القومى اليهودى . واثناء حيرتنا ونحن لانعرف ما هى وجهتنا التفت واحد من الرفاق نحوى قائلا « حسنا ياجولدى . لقد اردت الجىء الى ارتزيسرائيل (ارض اسرائيل) وها انت فيها الآن . وبمكننا

ان نعود ــ فهذا يكفى » . اننى لا اذكر من الذى قال ذلك ، لكنى اذكر اننى حتى لم ابتسم .

وفجأة جاءنا رجل ، يدعى باراش ، يملك فندقا ، طلب لنا عربة حملت امتعتنا وسرنا وراءها (منهكين) . وشاهدت خارج المحطة شجرة صغيرة . وكانت أول شجرة أراها في هذا اليوم . لكنها كانت رمزا يشبه المدينة من حيث نموها المعجز في قلب الرمال .

قضينا سحابة النهار في الفندق بعد أن اغتسلنا واكلنا واسترحنا . ولم يزعجنا الا وجود حشرة البق في الأسرة وفي صباح اليوم التالى نطوعت شينا لشراء بعض الفاكهة للأطفال . لكنها عادت مبتئسة تشكو من كثرة الذباب وعدم وجود حقائب او اكياس ورقية ، ولا اذكر اننى سمعت شينا تشكو ابدا من قبل من شيء . لكنى شرعت افكر في مقدرتنا على احتمال هذه المضايقات او أننا « ناعمون » كما وصفنا اصدقاؤنا اللتوانيون. واستمر احساسنا بالتعب والقلق والحرارة .

عاد اصدقاؤنا من القدس ليضيفوا الى همومنا . ما قصوه علينا من متاعب ستقابلنا . وقدموا لنا في العشاء (هامبورجر) يحمل طعم الصابون ، اتضح فيما بعد أن قطعة من الصابون وقعت داخله . وعدنا الى الفندق نشعر بالغثيان والاكتئاب . وتبين لنا بعد ذلك أنه لا فائدة من بقائنا في الفندق اذ كان لابد لنا أن نضرب جذورنا في الارض كتلك الشجرة خارج المحطة .

وبدأت نقودنا تنفد . وان لم يكن احد يصدق ذلك باعتبار اننا جئنا من امريكا بل اننى قابلت سيدة في تل ابيب ما ان رأتنى حتى احتضنتنى وامطرتنى بالقبلات وهى تقول : « شكرا لله انكم وصلتم الينا من امريكا ايها المليونيرات » .

وكانت خطتنا في ميلووكى ان نتقدم لعضوية واحد من الكيبوتزات . بل كنا قد اخترناها بالفعل . لكنهم ابلغونا ان علينا ان ننتظر الى أن ينتهى الصيف . وعوضا عن ان نغزو الارض . بدأنا نغزو اصحاب الاملاك . كنا نريد سبعة اسرة على الاقل . واخيرا وفقنا الى شقة من غرفتين ومطبخ . اما الحمام فكان مشتركا مع نحو اربعين شخصا . واقترضنا لوازم البيت وكنا نطبخ بموقد يعمل بالكيروسين . ووجد كل منا عملا التحق به .

بدأنا نعتنى بمنزلنا بالاسلوب الامريكى الذى لم يتقبله الجيران . فقد وضعنا مثلا ستائر لمنع الذباب . فكانوا يستغربون ذلك . اذ كانوا يفهمون ان نحمى منازلنا من القطط المتوحشة مثلا . اما من الذباب ؟! وكانت اغلى مقتنياتنا بالطبع هى الجراموفون والاسطوانات . وبالتدريج بدأ الجيران يفدون الينا في الامسيات لتناول الشاى وسماع الموسيقى .

وكثيرا ما كنت اقص على المهاجرين الجدد حكايات عما قابلته من مصاعب عندما جئت . لكننى كنت افهم من خلال تجربتى المريرة ان هذه الاحاديث كانت تؤخذ باعتبارها نوعا من الدعاية ينصرفون عن سماعها . ومع ذلك فقد كان علينا ان نشق طريقنا في الارض التى اخترناها . فلم تكن هناك آنئذ لا دولة اسرائيل ولا وزارة الاستيطان ولا الوكالة اليهودية . ولم يكن هناك احد يساعدنا . وتحتم علينا أن نعتمد على أنفسنا . كذلك فنحن لسنا في درجة اعلى من اولئك الذين يهاجرون الى اسرائيل اليوم . لكنه يبقى . في المقابل . ان تصميمنا على ما جئنا من اجله دون ان يطلب منا ذلك احد او يعدنا بشيء . هو الذى اسرع بتأقلمنا مع الحياة الجديدة . وادركنا انه ليس امامنا الا ان نستوطن هذه الارض ونستقر فيها ونجعلها اجمل وأيسر .

وبرغم استمرار المضايقات ، ومن بينها مرض ابنى شينا ، فإننا بدأنا نتعود على فلسطين ، ولم نفكر اطلاقا في تركها ، وكانت رسائلنا الى والدينا تتخطى هذه المصاعب . واذكر احدى رسائلى لشاماى قلت له فيها : انه قد لا يجد العمل الذى يريده وقد يعانى متاعب اقتصادية ، لكن الانسان الذى يريد ارضه ، ويريدها من كل قلبه ، يجب ان يكون مستعدا لذلك كله .

كنت في مطلع العشرينات من عمرى ، مليئة بالقوة والحيوية ، لا مشاغل عندى ولا أطفال ، ومعى احب الناس لدى : زوجى واختى واعز صديقاتى . ولم ابتهج في حياتى قدر سعادتى في اول ليلة جمعة نقضيها في تل أبيب في الشوارع .. فها أنذا في المدينة اليهودية الصرفة الوحيدة في العالم ، التى يشترك الجميع فيها ـ بأعمق معنى ـ لا في الماضى المشترك فحسب بل أيضا في الاهداف المشتركة للمستقبل . ان جميع هؤلاء الناس اخوة لى ، فنحن وان كنا قد جئنا من مناطق مختلفة ونتحدث لغات مختلفة فإننا نتشابه سويا في ايماننا بأن اليهود هنا يستطيعون ان يكونوا سادة مصيرهم لاضحاياه .

وكم كنت فخورة ومعجبة بشينا وموريس اللذين تحملا كل المصاعب . وكان بالطبع هناك من غادر فلسطين تماما كما يغادر البعض اسرائيل الآن . لكننى على يقين من انهم هم الخاسرون .

في شهر سبتمبر (ايلول) تقدمنا بطلب للالتحاق بكيبوتز مرحاقيا في بحر جزريل (ايمك) بسبب بسيط هو وجود واحد من اصدقائى انا وموريس فيه وكان قد التحق بالفيلق اليهودى من قبل . ولم نكن نعرف شيئا عن الكيبوتزات فيما عدا انها مستوطنات زراعية جماعية لا توجد فيها ملكية خاصة ولا تجارة خاصة ولا ايد عاملة مأجورة ، وبهذا كانت المجموعة مسئولة عن تلبية كافة حاجات افرادها

لكننا كنا نؤمن ـ وان كان ايمانُ موريس اقل منى ـ بان الكيبوتز هى طريقة الحياة الوحيدة التى يمكننا فيها التعبير عن انفسنا كصهاينة وكيهود وكبشر .

ولا بد ان نحكى شيئا عن تنمية وتطوير ايمك (بحر جزريل) ففيه تكمن قصة المجهود الصهيونى .

فعندما انتهت الحرب العالمية الاولى منحت عصبة الامم لبريطانيا العظمى الانتداب على فلسطين ، وانتعشت الآمال بتنفيذ وعد بلفور بإقامة الوطن القومى اليهودى . وقبل ذلك بسنوات . في عام ١٩٠١ . كانت الحركة الصهيونية قد أنشأت الصندوق القومى اليهودى بغرض واحد محدد هو شراء الارض في فلسطين باسم الشعب اليهودى . ولا انسى ذلك الصندوق الأزرق الذى كان في منزلنا . وفي كل منازل اليهود ، حيث يضع فيه كل الناس أية عملات . وابتداء من عام ١٩٠٤ بدأ الشعب اليهودى ـ بهذه العملات ـ يشترى مساحات شاسعة من فلسطين .

وتعالوا نفكر في ذلك الذى مللت من سماعه . وهو ان اليهود « سرقوا » الارض من العرب في فلسطين . فالوقائع تختلف عن ذلك . فلقد اثرى الكثير من العرب بعد ان دفعت الاموال الطائلة لشراء الارض . وكانت هناك منظمات وافراد أخرون اشتروا أراض ايضا . لكنه بحلول عام ١٩٤٧ كان الصندوق القومى اليهودى ـ او ملايين الصناديق الزرقاء ـ تملك اكثر من نصف الاملاك اليهودية في البلد . فلنسقط ـ على الاقل ـ هذا الادعاء .

في الوقت الذى وصلت فيه الى فلسطين كانت قد جرت عمليات لشراء ارض الـ (ايمك) برغم انها كانت في غالبيتها من المستنقعات التى تحمل امراض الملاريا والحمى . المهم ان هذه الارض المليئة

بالأوبئة امكن شراؤها وبثمن غال . وتصادف ان الصندوق القومى اليهودى اشتراها من عائلة واحدة عربية موسرة تعيش في بيروت .

وكانت الخطوة التالية هى جعل هذه الارض صالحة للزراعة ، ومن طبائع الاشياء ان الفلاحين العاديين لا يكونون على استعداد لقصم ظهورهم في مشاريع خطرة تحتاج الى سنين عديدة قبل ان تؤتى ثمارها . لكن الاناس الوحيدين الذين كان بإمكانهم ان يحملوا على كواهلهم عبء تجفيف هذه المستنقعات ، هم رواد حركة الصهيونية العمالية الذين دفعتهم مبادؤهم الى العمل في هذه الارض بصرف النظر عن قسوة الظروف او الخسائر البشرية . والاهم من ذلك هو استعدادهم للعمل بأنفسهم دون استئجار ايد عربية عاملة تحت اشراف مديرين يهود . وكان معظم المستوطنين الاول في مرحاڤيا من هذا النوع ، وعاشوا حتى رأوا الايمك واحدا من أخصب وديان اسرائيل واكثرها ازدهارا .

وقد تأسست مرحاڤيا في وادى الايمك عام ١٩١١ على يد مجموعة من الشباب الاوروبى . الذين اضطروا الى هجرها في عام ١٩١٤ اثر اندلاع الحرب العالمية الاولى وازاء الهجمات العربية والمضايقات التركية وبعد ان وضعت الحرب اوزارها ، عادت مجموعة اخرى من الرواد ، من بينهم من حاربوا في الفيلق اليهودى وانا وموريس ، الى انشاء المستوطنة في نفس المكان ، ثم غادروها ثانية . وفي ١٩٢٩ عادت مجموعة من المستوطنين الى المكان نفسه ونجحوا في البقاء فيها .

صدمنا عندما رفضوا طلباتنا للانضمام الى المستعمرة . وقيل لنا ، في تبرير ذلك الرفض ، ان المستعمرة لا تحتمل وجود اطفال فيها في هذه المرحلة ، كما اننى بوصفى فتاة امريكية ــ قد لا أستطيع القيام بالأعمال الشاقة المطلوبة . وجادلت بضراوة واصرار على انه ليس من

حق احد ان يطلق هذه الافتراضات . واننا يجب ان نأخذ فرصتنا لاثبات مقدرتنا . واذكر ان احدى النقاط التى احتسبت ضدى هى اننى عملت في تل ابيب كمدرسة للغة الإنجليزية . وذلك يثبت اننى مدللة .

اخيرا سمح لنا بالذهاب الى مرحاڤيا لعدة ايام حتى يحكم علينا ساكنوها بأنفسهم ويقبلونا بين ظهرانيهم . وذلك ما حدث فعلا . وتفرقت مجموعة تل ابيب فرحلت رچينا ويوسل بحثا عن عمل . واصرت شينا على البقاء في الشقة بمفردها علي ان تؤجر احدى الغرفتين وتبحث لها عن عمل في مستشفى هداسا التى افتتحت حديثا في تل ابيب .

ومرحاڤيا الآن مستوطنة آهلة بالسكان وفيها مدرسة عليا يلتحق بها الاولاد من كل انحاء الايمك . وكغيرها من الكيبوتزات الكبيرة فقد مزجت الزراعة بالصناعة . وفيها الآن مصنع للأنابيب البلاستيك ومطبعة . وتتميز الغرف هناك بالراحة . وقاعة الطعام المشتركة مكيفة الهواء . ولكن دون ان تتغير المبادىء التى قامت عليها الكيبوتز في عام ١٩٢١ . ومازال جميع الاعضاء يؤدون اى عمل تعهد اليهم به لجنة العمل . مع فارق واحد هو انهم قد تلقوا تدريبا على هذه الاعمال . ويشترك كل واحد منهم في اتخاذ القرارات الهامة التى تجرى مناقشتها والتصويت عليها في الاجتماع الاسبوعى العام . لكن الاطفال . كما هى الحال منذ البداية . ينامون سويا ويتعلمون سويا .

آمنت على الدوام بأن الكيبوتز هى أفضل مكان يزاول الانسان فيه كيانه كبشر . وليس معنى ذلك انه لا يوجد فيها حسد او غش او كسل . فأهلها ليسوا ملائكة . لكنهم في النهاية خدموا اسرائيل خدمات جليلة . وهناك اليوم في اسرائيل ٢٣٠ كيبوتزا . لكنى لا أتصور كيف

كان يمكن ان تكون عليه حال البلد لو لم توجد هذه الكيبوتزات وقد بقيت طيلة حياتى ـ بسبب ارتباطى بالحياة العامة والتزاماتى فيها ـ اندم على انى لم اقض حياتى في كيبوتز ولم تواتنى الشجاعة لكى اتخذ القرار بالبقاء فيها طول العمر .. فالرضا الذى يحصل عليه من يعيش فيها يقل ضخامة عن العمل في الحياة العامة .

اما المستعمرة التى ذهبنا اليها فقد ضمت عدة منازل وبقايا اشجار .. لكن لا بيارات ولا ازهار .. لا شيء على الاطلاق سوى الرياح والصخور والشمس الحارقة تغمر الحقول . اما في الربيع فكانت المنطقة تنقلب الى اجمل مكان في الدنيا اذ تزهر قمم الجبال بل وحتى المستنقعات تغطيها الزهور . وكانت المشكلة الاولى امامى هى ان اثبت لهم اننى استطيع تأدية اية مهمة يعهد بها الى . ولا أذكر كل الاعمال التى قمت بها . لكننى اذكر عودتى ليلا منهوكة القوى الى حد اننى لم اكن استطيع تحريك اصبعى . واضطرارى مع ذلك الى تناول العشاء مع المجموعة حتى لا اتعرض للسخرية . وعندما أمر الآن بالغابة الرائعة في مرحاڤيا فإن الذاكرة تعود الى الايام التى كنا نحفر فيها بين الصخور كما نزرع شتلات الاشجار ونحن نتساءل هل ستزهر ؟! واخيرا قبلت عضويتنا انا وموريس في الكيبوتز .

وكانت الحياة في الكيبوتز في العشرينات ابعد ما تكون عن الرفاهية . فالطعام قليل ومذاقه فظيع . وكنت اسعد بالعمل في المطبخ في حين لم تكن النساء يحببن ذلك . اذ كن يردن القيام بنفس الاعمال التى يقوم بها الرجال . وهكذا فإن نساء الكيبوتز سبقن اى حركة تحرر للمرأة بنصف قرن من الزمان . وكنت اقول لهن لماذا تفضلن العمل في الحظائر واطعام الحيوانات على العمل في المطبخ

واطعام رفاقكن ؟ وبقيت اكثر اهتماما بنوعية طعامنا عن اهتمامى بتحرر الانثى .

وأخذت اعيد تنظيم المطبخ . باستبعاد الزيت الرهيب الذى كنا نجلبه من العرب في قرب من الجلد تجعل طعمه كريها كالموت . والغيت اسماك الرنجة في الافطار واستبدلتها بالشعير الساخن . بل اننى احضرت اكوابا زجاجية لشرب الشاى بدلا من الاكواب المعدنية . كنت أقدم الرنجة في الغداء . لكن المشكلة ان كل فرد لم تكن لديه الا اداة واحدة اما .ملعقة او سكينا او شوكة .. ولم تكن النساء في المطبخ ينزعن قشور الرنجة . فقررت ان انزعها عند تقديمها . وعندما اعترضن على ذلك كنت أقول لهن : كيف تقدمن الرنجة في بيوتكن لعائلاتكن ؟ وهذا هو بيتنا وتلك عائلاتنا . اما اسوأ ما فعلته . وظل حديث الوادى كله شهورا طويلة . فهو قيامى بوضع « مفرش » على المائدة !

كان هناك زى موحد للنساء من قماش خشن يصنعه العرب . نجعل فيه فتحة للرأس وفتحتين للذراعين ثم نربطه من الوسط . وفي ليلة الجمعة فقط كنا نغير هذا الزى فيرتدى الرجال قمصانا نظيفة وتلبس النساء بلوزات وجونلات . لكننى كنت اصر على كى ملابسى كل ليلة . برغم النظرات والتعليقات . بل اننى احضرت الجراموفون من عند شينا في تل ابيب .

في الشتاء عهد الي برعاية حظيرة الدواجن بعد ان تلقيت تدريبا على هذا العمل في احدى المدارس لعدة اسابيع . وكم سر والداى . بعد ذلك بسنين . عندما عرفا بهذه القصة اذ كنت معروفة طيلة حياتى بكراهيتى لكل الحيوانات وحتى الطيور . وازدهرت احوال حظيرة الدواجن حتى أصبح الناس من كل ارجاء وادى الايمك يجيئون

لمشاهدتها . وبالطبع انتقلت الطيور والبيض الى مائدة الطعام في مرحاقيا .

كان سكان الكيبوتز ، وانا منهم ، يتعرضون للملاريا والدوسنتاريا ، الامر الذى جعل اليد العاملة دائما قليلة . وكان الصيف قاسيا في حرارته وحشراته ؛ اما الشتاء فيغرقنا في الطين . وقد تفهمت هذه الظروف وتقلباتها ، اما موريس فبدأت الامور تفقد معناها ومذاقها لديه بالتدريج . وكان يرى من السخف ان تقبل جماعة ظروفا صعبة لحياة صعبة لمجرد اسباب عقائدية . لم يكن هناك احد في الكيبوتز يهتم حتى بالحديث عما يهتم به موريس : الموسيقى والكتب والفن . صحيح انهم لم يكونوا غير متعلمين ، لكن الاولويات لديهم اختلفت عنه . وكان موريس يرى ان عقول الناس هنا تتخذ مجرى واحدا ، وضيقا . وكان يفتقد الاحساس بالخصوصية .

الواقع انه لم يكن مخطئا كلية ، فلو أن الكيبوتز في بدايته قدم الحمامات والمراحيض الخاصة ، وتسهيلات لصنع الشاى في الغرف ، لما كان الآلاف من امثال موريس قد غادروا البلاد . لكن الكيبوتز في العشرينات لم يكن قادرا على تقديم هذه الاشياء . وانا شخصيا لم اكن اشعر بالضيق لعدم توفرها . ولم يمر وقت طويل حتى شعرت بأننى في منزلى واننى لم اعش من قبل في اى مكان أخر . وكانت مختلف جوانب الحياة الجماعية ، التى كان موريس يراها حائلا دون السعادة هى نفسها ذات الجوانب التى تبعث السعادة في نفسى . وبالطبع كانت هناك امور لم اتأقلم معها مثل هؤلاء النسوة قدامى العهد في الكيبوتز اللائى كن يتصورن ان من حقهن وضع القوانين لمسار كل الامور .

نظرا لتقلب الطقس ، بين الريح والشمس ، ولعدم وجود مساحيق

التجميل . كانت نساء الكيبوتز يهرمن بسرعة عن نساء المدن . ومع وجود التجاعيد . فقد بقين على انوثتهن . وكما هو الحال في كل مكان في الدنيا . فقد كانت هناك زيجات وقصص حب . لكن الناس كانوا كتومين . بل كانت الدنيا عموما اكثر نقاء وصفاء في تلك الأيام .

احببت الكيبوتز . واحبنى الكيبوتز وعبر عن حبه . في البداية انتخبت عضوا في اللجنة التنفيذية المسئولة عن وضع السياسة العامة للكيبوتز . وفي عام ١٩٢٢ اخترت مندوبة عن الكيبوتز الى مؤتمر للكيبوتزات . واشعر الان . وانا اكتب هذا . بالفخر لأن الكيبوتز اولانى هذه الثقة وخولنى حق ابداء ملاحظاتى باليديش لأنى لم اكن اتقن العربية . وقد عقد المؤتمر في دجانيا « المستعمرة الام » . واستمرت الجلسات اسبوعا في نقاش مرهق وطويل حول مشاكل غير هامة تتعلق بالكيبوتز . لكن المشاركين في هذا المؤتمر لم يكن يساورهم الشك في انهم يرسون حجر الاساس لمجتمع مثالى في مطلع التجربة الكبيرة في التاريخ اليهودى . وكانوا في ذلك ـ بالطبع ـ محقين .

والتقيت خلال ذلك الاسبوع في دجانيا بالعديد من الشخصيات المرموقة والتى اصبح بعضها اصدقاء لى فيما بعد . من بينهم بن جوريون وبن زفى اللذين قابلتهما في ميلووكى . وابراهام هارزفيلد وليفى اشكول وزالمان شازار وغيرهم . وكنت اكتفى بالطبع بالاستماع اليهم واستيعاب ما يقولون . وعدت الى مرحافيا اتحرق شوقا الى ابلاغ موريس بما حدث .

واتيحت لى الفرصة لزيارة ارجاء البلد . اذ جاءت زوجة فيليب سنودون ، الذي كان واحدا من اشهر الشخصيات البريطانية في حزب العمال . واضطرنى الحزب الى مرافقتها نظرا لاجادتى اللغة الانجليزية

واتيحت لى خلال الجولة رؤية أول مخيم بدوى دعانا فيه العرب الى وليمة من اللحم والارز والخبز البتاو . واعطونى ملعقة لاكل بها بعد ان فغرت فاهى امام امكانية تناول الطعام بيدى . وقد تكرر ذلك عدة مرات ، كلما زار البلد شخصيات هامة .

لكن صفاء الدنيا لم يدم . فقد تفاقم ضيق موريس من كل شيء ، الى ان سقط مريضا بالفعل . وكنا قد بقينا في مرحاڤيا عامين ونصفا عندما ابلغنى الاطباء ضرورة مغادرتنا للكيبوتز الا اذا كنت لا ابه بأن يصبح مرض موريس مزمنا . ولست ادرى هل كانت حالة موريس قد تغيرت لو اننى اوليته مزيدا من الاهتمام ولم انصرف بهذا القدر الى الشئون العامة . لكننى اؤمن بان استغراقى في شئون الجماعة لم يكن يحرم موريس من اى شيء . ومع ذلك فإنه مما لا شك فيه ان موريس كان يجاهد بمفرده طويلا لكى يعتاد على ظروف بالغة القسوة بالنسبة له .

كذلك فقد كانت هناك نقطة خلاف مستمرة بيننا . اذ كنت ارغب في ولادة طفل بينما كان موريس يعارض كلية في طريقة التربية الجماعية للاطفال في الكيبوتز . كان يريد لطفلنا ان يشب بنفس الاسلوب الذي عشناه انا وهو ، لا أن تخضع تربيته للجنة وبالتالى للكيبوتز كله . وهكذا رفض ان يكون لنا طفل الا اذا تركنا مرحاڤيا .

وهكذا حزمنا امتعتنا وودعنا الجميع . وكنت امل ان اعود ثانية بعد أن تتحسن صحة موريس ، وبعد أن ننجب طفلا وبعد أن تكون علاقتنا ـ التى تدهورت ـ قد عادت الى طبيعتها . لكن الامور لم تسر على نحو ما اشتهيت .. بقينا في تل ابيب عدة اسابيع عند شينا وشاماى الذى كان قد وصل الى فلسطين . وكانا قد انتقلا الى شقة

جديدة (فيها حمام) . والتحقت بعمل في مكتب البناء التابع للهستدروث (والذى سمى فيما بعد سوليل بونيه) . وفيما كنت افتقد الكيبوتز الى حد كبير . كانت الرسائل تنهمر على موريس من امه واخته تدعوانه للعودة للولايات المتحدة مع استعدادهما لدفع النفقات .

بدت تل ابيب بزحامها وضجتها . صغيرة بالمقارنة الى مرحاڤيا . وبدأ موريس يستعيد صحته . لكننا لم نستعد علاقتنا ابدا . وبدأت افتقد صداقاتى واعمالى في الكيبوتز . ومع اننا لم نكن نتشاجر . فقد كنا في قرارة انفسنا نلقى اللوم على بعضنا على ما وصلت اليه امورنا . وربما لو تحدثنا بصراحة لتغيرت الامور . لكننا شعرنا بأن كلامنا يقف على طرفى نقيض . ثم تلقيت عرضا سخيا بأن أعمل انا وموريس في مكتب سوليل بونيه في القدس . فخامرنى الامل في ان يساهم جو الجبل في اعادة الامور الى نصابها . وكان من حسن الفأل ان علمت ليلة سفرنا الى القدس . اننى حامل .

في ٢٣ نوفمبر (تشرين الثانى) ولد ابننا مناحم في القدس . وغمرنا الاحساس بالابوة ؛ فكنا نقضى الساعات ننظر في وجهه ونحن نتحدث حول مستقبله . لكننى لم استطع التخلص من تأثير مرحاڤيا . وزرتها لفترة عندما كان مناحم في شهره السادس . ولكن موريس لم يكن مستعدا للعودة الى الكيبوتز . وهكذا تحتم على انا ان اتخذ القرار الحاسم .. او بصراحة اكثر ان احدد الاولوية لمن . الواجب نحو زوجى وبيتى وابنى ام للحياة التى احببتها . وادركت ـ كما حدث كثيرا بعدئذ ـ ان الواجب يأتى في المقام الاول . وهكذا اتخذت قرارى وعدت الى القدس . مصرة على بداية جديدة . صحيح ان زوجى لم يكن ملائما للحياة الجماعية والشاقة . لكنه الرجل الذى احببته . والذى اشترك معه الآن في ابننا .

الفصل الخامس

رواد .. ومشاكل !

كانت السنوات الاربع التى قضيتها في القدس من اتعس التجارب التى مررت بها خلال حياتى الطويلة · كان كل شىء يسير على النحو الخاطىء . وكثيرا ما شعرت اننى اعيش من جديد اسوأ سنوات عمر امى . وما كانت تحكيه لنا عن مدى الفقر المدقع الذى كانت تعيشه في روسيا · ولم تكن النقود او الصحة هى المهمة . وان كنت لم احصل منهما على الكثير · وكنت انا وموريس معتادين على الفقر وعلى مستوى متواضع من الحياة . ولم نكن نهتم الا بشىء نأكله ومكان نظيف ننام فيه وكتاب جديد أو اسطوانة ..

ولم يكن بإمكاننا الاعتماد على مرتب موريس فحسب . خاصة وان لدينا اطفالا يجب ان يأكلوا ويعيشوا · واعتقد ان التحرر من الخوف هو أن تستطيع ان تقدم لاطفالك الضروريات وهو حق الانسان الأول على الوالدين · ولقد عرفت ذلك نظريا من قبل . لكننى جربته بنفسى حتى لم تعد ذاكرتى تنساه · وهنا يبرز الخلاف بين الكيبوتز والعالم كله . فهناك لا يقلق الوالدان . ولا بد للاطفال ان يأكلوا كفايتهم حتى لو اضطر الكبار الى شد الاحزمة على البطون . وعندما اشتدت ظروف الطوارىء في الحرب العالمية الثانية بعد ذلك بعشرين عاما . اقترحت ان يدير الشعب اليهودى في فلسطين شبكة تعاونية من المطابخ طيلة هذه الظروف . وذلك من

أجل ان يجد الاطفال كفايتهم من الطعام · ورغم ان هذا الاقتراح سقط ، فإننى مازلت اعتقد وأؤمن بصحته ·

وكان من اسباب تعاستى في القدس ، بالاضافة إلى ما سبق ، ذلك الشعور الثقيل بالوحدة ، وبأننى اقبع في شقة صغيرة مستغرقة في تدبير امورى وفقا لمرتب موريس ، بدلا من ان افعل الاشياء التى جئت من أجلها إلى فلسطين في المقام الاول · وكنت اذهب إلى البقال فاعطيه ايصالا بمائة قرش في مقابل ٨٠ قرشا فقط ، وحتى هذه القروش لا استعملها نقدا وانما اخذها في شكل فواتير مشتريات مقدما ·· ثم آخذ هذه الفواتير إلى بائعة الدجاج لكى اشترى قطعة من الدجاج في مقابلها بعد ان تخصم هى من قيمتها ١٠ أو ١٥ ٪ · وكثيرا ما كان شاماى يأتى إلى القدس وقد اعطته شينا جبنا او قفصا من الفاكهة والخضروات · فكنا نقيم عندئذ وليمة حقه ·

وقبل ان تولد سارة ، كنا نؤجر احدى غرفتينا لنحصل على مزيد من المال ؛ لكننا صرفنا النظر عن ذلك بعد ولادتها حتى نتمكن من تخصيص غرفة للاطفال · ووجدت ان افضل شىء هو ان اجد عملا اؤديه في المنزل حتى لا اترك الطفلة وحدها فاتفقت مع مدرسة مناحم على أن اقوم بغسل كل ادوات الحضانة في منزلى مقابل مصاريف المدرسة · وكنت اقضى الساعات الطوال امام الموقد والمياه الساخنة اغسل اكواما من الفوط (المناشف) والمرايل ·

ولم أكن اتأفف من هذا العمل ، فقد قمت بما هو أقسى منه في مرحاڤيا · لكننى كنت هناك جزءا من مجتمع ديناميكى متكامل ، أما هنا في القدس فلم أكن اعدو كونى واحدة من ملايين النساء الأسرى الذين حكمت عليهم الظروف بالاهتمام بالأطفال ، وسعالهم ،

واحذيتهم التى قد تتشقق . وصحتهم التى قد تضرها التدفئة المستمرة شتاء ٠

وكان القلق يستبد بنا خشية أن تغلق سوليل بونيه أبوابها بعد ان ساءت احوالها ٠ وكانت مرتباتها تدفع للعمال في صورة كمبيالات قيمتها ١٠٠ أو ٢٠٠ قرش مكفولة بكمبيالات وتعهدات أكبر حصلت عليها السوليل بونيه مقابل مشروعات بناء المنازل والطرق . وشاعت آنئذ القصة عن اليهودى الذى قال ان لدى وسادة (مخدة) من الريش استطيع بها بناء منزل ٠

وعندما سئل عن كيفية تحقيق ذلك قال : اننى أستطيع بيع الوسادة بجنيه ٠ ثم أشترك بالجنيه في عضوية جمعية للقروض . وذلك يعطينى الحق في اقتراض عشرة جنيهات . وما عليك إلا أن تختار قطعة أرض تعطى صاحبها هذه الجنيهات العشرة نقدا . والبقية على هيئة كمبيالات ٠ الآن أصبح لديك الأرض . وما عليك إلا أن تجد مقاولا يبنى المنزل في مقابل أن يعطيك شقة فيه ٠

وحرصت على أن تكون صورة حياتى في رسائلى إلى والدى مختلفة اللون . كما حرصت على ابعاد شينا عن حقيقة الموقف السىء الذى أعيشه ٠ أما ريچينا فكانت تزورنى في البيت محاولة التسرية عنى . وكانت تعمل آنئذ في مكتب اللجنة التنفيذية الصهيونية في القدس ٠

. وتعودنى الآن ذكرى أيامى في القدس التى لم أكن أهتم فيها إلا بالبيئة المحيطة بى مباشرة ٠ وكانت القدس مقرا لحكومة الانتداب آنئذ . والمكان الذى يدير منه المدينة ويحكمها المفوض البريطانى السامى السير هربرت صمويل الذى خلفه لورد بلومر في عام ١٩٢٥ ٠ وكانت القدس على عهدها . حتى اليوم . مدينة ساحرة يتشابك فيها نسيج من المقدسات والأماكن المقدسة ٠ لكنها فوق ذلك كله كانت

الرمز الحى على استمرارية التاريخ اليهودى . والرابطة التى ربطت ـ ومازالت تربط ـ بين الشعب اليهودى وهذه الأرض . وعلى حدودها ـ في ميا شعاريم ـ كانت . ومازالت حتى يومنا هذا . تعيش جماعات من اليهود المتطرفين في تدينهم . الذين ترجع أصولهم إلى القرن السادس عشر في أوربا الشرقية . والذين كانوا يرون أن يهودا مثلى ومثل موريس ليسوا سوى ملحدين وثنيين .

وذات مرة زرت الحائط الغربى (المبكى) . ولم تكن تلك أول مرة . ولقد تربيت في بيت يهودى طيب . لكنى لم أكن شخصيا ورعة ؛ وإنما ذهبت لأنى كنت أعلم أن هذا شيء يجب أن أفعله . كان الحائط أصغر مما هو عليه الآن بعد كل أعمال التنقيب حوله . لكننى رأيت لأول مرة اليهود . رجالا ونساء . وهم يبكون أمامه أثناء وضعهم الالتماسات داخل شقوقه . إذا فهذا هو ما تبقى من المجد التليد . أو ما بقى من معبد سليمان . لكنه على الأقل مازال موجودا . ورأيت فيه رفضا من جانب امة لقبول أن تكون هذه الأحجار هى التعبير عن الثقة في المستقبل . وعندما غادرت الحائط كانت روحى المعنوية مرتفعة .

وفي عام ١٩٧١ . أى بعد خمسين عاما أقيم لى احتفال في القدس حكيت لهم فيه عن الزيارة التاريخية التى قمت بها للحائط في عام ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة . فقد حرمنا العرب تسعة عشر عاما ـ من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧ ـ من زيارة المدينة المقدسة والصلاة عند الحائط . لكنه في اليوم الثالث من حرب الأيام الستة . وهو الأربعاء ٧ يونيو (حزيران) ـ اصابت الصاعقة كل اسرائيل عندما أعلن عن قيام جنودنا بتحرير المدينة القديمة واعادتها إلينا ثانية . وأضطررت

لتأجيل زيارة تقرر أن أقوم بها إلى الولايات المتحدة . إلى أن حصلت على تصريح بزيارة الحائط في يوم الجمعة ٠

وعند الحائط وجدت الجنود الذين خاضوا المعارك الشرسة لتحرير الحائط . يقفون أمامه وهم يبكون ٠ وكانت واحدة من أزحم لحظات عمرى بالعواطف المؤثرة عندما جاءنى جندى واحتضننى وألقى برأسه على كتفى ، وانفجرنا نبكى سويا ٠ وكتبت كلمة (شالوم) على ورقة ودسستها في أحد الشقوق ٠ لكن هذه القصة تتصل بعصر بعيد عما نحن فيه الآن ٠

وكانت أواخر العشرينيات أعواما سيئة ليهود فلسطين ، وليس لى فحسب ٠ ففى عام ١٩٢٧ كان هناك ٧٠٠٠ رجل وأمرأة بدون عمل ٠ واغرق المهاجرون البلاد فوق طاقتها ٠ فقد وصل إلى فلسطين عام ١٩٢٦ حوالى ١٣٠٠٠ مهاجر ، هاجر نصفهم عام ١٩٢٧ مرة أخرى إلى أمريكا أو ارجاء الامبراطورية البريطانية ٠ ولأول مرة أصبح عدد المهاجرين من اسرائيل أكبر من عدد المهاجرين إليها ٠ كذلك عاد عدد من المهاجرين إلى روسيا حيث ارسلوا إلى سيبيريا أو أعدموا لأسباب « ايديولوجية » ٠

وكان ابرز أسباب الأزمة هو سوء الحالة الاقتصادية للشعب اليهودى في فلسطين وقلة فرص العمل المتاحة ٠ ففيما عدا تجارة البناء (التى ضمت نصف العمال اليهود) وبيارات البرتقال ، لم يكن هناك لا مشاريع ولا رؤوس اموال ٠ بل كانت المؤسسات اليهودية الصناعية تعد على أصابع اليد ، وهى اعمال البحر الميت ومناجم ومصانع الملح في عتليت وشركة كهرباء فلسطين ومصنع شيمن للصابون والزيوت ومصنع الأسمنت في حيفا ٠ هذا إلى جانب مشروعات صغرى كالمطابع واقبية الخمور ٠

وكانت هناك مشكلة الأجور . فمع أن أجور اليهود كانت قليلة ، إلا أن العمال العرب كانوا على استعداد لقبول أجور أقل . ولم يستطع بعض أصحاب البيارات اليهود أن يقاوموا هذا الاجراء . أما الحكومة البريطانية المنتدبة على فلسطين . فقد بدأت تعادى اليهود ، وتسمح بحرية الحركات العربية المناهضة مثل مفتى القدس الحاج أمين الحسينى وغيره . كما أنها هددت بتخفيض الهجرة اليهودية أو وقفها كلية لفترة محددة في عام ١٩٣٠ . باختصار لم يكن الوطن القومى اليهودى يزدهر .

وقليلا ما كنت أذهب إلى تل أبيب . اما لزيارة شينا وعائلتها أو لزيارة والدى اللذين كانا قد جاآ إلى فلسطين عام ١٩٢٦ . وفيما بين الزيارات العائلية كنت أحرص على زيارة الأصدقاء القدامى وسؤالهم عما يحدث في مرحافيا . وكان أبى قد ادخر قليلا من المال وهو في أمريكا اشترى بها قطعتى أرض احداهما في هرزليا . شمالى تل أبيب . والأخرى في العفولة بالقرب من مرحافيا مصمما على أن يبنى فيها منزلا بحجة أن هذه القرية سوف تنشأ فيها دار للأوبرا . وأخيرا ، وتحت الحاح منا جميعا . باع قطعة الأرض في العفولة ووافق على بناء المنزل في هرزليا . بدون الأوبرا .

وبنى المنزل بيديه . كما يليق بنجار جيد . واستقر فيه مع أمى على الفور . ولم تكن صناعة التجارة رائجة . وفكرت أمى في أن يتعاون أبى معها في صنع وجبات الظهيرة للعمال . وكانت المطاعم قليلة عموما أما في هرزليا فلم يكن هناك مطعم . ونجت فكرة أمى إلى حد كبير . لكن أوضاع والدى الاقتصادية ظلت سيئة . إلى حد أننا في ليلة أحد الأعياد اجتمعنا في هرزليا لكننا لم نجد ما نحتفل به .

ولا حتى زجاجة نبيذ أو مزة . وآلمنا منظر والدى وهو يتأسى على ما وصلت اليه حالته .

ثم حدث شيء رائع . فقد عضنى كلب . وكانت تلك بالنسبة لى معجزة . وتحتم على أن أذهب إلى تل ابيب لتعاطى الحقن المضادة للسعار . وهناك طرقت باب أحد المصارف فوجدت فرصة لاقتراض عشرة جنيهات شريطة أن يوجد من يضمن القرض . وأخيرا . وبعد بحث طويل . وجدت الضامن وتسلمت الجنيهات العشرة (وكانت مبلغا ضخما آنئذ) . وعدت إلى هرزليا بعشرة جنيهات لأبى . وبمشاعر حادة للطلاب لم أعرفها طيلة عمرى .

وخلال زياراتى النادرة لتل أبيب كانت تصدمنى مناظر الرجال العاطلين في الشوارع والبيوت التى توقف بناؤها . وبدا الأمر وكأن قوة جبارة مزقت نفسها . ومع هذه الضائقة الاقتصادية . عاش آلاف اليهود في فلسطين يربون اطفالهم . ويشكلون قياداتهم . وينمون بيئتهم . لا تساعدهم في ذلك إلا حركة صهيونية في الخارج . كانت في حد ذاتها انجازا كبيرا . واشتد شوقى إلى أن العب دورا أو أن أفعل شيئا .

وقد عملت في الهستدروث (الاتحاد العام للعمال اليهود) سنين طويلة في تل أبيب وفي القدس . وتعرفت بكثير من الشخصيات في الحركة العمالية . واعجبت بهم . وتمنيت أن أعمل معهم واتعلم منهم . وكنت اتفق مع رأيهم في أن الهستدروث يجب أن يهتم بالحاجات المباشرة للعمال قدر اهتمامه بخلق مجتمع العمل المرتبط بمستقبل اليهود في فلسطين . سواء لأولئك الموجودين أو للذين سوف يأتون بعد ذلك .

وكان الهستدروث شيئا فريدا يختلف عن جميع المنظمات العمالية الأخرى . كانت هناك حاجة إلى حماية مختلف حقوق العالم

اليهودى . وكذلك العربى · ولم يكن الهستدروث اتحادا تجاريا ، اذ قام على وحدة كل العاملين في الشعب اليهودى في فلسطين سواء العمال بالأجر أو أهل الكيبوتزات أو أصحاب الياقات البيضاء أو الزرقاء أو العمال اليدويين أو المثقفين · كذلك فقد وقع على كاهله عبء المهاجرين الجدد الذين يتزايد عددهم ·

ومن ناحية أخرى فإنه لم يكن هناك اقتصاد « جاهز » في فلسطين يمكنه أن يواجه فيضان الهجرة اليهودية · وتحتم علينا نحن الذين جئنا لفلسطين في البداية أن نخلق ما يعرف الآن بـ « الاقتصاد القومى » ؛ بما ينطوى عليه ذلك من صناعة ونقل وبناء وتمويل ناهيك عن الرعاية الاجتماعية وايجاد فرص العمل · أى أنه كان علينا أن نخلق شيئا من لا شيء تقريبا ·

ونظرا لارتباط الهستدروث بالأهداف الصهيونية ، فإنه كان يولى اهتماما متساويا لكل جوانب الحياة اليهودية ويحكم على مشروعاته بمقياسين هما مدى تلبيتها للحاجات القومية العاجلة ومدى تطابقها مع وجهة النظر الاشتراكية · وكمثال على ذلك تصميم الهستدروث على تطوير مشروعاته بحيث يسيطر عليها مجتمع العمال ككل وكلية · وهكذا في مطلع عام ١٩٢٤ أنشئت هيئة قانونية اسمها هفرات هاعوفديم (ترجمتها العبرية بالانجليزية الجمعية التعاونية العامة للعمل اليهودى في فلسطين ، تضم كل أعضاء الهستدروث لتتملك كل « موجودات » الهستدروث ، ومن بينها سوليل بونيه· وكانت هذه الشركة قد انهارت في عام ١٩٢٧ ، ولم يعد في مكاتبها أموال لدفع مرتبات الصرافين · ومع ذلك عادت السوليل بونيه للحياة بعد أن تأكدت أهمية وجود شركة عامة للبناء والأشغال العامة تقوم بما لا تقدر عليه الشركات الخاصة ·

اننى اطرح كتأكيد لارتباط الصهيونية بالتفاؤل صورة سوليل بونيه الآن ·

فبعد أن أعيد تنظيمها عام ١٩٥٨ على اساس ثلاث شركات (شركة للبناء ، وشركة لأعمال الموانىء وما وراء البحار وشركة صناعية) أصبحت الآن أكثر المؤسسات نجاحا في الشرق الأوسط ، واستطاعت تشغيل ٥٠.٠٠٠ رجل وامرأة في العام الماضى . ووصلت عائداتها مشتركة إلى ٢ ½ بليون جنيه اسرائيلى · ولعل سوليل بونيه الآن هى ابلغ رد على أولئك الذين كانوا ينتقدون الهستدروث ويصفونه بأنه رومانتيكى محكوم عليه بالفشل · فسوليل بونيه ليست إلا احدى مخلوقات الهستدروث ·

وكم فرحت عندما كنت اتحدث عند بوابة مكاتب الهستدروث مع أحد الاشخاص ، وجاءنى داڤيد ريمز ليسألنى ما اذا كنت مهتمة بأن اعود للعمل وأن اصبح سكرتيرة لمجلس النساء العاملات التابع الهستدروث · وأخذت أفكر في القرار الخطير الذى تحتم على اتخاذه طيلة رحلتى إلى القدس ·· فمعنى قبولى هذا العمل طوال الوقت يعنى أن انهى الفترة التى كرستها للعائلة ولرعايتها . وأن ننتقل إلى تل أبيب ، وتمثلت أمامى حقيقة اننى قد فشلت في حياتى الزوجية ·

لكن الأمور لم تسر على نحو ما اشتهيت · ولم اتخذ هذا القرار الخطير . وبقيت أنا وموريس زوجين متحابين إلى أن مات في منزلى عام ١٩٥١ (ويا للرمزية أن يموت وأنا بعيدة عن المنزل) · ومع ذلك فإننى اقرر اننى فشلت في جعل زواجى ناجحا· أما القرار الذى اتخذته عام ١٩٢٨ فقد مثل بداية الانفصال بيننا . وان لم يحدث هذا على مدى عشر سنوات · ولم تكن المشكلة أن موريس لم يفهمنى . بل انه كان على العكس يفهمنى إلى أقصى حد ويعرف أنه لن ينتصر

على ولن يقهرني . ولذا فإنه لم يثبط همتى في قبول العرض . وان كان قد فهم ما يختفى وراءه من مغزى .

وبقى موريس جزءا ـ بالطبع ـ من حياتى ومن حياة الأطفال . كانت ساره ومناحيم يعبدانه . وكان يكرس لهما وقتا طويلا . يحدثهما عن الموسيقى أو يقرأ لهما أو يشترى لهما كتبا . وكان لديه الكثير مما يمكنه أن يعطيه كانت حياته من الداخل غنية بل أغنى من حياتى كلها .

وهكذا . وفي عام ١٩٢٨ . انفصلت أنا والاولاد عن موريس الذى كان يجيء إلينا في تل أبيب في عطلة نهاية الأسبوع . والتحق الأولاد بمدرسة تديرها الحركة العمالية . وعدت أنا إلى العمل .

وكان مجلس النساء العاملات . وقرينه في الخارج « النساء الرائدات » هما التنظيمان النسائيان الوحيدان اللذين عملت فيهما ولم يكن اهتمامى بهذا النشاط لكونه مخصصا للنساء فحسب . بل لأنه كان يهدف إلى اعطاء تدريب مهنى للفتيات اللائى يفدن إلى فلسطين بمفردهن أو بغير رضى أهلهن . وتم انشاء مزارع للنساء العاملات لتدريبهن مهنيا .

وأنا لا أؤيد ذلك النوع من الأنوثة الذى يطالب بخلع حمالات الصدور أو كراهية الرجال أو معاداة الأمومة . لكن الاعجاب يتملكنى بتلك النماذج من النساء النشطات في صفوف الحركة العمالية امثال أدا ميمون وبيبا ايدلسون وراشيل يانيت بن رقى . اللائى نجحن في تجهيز العشرات من النساء والفتيات لاداء دورهن ـ وأكثر ـ في المستوطنات الزراعية في كل أرجاء فلسطين . تلك عندى هى الانوثة البناءة . وهى أهم من مسح البيت أو ترتيب المائدة .

أما عن وضع النساء فيكفى أن أذكر تلك القصة التى شاعت في رائيل كلها . عندما قال بن جوريون عنى اننى الرجل الوحيد في

وزارته . وكان منبع سروري من ذلك انها قيلت باعتبارها أكبر تحية يمكن توجيهها لامرأة . لكنني لا أظن أن هناك رجلا يمكن أن يقبل تحيتي له اذا قلت عنه انه المرأة الوحيدة في حكومتي .

والواقع أنني عشت وعملت طيلة حياتي مع الرجال، ولم يقف كوني امرأة حائلا دون ذلك. ولم يسبب ذلك لي قلقا ولا شعرت بإحساس النقص ازاء الرجال . بالعكس تماما . والواقع ايضا أن حياة المرأة تكون اصعب والأعباء عليها مضاعفة اذا ماارادت حياة خارج البيت وداخل البيت (طبعا باستثناء نساء الكيبوتزات اللاتي تنتظم حياتهن بحيث تسمح لهن بالعمل وتربية الأطفال في نفس الوقت) . أما المرأة التي يغيب عنها زوجها فإن اعباءها تتضاعف ثلاثة اضعاف ما يحمله أي رجل عرفته .

وكانت حياتي في تل أبيب موزعة بين مختلف النشاطات العامة والعائلية. وكنت اعنى بأولادي. لكنهما بالطبع كانا يكرهان هذه النشاطات خارج البيت. وهما الآن ربا عائلتين. ويحبان اطفالهما. وهما بمثابة رفيقين لي . ولست ادري هل كانا فخورين بي آنئذ ام لا. وهل يغفر الفخر بالام عن غيابها عن المنزل . وقد شاركا مرة في أحد الاجتماعات العامة. وصوتا مع رأيي برفع ايديهما. وكان ذلك بمثابة تصويت بالثقة بي. لكن ذلك في ظني لا يعادل وجود الأم في بيتها .

وأصبحت اتغيب بعد ذلك في الخارج كثيرا. وكنت احس بالذنب تجاههما رغم انى كنت أكتب لهما وأحضر لهما الهدايا معي . وأذكر أنني كتبت في عام ١٩٣٠ مقالة بدون توقيع اسميتها « المرأة المحراث » عقدت فيها مقارنة بين المرأة التي تكرس نفسها لبيتها وزوجها واطفالها وبين المرأة العاملة التي يتحتم عليها اداء واجباتها خارج المنزل مع القيام بواجباتها داخله .

ولم تكن سارة على ما يرام من الناحية الصحية . اذ ظلت عدة سنوات تشكو من كليتيها • وكانت فتاة ذكية لماحة تراعى نظام الطعام الملائم لها والأدوية اللازمة • وقد ساعدتنى أمى وشينا في رعايتها خلال تغيبى عن المنزل •

وكنت اكتبْ الرسائل لشينا باستمرار • وفي احدى المرات أوفدت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في مهمة لدى « النساء الرائدات » . في أول زيارة بعد سبعة اعوام . ثم اشتركت في طريق عودتى في مؤتمر الاشتراكية الدولية في بروكسل • وكنت أصغر اعضاء الوفد (الذى ضم بن جوريون وبن زفى) • وقد استمتعت بمشاهدة الدنيا وحلاوتها . في الوقت الذى استمعت فيه إلى خطب كبار الاشتراكيين امثال أرثر هندرسون زعيم حزب العمال البريطانى ورئيس المؤتمر . وليون بلوم الاشتراكى الأول في فرنسا وأول رئيس وزراء يهودى . فيها . ووافق هندرسون على تشكيل عصبة للعمال في فلسطين . والغريب أن الهجوم نصب عليه من الاشتراكيين اليهود غير الصهاينة •

وكتبت إلى شينا من بروكسل راجية منها أن تفهمنى وتصدقنى . مؤكدة لها اننى لم اسافر إلا بعد أن طمأننى الطبيب على ساره وبعد أن رتبت كل شىء لمناحم • وقلت لها اننى اعرف أن نشاطاتى العامة لن تأتى بالمسيح المخلص . لكننى كنت أؤمن بأننا يجب ألا نضيع اية فرصة لنشرح فيها للناس ذوى النفوذ ما نريده وما نحن فيه • ومع ذلك فإننى اعتقد أنها هى وأمى كانتا يقلقهما دائما غيابى عن المنزل واضطرار الأولاد لتناول الطعام في غرفة العشاء الجماعية في منزل العمال الذى كنا نعيش فيه في شارع هاياركون • وكنت احرص على تأجير احدى الغرف حتى لا يبقى الأطفال وحدهم • وبقيت عدة أعوام استخدم ـ بارتياح شديد ـ احدى الأرائك في غرفة المعيشة والأكل . للنوم •

وتشغل مكاتب الهستدروث اليوم مبنى ضخما في واحد من شوارع تل أبيب الرئيسية يشبه خلية النحل . أما في أيامنا فلم يكن لدينا سوى عدة غرف وآلتين كاتبتين وجهاز واحد للتليفون . وكنا رفاقا بمعنى الكلمة ، نعرف بعضنا ، ونشترك سويا في نظرتنا إلى الحياة . وقد دامت تقريبا كل الصداقات التى كونتها خلال هذه الفترة حتى يومنا هذا ، فيما خلا اشتراكى في السنوات الأخيرة في جنازات عدد من الأصدقاء الذين عرفتهم عندما كنت ، أنا والهستدروث، صغارا .

ومن بين الذين عرفتهم داڤيد بن جوريون ، الرجل الذى أصبح تجسيدا حيا للشعب اليهودى في سعيه من أجل استقلاله . وسوف اتحدث عنه فيما بعد . كذلك عرفت شنيورزلمان شازار (الذى سيصبح الرئيس الثالث لاسرائيل) وليڤى اشكول (الذى سيصبح ثالث رئيس وزراء لاسرائيل) وداڤيد ريمز وبيرل كاتز نلسون ويوسف شبرنزاك الذى سيصبح أول رئيس للكنيست .

وقد قابلت شازار (وكان اسمه روبا شوف قبل أن يغيره للعبرية) في يوم أول مايو (آيار) عندما خطب في حفل أقيم بمناسبة يوم العمال في هرزليا . وسحرنى حماسه وطلاقة حديثه بالعبرية . وقد اصبحنا صديقين حميمين للغاية . وكان شازار مختلفا عنا ، اذ كان من المتعمقين في دراسة العبرية ، وصحفيا بارعا ، وكاتبا حاذقا ، وقد توفي عام ١٩٧٤ بعد أن انتهت رئاسته لاسرائيل بعام . وكان الشباب في اسرائيل يبتسمون وهم يستمعون إلى خطبه الوردية المشحونة بالعواطف والتى لم تتغير طبيعتها منذ العشرينيات .

وقد حرص شازار خلال رئاسته لاسرائيل على الاصرار على « وحدة عائلة اسرائيل » ، وكان يعنى بذلك اليهود ذوى الاصل الأوربى (مثله) والالاف المؤلفة من يهود البلاد العربية الذين لم تكن

اليديش تعنى عندهم شيئاً ٠ وعمل سنين طويلة رئيسا لتحرير صحيفة داڤار التى تصدرها الحركة العمالية ٠ ثم أصبح أول وزير للتعليم في اسرائيل عام ١٩٤٨ . وأصدر أول امر له كوزير في اليوم الثانى لقيام الدولة ويقضى بأن يتلقى كل الأطفال الاسرائيليين من الرابعة حتى الثامنة عشرة تعليما على أرفع مستوى ٠ وعمل على اصدار قانون التعليم بسرعة بعدئذ ٠ وكنت ازوره دائماً عندما اصبح رئيساً . لأنه كان يكره العزلة التى تفرضها الرئاسة عليه . وغالباً ما كنت انصحه بعدم التدخل في المواقف السياسية المتفجرة ٠

كذلك اصبح من بين اصدقائى في العشرينيات ليڤى اشكول (واسمه الاصلى شكولنك) ٠ ورغم انه كان روسى الاصل مثل شازار ، الا أنه كان مختلفاً ٠ كان يحب العمل ولا يحب الكلام . وكان يكره البيروقراطية ٠ جاء الى فلسطين في التاسعة عشرة من عمره وانضم الى الفيلق اليهودى (وكان يفخر بأنه حصل على ترقية الى رتبة عريف قبل أن يحصل عليها بن جوريون) ٠ وكانت اهتماماته تدور حول الأرض والماء والدفاع ٠ وكان يرى أنه اذا أردنا وطناً قومياً لليهود . فما علينا الا أن نوطن اليهود في أرض مهما تكلفنا من اموال ومهما وضعت حكومة الانتداب من عراقيل امام المؤسسات اليهودية التى تريد الشراء ٠

وامضى اشكول الأعوام الثلاثين التالية وهو يبحث عن اماكن لاقامة المستوطنات . بوصفه رئيساً لدائرة الاستيطان التابعة للوكالة اليهودية . وأشرف على تأسيس ما يقرب من ٤٠٠ قرية يهودية جديدة . وكان يرى انه لا يمكن اقامة مستوطنات بدون رى ومياه ، ولذا انغمس في بحث طويل ومكلف عن مصادر للمياه ٠ ثم تطلب الامر ايضا ايجاد اسلحة للدفاع عن الأرض والمياه ٠ وقد ساهم إشكول

في الحياة العسكرية منذ ان انضم عام ١٩٢١ إلى أول لجنة دفاع تابعة للهستدروث إلى أن أصبح رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع في عام ١٩٦٣ . وقد قيل الكثير عن تردده في اتخاذ القرار الحاسم في حرب الأيام الستة . لكن مأساة حياته كانت الخلاف الذى وقع بينه وبين بن جوريون . رغم انه كان تابعاً مخلصا له وقبل رئاسة الوزارة بناء على طلبه · وقد مزق هذا الخلاف الحركة العمالية كلها بل واسرائيل بأسرها · لكن الحديث عن هذه الفترة لم يحن بعد ·

ولم يكن اشكول شخصا ذا جاذبية جماهيرية او بريق . لكنه كان شخصاً خلاقاً وقدرته لا حدود لها على العمل والانجاز · ولم أكن أتصور في العشرينيات أنه سوف يصبح رئيساً للوزراء أو أننى سأخلفه في هذا المنصب · وكثيراً ما وقعت بيننا مصادمات ـ غير شخصية ـ في الخمسينيات عندما كان وزيراً للمالية وكنت وزيرة للعمل · وكانت البلاد ايامها قد امتلأت بمئات الآلاف من اليهود من معسكرات أوروبا وحارات اليهود في البلاد العربية · وتحتم علينا أن نبنى معسكرات لايوائهم · لكن اشكول اقتحم مكتبى مطالباً بالعمل فوراً على اغلاق هذه المعسكرات وتوزيع اليهود على كل انحاء البلاد · واعتقد ان اسرائيل ما كانت لتحيا سنواتها العشر الأولى بعد ١٩٤٨ لولا موقف اشكول الذى ثبتت صحته . وامكن بالفعل استيعاب هؤلاء المهاجرين في النهاية ·

وكانت طبيعة عملى كوزيرة للعمل أن أجد عملاً لهؤلاء الناس . وكنت أذيق اشكول المر الحاحاً على مزيد من المال للمشاريع الخاصة والإسكان · لكنه كان دائماً يقول لى : إنك لا تستطيعين ان تحلبى منزلا لكنك تستطيعين حلب بقرة · وليس لدى اموال الآن الا

للبقر . وأذكر أننى ذهبت أشكو إلى بن جوريون مهددة بالاستقالة لانى لم أت لاصبح وزيرة للبطالة . وبالطبع دبر لى اشكول بعضا من المال .

كذلك كان من بين الاصدقاء الحميمين داڤيد ريمز . وكان مثل اشكول مهتما بالمشاكل العملية للصهيونية وخاصة مشاكل سوليل بونيه وغيرها من مشروعات الهستدروث . وينتمى ريمز للموجة الثانية من الهجرة (التى ضمت ٣٥٫٠٠٠ يهودى منذ ١٩٠٩ حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى) وكان قد درس القانون في جامعة القسطنطينية حيث التقى ببن جوريون وبن زڤى والشاب موشى شاريث . وعندما وصل إلى فلسطين القى بالكتب جانبا وعمل في حقول البرتقال والكروم .

وقد ظل ريمز طيلة حياته (توفى عام ١٩٥١) يحمل اهتمامات عميقة بمضمون الحركة ـ وهو وحدة العمال ومستقبل الاشتراكية في الوطن القومى اليهودى ـ وبالشكل الذى تكون عليه الحركة . وكان يولى اهتماما كبيرا لاحياء اللغة العبرية إلى حد انه كان يخترع كلمات عبرية جديدة مشتقة من اصول اللغة القديمة (ابرزها الكلمات العبرية الثلاثة المقابلة للبولدوزر وعلامات الطريق والاقدمية) . وكان من البارزين في قيادة الحركة العمالية وعمل سكرتيرا عاما للهستدروث . واشترك في عام ١٩٤٨ في صياغة اعلان الاستقلال الاسرائيلى . وكان أول وزير للنقل ثم وزيرا للتعليم . وكان الرفيق الوحيد الذى كنت أناقش معه المشاكل الشخصية واتلقى نصيحته وتوجيهاته فيها .

ويجىء فوق هؤلاء جميعا بيرل كاتز نلسون الذى توفي عام ١٩٤٨ . اى انه لم يشهد دولة اسرائيل . كان بلا منازع الزعيم الروحى والقائد

الموجه للحركة العمالية . ولو عاش لاحتفظت الحركة بولائها لاهدافها ولكنا قد حققنا مجتمعا اكثر مساواة وانه لمن المخجل ان احداً لم يكتب عنه او يؤرخ له برغم الاثنى عشر مجلدا التى نشرت متضمنة مقالاته وخطبه · ولا يسعنى الا ان اقدم للعالم هذا الرجل الذى كنا ـ بما فينا بن جوريون ـ نكن له اعمق التبجيل ·

وكان بيرل صغير الجسم . هائش الشعر . تكاد عيناه تنفذان اليك خلال حديثه معك · وكنا نسعى اليه في بيته الذى كان يعمل فيه . لانه كان يكره الذهاب الى المكتب · لكنه لم يحدث ان جرى شيء او اتخذ اى قرار يتعلق بالحركة العمالية والشعب اليهودى في فلسطين . قبل ان يؤخذ رأى بيرل فيه ·

وكان يقبع في كرسيه . واضعا ذقنه فوق يده . ويطلق توجيهاته الحاسمة بشأن الحركة العمالية رغم انه لم يتقلد فيها من المناصب الرسمية سوى رئاسة تحرير داڤار وادارة احدى دور النشر · ولو انه عاش حتى عام ١٩٤٨ لكان قد رفض الاشتراك في الوزارة . اذ كان يكره المناصب العامة ويزهد فيها وبقينا طيلة العشرينيات والثلاثينيات واوائل الاربعينيات . إلى ان مات . لا يقرر واحد منا شيئا قبل ان يسأل اولاً « ولكن ما هو رأى بيرل ؟

وكان من الصعب الا نعجب بحكمته ونؤخذ بسحر شخصية · ولم يكن يجلس مع القادة على مائدة الرئاسة في المؤتمرات · كما لم يكن خطيبا . لكنه ما ان يعتلى المنصة حتى يمتنع الكل عن الهمس او الكتابة . ويستغرقون في الاستماع اليه رغم انه كان يطيل الحديث احياناً الى ثلاث ساعات ·

كان يؤمن بأن اشتراكيتنا يجب أن تكون من نوع مختلف فنحن نخلق مجتمعا لا إتحادا تجاريا . وان صراع الطبقات لا معنى له في مجتمع لم توجد فيه طبقات بعد . وكان يصف الصهيونية بأنها « الخطة التى يرتهن بها التاريخ اليهودى المعاصر » . ويرى انها تعنى « ثورة شاملة ضد عبودية الشتات » واصبح بيرل الاب الروحى لكثير من الاجهزة الهامة في الهستدروث . فهو الذى طرح فكرة بنك العمال والجمعية التعاونية للعمال وصندوق العمال المرضى .

وقد نادى بيرل بالهجرة اليهودية « غير المنتقاة » في حين كان البعض يفضلون هجرة المدربين . كما نادى بالهجرة غير الشرعية . وقال ذات مرة « من الآن فصاعداً لن يكون قائدنا الرائد وانما اللاجىء » . وهو المسئول عن فكرة اسقاط اليهود الفلسطينيين (في اطار قوات الحلفاء) خلف خطوط النازى في محاولة يائسة للوصول الى يهود اوروبا خلال الحرب العالمية الثانية . كما انه أول من صاغ الطلب العاجل بقيام الدولة . رغم ان بن جوريون هو الذى طرحه امام اجتماع في نيويورك عام ١٩٤٢ .

وكان بيرل يكن اعجابا كبيراً لبن جوريون لمقدرته على اتخاذ القرارات والحركة . وكان يعتبره اكبر رجل دولة شهدته الحركة . والشعب اليهودى « في عصرنا » . وظل بن جوريون يحتفظ ـ الى أن مات ـ بصورة بيرل فوق مكتبه . وتلك هى الصورة الوحيدة في غرفة المعيشة في منزلى .. نظرا لكراهية بيرل للسياسة . التى كان بن جوريون يفضلها . فكثيرا ما كانت المواقف بينهما تتعارض وتأتى نتيجة التصويت ضد بن جوريون . وفي عام ١٩٣٧ كان بن جوريون يؤيد اقتراح لجنة بيل الملكية بتقسيم فلسطين . اما بيرل فقد عارض

موافقتنا على التقسيم على اساس (وهو ما ثبت بعدئذ انه صحيح) ان بريطانيا لن تنفذ هذه الخطة . في حين تبقى موافقتنا مسجلة علينا الى الأبد وتستخدم ضدنا ٠

وكان يولى اهتماما كبيرا للشباب وصغار السن . ربما لانه كان بلا ولد ٠ وكثيرا ما كنت القاه فيقضي معي الساعات الطويلة نتحدث في كل شيء نقطع شارع روتشيلد طوال الليل ٠ كما كان يحرص على تنظيم الندوات وعقد الاجتماعات مع الشباب ٠ ولن انسى بالطبع تلك الليلة المفزعة التى مات فيها بيرل في القدس . وقد وقفنا جميعا غير قادرين حتى على تخيل كيفية الاستمرار بدونه ٠ وكنت ليلتها أشاهد احدى المسرحيات . فتوجهت فورا الى القدس ٠ اما بن جوريون . وكان في حيفا . فلم يجرؤ احد على ان يحدثه بعد أن علم بالخبر وظل يبكى طوال الليل ٠ لقد فقد الرجل الوحيد الذى كان يرى قيمة لرأيه . بل صديقه الوحيد ٠٠

الفصل السادس

نحن سنحارب هتلر

كنت في أغلب الاحيان غائبة عن فلسطين خلال عامى ١٩٢٩ و١٩٣٠ . فذهبت مرة الى الولايات المتحدة ومرتين الى بريطانيا كممثلة للحركة العمالية . وكانت الرحلة تستغرق عدة اسابيع فلم اكن اقفز بالطائرة عبر المحيط ، وان كنت قد ركبت الطائرة عام ١٩٢٩ للمرة الاولى وبقيت طوال الزحلة مشدودة الى مقعدى اكاد اتجمد من الخوف . وعندما كان الصداع يجبرنى على البقاء في البيت كانت سارة ومناحم يرقصان حولى وهما يغنيان « ماما في البيت ، ماما عندها صداع » . لكننى كنت قد تعلمت أن الانسان يعتاد على ما هو فيه اذا كان مضطرا ، حتى ولو كان احساسا دائما بالذنب .

كانت عودتى الى الولايات المتحدة كأننى ازور بلدا جديدا لم اعرفه من قبل . وكانت المنظمة التى اوفدت اليها ، وهى النساء الرائدات ، قد أنشأتها راشيل يانيث بن زفى قبل ثلاثة أو أربعة اعوام بالاشتراك مع النساء اللاتى كان ازواجهن من العاملين في الحركة العمالية الصهيونية . وقد قام هؤلاء النسوة بنشاط واسع لجمع التبرعات من اجل مزارع تدريب الفتيات في بتاح تكفا وغيرها . وقمت أنا ايضا بنشاط كبير فكنت القى الخطب واجيب على الاسئلة واشرح الموقف في فلسطين .

كذلك تحدثت اليهم عن المسرح السياسى داخل فلسطين . حيث كان يجرى اندماج حزبين عماليين كبيرين هما هابوعيل هاتزاعير (اى العامل الصغير) واحدوت هاعفودا (الذى كنا ننتمى اليه) وهو حزب اشتراكى وجزء من الاشتراكية الدولية . وبرغم الاختلافات بينهما فقد اتحدا وكونا حزب الماباى (حزب العمل الأرضى اسرائيل) . وكان هناك حزب آخر يبزغ نجمه هو هاشومير هاتزاعير (الحارس الصغير) يضم في الاساس سكان الكيبوتزات .

وفي الاربعينيات انشقت مجموعة من الماباى وانضمت الى الهاشومير هاتزاعير ، مشكلين حزبا جديدا هو المابام (حزب العمال المتحدين) . وفي الستينيات حدثت عدة اندماجات اخرى ، لكن الماباى ظل مسيطرا طوال السنين . ويعتبر تاريخه هو تاريخ الدولة نفسها ، فلم يحدث أن تشكلت حكومة اسرائيلية دون أن تكون للماباى الاغلبية فيها . وبالنسبة لى كان الماباى هو حزبى اذ لم يتغير ولائى له أو ايمانى بأن اساس الصهيونية العمالية هو حكم حزب عمالى موحد يضم مختلف الاراء .

على أيه حال ، وجدت النساء الرائدات مهتمات بما يحدث في فلسطين وبالمحافظة على اللغة اليديش . وذهبت الى كليفلاند لرؤية اختى كلارا التى لم أكن قد قابلتها منذ كانت في سن المراهقة . كانت قد تزوجت من شاب يدعى فريد ستيرن ورزقت بولد اسمته دانييل ديفيد . وكان زوجها عصاميا بدأ ببيع الصحف وهو في السادسة . ثم تخرج من الجامعة معها كإخصائيين اجتماعيين . كان عالم كل منا مختلفا عن الآخر . صحيح انهما كانا يهتمان بالحياة اليهودية مثلى ، ولكن من الناحية النظرية فقط . وكنت اعلم ان كلارا لن تأتى الى فلسطين لشعورها بأنها تنتمى الى الولايات المتحدة . أما فريد فقد

اوضح لى انه يعارض كل اشكال القوميات وانه ينظر الى الصهيونية على أنها حركة رجعية الى اقصى الحدود ·

وقد انتقلت اختى كلارا فيما بعد الى كونيكتيكت واصبحت المدير التنفيذى للمجلس اليهودى هناك · لكنها فقدت ابنها الذى توفى في الثامنة عشرة من عمره . ومرض زوجها وبترت ساقه · أما في عام ١٩٢٩ فقد علمت من كلارا انها لن تنضم الينا في فلسطين ·

وفي عام ١٩٣٠ شاركت في انجلترا في مؤتمر الاشتراكية الذى ضم ١٠٠٠ مندوب · وهناك عرفت مدى اهتمام العالم بما يسمى قضية فلسطين · وتحدثت في هذا المؤتمر عدة دقائق . ولكننى طفت ارجاء انجلترا القى المحاضرات واتحدث عن التجربة · وهناك رأيت النساء البريطانيات فعلا . واللائى اختلفن كثيرا عمن رأيتهن في فلسطين واللائى كن ينظرن الينا على أننا مصابون بالعقد ومدعون · وشرحت لهن ايضا تطورات الموقف في فلسطين حيث انفجرت الاضطرابات العربية عام ١٩٢٩ بتوجيه من مفتى القدس الحاج امين الحسينى (والذى ساءت سمعته فيما بعد بسبب تأييده ومشايعته للفاشيست والنازى خلال الحرب العالمية الثانية) ·

وعدت الى لندن ثانية خلال هذا العام كمندوبة في مؤتمر العمل الامبراطورى · وكان رئيس الوزراء انئذ هو رامزى ماكدونالد الذى اصدرت حكومته الكتاب الابيض الشهير عام ١٩٣٠ (والمعروف بكتاب باسفيلد) وقيدت به الهجرة اليهودية الى فلسطين · وهكذا بدت الامور بعد ثلاثة عشر عاما من تصريح بلفور. وكأن بريطانيا تولى اهتمامها الى استرضاء العرب لا الى تنفيذ وعدها لليهود ·

وربما لاننى عشت في امريكا . فاننى لم أكن ككثير من اصدقائى مفتونة بالانجليز · وكان لدى غالبية يهود فلسطين ايمان قاطع بأن

بريطانيا سوف تحافظ على وعدها ، على الرغم من التصرفات العكسية وموقف وزارة المستعمرات المؤيد للعرب · واعتقد ان هذا الموقف نابع من الاحترام الهائل الذى كان يكنه يهود اوربا الشرقية في القرن التاسع عشر للديمقراطية البريطانية وكان الكثيرون ينظرون الى المؤسسات البرلمانية والمدنية البريطانية على اعتبار انها قاربت حد الاعجاز ، في حين أنى انا التى عشت في ديموقراطية حقة في امريكا ، لم اكن اشاركهم هذه النظره ·

ومن الامور الملحوظة انه برغم الصراع المرير الذى دار بيننا ــ نحن الاسرائيليين ــ وبين البريطانيين ، فإننا لا نزال نكن للشعب البريطانى كل تقدير واحترام ، وما زال يؤلمنا جدا ان يخذلنا البريطانيون في اى موقف عن أى امة اخرى وهناك عدة اسباب لذلك ، اولها ان بريطانيا هى التى منحتنا وعد بلفور ؛ وثانيها موقف بريطانيا بمفردها أمام النازى ، وثالثها ذلك الاحترام المتأصل لدى اليهود للتقاليد · وبقى الشعب اليهودى في فلسطين ، خلال اعوام الانتداب الثلاثين ، يفرق بين البريطانى العادى والبريطانى الرسمى في حكومة الانتداب · اما على الصعيد السياسى فقد بقى هذا الحب من جانب واحد ·

وتقررت لي رحلة اخرى الى امريكا · فقد مرضت سارة وساءت حالتها من اثر الحمى الى ان كادت تموت · ولم يكن هناك من خيار الا أن اصطحبها الى الولايات المتحدة لأعالجها هناك ، رغم نصيحة الاطباء بعدم المخاطرة ورغم معارضة والدى وتوجهت الى مجلس النساء العاملات طالبة تكليفى بمهمة لدى النساء الرائدات · وكانت الرحلة بالقطارات والبواخر تستغرق قرابة الاسبوعين · ولا احد يعلم ما قد يحدث لسارة خلالهما · وسافرت انا والطفلان ·

ووصلنا الى الولايات المتحدة ونزلنا في شقة بعض اصدقائنا · وعلى الفور ادخلت ساره في مستشفى بيت اسرائيل في بروكلين · وكم كان صعبا على أن ادع سارة ، وهى في السادسة من عمرها في المستشفى بمفردها ، وكانت لا تعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية · واتضح أنها مصابة بمرض في الكليتين وكانت تتلقى علاجا خاطئا في فلسطين · وبعد ستة اسابيع من العلاج ، كتبت الى موريس ابلغه أن سارة قداستردت صحتها تماما ·

وعادت سارة الى البيت وقد تعلمت بعض الكلمات الانجليزية من ممرضاتها ، بينما كان مناحيم يكافح من اجل شرح ما يريده بخليط من العبرية والييديش · واصطحبتهما معى لزيارة كلارا ، وام موريس · ولكنهما كانا يفقدان اباهما ويكرهان رحلاتى التى كانت تمتد احيانا قرابة الشهر ؛ بل ان احداها استمرت ثمانية اسابيع كنت فيها القى الخطب عن فلسطين واجمع التبرعات والمجندين ·

وقد استقبلتنى مجلة النساء الرائدات ، التى رأست تحريرها فيما بعد لفترة ، بمقالة تشيد بعملى ونشاطى · ولم يكن جمع الاموال يتم في تلك الايام بملايين الدولارات كما يحدث اليوم ، لكن كل مليم كان ضروريا مثلما هو اليوم · ولم يكن برنامج التبرعات يتم بالالتزامات الاصلية ، ففى نيوارك مثلا تعهدوا بجمع ١٦٧ دولارا لكنهم لم يجمعوا سوى ١٧ دولارا فقط في فترة تسعة أشهر · وكنت اتلقى العديد من الرسائل من مختلف فروع الولايات الامريكية ؛ تبين لى مدى تنظيم أوجه النشاط فيها وتطلب منى المشاركة فيها بالحضور والحديث ــ ورغم أن العمل ، وتلبية هذه الطلبات ، كان مرهقا فإن الملل لم يصبنى وازداد ايمانى بحتمية العمل الذى تؤديه النساء الرائدات ·

وكانت هناك بعض الجوانب المرحة في هذه الرحلات . ففى احداها جاءتنى رئيسة النساء الرائدات وقالت لى : انك تتكلمين جيدا لكنك لا تتحدثين كالنساء وانما كالرجال . وقالت لى ان راشيل يانيت بن زفى كانت تبكى عندما تتحدث فكلنا نبكى معها . اما انت فنحن لا نبكى معك لانك تحدثينا عن اشياء كالهستدروث ومشاكل الهجرة .

وكنت من ناحية اخرى لا أعرف شيئا عن جمع الاموال . وفي احدى الزيارات وجدت جماعة صغيرة من اليهود استطاعت ان تجمع اموالا اكثر مما هو مطلوب منها . وعندما سألتهم عن كيفية ذلك قالوا « بواسطة لعب الورق » (الكوتشينة ـ الشدة ـ وكدت اضرب السقف برأسى وانا اصرخ فيهم طالبة منهم ان يلعبوا الورق كما يشاءون ولكن دون ان يكون ذلك باسم فلسطين . وعندئذ سألتنى احدى النساء « الا تلعبون الورق ياجولدى في فلسطين ؟ فقلت لها .. لا .. اى شعب ذلك الذى تتخيلينه ! » . لكننى بعد عام من تلك الواقعة . كنت امر في تل ابيب فرأيت مجموعة من اعضاء الهستدروث يلعبون الورق وأردت ان اكتب لهذه السيدة معتذرة لكننى لم اكن اعرف عنوانها .

وكنت خلال رحلاتى اكتب المقالات لمجلة النساء الرائدات . وتركزت معظمها في مشاكل العمال والعمل الصهيونى . وفي ربيع عام ١٩٣٣ كتبت مقالة ارد فيها على اتهام بأن حركة العمال ـ الصهيونيين قد نجحت بسبب الدعم المالى الذى جاءها من اليهود البورجوازيين الرأسماليين . وقلت اننا نعتمد على شيئين : العمال ليقوموا بالعمل والمال اللازم لهذا العمل . وأننا لا نعتقد ان الاموال التى نجمعها يجب ان تختم بخاتم « الطبقة العاملة » . واكدت في هذه المقالة أننا نرحب برأس المال الخاص ولكن بشرط ان يلتزم بخلق العمل لليهود والا يستخدمه

الا اليهود . والا لما تحقق الهدف الذى نريده جميعا وهو الهجرة الجماعية ·

وبدأت في صيف عام ١٩٣٤ أعد العدة للعودة بعد ان عملت مع النساء الرائدات ولقيت كل تقدير واعجاب وعدت الى فلسطين . وقد استرد طفلاى قواهما . في حين اصبح مناحيم هاويا للموسيقى . الامر الذى اسعد موريس وجعله يقضى العطلات معه وهو يدربه ويعمق احساسه وتذوقه للموسيقى · علما بأننى فيما بعد كنت أنا التى احمل آلة التشيلو لمناحيم وهو في طريقه الى تلقى دروس الموسيقى الى ان شب عوده ·

وان هى الا اسابيع بعد عودتى . حتى طلب منى الانضمام الى فاعاد هابوعيل (اللجنة التنفيذية للهستدروث · وكان الهستدروث شكلا متطورا للحكم الذاتى اليهودى في فلسطين . وكانت الفاعاد هابوعيل بمثابة « الوزارة » · وطوال السنوات الاربعة عشرة العاصفة التالية عهد الى بالكثير من الحقائب والمسئوليات فيها · وعموما كانت كل هذه المهام تتلاءم مع ما كنت أحبه فعلا وهو ترجمة البادىء الاشتراكية الى واقع في حياتنا اليومية ·

ولو أن الاحوال الاقتصادية في المجتمع كانت احسن . لكنا قد حققنا مساهمة عادلة في كل الاعباء داخل مجتمع العمل · كنا جميعا نتقاضى راتبا محددا يزداد فقط بالاقدمية وعدد الاولاد · وقد يكون هذا المبدأ غير عملى من وجهة نظر البعض في اسرائيل الآن . لكنه في تقديرى كان صحيحا وكنت اوافق عليه · وقد كان راتب بواب الهستدروث اكبر من راتبى لان له تسعة اطفال في حين ان لدى طفلين · وخضت صراعا طويلا داخل الهستدروث من اجل انشاء صندوق للمتعطلين عن العمل (الذين بلغوا حوالى العشرة آلاف في

احدى سنوات الثلاثينيات) واسميناها « مفدى » (فدية) وهى عبارة عن اجر يوم كل شهر يدفع لهذا الصندوق كضريبة « فردية »

وازاء هذا الاقتراح اتهمنى البعض بأننى اهدم الهستدروث . لكن بن جوريون وكاتزتسلون وغيرهما أيدونى . واستخدمنا فيما بعد اسلوب المفدى في حملات أخرى مثلما حدث عام ١٩٣٦ عندما تصاعدت الاضطرابات العربية واضطررنا إلى فرض ضريبة دفاع على الشعب اليهودى بأسره . ومثلما حدث خلال الحرب العالمية الثانية عندما انشأنا صندوق الحاجة والاغاثة .

كذلك عشت المأساة التى مر بها الماباى . وكنت اثناءها في الولايات المتحدة . اذ كان احد القيادات الشابة للماباى . وهو حاييم ارلوسوروف قد عاد من المانيا الهتلرية بعد جولة تفقدية . فاغتيل وهو يمشى على الشاطىء مع زوجته . واتهم بارتكاب الجريمة ابراهام ستافسكى احد اعضاء حزب التصحيحيين اليمينى . وان كانت محكمة الاستئناف قد برأته فيما بعد لعدم كفاية الادلة . وكان أرلوسوروف يمثل الاعتدال والحيطة وكان اغتياله بمثابة نتيجة حتمية للسياسة المعادية للاشتراكية واليمينية والعسكرية والمتطرفة التى كان التصحيحيون ينادون بها . وهكذا انقلب الصدام بين اليمين واليسار في الحركة الصهيونية الى فجوة لم تسد حتى يومنا هذا ولا اظنها سوف تسد ابدا .

وكانت المعركة قد تصاعدت داخل الشعب اليهودى في فلسطين في نهاية عام ١٩٣٣ وبداية عام ١٩٣٤ ؛ فالتصحيحيون يرون ان الهستدروث يسيطر على الشعب اليهودى ويبعد العمال غير الاشتراكيين وكأنه يريد تجويع معارضيه السياسيين . وكثيرا ما وقعت مصادمات دموية احيانا بين العمال في كل انحاء البلاد . وطرح بن جوريون شعار الوحدة

داخل المجتمع اليهودى في فلسطين مهما كان الثمن · واقترح وقفا لاطلاق النار في صيغة اتفاق عمالى بين اليمين واليسار · لكن مصرع ارلوسوروف جاء ليقضى على كل ذلك ·

وكانت هناك مشاكل أخرى · كان هتلر قد وصل الى السلطة عام ١٩٣٣ وبدا يتحدث عن سيادة « الجنس » الآرى ·· وظهرت واضحة في حديثه نغمة معاداة السامية منذ البداية · فقد استهل نشاطه بالتشريع المعادى لليهود الذى حرم يهود المانيا من حقوقهم المدنية والانسانية العادية · ولم يكن يتخيل ان هتلر سوف ينفذ وعده بتدمير اليهود ؛ أو أن العالم سوف يسمح بذلك · صحيح اننا لم نكن من النوع الذى يسهل خداعه ، لكننا لم نكن نتصور ان يحدث ما هو غير متصور ·

ثم بدأت نتائج « الحل النهائى » لهتلر والاضطهاد النازى تؤتى ثمارها عندما هرع الآلاف من اللاجئين الى فلسطين فرارا من المانيا برغم كل قيود الانتداب البريطانى في عام ١٩٣٤ · وكان معنى ذلك أن هناك ٦٠٫٠٠٠ رجل وامرأة يجب استيعابهم وسط شعب يكاد لا يفى بحاجاته ، وبرغم الارهاب العربى المتزايد واللامبالاة ـ ان لم نقل العداوة ـ من جانب حكومة الانتداب · وكانوا جميعهم من ذوى الثقافة العالية والصناعيين واصحاب الطاقات الكبيرة ؛ الذين قدموا اكبر المساهمات الى الييشوف (الشعب اليهودى في فلسطين) ·

كان علينا ان نجد لهذه الآلاف مساكن واعمالا ونعلمهم العبرية ونعودهم على الظروف الاصعب والاقسى · وكان يجب تحويل المحامى القادم من برلين والموسيقار القادم من فرانكفورت والكيميائى النمسوى الى مزارع وصانع طوب ، وذلك بين ليلة وضحاها · واقف الآن امام هذا الموقف وانا افكر كيف استطاع الييشوف أن يعبره وان يخرج منه بأقوى مما كان · واعتقد ان هناك نوعين من الاستجابة لمثل هذه

المحنة القومية · فإما الانهيار . والاستسلام على اساس أنه لا يمكن عمل شيء · واما ان نعض على النواجذ ونحارب على أية جبهات نراها لازمة لاية فترة لازمة مهما كان طولها ؛ وذلك هو بالضبط ما فعلناه . وما زلنا نفعله حتى الآن ·

واليوم ونحن في عام ١٩٧٥ يسألنى الكثيرون ما الذى ستفعله اسرائيل في مواجهة العرب الذين يريدون تصفية الدولة . وكيف نتصرف ازاء وفرة المال والسلاح والرجال لديهم ؛ فأجيبهم بأن الامور كانت اصعب بكثير منذ اربعين عاما واستطعنا أن ندبر امورنا ·· رغم ان الثمن كان دائما غاليا · وكلما رجعت بذاكرتى الى هذه السنين الاربعين . كلما ازدادت ضخامة انجازاتنا وضوحا ؛ ولعل ذلك يفسر حقيقة ان المتفائلين في اسرائيل الآن هم الكبار في السن مثلى ·

وتحددت الاولويات امامنا ·· وتحتم القيام بالعمل اليومى مهما كانت الظروف · فبالنسبة لى مثلا كانت اهتماماتى الروتينية هى رئاسة هيئة صندوق المرضى والاشراف على عمال الهستدروث القائمين ببناء المعسكرات البريطانية وإجراءالعديد من المباحثات الاخرى ثم القيام بعملى في المنزل ومساعدة مناحيم وسارة في اتمام واجباتهما المدرسية ·

وكان علينا في نفس الوقت ان نتخذ او ننفذ قرارات هامة بالنسبة للييشوف عموما ؛ واولها الموقف بالنسبة للارهاب العربى · ففى عام ١٩٣٦ وحده احترقت مئات الآلاف من الاشجار التى زرعها اليهود بالحب والامل واحترقت الحقول ووقعت ٢٠٠٠ هجمة اسفرت عن مقتل ٨٠ يهوديا واصابة كثيرين بجراح خطيرة · وبانتهاء « الثورة العربية » في عام ١٩٣٩ كان خمسمائة من اليهود قد سقطوا ضحايا للعنف العربى ·

وقد بدأت الاضطرابات في ابريل (نيسان) ١٩٣٦ · واصبح من غير المأمون ان يسافر اليهودى من مدينة الى اخرى ، حتى انى كنت اقبل اطفالى كلما توجهت من القدس الى تل ابيب لعلمى بأننى قد لااعود اليهم · وكانت الهاجاناه (المنظمة اليهودية للدفاع عن النفس) قد نمت وازدادت عدتها عما كانت عليه في عام ١٩٢٩ ، لكننا لم نكن نعتزم تحويلها الى اداة للعنف المضاد لا للعرب ولا للبريطانيين حتى لا تستخدم كحجة ضد الهجرة اليهودية والاستيطان · ورغم ان ضبط النفس أصعب بكثير من الرد والانتقام ، فقد قررنا الا نفعل شيئا حتى ولا في مواجهة الخطر المستمر حتى لا ندفع البريطانيين الى اتخاذ مزيد من اجراءات الحد من عدد اليهود المسموح لهم بدخول فلسطين · وتم تنفيذ سياسة ضبط النفس (هافلاجا بالعبرية) بكل صرامة · والتزم اليهود بالدفاع فقط دون اى انتقام او رد من جانب الهاجاناه طوال السنين الثلاثة التى اختار البريطانيون ــ بفهم رائع ــ تسميتها بــ « القلاقل » ·

لكن البعض نادى بالعنف المضاد واتهموا « الهافلاجا » بالجبن اما انا فقد كنت ــ كالاغلبية ــ ارى ان الهافلاجا هى الاسلوب الاخلاقى الوحيد والاوحد الذى يجب علينا اتباعه · وكنت اوافق على الرد بالذات على عمليه بعينها ، لكننى لم اقر اطلاقا فكرة الهجوم على العرب دون تمييز بين ما اذا كانوا من مثيرى الشغب ام لا ·

ولعلى في هذا الصدد اتناول ــ ولو باختصار ــ ذلك الادعاء الذى سمعته سنين طويلة بأننا قد تجاهلنا عرب فلسطين وانصرفنا الى تنمية وتطوير البلد وكأنه ليس فيها سكان عرب بالمرة · لقد كان المحرضون على الاضطرابات يقولون بأن العرب يهاجموننا لانهم « جردوا من ممتلكاتهم » ، ولست في حاجة الى العودة الى السجلات البريطانية لكى

اؤكد ان السكان العرب قد تضاعف عددهم منذ بداية الاستيطان اليهودى ٠ وقد كان مستوى معيشة عرب فلسطين اعلى بكثير من غيرهم من عرب الشرق الاوسط ، الامر الذى دفع بجحافل العرب من سوريا وغيرها الى الهجرة الى فلسطين ٠ اما ذلك البريطانى الذى اوصى بوضع حد للهجرة اليهودية الى فلسطين على اساس انه لا يوجد فيها مكان ، فإننى اذكر الآن تلك الخطب التى كنت القيها عن الطاقة الاستيعابية لفلسطين المستقاة من واقع الاحصاءات البريطانية الرسمية ، ومن واقع ما رأيته بعينى ٠

كذلك فقد كان هناك الكثير من اليهود في البلاد العربية ، وكنا نأمل لهم ان يعيشوا في امان ومساواة ؛ ولعل ذلك من اسباب تمسكنا بسياسة ضبط النفس لكن المصالحة التى كنا نحلم بها لم تتحقق ٠

واضطررنا الى النزول لملء الفراغ الاقتصادى الناجم عن اعلان اللجنة العربية العليا ، برئاسة المفتى ، للاضراب العام على امل شل البيشوف كله ٠ وامر المفتى بأن لا ينزل عربى الى عمل الا اذا توقفت الهجرة اليهودية وتوقف اليهود عن شراء الاراضى ، وكان لدينا الرد البسيط على ذلك ؛ اذا تعطل الميناء في يافا فليكن لنا ميناء في تل ابيب ٠٠ واذا توقف المزارعون العرب عن تسويق محاصيلهم فعلى المزارعين اليهود ان يضاعفوا مجهوداتهم مرتين وثلاثة باختصار ؛ كل ما يرفض العرب عمله ، سوف نعمل نحن على ادائه ، بشكل او بآخر ٠

وهناك بالطبع العديد من الناس الذين اثرت اراؤهم واحكامهم وشخصياتهم في هذه القرارات ـ بما فيهم الى حد قليل شخصى ـ لكنه يبقى فوق الآخرين ، رجل كنا وبقينا نعتمد على صفاته القيادية النادرة وحسه السياسى ، الا وهو بن جوريون ـ وقد زرت قبره

مؤخرا في سدى بوكر في صحراء النقب ، وتذكرت محادثة جرت بينى وبينه في عام ١٩٦٣ عندما استقال (للمرة الثانية والاخيرة) من رئاسة الوزراء وهرع اليه العديد منا يرجونه ان يغير رأيه ، ويومها قلت له اننا لو وقفنا في ميدان التايمز وسألنا الناس عن اسماء رؤساء ورؤساء وزارات الدول فقد لا يعرفون ، لكنهم سيعرفون بالطبع ان بن جوريون هو رئيس وزراء اسرائيل ـ ولم افلح يومها في اقناعه · لكنه مما لا شك فيه ان كلمتى « اسرائيل » و « بن جوريون » سترتبطان سويا ربما الى الابد في اذهان الناس · واعتقد ان الشعب اليهودى لن ينتج رجلا في مثل شجاعته وعظمته وحصافته ·

وانه لمن الصعب ان اصف هذا الرجل الذى اعجبت به وتابعته طيلة هذه السنين بل وعارضته كثيرا · لم يكن من السهل ان يكون الانسان قريبا اليه ، بل لا اعتقد انه كان قريبا لاحد فيما خلا زوجته باولا وربما ابنته رينانا · كنا جميعا ـ انا وبيرل وشازار وريمز واشكول ـ نحب رفقة بعضنا ونتزاور لنتحدث لا في السياسة فحسب بل في امور الناس ، الا بن جوريون · فما لم يكن لديك عمل معه فلن تراه · لم يكن يحتاج الى الناس مثلنا ·· كان لديه اكتفاء ذاتى · لكنه ايضا كان لا يعرف شيئا عن الناس ، رغم انه كان يغضب منى فعلا كلما قلت ذلك له ·

واعتقد ان عدم احتياجه للناس يعود في جزء منه الى حقيقة أنه كان يجد من الصعب أن يتحدث الى الناس · وقد ابلغنى ذات مرة انه عندما جاء الى فلسطين عام ١٩٠٦ سار مع راشيل يانيت ليلة بكاملها دون أن يتحدث اليها بكلمة واحدة · ولا اعتقد انه تحدث مع احد عن زواجه أو اطفاله ، فتلك اشياء كان يرى الحديث فيها مضيعة للوقت ·

وكلما وجد امرا يهمه او يثير انتباهه ، عكف عليه بتركيز شديد ، ولم نكن نفهم ذلك ونقدره · وفي احدى المرات ، في عام ١٩٤٦ على ما اظن ، وكان رئيسا للوكالة اليهودية طلب منحه اجازة « لعدة اشهر » لكى يعرف بالضبط كل ما فى حوزة الهاجاناه وما تحتاجه لصراع كان يراه مقبلا · واصبح الامر مجالا لضحكاتنا حول ما اسميناه « بندوة بن جوريون » ، فمن ذا الذى يذهب « للدراسة » في هذا الوقت العصيب · لكن بن جوريون امتلك بعد عودته قدرا من المعلومات يفوق كل معلوماتنا مجتمعة · ثم اعمل حسه الرائع مع المعلومات التى جمعها ، وتوجه الى يهود الولايات المتحدة الامريكية ـ قبل حرب الاستقلال بثلاثة اعوام ـ وسجل مساعداتهم من اجل « الحتمية المحتملة » للحرب مع العرب ·

لم يكن بن جوريون رجلا قاسى القلب ، لكنه كان قادرا على اتخاذ القرارات الحاسمة حتى ولو كانت ارواح الناس هى الثمن · وفي احدى الليالى في اوائل عام ١٩٤٨ قال لى ريمز « انت وبن جوريون سوف تحطمان آخر امل للشعب اليهودى » · ومع ذلك فقد تمكن بن جوريون من اخراج الدولة اليهودية الى حيز الوجود · صحيح انه لم يفعل ذلك وحده ، لكننى اشك كثيرا في انها كان يمكن ان تقوم بدون قيادته ·

وعملت معه منذ البداية ، وكان يثق في ، واعتقد انه كان يعجب بى · وظل سنين طويلة لا يسمح لاحد بأن ينتقدنى في حضوره رغم خلافى معه احيانا في امور هامة مثل اقتراحات لجنة بيل بتقسيم فلسطين ، والهجرة اليهودية « غير القانونية » التى لم يأخذها بن جوريون في البداية مأخذ الجد ·

هل كان ديكتاتوريا ؟ الواقع .. لا . ومن السخف القول ان الناس كانت تخاف منه ، لكنه لم يكن بالرجل الذى يسهل الخلاف معه . ومن بين الذين اختلف معهم بن جوريون ، وملأ حياتهم بالمرارة ، إثنان من رؤساء وزارات اسرائيل هما موشى شاريت وليفى اشكول . لكن كان هناك ايضا اخرون غيرهم .

كان يكره ان يتهم بأنه يسيطر على الحزب وعلى الحكومة بطريقة اوتوقراطية مطلقة . وفي احدى اجتماعات الحزب سأل بن جوريون الوزير بيريز نفتالى : هل ادير انا اجتماعات الحزب بطريقة غير ديموقراطية ؟ فرد عليه نفتالى قائلا : لا اعتقد ذلك ، وانما اعتقد ان الحزب ، بواسطة اكثر الوسائل ديموقراطية ، يقرر دائما التصويت على الاسلوب الذى تريده انت . وقد ارضى هذا الرد بن جوريون ، وكان رأيا دقيقا ، رغم انه لم يكن يملك اى قدر من روح الدعابة (ولا اذكر ولا لمرة ان بن جوريون صدرت عنه نكته) .

واذكر بهذه المناسبة اجتماعا للاشتراكية الدولية كنت احضره . وفي جلسة ضمت ويلى برانت وبرونو كرايسكى وهارولد ويلسون ، سألونى كيف ادير اجتماعات الوزارة ، فقلت لهم بالتصويت . فاصيبوا بدهشة بالغة اذ انهم ــ كما قالوا ــ كانوا يكتفون بعرض ملخص للموضوع المطروح ثم القرار الذى سيتم اتخاذه دون ان يجرؤ احد على معارضته . واحتاج الامر الى شرح مستفيض لكى ابين لهم طبيعة الوزارة التى تتكون من ائتلاف حكومى ، ومن هنا فإن كل عضو لا بد وان يتحدث في كل موضوع ومن هنا كانت اجتماعات الوزارة تستمر طويلا .

واعود الى بن جوريون لأقول ان الشىء الشاذ فيه هو أنه مهما كان مخطئا من الناحية النظرية فإنه كان دائما من الناحية العملية

على صواب ، وذلك هو الفارق الحقيقى بين رجل الدولة والسياسى صحيح اننى لم اسامحه على موضوع لا فون ، ولا على الاساءات التى كالها لزملائه والاضرار التى الحقها بحركة العمل في السنوات العشر الاخيرة من عمره ، لكنه الشخص الوحيد الذى يعتبر ـ اكثر من غيره ـ مسئولا عن انشاء الدولة اليهودية ٠

وفي عام ١٩٣٧ ارسلونى ثانية الى الولايات المتحدة الامريكية لجمع الاموال لتنفيذ مشروع للهستدروث. كنت معجبة به (واعجب به اطفالى) ، كان المشروع بحريا تحت اسم ناتششون (على اسم اول اطفال اسرائيل الذين القوا بأنفسهم في البحر تنفيذا لتعاليم موسى بعد الخروج من مصر) ٠ وكان من بنات افكار دافيد ريمز اثر اندلاع الاضراب العربى العام ٠ لقد كان اليهود القدماء في فلسطين يعملون في البحر ، غير انهم الان يحتاجون الى تدريب واسع على اعمال البحر ، خاصة بعد اغلاق ميناء يافا عام ١٩٣٦ ٠ وكان علينا ان ننشىء ميناء وان نشترى سفنا وان ندرب بحارة ؛ لنعود دولة بحرية من جديد ٠

وبكل معنى الكلمة ، كان يوم افتتاح ميناء تل ابيب عيدا قوميا ليهود فلسطين ٠ لم يكن الرصيف الخشبى ـ الذى تغير فيما بعد الى حديدى ـ يماثل ميناء روتردام او هامبورج ، لكنه كان ميناء نملكه نحن ٠ وطفت علينا مشاعر الفخر والاثارة ٠ وكنت اقضى كثيرا من الامسيات في منزلى ، اجلس في الشرفة ، واحلم باليوم الذى يكون لنا فيه اسطول تجارى يرفع علم نجمة داود ٠ لكن البحر كان يرتبط لدينا باليهود الفارين من الحكم النازى والقادمين الى فلسطين بالبواخر ٠ وكنا في عام ١٩٣٩ ، والحرب العالمية على الابواب ، واصبح متوقعا ان يوقف البريطانيون دخول اليهود كلية الى فلسطين ٠

وكانت لجنة بيل قد اوصت بعد جولتها في فلسطين عام ١٩٣٦ بتقسيمها الى دولتين احداهما يهودية تشمل ٢٠٠٠ ميل مربع . والاخرى عربية تشمل بقية فلسطين ، فيما عدا القدس فتصبح دولية مع ممر الى البحر . وكنت أرى ان هذه الدولة صغيرة للغاية بحيث لا تصلح وطنا قوميا لليهود . وشاركنى في رأيى العديد من زملائى من بينهم بيرل . اما بن جوريون ، والذى اثبتت الايام صحة رأيه ، فقد كان يرى ان اية دولة افضل من لاشىء بالمرة .

واحمد الله اننى لم اكن السبب في رفض الدولة في عام ١٩٣٧ ، بل كانوا العرب الذين رفضوا خطة التقسيم ؛ علما بأنهم لو كانوا قد قبلوه لكانوا قد حصلوا على دولة « فلسطينية » منذ اربعين عاما . وكان المبدأ الرئيسى الذى وجه موقف العرب عامى ٣٦ و ١٩٣٧ هو بالضبط نفس المبدأ حتى اليوم ؛ وهو ألا تتخذ المواقف على اساس ما هو جيد بالنسبة لهم ، وانما على اساس ما هو سىء بالنسبة لنا .

فإذا كانت بريطانيا سوف تغلق ابواب فلسطين امام اليهود ، فأين يذهبون ؟ . في صيف عام ١٩٣٨ شاركت في المؤتمر الدولى للاجئين الذى دعا اليه فرانكلين روزفلت في ايفيان . ولم اجلس بين الوفود وانما جلست بين المستمعين على اعتبار اننى « المراقب اليهودى » من فلسطين ، استمع بمزيج من الالم والغضب والفزع ، الى ممثلى ٣٢ دولة وهم يتناوبون الكلمة ويعربون عن اسفهم لعدم امكان دولهم استيعاب « اعداد » اليهود . وكدت اقف صارخة فيهم « الا تعلمون ان هذه الاعداد هى من البشر الذين يقضون حياتهم ضائعين ما لم تسمحوا لهم بالدخول ؟! »

وعدت بذاكرتى الى مؤتمر الاشتراكية الدولية الذى حضرته قبل ذلك بعام . والمندوب الاسبانى يبكى طالبا انقاذ مدريد . ولم يجد

ارنست بيفن ما يقوله سوى « ان حزب العمل البريطانى غير مستعد لدخول الحرب من اجلكم » · ولاول مرة منذ كنت طفلة تفزعنى اصوات حوافر خيول القوقاز في روسيا ، ادركت في ايفيان أنه لا يكفى للشعب الضعيف ان يعرض عدالة قضيته فقط ·

وهكذا فإنه اذا كان على كل امة ان تجيب على السؤال الازلى « نكون او لا نكون » كل بطريقتها ؛ فإن اليهود لم يكونوا ـ ولا يجب أن يكونوا ـ في حاجة الى تصريح من احد بالبقاء · وقد حدثت اشياء كثيرة وفظيعة منذ ١٩٣٨ ، لكن كلمة « اللاجئين اليهود » على الاقل لم تعد واردة ، واصبحت هناك دولة يهودية مستعدة وقادرة على استيعاب اى يهودى يريد العيش فيها ، سواء كان عاملا ماهرا ام لا ، كهلا او شابا ، مريضا او صحيح البنية ·

وفي عام ١٩٣٩ استسلمت حكومة تشامبرلين للابتزاز العربى ، بنفس الاسلوب الذى استسلمت به للنازى · واذا كان اسلوب التهدئة مقبولا في تشيكو سلوفاكيا ، فليكن له نفس المفعول في فلسطين التى لم يكن احد يهتم بها · والواقع ان الكتاب الابيض الذى صدر في عام ١٩٣٩ قد انهى الانتداب بالفعل ، وان استمرت سكرات الموت تسعة اعوام اخرى · وبمقتضاه يتم انشاء دولة فلسطينية خلال عشرة اعوام ، يضمن دستورها ، « حقوق الاقليات » ونظاماً للكانتونات ؛ وتنتهى مشتريات اليهود للارض في فلسطين فيما عدا منطقة تبلغ ٥ ٪ من مساحتها ـ وتتقلص الهجرة اليهودية الى ٧٥٫٠٠٠ نسمة خلال السنوات الخمس التالية ثم تتوقف كلية الى ان يوافق العرب عليها ثانية ·

ولم يكن الكتاب الابيض بالطبع مقبولا ·· لكن ما هو اسلوب التحرك الذى ستتخذه الحركة الصهيونية الآن بعد أن نفضت الحكومة البريطانية يديها من التطلعات القومية لليهود ؟

وتقرر سفرى الى جينيف لحضور المؤتمر الصهيونى هناك • وقبيل سفرى كانت سياسة الماباى قد انتهت صياغتها • لقد قررنا ان تستمر الهجرة اليهودية حتى ولو ادى الامر الى صدام مع البريطانيين ، وان يستمر الاستيطان والدفاع عن الاراضى • وكان معنى ذلك اننا نلزم انفسنا بمحاربة البريطانيين اذا اضطررنا لذلك

وباندلاع الحرب في سبتمبر (ايلول ' ١٩٣٩ ، حدد بن جوريون موقفنا بحزم ووضوح ؛ نحن سوف نحارب هلتر وكأنه ليس هناك كتاب ابيض ، وسوف نحارب الكتاب الابيض وكأنه ليس هناك « هتلر »

الفصل الســابع

الكفاح ضد البريطانيين

حاولت ، بلا جدوى ، منذ عام ١٩٣٩ ان أجد تنسيرا لما حدث عندما وقفت بريطانيا بكل تصميم وشجاعة أمام النازي ، ووجدت في نفس الوقت الطاقة والموارد التي حاربت بها بضراوة ضد السماح لليهود اللاجئين من النازى بدخول اسرائيل • ولكنني لم أجد سببا واحدا يبرر ذلك • واعتقد أنه لو استمرت هذه الحرب ـ داخل الحرب التي شنتها بريطانيا ـ كان ممكنا لها أن تعطل ظهور دولة اسرائيل سنوات كثيرة •

ولم يعد هناك مفر من اتخاذ القرار الحاسم بأن للييشوف الحق في حكم نفسه • فقد جعلت بريطانيا من نفسها حائطا حديديا بيننا وبين أي محاولة لانقاذ اليهود من النازي ، والكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ قد ارست قواعده واحكامه مجموعة من الناس لا تمثل حياة اليهود لديهم الا اهتماما ثانويا • وهكذا ، ومن أعماق الحاجة الملحة الى سيطرتنا على أمورنا ، قامت دولة اسرائيل عقب انتهاء الحرب العالمية بثلاثة أعوام فقط •

ولم يكن لنا مطلب لدى بريطانيا من عام ١٩٣٩ حتى ١٩٤٥ سوى أن تسمح لنا بإدخال أكبر عدد ممكن من اليهود الناجين من النازي •• ذلك كل ما في الأمر • لم نكن نريد امتيازات ولا سلطة ولا

وعودا بالمستقبل ، فقط كنا نريد السماح لنا بانقاذ ملايين اليهود قبل أن يهلكهم هتلر . ومع ذلك اصم البريطانيون آذانهم .

وبقى الكتاب الأبيض نافذ المفعول ، وفتحت ابواب فلسطين بالقدر الكافي فقط لدخول العدد المنصوص عليه في هذه الوثيقة المخزية ، وعندئذ أيقنا جميعا أنه لا توجد حكومة أجنبية تشعر بآلامنا أو تعطى نفس القيمة لأرواح اليهود .. وعندما تعلمنا هذا الدرس ، لم ننسه اطلاقا .

ترى ما الذي كان يحدث لو أن بريطانيا جاءت للعرب وقالت لهم انها ستنفذ الكتاب الأبيض فور انتهاء الحرب ؟

المهم الآن هو انقاذ مئات الآلاف من اليهود من مذابح النازية ؟! كان قليل من القادة العرب سيطلقون بعض التهديدات ، أو تحدث عدة مسيرات احتجاج .. لكنه .كان سيصبح ممكنا انقاذ بضعة آلاف من الملايين الستة . ولكان العالم قد تحرر من تلك التهمة البشعة بأن أحدا لم يرفع اصبعه لمساعدة اليهود واخراجهم من محنتهم .

وخلال الحرب وبعدها ، لم الق يهوديا فلسطينيا واحدا يرفض تقديم اية تضحية في سبيل الوصول الى يهود اوروبا واخراجهم سالمين . ولم يحدث أن خرجنا على الاجماع بشأن هذا الأمر . وعلى قدر علمي فإنه لم يحدث أن أثير مرة سؤال حول ما اذا كان ضروريا أم لا . ومادام ليس هناك من يساعدنا فلنفعل ذلك بأنفسنا .. وهو بالضبط ما فعلناه .

وقضيت كل الوقت أثناء المؤتمر الصهيوني في جنيف عام ١٩٣٩ مختلية بمندوبي منظمات الشباب في الحركات العمالية الاوروبية ونحن نتفق على الترتيبات التي تبقى على الاتصال بيننا اذا ما اندلعت الحرب . ولم نكن نعلم بالطبع شيئا عن « الحل النهائي » لهتلر .

لكنني أذكر جيدا نظرات أعيننا ونحن نودع بعضنا . لا ندري ما الذي سيحدث .

« سنحارب هتلر وكأنه ليس هناك كتاب أبيض . ونحارب الكتاب الأبيض وكأنه ليس هناك هتلر » .. كان هذا الشعار براقاً . لكنه لم يكن سهل التنفيذ . وكانت هناك ثلاث معارك متصلة تحتم علينا أن نخوضها . وشاركت فيها كلها بوصفي عضوا في القاعاد ها بوعيل . الكفاح الأول يهدف الى جلب أكبر عدد ممكن من اليهود . والصراع الثاني في سبيل اقناع بريطانيا بالسماح لنا بالمشاركة في العمل العسكري ضد النازي . والصراع الثالث يهدف الى الحفاظ على اقتصاد الييشوف حتى يمكنه استيعاب المهاجرين اليهود بعد انتهاء الحرب .

ولست أدري كيف مررنا بكل هذه الظروف دون أن نتمزق اربا . كانت عائلتي مثلا تتهمني دائما بأنني اقسو على نفسي . بل ان أولادي حتى الآن . مع أن حياتي قد استرخت . يتهمونني بأنني لا أخذ كفايتي من « الراحة » . ولقد تعلمت في أيام الحرب درسا هاما هو ان الحرب تجعل الانسان يتخطى دائما الحدود المطلقة لاحتماله . على اية حال لا أذكر انني شعرت أيامها بأني « متعبة » اذ يبدو انني اعتدت على التعب . ويبدو ان السبب في ذلك هو ايماننا بأن النازي يعملون على تصفية يهود أوروبا .

ومازلت أذكر بوضوح تام ذلك اليوم الفظيع الذي جاءنا فيه أول تقرير عن غرف الغاز والصابون الذي يصنع من عظام اليهود . وعلى الفور عقدنا اجتماعا عاجلا في الهستدروث وقررنا ايفاد مبعوث الى انقرة في محاولة للاتصال باليهود من هناك . ولم يناقش واحد منا صحة المعلومات التي وردتنا ، وصدقناها بأكملها في التو .

ولانني كنت أجري المحادثات الخاصة بمجال العمل ، فقد عهد الى بالاستمرار في المحادثات ولكن مع السلطات العسكرية • وكانت بريطانيا تخترع الاعذار لكي لا تقبل المزيد من المتطوعين اليهود ، كاصرارها مثلا على ضرورة المساواة بين اعداد اليهود والعرب من المجندين • لكن الحلفاء ، مع تطور الحرب ، وجدوا انفسهم يعتمدون بشكل متزايد على المصدر الوحيد لليد العاملة صاحبة المهارات العالية (والذين يمكن من الناحية الساسية الاعتماد عليهم كلية) • وهكذا عمل عشرات الآلاف من شباب اليهود الفلسطينيين خلال الحرب كسائقين وممرضين • وكانوا يعاملون على أساس انهم فلسطينيون لا يهود ، ويتم دفع مرتباتهم وفق النظام المصري • ولم يقبل الهستدروث ذلك وعهد الى مهمة التفاوض مع قيادة الشرق الأوسط حوله •

ومع انتقال الموقف الحربي من سيء الى أسوأ ، أصبح المجهود الحربي يستوعب المزيد من اليهود الفلسطينيين ، واحست حكومة الانتداب بضرورة انشاء هيئة عامة يمكن أن تتشاور معها في الشئون الاقتصادية • فأنشأت المجلس الاستشاري الاقتصادي للحرب الذي بقيت عضوا فيه الى نهاية الحرب • ولكن كل هذه الاهتمامات كانت فرعية •

وذات يوم عاد مبعوثنا الى انقرة (ميليتش نيوشتادت ـ واسمه الآن نوى) بأنباء مفزعة • قال لنا انه وجد اناسا يستطيعون الاتصال بيهود أوروبا المحتلة ، لكنهم قد يستولون على مبالغ كبير ، وبعضهم من النازي ، لكنه يبقى مهما أن يصل الى اليهود تحت الاحتلال النازي بعض من المال لسد حاجاتهم حتى تبقى المقاومة اليهودية مستمرة •

وهكذا بدأت محاولاتنا المستميتة لشق طريقنا داخل أوروبا التي يحتلها النازي لالقاء حبل نجاة لليهود · ولم ندع فرصة الا طرقناها في هذا السبيل · وأخيرا وافقت بريطانيا على أن نسقط من رجالنا - لا مائة كما كنا نخطط - بل اثنين وثلاثين في الأراضي التي تسيطر عليها قوات المحور لاداء مهمتين الأولى مساعدة اسرى الحرب من الحلفاء (وغالبيتهم من الطيارين) على الفرار . والثانية مساعدة وتشجيع البارتيزان من اليهود ·

ولقد قام يهود فلسطين بأعمال كثيرة خلال الحرب . لكنني اختار اثنين قريبين الى قلبي هما إلياهو جولومب وإنزو سيريني · كان الخلاف بين الاثنين واسعا في شخصيتهما وسلوكهما . لكنهما يمثلان تلك الايام المليئة بالالم أصدق تمثيل ·

كنت اعرف الياهو أكثر مما عرفت انزو ؛ وكان جزءا من عائلة رائعة (أربعة من الأخوة والاصهار) قد لعبوا دورا كبيرا في بناء البيشوف والحركة العمالية · وسوف اتحدث عن واحد منهم تشابكت حياتي وعملي معه الى حد كبير هو موشى شاريت · لكنني أؤمن بأن الأربعة يستحقون أن يكتب عنهم كتاب كامل ·

كان موشى شاريت انئذ رئيسا للدائرة السياسية في الوكالة اليهودية ؛ خلفا لحاييم ارلوسوروف في عام ١٩٣٣ · كان يعتبر نفسه المرشح الوحيد لمنصب وزير الخارجية عند قيام الدولة اليهودية · وكان ابرز الاربعة من حيث ذكائه وتفوقه اللغوى ·· ومع ذلك كان متزمتا يهتم بالشكليات · لكنه برغم مواهبه لم يكن كبن جوريون أو كاتزنلسون · وقد عمل فترة طويلة كوزير لخارجية اسرائيل ، ثم كرئيس لوزارئها في الفترة ما بين الاستقالتين الأولى والثانية لبن

جوريون ٠ وكان شاريتهو صاحب الفضل في انشاء الفيلق اليهودي الذي شارك في الحرب في آخر اعوامها ٠

وكانت احدى شقيقات شاريت متزوجة من دوف هوس رجل الهستدروث في لندن ؛ وصاحب العلاقات القوية مع كثير من قادة حزب العمل البريطاني ٠ وغالبا ما كنا نختار دوف ليملثنا لدى السلطات البريطانية ٠ وقد تبني مشروعا لتطوير الطيران في فلسطين ، وكان هو نفسه طيارا ٠ وفي عام ١٩٤٠ توفى في حادث سيارة مع زوجته وابنته ، وبموته فقدنا واحدا من أعمدة قوتنا ٠ وكنت أقضى مع دوف وقتا طويلا كلما ذهبت الى لندن قبل الحرب ، وعملنا بعدها سويا في تجنيد المتطوعين للجيش البريطانى ٠

وكان هناك الكثير ممن لا يشاركوننا نفس الرأى بالنسبة للخدمة في الجيش البريطاني ؛ وكانوا يقولون اننا بوضعنا كل البيض في سلة واحدة انما نعرض أمن المدن والمستعمرات اليهودية للخطر في حالة هزيمة البريطانيين في الشرق الأوسط ٠ وكنت أرى من السخف بمكان أن نحارب هتلر الى أن يصل الالمان الى حدود فلسطين ٠ وكنا نريد خلع النازي من أى مكان يوجدون فيه ٠

أما الثالث فهو شاءول افيجور (شقيق زيبورا شاريت الذي مازال على قيد الحياة ولا أظن أحدا ممن يمرون على كيبوتز كينريب ٠ الآن أو في الماضي ، كان يتصور أن هذا الرجل العادي المظهر كان وزير الدفاع السري في السنوات التي سبقت قيام دولة اسرائيل ٠ وهو الذي أنشأ جهاز المخابرات الاسطوري التابع للهاجاناه ، وهو الذي نظم وأدار الهجرة « غير القانونية » الى فلسطين ولم يكن مظهره أو أسلوب حديثه يكشفان عن حقيقته وهي أنه قد ولد مقامرا ٠ لم يكتب كلمة غير ضرورية ، ولم يقل كلمة غير ضرورية ٠ وكانت كل تصرفاته تتم

بالسرية المطلقة · كذلك كانت سلطته مطلقة في كل الأمور ذات الصفة السرية ، كشراء الاسلحة سرا من أوروبا عام ١٩٤٧ أو جلب اللاجئين اليهود من البلاد العربية ، فلسطين في ذروة الحرب وغيرها · وكنا ، ومازلنا ، جميعا نكن له أقصى الاحترام ·

أما الرابع فهو الياهو جولومب الذي كان موجودا في قلب كل الأحداث في تلك الأيام · وكان منزله في تل أبيب وغرفته في الهستدروث بمثابة المركز العصبي الحقيقي لنا جميعا · ولا أظن ان النور انطفأ في منزله طوال الحرب . فقد كان هو مقر قيادتنا العامة · فما من مرة ذهبنا الى البيت ، ليلا أو نهارا ، الا ووجدنا حماته « ام شاريت) وزوجته ادا جولومب تهبان لاستقبالنا · لقد كان بن جوريون وشاريت ودوف هوس من صناع السياسة ، والمفاوضين ، والمتحدثين باسم البيشوف أمام العالم ، أما جولومب فقد كان بالفعل القائد العام لنا جميعا · وكان القائد الفعلى للهاجاناه منذ ١٩٣١ الى أن توفي عام ١٩٤٥ · وكما هي الحال مع بيرل ، فإن جولومب لم ير دولة اسرائيل ، ومثله أيضا فقدنا برحيله واحدا من المؤسسين الفعليين للدولة ·

كان جولومب أبيض الشعر ، كغيره من « الآباء المؤسسين » ، لا يعني بهندامه ولا أذكر أني رأيته مرة يرتدي حلة · وكان يتحدث ببطء وهدوء ·· وكان ابعد الناس شكلا عن العسكرية أو قيادة الحركات السرية · ولم تكن شخصيته القوية تبدو واضحة الا لمن يعمل بالقرب منه ، ومع ذلك فإن الهاجاناة وفلسفتها وقوتها كانت من صنع الياهو جولومب · وكان قد هاجر الى فلسطين من روسيا عام ١٩٠٩ وتخرج مع شاريت من مدرسة هزرليا العليا · وتعرف على بيرل

خلال الحرب العالمية الاولى . واستطاع بتأثير بيرل عليه أن ينمي مفهومه عن الدفاع اليهودي عن النفس في فلسطين ٠

ولم يكن مفهوم الياهو للهاجاناة منذ البداية على انها حركة فدائية أو أنها نوع من القوات الخاصة . وانما على انها استجابة قومية لحاجة البيشوف لحماية انفسهم وعلى أنها جزء من الحركة الصهيونية ٠ أي أن الهاجاناة يجب أن تنمو ملكا للشعب اليهودي بأسره وتحت سيطرة مؤسساته القومية ٠ ومن هذا المفهوم نبع موقف الياهو من المنظمتين العسكريتين المنشقتين اللتين ظهرتا وهما الارجون زفاي ليومي وجماعة الشتيرن (الليحي) ٠ وظهرت المنظمتان تعبيرا عن معارضتهما لسياسة الهاجاناة في ضبط النفس والامتناع عن الرد وتجنب الارهاب اليهودي ٠ لكن الياهو كان منذ البداية يعد الهاجاناة لكى تكون كما يراها نواة لجيش يهودي قادر ومخول بالدفاع عن حق اليهود في المجيء الى فلسطين واستيطانها ٠

وبهذا التعريف لعبت الهاجاناة دورا فريدا ٠ وكان الياهو يرى ان الدفاع اليهودي عن النفس يعني أن تستخدم الموارد الضعيفة للبيشوف في أى مكان وزمان تكون هناك حاجة اليها ٠ فالرجال الذين جلبوا اليهود سرا هم الذين يحرسون المستعمرات ويصنعون الاسلحة ويخبئونها . بحيث تمكنت الهاجاناة فعلا في عام ١٩٤٨ . عندما دعت الحاجة أن تصبح الاداة لتحقيق الخلاص القومي ٠

ولعله مما يدعو الى المرارة أن أكتب عن الياهو الآن . في عالم أثر ان يضفي رونقا على الارهاب العربي . وان يدخل الى هيئة الامم رجلا مثل ياسر عرفات . الذي لا يملك فكرة بناءة واحدة او تصرفا يحسب لصالحه . والذي ـ بصراحة ووضوح ـ ليس الا مجرما عتيدا يرأس حركة

كرست نفسها فقط لتدمير دولة اسرائيل · وانه لايمان عميق لدي - بل وعزاء - أن بذور فشل الارهاب العربي تكمن في مفهوم الارهاب نفسه ·

وفي النهاية . لم تكن الهدية الكبرى من الياهو لليبشوف هي فقط المهارة التي أدت بها الهاجاناة عملياتها . وانما ايضا هدفها الرئيسي الذي تم تنفيذه . عندما حانت الساعة . بشكل كامل في جيش اسرائيل · وكانت بالطبع اخطاء (بعضها باهظ التكاليف) وانهيارات وخيبة أمل . لكن روح الهاجاناة سادت وعاشت لارتباطها بخدمة الشعب اليهودي ·

ولم تكن لى علاقة باختيار المتطوعين الذين سيقفزون بالمظلات في أوروبا · لكنني فوجئت بإنزو سيريني يدخل غرفتي في الهستدروث ليودعني قبل سفره · وحاولت اقناعه بالعدول لكنه ابي ووعدني بأننا سنلتقي ثانية ·· ولم يحدث ذلك أبدا · ووقفت في احدى ليالى عام ١٩٤٥ أشاهد سفينة تخترق الحصار البريطاني وتقذف أكثر من الف من اليهود الناجين . وكانت تحمل اسم انزو سيريني ·

كانت نشأة انزو مختلفة عنا جميعا فقد ولد وشب في ايطاليا . وكان ابوه طبيبا للملك وعمه من المحامين المشاهير الذي أصبح فيما بعد من قادة الشيوخ الشيوعيين في البرلمان · وبعد خلاف مع الفاشيست في العشرينات جاء الى فلسطين . مفتونا بحركة الكيبوتز حيث ساهم في تأسيس كيبوتز جيفعات برينر · وكان يؤمن بنوع من الاشتراكية التي تختلط بشعور قوى بالدين · وكنا في حاجة ماسة اليه في فلسطين . لكنه كان يريد المشاركة في الحرب · وكان يذيع باستمرار فيالاذاعة الموجهة الى ايطاليا . ويحرر جريدة معادية للفاشيست يقرأها اسرى الحرب · وما ان ساعد الياهو في تجنيد المتطوعين حتى اصر على التدرب معهم · ولا ننسى له اخراجه للشباب اليهود من العراق مخترقا صحراء

فلسطين في مخاطرة تحمل مسئوليتها · وفور اسقاطه القي القبض عليه وسيق الى معسكر داخاو حيث قتله النازيون هناك · بالنسبة لى . برغم شجاعة الاثنين والثلاثين متطوعا . كان انزو رمزا يجسدهم جميعا ·

وكثيرا ما سؤلت عما اشعر به نحو الآلمان . واعتقد ان هذا هو المكان الذي يجب أن أرد فيه . لقد حتمت علينا حقائق الحياة . رغم مرارتها . ان نتعامل ونتصل ونعمل مع المانيا بعد الحرب · وبديهي أنه لا يوجد شيء يمكن أن يمحو آثار المجزرة إن ذكرى الملايين الستة من اليهود لا يجب أن تمحي من ذهن البشرية . ولا يجب اطلاقا أن ينساها أي يهودي أو الماني · وعلى الرغم من انني احتجت الى جهد كبير لكي اطأ ارضا المانية عام ١٩٦٧ . فإنني كنت أؤيد التعويضات . وحصولنا على الاموال منهم لكي نبني دولة اسرائيل · وكنت أؤمن بأن عليهم دينا كبيرا لنا يجب تسديده حتى يمكننا استيعاب كل من بقى من اليهود على قيد الحياة · بل انني اعتقد ان وجود اسرائيل في حد ذاته ضمان حتى لا تتكرر المجزرة ·

بل انني بعدئذ ايدت اقامة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا . لكنني عارضت بغضب ترشيح المانيا رولف بول سفيرا لها في تل أبيب ؛ لأنه كان عضوا في الحزب النازي ولانه قاتل خلال الحرب بل وفقد فيها ذراعا · لكن المانيا رفضت تغيير ترشيحها . وجاء رولف بول الى اسرائيل فاستقبلته المظاهرات · وهو الان سفير لبلاده في الصين . لكنه من اخلص وأوفى اصدقاء اسرائيل ·

وكانت لحظة عصيبة عندما التقيت برولف . كوزير للخارجية . لاستلام اوراق اعتماده · وقلت له ان مهمتك صعبة . فهذه بلاد قامت على الناجين من المجزرة · وليست هناك عائلة لا تراودها كوابيس المحارق · ولعلك اذا جئت الى منزلى فستجد كل أمرأة على المائدة وعلى

ذراعها وشم برقم نازي ٠ واجابني بقوله : انني اعرف ذلك ، وقد جئتك الان فورا من اليادفاشيم (النصب التذكاري في اسرائيل للستة ملايين) ؛ وانني اعدك طالما بقيت اخدم هنا بأن لا يأتي لهذه البلد أي ألماني الا ويزور أولا هذا النصب كما فعلت أنا ٠ وبالفعل بر بوعده ٠

وفي احدى المرات حكيت لرولف عن زيارتي لالمانيا التي استمرت اربعا وعشرين ساعة ٠ كنت خارج الحكومة . وكنت احضر اجتماعات مؤتمر اشتراكي في باريس بعد حرب الايام الستة . وبرفقتي صديق قديم هو ريوفين بركات ٠ وذات صباح دق جرس الهاتف وكان المتحدث ابا ايبان من نيويورك ٠ كان يحارب معركة تبدو خاسرة في الأمم المتحدة في مواجهة قرار يوغوسلافي (وهو في الواقع روسي) من تلك القرارات التي تديننا « كمعتدين » وتطالبنا بالانسحاب غير المشروط من الاراضى المحتلة ٠ وكان الفرنسيون ـ الذين يؤيدون القرار ـ يضغطون على الدول الافريقية الناطقة بالفرنسية وعلى رأسها ساحل العاج ؛ التي كان وزير خارجيتها يتعاطف مع اسرائيل . وكان رئيسها فبليكس بوانييه صديقا حميما لى ٠ وسأل ايبان هل يبحث عن بوانييه في اوربا ويتحدث اليه مباشرة عن هذا القرار ٠

واتضح أن الرئيس بوانييه موجود في منتجع الماني . والح ايبان في أن أذهب لمقابلته ٠ وكنت افضل أن تقطع ذراعي اليمنى على أن أزور المانيا ٠ لكنى توجهت اليها وقابلت بوانييه وعدت بعد أربع وعشرين ساعة وأنا أكاد لا أنطق حرفا ؛ من فرط فزعي واشمئزازي ٠ وقد وصف بركات هذه الرحلة بأنها أصعب رحلة قمت بها لصالح اسرائيل لم أكن أرى أمامي الا ادولف ايخمان وعيون الاطفال والنساء والرجال الذين اخرجناهم من هذا الجحيم في الاربعينيات ٠

ورغم أنه لا يمكن اعادة القتلى الى الحياة . فان محاكمة ادولف ايخمان في القدس عام ١٩٦١ كانت ـ على ما اعتقد ـ عملا كبيرا وضروريا من أعمال العدالة التاريخية . وقد جرت هذه المحاكمة بعد حقبتين من الزمن على تلك السنين البائسة . لقد كنت ـ ومازلت ـ مقتنعة كلية بأن الاسرائيليين فقط هم اصحاب الحق في محاكمة ايخمان بالنيابة عن يهود العالم . وانني لفخورة بذلك . ولم يكن الأمر مجرد انتقام . بل كان ـ كما وصفه الشاعر بياليك ـ حتمية لكي يعرف العالم ما ارتكب في حق يهود اوروبا وعلى يد من .

ولا اظنني سوف انسى المرتين اللتين حضرت فيهما المحاكمة ومعي شينا . ولم احتمل سماع شهادات الاحياء عن التعذيب والاذلال والموت . في وجود ايخمان نفسه . وفضلت الاستماع الى المحاكمة عبر الاذاعة . ومع انني كنت اذهب الى عملي كل يوم واتناول وجبات الطعام . الا ان المحاكمة فرضت نفسها على حياتي وحياة الاخرين . وكنت كلما استمعت الى شهادة الاحياء استغرب كيف نجوا وبدأوا من جديد في تكوين حياتهم وعائلاتهم ؟!

وفي عام ١٩٦٠ وقفت أمام مجلس الأمن ارد على الاتهامات الموجهة لاسرائيل من حكومة الارجنتين (التي اختطف منها ايخمان على يد متطوعين يهود) . وكانت تلك الخطبة هي اكثر الخطب التي القيتها ارهاقا لى . لاني شعرت اني اتحدث باسم ملايين لم يعد في استطاعتهم أن يتحدثوا بأنفسهم . ولذا كنت اريد لكل كلمة أن تحمل كل معانيها . ومازال الاسف يتملكني لان هناك أناسا لا يفهمون ان التزامنا بهذا الاسلوب في التصرف يعود الى رغبتنا في أن يكون اليهود الذين احرقوا في غرف الغاز هم اخر اليهود الذين يموتون دون أن يدافعوا عن انفسهم .

واستشهدت في كلمتي بنص اقوال مساعد ايخمان في محاكمة نورمبرج عن تسلسل " الحل النهائي " لمشكلة اليهود لدى النازي ابتداء من تهجير اليهود ثم تركيزهم في معسكرات حتى عام ١٩٤٢ الى ان يتم القضاء عليهم وتدميرهم نهائيا وهي العملية التي اوقفها هملر في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٤ . ثم تحدثت عن ايخمان نفسه وكيف استمر هاربا خمسة عشرة سنة الى أن عثرنا عليه واعدناه الى اسرائيل . الى البلد التي كرس نفسه للقضاء على ابنائها ؛ وتساءلت هل يمكن أن يكون هذا الأمر شاغلا لمجلس الأمن الذي يفترض فيه الاهتمام بتهديد السلام ؟ . وظلت يداى ترتعشان لمدة اربع ساعات كاملة بعد هذه الخطبة .

نعود الى فلسطين في الاربعينات . لنجد ان الحصار البريطاني قد اشتد على نشاط الهاجاناة . ومع ذلك كان يتم شراء السفينة وراء الأخرى (الى أن بلغ مجموعها الستين) وتحميلها بالمهاجرين والأسلحة وارسالها الى فلسطين . وكانت الدوريات البريطانية تقتفى اثر المهاجرين أو الاسلحة الخاصة بالهاجاناة .

وهناك عامان لا انساهما لاسباب شخصية وسياسية . ففي عام ١٩٤٣ . وكانت سارة قد اصبحت فتاة ناضجة خجلى . بل وأكثر تفوقا في دراستها من مناحيم الذي انصرف الى الموسيقى الى أن قرر العمل كعازف تشيللو محترف ؛ جاءتنى سارة لتبلغني انها قررت ترك المدرسة العليا رغم أنه لم يبق على تخرجها سوى عام واحد . وانها قررت الانضمام الى احدى الكيبوتزات والى البالماخ (القوات الضاربة للهاجاناة) . (وقد انضمت هي ومجموعتها بعد نهاية الحرب الى كيبوتز رڤيڤيم - في النقب - حيث مازالت عضوا فيها الى يومنا) . كان الجميع يعلمون ان شباب الييشوف يشاركون في نشاطات الهاجاناة

وخاصة توزيع ملصقاتها ومنشوراتها ٠ وجاءتني سارة ذات ليلة لتبلغني انها قد تتأخر في العودة الى البيت . وخرجت تحمل تحت ابطها لفافة . لم احتج لجهد كبير لكي اعرف انها تضم منشورا سريا كنت انا قد كتبته منذ يومين دون أن يلحظني أولادى ٠

وكانت سارة . مثل متاحم . تشترك في منظمات الشباب الرائد التابعة لحركة العمل . ولذا لم ادهش باعلانها عن رغبتها في الانضمام الى كيبوتز ٠ وكان البريطانيون قد حكموا على ٨٥ ٪ من مساحة النقب (والتي تبلغ نصف مساحة فلسطين) بأنها ارض غير قابلة للزراعة ٠ ولكن الوكالة اليهودية وضعت مخططا لتعمير صحراء النقب لاستيعاب المهاجرين . يبدأ بثلاث مستوطنات ـ او مراكز مراقبة تقريبا ـ جنوبي مدينة بير سبع العربية الفقيرة ٠ وكانت حجة سارة اننا اذا اثبتنا ان زرع المحاصيل ممكن في الصحراء . فذلك اهم للبلاد من انهائنا لدراستنا ٠ وكنت اقدر موقفها فأنا نفسي كنت أحب العيش في كيبوتز .كما اني كنت افهم رغبتها في المشاركة بنفسها فيما يجري في البلاد ٠

واستمر النقاش بيني وبينها طويلا . وغضب موريس غضبا شديدا كذلك فإن الياهو جولومب . الذي جاءته ابنة اخته بنفس المطلب . الح في أن نأخذ موقفا موحدا ضد هؤلاء الشباب : أما شينا فقالت لى انني وابنتي سوف نندم طوال العمر لو قبلت مطالبها ٠ لكنني . وقد يدهش ذلك البعض . لم أكن من أنصار التشدد . الا فيما يتعلق باسرائيل . فهنا لا أتنازل عن بوصة واحدة ٠ اما مع البشر فإن الأمر يختلف ٠ ولعلمي بطبع ابنتي . فقد استسلمت ولكن بقلب منكسر ٠

في أول زيارة قمت بها للمستوطنة ظننت انني سوف اموت ٠ لم يكن هناك شيء بالمرة ٠ وكانت المستوطنة عبارة عن حائط وبرج

مراقبة وبعض الخيام · ولم استطع شرب الماء المالح الذي كانوا يستخرجونه من باطن الأرض · كان الجو بالغ الحرارة طوال العام ويصل الى حد التجمد في الشتاء · وكانت تلك البقعة هي اخر مكان في الكون يصلح لفتاة اصيبت من قبل بمرض الكليتين · وكنت كثيرا ما أذهب الى رڤيڤيم (ومعناها بالعبرية قطرات الندى) فأتبادل الاحاديث مع سارة أو مع زكريا رحابي . وهو يهودي يمني . يبدو ان سارة كانت مغرمة به ·

وفي شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٤٣ استدعيت للشهادة أمام محكمة عسكرية بريطانية تحاكم شابين من اليهود بتهمة سرقة الاسلحة وقام بالادعاء رجل كريه هو الميجور باكستر الذي اهتم باظهار الهاجاناة انها منظمة تهدف الى نشر الارهاب وتهدد السلم في فلسطين · واتهم اليهود في فلسطين بأنهم يطلبون الالتحاق بالجيش بكثرة حتى يضعوا ايديهم على السلاح · (وكم كانت دهشتي عندما تلقيت برقية من الميجور باكستر من ايرلندا يهنئني فيها عام ١٩٧٥ بانتخابي امرأة لعام ١٩٧٥ في الاستفتاء الامريكي · وقال في برقيته انني اذا اردت وظيفة فانه يعرضها علي في اولستر حيث هناك حاجة لمواهبي

وذهبت الى المحكمة مصممة على أن اذيق باكستر ما يستحقه . اذا كان يريد اثبات ان الهاجاناة كمؤسسة رسمية والبالماخ كتنظيم سري مرتبطتان يدا في يد · وقد نشرت نصوص الشهادة والاسئلة والاجوبة في صحيفة بالستاين بوست (وهي الان چيروزاليم بوست) يوم ٧ سبتمبر (ايلول) ١٩٤٣ · وفي اليوم التالي زرت والدي فقالت لي امي ان ابي يطوف منازل الجيران منذ الصباح حاملا الجريدة في يده قائلا « هل رأيتم ما فعلته ابنتي جولدا ؟ » ·

« ملحوظة : اوردت جولدا نص الاسئلة والاجوبة التي دارت ٠ وكانت الاسئلة واضحة مثل : هل تدربتى على اطلاق السلاح ؟ هل دربتي الشباب على استخدام السلاح ؟ هل سمعت عن الهاجاناة والبالماخ ؟ الا تعلمين أن الحكومة البريطانية استخدمت ٣٠،٠٠٠ جاويش يهودي ؟ لماذا كنتم تجندون اليهود ؟ وهل تسمين ذلك تجنيدا اذا فصل اليهودي من عمله ان رفض التجنيد ؟ ٠ وكانت جولدا في كل اجاباتها تتطرق الى اوضاع اليهود في فلسطين وفي أوروبا النازية . الى حد أن رئيس المحكمة طلب منها الالتزام بالرد على مضمون السؤال فقط . ثم طلب منها بعد ذلك عدم العودة الى الخلفية التاريخية قائلا « والا لعدنا الى الفى عـام مضت »

وبدا لنا جميعا ان بريطانيا سوف تراجع سياستها الخاطئة في فلسطين بعد انتهاء الحرب ٠ وكنا على يقين من أن كل اليهود الذين بقوا على قيد الحياة في اوروبا سوف يسمح لهم بدخول فلسطين ؛ وان الكتاب الابيض سوف يلغى ٠ وزاد من اقتناعنا بذلك وصول حكومة عمالية الى الحكم في بريطانيا ٠ وقد ظل العمال البريطانيون طيلة الاعوام الثلاثين الماضية يدينون اية قيود على الهجرة اليهودية الى فلسطين ويصدرون البيانات المؤيدة للصهيونية ٠

لكن الايام اثبتت خطأنا ٠ فقد تغيرت السياسة البريطانية . ولكن الى الأسوأ ٠ فلم تكتف بعدم الغاء الكتاب الابيض ولكنها لم تف بوعودها التي قطعتها لملايين العمال والجنود البريطانيين ٠ وكان لدى ارنست بيفن . وزير الخارجية . « حل نهائي » اخر ليهود اوروبا الذين اصبح يطلق عليهم « الاشخاص المشردون » ؛ يتلخص في ان يتماسكوا من جديد ويعودوا الى الاستقرار في أوروبا بهدوء ٠

وكان مستحيلا علينا أن نصدق أن تأتي حكومة عمالية في بريطانيا لا تنفذ وعودها لنا . بل أن يأتي بيفن ليسقط كل مطالبنا بغلظة لا مثيل لها وبعناد جنوني . وكأن مصير الامبراطورية البريطانية كلها يتوقف على عدم عودة مئات الالاف من اليهود انصاف الموتى الى فلسطين . ولعل الغضب الذى اعترانا هو الذى دفعنا الى قبول التحدي رغم اننا لم نكن مستعدين لمواجهته . واستطعنا فيما بين صيف ١٩٤٥ وشتاء ١٩٤٧ أن ننقل ٧٠,٠٠٠ من اليهود من معسكرات اوروبا مخترقين حصارا رهيبا ضربته حكومة طالما استمعت الى تصريحات رجالها المؤيدة للصهيونية في مؤتمرات لا حصر لها لحزب العمال .

وقد بدأ الكفاح الحقيقي في عام ١٩٤٥ . لكن عام ١٩٤٦ - في ظني - كان عام الحسم . وكان السبب الاساسي هو رفض الحكومة البريطانية المفاجىء للطلب الذي تقدم به الرئيس ترومان الى بريطانيا بأن تسمح بدخول ١٠٠,٠٠٠ يهودي أوروبي الى فلسطين - بصرف النظر عن الكتاب الأبيض - في عمل انساني رحيم . واضافت بريطانيا الى رفضها انه اذا كانت حكومة الولايات المتحدة مهتمة الى هذا الحد فلتجد حلا لمشكلة فلسطين . وعلى الفور تألفت لجنة التحقيق الانجلو امريكية . وزارت معسكرات اليهود في اوروبا واستمعت اليهم وهم يقررون انهم لا يريدون الذهاب الا الى فلسطين . ثم اجتمعت بزعماء اليهود البريطانيين والأمريكيين . وجاءت الى فلسطين لعقد جلسات الاستماع في ربيع عام ١٩٤٦ .

وفي ٢٥ مارس (اذار) ١٩٤٦ مثلت أمام اللجنة كممثلة عن الهستدروث . وكان لا بد أن أذكر في شهادتي تاريخا موجزا عن اليهود وجهودهم في فلسطين . وحاولت ان اشرح لهم موقفنا العاجز في فلسطين ونحن نرى اليهود يذبحون بالملايين ؛ كذلك حاولت ان احذر

اللجنة من اننا قد صممنا على ان نضع حدا لما اسماه الشاعر العبري حاييم نحمان بياليك بـ « العيش بلا معنى والموت بلا معنى » لشعبنا وقلت للجنة انني مخولة باسم كل اعضاء الهستدروث بأن ابلغكم ان حركة العمل اليهودية مستعدة لعمل أي شيء في هذا البلد من أجل استقبال اعداد هائلة من المهاجرين اليهود بلا اية قيود أو شروط . ولم أعرف من تعبيرات وجوههم ما اذا كانوا قد فهموا حديثي ام لا . على أية حال اصبح ثلاثة من اعضاء اللجنة من أقرب الاصدقاء الينا وهم بارتلي كرام وريتشارد كروسمان وجيمس ماكدونالد الذي كان اول سفير للولايات المتحدة في اسرائيل .

وكان الاضطراب عندئذ قد عم فلسطين . وقد رفضت الهاجاناة وقف الهجرة غير القانونية . واستمرت السفن الواحدة بعد الاخرى تقذف اليهود على الشواطىء . واصدرت بريطانيا اجراءات طوارىء وصلت الى حد الاحكام العرفية . وفي ابريل (نيسان) وبينما اللجنة تعد تقريرها . امتدت الحملة البريطانية الى دول أخرى . فقد كانت هناك سفينتان للهاجاناة (احداهما فيدر واعيدت تسميتها دوف هوس والثانية الياهو جولومب) على وشك الاقلاع من ميناء لاسبيزيا في ايطاليا وعليهما ١٠١٤ يهوديا . عندما تم اكتشافهما . وتحت ضغط بريطاني منعت ايطاليا ابحار السفينتين . لكن اليهود رفضوا النزول واضربوا عن الطعام وانذروا بقتل انفسهم واغراق السفينتين اذا ما استعملت القوة ضدهم .

وكان لابد لنا أن نظهر للعالم وقوفنا وراء هؤلاء المحشورين كالسردين دون اي طعام فوق السفن . واقترحت أن نعلن اضرابا عن الطعام باسم اليشوف كله يشترك فيه خمسون شخصا من الأصحاء ممثلين كل الشعب . ورغم اني كنت مريضة . ورغم معارضة الطبيب

حصلت منه على شهادة بسلامتي . وكذلك شازار الذي حصل على نفس الشهادة من طبيب امراض نساء ٠ واعددنا أسرة في القاعاد ليومي رقدنا عليها نتعاطى الشاي بدون سكر ، ولم نأكل شيئا طيلة ١٠١ ســاعة ٠ وظهرت مشكلة هى حلول عيد الغفران حيث اخبرنا الحاخام هرتزوج اننا يجب أن نأكل شيئا واتفقنا على أن نأكل ما لايزيد على حجم الزيتونة ٠ وظلت الوفود تملأ ساحة المكان اثناء صيامنا ، وزارني مفاحيم وسارة وكذلك بن جوريون الذي كان يعارض الاضراب لاسباب خاصة ٠

واثمر الاضراب ٠٠ ففي ٨ مايو (آيار) اقلعت السفينتان الى فلسطين تحت حراسة بريطانية مشددة ، وتم خصم ١٠١٤ شهادة من حصة هذا الشهر من المهاجرين ٠ وفي نفس الشهر اصدرت لجنة التحقيق الانجلو امريكية تقريرها واقترحت السماح لـ ١٠٠,٠٠٠ مهاجر بدخول فلسطين والغاء قيود مبيعات الأراضي ٠ ومرة ثانية قال بيفن لا ٠٠ فقد كان في رأيه أن دخول هذا العدد الى فلسطين في وجه المعارضة العربية يحتاج الى فرقة عسكرية بريطانية كاملة لاعادة النظام ٠ وفي نفس الاسبوع القيت خطابا في مؤتمر حزبي في حيفا قلت فيه اننا يجب أن نثبت لمستر بيفن أنه ما لم يغير سياسته فإن عليه أن يجلب جيشا كاملا ليحاربنا نحن ٠ ويبدو أن بيفن كان يسعى لذلك بالفعل ٠

وفي يوم السبت ٢٩ يونيو (حزيران) ١٩٤٦ أعلنت الحكومة البريطانية الحرب على البيشوف ، فنزل ١٠٠ ألف جندي بريطاني و٢٠٠٠ شرطي الى كل الكيبوتزات والقرى اليهودية وأغاروا على كل المؤسسات اليهودية واعتقلوا ٣٠٠٠ يهودي وفرضوا حظر التجول والقوا القبض على معظم قادة البيشوف ٠ وكانت هناك ثلاثة اهداف لهذه الاجراءات : تحطيم الروح المعنوية للبيشوف ، وتحطيم الهاجاناه وانهاء

الهجرة « غير القانونية » بوضع المسئولين عنها في السجون . وفشلت الأهداف الثلاثة . لكن فلسطين اصبحت دولة بوليسية منذ هذا « السبت الأسود » (كما اصبح يعرف في اسرائيل) .

ومن حسن الحظ اننا علمنا بهذه العملية قبل وقوعها . فلجأ الكثير من قادة الهاجاناه الى الاختفاء . ونقلت الاسلحة الى مخابيء جديدة . وكان بن جوريون في رحلة بالخارج . اما ريميز وشاريت وكل اعضاء الوكالة اليهودية فقد ارسلوا الى معسكر اعتقال في اللطرون . وقال البعض ان أسوأ ما فعلته حكومة الانتداب انها لم تلق القبض على . اذ كان شرفا في تلك الأيام أن يعتقل الانسان مع الآخرين .. ولا أدري ما السبب ، هل لاني لم أكن انسانا مهما أو لانهم كانوا لا يستطيعون احتجاز النساء في اللطرون . واذكر أن باولا بن جوريون (وكانت معروفة بافتقادها الكياسة) كانت كل بضعة ساعاة تسألني تليفونيا ، هل جاءوا لاصطحابك ؟ . وتكرر اتصالها كل عدة ساعات وكأنه ليس هناك من يستمع الى محادثاتنا .

ونظرا لوجود شاريت في اللطرون . فقد توليت رئاسة الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية . واقترحت بهذه الصفة أن يكون رد الفعل هو المقاومة المدنية . وكنت على ثقة من أننا ان لم نفعل شيئا فإن الارجون زفاى ليومى والشتيرن سوف تتوليان الامر بنفسيهما .

ومع انى اعتقد ان هذا الكتاب ليس المكان أو الزمان المناسب للحديث عن الجماعتين المنشقتين الارجون والشتيرن . فإنه لابد على الأقل من أن ابين موقفى تجاه اساليبهما وفلسفتهما .

كنت على الدوام ـ خلقيا وتاكتيكيا ـ اعارض الارهاب من أى نوع سواء ضد العرب أو البريطانيين . لقد كنت ـ وبقيت ـ مؤمنة بأن

اعضاء هاتين الجماعتين المنشقتين ـ رغم شجاعة البعض وتفانيهم ـ مخطئون . وبالتالي خطرون على الييشوف . من البداية الى النهاية وكنت أوقن في صيف ١٩٤٦ اننا مالم نتخذ رد فعل ايجابي فإن الجماعتين ستفعلان ذلك . وتجلبان علينا كوارث اشد ٠ وهكذا هرعت الى الدكتور حاييم وايزمان في رحوبوت في محاولة لاقناعه بالدعوة إلى التظاهر الجماهيري الجماعي ٠ وكان د ٠ وايزمان انئذ رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية ورئيسا للوكالة اليهودية ٠ وكان بلا منازع قائد اليهودية العالمية وأول متحدث باسمها ٠

كان وايزمان عالما مرموقا . ولد في روسيا لكنه عاش وتعلم في انجلترا حيث لعب دورا هاما في تأمين وعد بلفور ٠ كان رجلا مهيبا . يسميه يهود العالم « ملك اليهود » ٠ ورغم أنه لم يكن ينتمي الى حزب معين . فقد كان متعاطفا مع حركة الكيبوتز وحركة العمال بشكل عام ؛ على الرغم من خلافه ـ كرجل يؤيد التدرج ـ مع بن جوريون الذي ينادي بالحركة النشطة ٠ وقد ساءت العلاقة بينهما خلال الحرب عندما شعر بن جوريون بأن وايزمان لا يقوم بالضغط اللازم لانشاء اللواء اليهودي . بل وعرض في أحد الاجتماعات الحزبية أن نطلب منه الاستقالة ٠ صحيح اننا لم نؤيد بن جوريون . لكن المؤتمر الصهيوني في بازل عام ١٩٤٦ صوت بعدم الثقة على وايزمان ٠

ورغم كل ما يقال في اسرائيل الان عن الخلاف بين هذين الرجلين . فإن بن جوريون كان يحب وايزمان ويعجب به . لكنه لم يكن يشاركه موقفه الواثق والمتفائل ازاء البريطانيين . فقد كان جولد مان يؤمن بأن بريطانيا سوف تعود الى رشدها يوما ما ٠ غير ان وايزمان طيلة الاعوام الثلاثين للانتداب . كان الرجل الذي جسد الصهيونية أمام العالم . وكان تأثيره هائلا ٠

وكان وايزمان هو الرجل الوحيد القادر على اقناع الرئيس ترومان . عندما خانت ساعة الصفر في عام ١٩٤٨ . بالاعتراف بدولة يهودية يكون النقب جزءا منها • وعندما اعطى ترومان ـ التفويض باعتراف الولايات المتحدة الأمريكية عصر يوم ١٤ مايو (ايار) ١٩٤٨ . لم يكن يفكر أو يتحدث الا عن وايزمان . وقال « الان سيصدقني هذا الدكتور العجوز » • ولم يكن الشك يخامر بن جوريون في اننا ما ان نحصل على دولتنا . فان وايزمان سيكون أول رئيس لها •

وكـــنت اداوم على زيارة وايزمان في رحوبوت . حيث بنى هو وزوجته ـ ڤيرا ـ منزلا في الثلاثينيات . استخدم فيما بعد مقرا للرئاسة منذ عام ١٩٤٨ حتى ١٩٥٢ حين مات د • وايزمان • وكثيرا ما كان يدعوني لزيارته • لكنه في أواخر ايامه ازداد احساسا بالمرارة وبإقصائه عمدا عن عملية صنع السياسة وكان يسمى نفسه « سجين رحوبوت » • وحدثني بأسى في احدى المرات عن ديجول الذي كان يرأس اجتماعات الوزارة احيانا . في حين كان نظامنا البرلماني مختلفا • واعتقد ان وايزمان كان مخطئا في تفضيله الاقامة في رحوبوت . رغم أن ذلك كان محببا الى نفسه كي يكون على مقربة من معهد وايزمان للعلوم الذي اسسه عام ١٩٣٤ من معهد دانييل سيف للابحاث • ولو ان وايزمان عاش في القدس وفتح ابواب بيته كما فعل بن زڤي وشازار . لكان احساسه بالوحدة والعزلة أقل • ولو ان زوجته كانت اقل ترفعا لكان ذلك من العوامل المساعدة . لكنه على أية حال كان رجلا عظيما . واحسست بتشريف عميق عندما دعاني رئيس معهد وايزمان لأكون رئيسة شرف عالية لاحتفالات المعهد عام ١٩٧٤ بالعيد المئوي •

وعندما ذهبت اليه في عام ١٩٤٦ . وكان لا يزال محتفظا بقواه . وافق على فكرة اعلان العصيان المدني العام شريطة ان لا تفعل

الهاجاناه شيئا إلى أن تجتمع الوكالة اليهودية في باريس في شهر اغسطس (اب) • ووعدته بتنفيذ ذلك . حيث بحثت الامر مع الاعضاء الخمسة (ولم أكن قد اصبحت بينهم بعد) وكانوا قد اتخذوا القرار بالفعل بأغلبية ثلاثة اصوات ضد صوتين • وعندما ابلغت اشكول برأى وايزمان غير رأيه على الفور • لكن وايزمان تراجع عن موقفه . ويبدو أن اصدقاءه البريطانيين نصحوه بالاقلاع عن الفكرة • وايا كانت الاسباب فقد تملكني غضب شديد .

واجتمعت الوكالة اليهودية في باريس في اغسطس (اب) كما كان مقررا • لخوفنا من أن يعتقل بن جوريون اذا عاد الى فلسطين . فقد ذهبنا جميعا الى فرنسا • وهناك استمعنا الى اقتراح جديد من بيفن يقضي بتقسيم فلسطين الى « كانتونات » يكون احداها يهوديا • وكانت بريطانيا في تلك الاثناء تعيد ترحيل المهاجرين غير القانونيين من فلسطين الى قبرص • وكان وايزمان يجري محادثات مع البريطانيين تختلف في اتجاهها عما كنا نناقشه . فاقترحت على بن جوريون ان نذهب الى لندن ونتحدث مع وايزمان هناك • لكنني لم استطع ان اقبل اتهامه لنا بأننا « لا نتصرف بمسئولية » وفقدت اعصابي وغادرت حجرة الاجتماع • ولم يسامحني وايزمان الا بعد عدة سنوات . على معارضتي له انئذ وفي مؤتمر بازل •

ولم تكن تلك هي أول مرة افقد فيها أعصابي واغادر غرفة اجتماع . اذ حدث قبلها بعدة اشهر ان كنت اقابل سكرتير عام حكومة الانتداب لامر ما . وفوجئت به اثناء الحديث يقول « لعلك يا مسز مايرسون توافقينني على أن النازي عندما اضطهدوا اليهود لابد كانت لديهم اسباب لذلك » • وغادرت الغرفة ورفضت رؤيته مرة ثانية •

وكان المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرون في بازل هو أول مؤتمر ينعقد بعد الحرب . في اجتماع يشبه عائلة منكوبة تندب ضحاياها وتحاول تجميع قواها للمستقبل . وأصبحنا نتحدث للعالم بوضوح عن دولة يهودية . وتحدثت باليديش عن الشباب الصابرا الذين ولدوا في فلسطين . مؤكدة لهم انهم ليسوا أقل منا التزاماً وارتباطاً بالهجرة اليهودية الحرة . وكنا دائما نتساءل عما يربط هؤلاء الأطفال بيهود العالم في الخارج .

وجاء الوقت الذى رد فيه الصابرا على هذا التساؤل . كانت الأمور بالنسبة اليهم سهلة غير معقدة . فعندما كانت الهجرة اليهودية تتوالى على فلسطين على متن السفن . كان هؤلاء الصغار يندفعون الى الشواطىء لحمل المهاجرين على أكتافهم .

الفصل الثامن

لدينا دولتنا

اذا كانت سنة ١٩٤٦ سنة صعبة ، فإننى لا اجد وصفا لسنة ١٩٤٧ غير ان اقول ان الموقف فيها في فلسطين خرج من يد بريطانيا كلية ؛ التى اصبحت تحارب اليهود واللاجئين حربا علنية ٠ وبدا وكأن ارنست بيفن لم يكن لديه ما يشغل باله بالمرة غير التفكير في كيفية ابقاء اليهود بعيدا عن الوطن القومى ٠ وانني لعلى يقين من ان كل القرارات التى اتخذها بيفن بشأن فلسطين كانت نتيجة للغضب الشديد الذى سببه له اليهود برفضهم لمقترحاته ٠

ولست ادرى (ولم يعد مهما الآن في الواقع) هل كان بيفن مجنونا ، ام معاديا للسامية ، ام كلاهما معا ؟ لكننى اعلم جيدا انه قد وضع كل قوى الامبراطورية البريطانية ضد إرادة الحياة لدى الشعب اليهودى مسببا لهم بذلك المزيد من الآلام ، بل واجبر الجنود والبحارة البريطانيين على القيام بأعمال مفزعة ٠ وما زلت اذكر منظر الجنود البريطانيين وهم يحرسون معسكرات الاشخاص المشردين في قبرص - عندما زرتها بنفسى في عام ١٩٤٧ ـ والحيرة تتملكهم ازاء حقيقة انهم يضعون الآن وراء الاسلاك الشائكة نفس الرجال والنساء والاطفال الذين حرروهم من قبل من معسكرات النازية ٠

وكنت قد ذهبت الى قبرص لأبحث عما يمكن عمله من اجل الاطفال الموجودين هناك ٠ كان عدد اليهود في معسكرات قبرص قد

بلغ ٤٠٫٠٠٠ · وكانت بريطانيا تسمح ـ بدقة متناهية ـ بدخول ١٥٠٠ فقط كل شهر الى فلسطين . نصفهم من معسكرات اوروبا والنصف الآخر من قبرص . متبعة في ذلك مبدأ « من يأتى اولا يخرج أولا » · وكان معنى ذلك ان يبقى الكثير من الاطفال لعدة شهور في ظروف سيئة .

وكان اطباؤنا في معسكرات قبرص قد جاءوا الى مكتبى في القدس معلنين انهم ليسوا مسئولين عن صحة الاطفال اذا بقوا في قبرص شتاء آخر · وكان على أن اتفاوض مع حكومة فلسطين على السماح للعائلات التى لديها طفل عمره اقل من عام بالخروج « خارج الدور » مع طرح عددهم فيما بعد من العائلات التى « حل عليها الدور » · ونجحت بعد جهد في اقناع السلطات البريطانية بالموافقة على ذلك بل وعلى ترحيل الاطفال اليتامى فورا ·

وكان على ان اسافر بعدئذ · الى قبرص لاقناع اليهود بتنفيذ هذا الاتفاق . رغم ان الكثيرين ثبطوا همتى · وفور وصولى قدمت نفسى الى قائد المعسكر . وكان ضابطا ممن خدموا في الهند . وابلغته بمهمتى · فقال لى انه يعرف موضوع العائلات ذوات الاطفال لكنه لا يعرف شيئا عن الايتام ؛ وانه سوف يتحقق من هذا الامر · وفوجئت بعد قليل بموافقته على ادراج الايتام . ثم علمت فيما بعد سر استسلامه اذ كان قد تلقى برقية من السكرتير العام من القدس يقول له فيها « احذر مسز مايرسون » ·

وكانت المستعمرات عبارة عن مجموعة من الخيام والاكواخ تحيط بها ابراج الحراسة والاسلاك الشائكة ·· ومياه الشرب قليلة . ومحظور الاستحمام في البحر رغم ان المعسكرات كانت على الشاطى · واثناء جولتى قدمت لى طفلتان باقة من الورود مصنوعة من الورق .

ساعدتهما على صنعها مدرسات الحضانة اللائى ارسلناهن الى قبرص ·
وكم تلقيت في حياتى باقات الورود ، لكن اكثرها تأثيرا في نفسى هى تلك الباقة التى قدمت لى في قبرص · ومن الصدف ان هذا المعسكر ضم فتاة جذابة اسمها آيا كانت تعمل على الراديو في احدى سفن الهاجاناه التى قبض عليها البريطانيون · وهى الآن طبيبة نفسية للاطفال في تل ابيب ، وهى زوجة ابنى ·

وعقدت اجتماعا مع اللجنة التى تمثل المحتجزين ، تلاه اجتماع عام مع الجميع · وبينت لهم انهم لن يبقوا طويلا في قبرص وانتى في حاجة الى تعاونهم معى · لكن انصار الارجون زفّاى ليومى في المعسكر ثاروا ضدى وهتفوا إما الجميع والا فلا ، بل وحاولوا الاعتداء على · لكنهم في النهاية هدأوا ، ووصلنا الى اقرار الترتيبات اللازمة · وتبينت مشكلة اخرى وهى الاطفال الذين مات أحد والديهم .

وعدت الى فلسطين ، حيث قابلت السير آلان كاننجهام المفوض السامى البريطانى ، (وكان رجلا رقيقا وعفوفا) · وعرضت عليه هذه المشكلة فوعد بحلها · وكان كاننجهام آخر مفوض في فلسطين وغادرها في ١٥ مايو (ايار) ١٩٤٨ ، ولم اكن اتوقع ان اسمع منه او عنه بعدئذ . لكننى بعد ان توليت رئاسة الوزارة بعدة اشهر تلقيت منه رسالة من الريف الانجليزى ، حيث تقاعد ، يقول لى فيها ان اسرائيل برغم اية ضغوط لا يجب ان تتنازل عن اى من الاراضى التى استولت عليها في حرب الايام الستة والى أن تضمن حدودا آمنة يمكن الدفاع عنها . وتأثرت للغاية برسالته ·

وفي عام ١٩٧٠ حضرت في حيفا احتفالا بإعادة دفن ١٠٠ طفل من هؤلاء الاطفال الذين كانوا قد لقوا حتفهم في تلك المعسكرات التعيسة · وظلت الهواجس تراودنى : ترى هل بين هؤلاء الاطفال هاتان

الطفلتان اللتان قدمتا لى باقة الورد في قبرص · وكنت التقى بالناس الذين حضروا اجتماعى معهم في قبرص ، فمثلا كنت ازور احد الكيبوتزات في النقب عندما تقدمت منى سيدة تريد ان تشكرنى وعندما سألتها عن السبب ابلغتنى انها كانت في قبرص ولديها طفلة وانا التى انقذتهما · ثم قدمت الى هذه الطفلة فإذا هى فتاة رائعة في العشرين من عمرها انهت لتوها الخدمة العسكرية · وخرجت عن شعورى وقبلتها بحرارة امام الجميع دون ان يفهم احد السبب ·

وفي المؤتمر الصهيونى في بازل عام ١٩٤٦ تقرر ان يرأس موشى شاريت الدائرة السياسية للوكالة اليهودية في واشنطون وان ابقى انا رئيسة لها في القدس · وكانت الحياة في القدس آنئذ اشبه بالحياة في مدينة محتلة . فالانجليز متمركزون في قلعة في وسط المدينة (كنا نسميها بيفنجراد) ودباباتهم تجوب الشوارع عند أى تحرش · وعندما كانت الارجون زفاى ليومى والشتيرن تأخذان على عاتقهما تنفيذ القانون ـ وكانا لسوء الحظ يفعلان ذلك باستمرار ـ كانت بريطانيا ترد بإجراءات بالغة العنف تعطل الحياة اليومية · واذا ما جلدت السلطات البريطانية واحدا من الشتيرن او الارجون ، كانت الجماعتان تردان بخطف او بإعدام اثنين من جنود بريطانيا ، هذا في الوقت الذى استمرت فيه معركتنا للتجهيز والاستيطان بكامل قوتها ·

ولم يكتف البريطانيون بإجراءاتهم الرادعة بل مضوا يساعدون العرب ويحرضونهم ضدنا . غير ان بريطانيا وقد انهكها حمام الدماء في فلسطين ، اعلنت على لسان بيفن في مجلس العموم في فبراير (شباط) ١٩٤٧ انها قد تعبت واكتفت ، وان على الامم المتحدة ان تعالج مشكلة فلسطين ، بالطبع لم يبهج الامم المتحدة ان يعهد اليها بالموضوع ، لكنها لم تكن تملك الرفض ·

ووصلت لجنة للامم المتحدة الخاصة بفلسطين الى البلاد في شهر يونيو (حزيران) ، وطبقا لصلاحيتها كان عليها ان تقدم تقريرها الى الجمعية العامة للامم المتحدة في اول سبتمبر (ايلول) ١٩٤٧ مع اقتراحات محددة للحل · وكالعادة رفض العرب الفلسطينيون التعاون معها بأى شكل من الاشكال ، بينما تعاون معها الجميع سواء قادة اليشوف او حكومة فلسطين او بعض قادة الدول العربية فيما بعد · وقضيت وقتا طويلا مع اعضاء اللجنة الاحد عشر وافزعنى جهلهم لحقائق الموقف والتاريخ · وتحتم علينا ان نشرح لهم ، وبسرعة ، الاسباب التى تدعونا الى عدم التخلى عن حقنا في احضار الناجين من المجزرة الى فلسطين ·

ولأسباب لم افهمها ولا أظن أن احدا فهمها ، وقبل أن تغادر فلسطين لجنة الامم المتحدة ، قامت بريطانيا بإظهار طغيانها وجبروتها في معالجة قضية المهاجرين اليهود ، فاجبرت ٤٥٠٠ مهاجر ، كانوا على متن باخرة الهاجاناه المسماة اكسودس (الخروج) ١٩٤٧ ، على العوده مرة ثانية الى المانيا · ولو اننى عشت حتى المائة من عمرى فلا اظنها ستنمحى من ذاكرتى صورة الجنود البريطانيين شاكى السلاح وهم يجبرون المهاجرين بما فيهم النساء الحوامل اللاتى اردن الوضع في اسرائيل ، على العودة الى المانيا رمز مقبرة اليهودية · والقيت خطابا في القاعاد ليومى اطلقت فيه نداء عاجلا لبريطانيا . ومع ذلك عادت الباخرة الى المانيا ·

وبينما صيف ١٩٤٧ يمر ، اصبح طريق القدس ـ تل ابيب تحت سيطرة العصابات العربية التى كانت تطلق نيرانها على اية سيارة يهودية ·· وكان العرب يهددون بقطع هذا الطريق . الامر الذى سيحدث مجاعة عند يهود القدس · ولاضطرارى الى السفر بين

المدينتين ، فلم يكن امامى مفر من استعمال هذا الطريق الوحيد رغم تعرض سيارة الوكالة اليهودية للنيران · وذات مرة انحرفنا عن الطريق ودخلنا قرية عربية كنت اعلم انها عش للرقاب المقطوعة لكننا نجونا دون خدش · وذات مرة اوقفتنا دورية بريطانية للتفتيش عن السلاح وعثرت على بندقية مع حارستى من الهاجاناه · وعلمت من الضابط انه سيأخذ الحارسة الى المجدل ، وهى قرية عربية ، فصممت على أن ارافقها الى هناك · وازاء هذا التهديد ، وكان قد عرف شخصيتى ، وذهبنا الى مركز شرطة في قرية يهودية ، ثم افرج عن الحارسة وتوجهت الى تل ابيب ·

وفي ٣١ اغسطس (آب) اجتمع أعضاء لجنة الامم المتحدة في جنيف وانهوا تقريرهم · واوصى سبعة أعضاء ـ كما سبق ان اوصت لجنة بيل ـ بتقسيم فلسطين الى دولتين احداهما يهودية والاخرى عربية وتصبح القدس وما يجاورها منطقة دولية · اما الاقلية (وكانت تضم بينها الهند وايران ويوغوسلافيا التى يوجد فيها كثير من السكان المسلمين) فقد اقترحت دولة يهودية عربية فيدرالية · واصبح القرار منوطا بالجمعية العامة للامم المتحدة · وفي تلك الاثناء اعلنت كل الاطراف المعنية مواقفها ، اما نحن فقد قبلنا الخطة بالطبع وطالبنا بإنهاء الانتداب فورا · وقال العرب انه لا علاقة لهم بأى من الاقتراحين وهددوا بالحرب ما لم تصبح كل فلسطين دولة عربية · واعلنت بريطانيا انها لن تتعاون في تنفيذ اية خطه للتقسيم مالم يتحمس لها كل من العرب واليهود ، وادركنا نحن ما يعنيه ذلك · ونشر الامريكيون والروس تصريحات تؤيد توصيات الاغلبية ·

وعقدت مؤتمرا صحفيا في القدس في اليوم التالى ، قلت فيه اننا لا نتصور دولة يهودية بدون القدس ولكننا نأمل في اصلاح هذا الخطأ

في الجمعية العامة للامم المتحدة ٠ وابديت اسفى على استبعاد الجليل الغربى من الدولة اليهودية واعربت عن الامل في ان تعالج الجمعية العامة ايضا هذا الخطأ ٠ وركزت على ضرورة اقامة نوع جديد من العلاقات مع العرب الذين سيكون ٥٠٠٫٠٠٠ نسمة منهم في الدولة اليهودية وقلت « ان دولة يهودية في هذا الجزء من العالم يجب ويمكن ان تكون عونا لكل واحد في الشرق الاوسط » ٠ وانه لما يدمى القلب ان نجد اننا كنا نستعمل هذه الكلمات ـ دون جدوى ـ منذ ١٩٤٧ ٠

وجرى التصويت في ليك ساكسيس في نيويورك يوم ٢٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ٠ والصقت أذنى بالمذياع . ككل ابناء الييشوف . استمع الى وقائع الجلسة واسجل بالقلم نتائج التصويت ٠ واخيرا . وعند منتصف الليل وفق توقيتنا اعلنت النتيجة . فأيدت التقسيم ٣٣ دولة من بينها الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى . وعارضت ١٣ دولة بينها كل الدول العربية . وامتنعت عشر دول عن التصويت من بينها بريطانيا ٠ وعلى الفور توجهت الى مبنى الوكالة اليهودية فوجدت الجموع محتشدة والقوافل تترى والكل يغنى ويمرح ٠ واذكر اننى صعدت الى مكتبى وحيدة غير قادرة على المشاركة في البهجة . فقد رفض العرب المشروع وتحدثوا عن الحرب فقط ٠ وبناء على طلب الجماهير المحتشدة القيت كلمة من شرفة مكتبى . لكننى لم اوجهها للجموع الكثيرة . وانما للعرب ٠

وقلت في كلمتى : لقد حاربتم ضدنا في الامم المتحدة . وقالت اغلبية دول العالم كلمتها ٠ صحيح ان التقسيم ليس ماتريدونه وليس ما نريده . ولكن دعونا الآن نعيش في سلام سويا ٠ وفي اليوم التالى مباشرة اندلعت الاضطرابات العربية وقتل سبعة من اليهود في كمين ٠

وفي يوم ٢ ديسمبر (كانون الاول) اشعل العرب الغار في المركز التجارى اليهودى في القدس امام اعين الشرطة البريطانية التى لم تكن تتدخل الا اذا حاولت الهاجاناه التصرف ·

وكنا بالطبع غير مستعدين اطلاقا للحرب · صحيح أننا استطعنا صد العرب في المنطقة ، لكننا لم نكن قادرين على مواجهة الجيوش · اذا فنحن في حاجة عاجلة الى السلاح والى من يبيعه لنا ، لكننا كنا في حاجة الى الاموال ·· لا تلك الاموال التى تلزم لتشجير البلد او للهجرة ، وانما لملايين الدولارات · ولم يكن هناك الا ملجأ واحد أمامنا هو يهود امريكا ·

ولم يكن هناك بالطبع من يستطيع القيام بهذه المهمة غير بن جوريون · لكن وجوده في فلسطين كان اساسيا وضروريا ولم يكن ممكنا الاستغناء عنه · وفي احد الاجتماعات التى عقدناها بين اواخر ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٧ وينا ير (كانون الثانى) ١٩٤٨ ، اخذت انقل البصر بين المجتمعين فوجدت اننى استطيع القيام بهذه المهمة خاصة وقد قمت من قبل بحملات لجمع الاموال ويمكننى التحدث بالانجليزية بطلاقة كما أنه من الممكن الاستغناء عنى في فلسطين · وحدثت بن جوريون فرفض بشدة مؤكدا انه في حاجة الى · وعندئذ طلبت عرض الامر للتصويت ، واسفرت نتيجته عن تأييد ذهابى · واشترط بن جوريون الا اذهب الى القدس ، فسافرت في نفس الليلة بذات الرداء الذى حضرت به الاجتماع ·

وكان اول اجتماع اتحدث فيه في الولايات المتحدة الامريكية في شيكاغو يوم ٢١ يناير (كانون الثانى) دون اعداد ودون اعلان · وكان اجتماعا للجمعية العامة لمجلس الاتحادات اليهودية وصناديق الرعاية ، وهى منظمات غير صهيونية · ولم تكن فلسطين مدرجة في

جدول الاجتماع اذ كان اجتماعا لمحترفي جمع التبرعات . وعلمت انني لو وصلت الى قلوبهم فسنحصل على الاموال اللازمة · ولم يكن حديثي طويلا . ووضحت لهم الموقف في اليوم الذى غادرت فيه فلسطين ·

وقلت لهم ان المجتمع اليهودى في فلسطين مصمم على القتال حتى النهاية . ولو وجدنا السلاح فسنحارب به . وان لم نجده حاربنا بالاحجار · وليست القضية ان ٧٠٠,٠٠٠ يهودى يتعرضون للخطر . ولكنها تكمن في ان زوالهم يعنى الى قرون طويلة ان ينتهى حلم الشعب اليهودى والدولة اليهودية · ومشكلتنا الان هى الوقت . نحن نريد السلاح الان لا غدا ولا بعد شهر · وقد جئت الى هنا لأقنع اليهود بأننا نحتاج الى ٢٥ أو ٣٠ مليون دولار خلال اسبوعين . وخلال الثلاثة اسابيع التالية سنتمكن من تدبير أمورنا · وتستطيع الحكومة المصرية ان ترصد ميزانية تخصصها لا عدائنا . وكذلك الحكومة السورية · اما نحن فلا حكومة لدينا . بل لدينا ملايين اليهود المشتتين · وانتم لن تقرروا ما اذا كنا سنحارب ام لا . فقد اتخذنا القرار وسنحارب ولن نرفع العلم الابيض امام المفتى · فقط يمكنكم ان تقرروا ما اذا كنا نحن الذين سننتصر ان المفتى · هذا هو قرار اليهود الامريكيين · واتوسل اليكم الا تتأخروا والا اسفتم بعد ثلاثة اشهر على ما لم تفعلوه اليوم ·

واستمعوا وبكوا . وتعدوا بجمع الأموال التى لم يقدمها اى مجتمع من قبل · وبقيت ستة اسابيع في الولايات المتحدة اطوف أرجاءها واتحدث وهم يستمعون ويبكون ويجمعون الاموال · وعدت الى فلسطين في شهر مارس (آذار) وقد تم جمع خمسين مليونا من الدولارات تم تحويلها لحساب المشتريات السرية من السلاح

للهاجاناه . وعند عودتى قال لى بن جوريون ان التاريخ سيذكر يوما ان امرأة يهودية جمعت من الاموال ما جعل قيام الدولة امرا ممكنا ، لكننى مع ذلك اخدع نفسى . فهذه الاموال لم تعط لى . وانما لاسرائيل .

وكانت رحلتى الى الولايات المتحدة واحدة من الرحلات التى قمت بها خلال هذا العام . وقبل ستة اشهر من تأسيس الدولة ، تقابلت مرتين مع الملك عبد الله ملك شرق الاردن وجد الملك حسين . ومع ان كلا اللقاءين بقيا سرا ، حتى بعد اغتيال الملك عبد الله على يد اعدائه العرب (ربما من انصار المفتى) فلا احد يعلم حتى اليوم مدى مسئولية الشائعات التى انتشرت عنها عن اغتياله . والاغتيال مرض مستوطن في العالم العربى ، وأحد الدروس الهامة التى يجب أن يتعلمها القادة العرب وهى الصلة بين السرية وطول الحياة . وقد احدث اغتيال الملك عبد الله تأثيرا ظل قائما على كل القادة العرب الذين تلوه . واذكر ان عبد الناصر قال لاحد الوسطاء الذين ارسلناهم اليه ، لو ان بن جوريون جاء الى القاهرة للتحدث معى فسوف يعود بطلا . اما اذا ذهبت اليه انا فسوف اقتل عند عودتى . والواضح ان هذا الموقف مازال قائما .

وكان اللقاء الاول مع الملك عبد الله في اوائل نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٤٧ . وقد وافق على مقابلتى بوصفى رئيسة للدائرة السياسية في الوكالة اليهودية . في منزل في نهاراييم (على نهر الاردن) عند محطه كهرباء تديرها شركة كهرباء فلسطين . وجئت الى نهاراييم مع احد خبرائنا في الامور العربية وهو الياهو ساسون . وكان الملك عبد الله صغير الجسم ، رابط الجأش ، ذا سحر اخاذ . وبعد تناول القهوة ، دخل الى لب الموضوع مباشرة . فهو لن ينضم الى اى هجوم عربى

ضدنا ، وسيبقى ـ كما قال ـ صديقا لنا ، وهو يريد السلام مثلنا ٠ ثم ان عدونا كان واحدا وهو الحاج امين الحسينى مفتى القدس ٠ ولم يكتف بذلك ، بل اقترح ان نلتقى ثانية بعد ان تنتهى الامم المتحدة من التصويت ٠

وقام واحد آخر من خبرائنا في الشئون العربية ، وهو عزرا دانين ، الذى كان يلتقى بالملك عبد الله من قبل كثيرا ، بتزويدى بالمعلومات عن المفهوم العام للملك لدور اليهود . وكان هذا المفهوم يتلخص في ان العناية الالهية شتتت اليهود في العالم الغربى لكى يستوعبوا الحضارة الاوروبية ويجلبوها معهم الى الشرق الاوسط فيعيدوا بذلك احياء المنطقة لكن دانين كان متشككا في مدى امكانية الاعتماد على الملك ، اما تعبيره عن الصداقة فهو صادق فيه وان لم يكن ذلك بالامر الملزم له ٠

وحافظنا على الاتصالات مع الملك عبد الله خلال شهرى يناير (كانون الثانى) وفبراير (شباط) . عن طريق صديق مشترك كان يحمل رسائلى الى الملك ٠ واصبحت رسائلى اليه مشوبة بالقلق ، فقد كان الجو مثقلا بالتخمينات والحدس ، وجاءتنا معلومات بأن الملك عبد الله سوف ينضم الى الجامعة العربية على الرغم من وعده لى ٠ وكان تساؤلى « هل ذلك صحيح » . وجاءتنى الاجابة من عمان قاطعة بالنفى ٠ وقال الملك عبد الله ان السؤال ادهشه وجرحه ، وانني يجب ان اتذكر ثلاثة اشياء ، انه بدوى ولذا فهو رجل شرف ، وانه ملك ولذا فإنه رجل شرف مضاعف . وأنه لا يحنث بوعد قطعه لامرأة ٠ وبهذا زالت مبررات قلقى ٠

ولكن معلوماتنا جاءت مختلفة .. اذ لم يعد هناك شك في الاسبوع الاول من مايو (أيار) ان الملك عبد الله سيلقى بثقله في الجامعة

العربية · واخذنا نبحث في جدوى الاتصال به من جديد فاذا لم نستطع اقناعه بتغيير رأيه فسنعرف على الاقل مدى عمق التزامه هو وقواته التى يدربها ويقودها بريطانيون بالحرب ضدنا · لم يكن الامر فقط ان الفيلق العربى عنده كان أفضل جيوش المنطقة ، لكنه اذا حدثت المعجزة وبقيت شرق الاردن خارج الحرب ، فسيكون من الصعب على الجيش العراقى أن يخترق فلسطين ليضم للهجوم علينا · وكان من رأى بن جوريون اننا لن نخسر شيئا من تكرار المحاولة ، وهكذا طلبت الى عزرا دانين أن يرافقنى ·

في هذه المرة رفض عبد الله ان يحضر الى نهاراييم وقال للرسول ان ذلك خطر للغاية · فإذا اردت ان اراه فيجب ان احضر الى عمان على أن أتحمل مسئولية المخاطرة · وابلغنا أنه من الأفضل ألا يثير الفيلق العربى بحقيقة أنه ينتظر ضيفا يهوديا من فلسطين وانه لا يتحمل أية مسئولية عما قد يحدث لنا في الطريق ·

وكان علينا اولا أن نصل الى تل ابيب ، اذ كان الوصول اليها في مثل صعوبة الوصول الى عمان · ولبثت في القدس انتظر الطائرة منذ الصباح حتى الساعة السابعة مساء عندما وصلت الطائرة ، لكن الاحوال الجوية كانت قد اصبحت بالغة السوء · ولو كانت الاحوال عادية لأجلت الامر الى الصباح ، لكننا لم نكن نستطيع فقدان الوقت ، اذ كنا في العاشر من مايو (ايار) وستعلن الدولة يوم ١٤ · وكانت تلك آخر فرصة لنا للحديث مع عبد الله ·وفي طائرة مروحية يمكن ان تمزقها نسمة قوية ــ لا تلك الريح العاصفة ــ اقلعنا الى تل ابيب ·

وفي صباح اليوم التالى توجهت بالسيارة الى حيفا حيث قابلت عزرا ، الذى اكتفى بارتداء غطاء الرأس العربى للتنكر · وكان يجيد اللغة العربية وعاداتها بحيث يمكن اعتباره عربيا ، اما انا فلبست

العباءة السوداء والحجاب العربى ، وكامرأة مسلمة تصاحب زوجها فلم يكن مطلوبا منى ان اتحدث مع احد ٠ وكان علينا أن نغير السيارات عدة مرات لنضمن ان احدا لا يقتفى اثرنا ، الى ان نصل الى منطقة قريبة من قصر الملك حتى يقابلنا دليلنا ويقودنا اليه ٠ وكانت اكبر المشاكل هى كيفيه تجنب اثارة شكوك رجال الفيلق العربى في مواقع التفتيش التى سنمر من خلالها ٠

وكانت رحلة طويلة خلال الليل غيرنا فيها السيارة ثلاث مرات ٠ ولم اكن اشك في مقدرة عزرا على امرارنا من بين خطوط الاعداء ، ولم نتحدث ابدا طوال الرحلة ، لكنى كنت افكر فيما قد يحدث لو ان امرنا افتضح لا قدر له ٠ وكان الرجل الذى سيصحبنا الى الملك بدويا تبناه الملك منذ طفولته ورباه ، وكان يقوم بالمهام الخطرة من اجل سيده ٠

واصطحبنا الرجل في سيارته ، ووصلنا الى منزله حيث جلست اتحدث مع زوجته الجميلة الذكية التركية الاصل ٠ ثم دخل عبد الله الى الغرفة شاحب اللون مرهقا ٠ وتولى عزرا الترجمة بيننا ٠ ودخلت الى الموضوع مباشرة فسألته هل خلفت وعدك لى؟ ولم يجب على سؤالى مباشرة بل قال : عندما قطعت ذلك الوعد ، كنت اعتقد اننى اتحكم في مصيرى واستطيع عمل ماأراه صحيحا ٠ لكننى علمت من يومها اشياء اخرى ٠ ثم مضى قائلا انه كان بمفرده من قبل اما الآن فهو « واحد من خمسة » ٠ وفهمت ان الاربعة الآخرين هم مصر وسوريا ولبنان والعراق ٠ ومع ذلك فقد كان يعتقد بامكانيته تجنب الحرب ٠

وسألنى .. « لماذا انتم في عجلة من امركم الى هذا الحد لاعلان دولتكم؟ ما هذا الاندفاع؟ انتم نافذو الصبر » ٠ وابلغته اننى لا اعتقد

ان شعبا قد انتظر الفى عام يمكن ان يوصف بأنه « في عجلة » . وبدا وكأنه يتقبل ذلك ٠

وقلت له : ألا تفهم اننا حلفاؤك الوحيدون في المنطقة والآخرون كلهم اعداؤك ؟.

فقال لى نعم اعلم ذلك لكن الامر ليس بيدى ٠

فقلت له : يجب ان تعلم انه اذا فرضت علينا الحرب فسوف نحارب وسوف ننتصر ٠

وقال لى : نعم اعلم ذلك . لكن الا تستطيعون الانتظار سنوات قليلة ؟ اسقطوا مطالبكم بالهجرة الحرة . وسوف اسيطر على البلد كلها وسوف تمثلون في برلمانى ٠ وسوف اعاملكم بطريقة حسنة للغاية ولن تكون هناك حرب ٠

وحاولت ان اشرح له استحالة خطته . قائلة : « انك تعلم ما فعلناه وما تحملناه من مشاق ٠ ونحن لم نفعل ذلك لكى نمثل في برلمان اجنبى ٠ انت تعلم ما نريد وما نتطلع اليه ٠ واذا لم يكن لديك ما تقدمه لنا غير ما قلته الآن فستكون هناك حرب وسنكسبها ٠ ولكنك قد ترى ان نلتقى ثانية ـ بعد الحرب وبعد قيام الدولة اليهودية » ٠

وقال دانين للملك : « انكم تعتمدون الى حد كبير على دباباتكم وسوف نسحقها كما تحطم خط ماجينو » ٠

وكانت تلك كلمات تتسم بالشجاعة خاصة وان دانين كان يعلم الوضع الحقيقى لمدرعاتنا ٠ واومأ عبد الله برأسه مهموما . وقال : ان الاحداث سوف تجرى على أعنتها . وسوف نعرف جميعا حتما ما يخبئه لنا القدر ٠

وبدا واضحا انه ليس هناك مجال لمزيد من الحديث : غير ان دانين وعبد الله شرعا في مناقشة جديدة ٠

قال دانين ، اننى امل ان نبقى على اتصال حتى بعد أن تبدأ الحرب ·

فأجاب عبد الله ؛ طبعا ، ويجب ان تأتى لرؤيتى · فتساءل دانين ، ولكن كيف سأتمكن من الوصول اليك ؟

فقال عبد الله مبتسما ، اننى اثق في انك ستجد الوسيلة ·

وبعد ذلك لامه دانين لعدم اتخاذه الاحتياطات الكافية ، فقال له « انـك تصلى في الجامع وتسمح لـرعاياك بتقبيل اطـراف ردائك · في يوم من الايام سوف يلحق بك احد الاشرار ضررا · لقد آن الاوان لمنع هذه العادة ، ولو على سبيل السلامة » ·

وبدا بوضوح ان عبد الله قد صدم ، وقال بجفاء لدانين « انا لن اصبح ابدا سجينا لحراسى · لقد ولدت بدويا ، رجلا حرا ، وسأبقى حرا · ودع اولئك الذين يريدون قتلى يفعلون ذلك · فلن اضع نفسى في القيود » · ثم ودعنا وانصرف ·

ثم دعتنا سيدة الدار الى تناول الطعام ، ورغم اننى لم اكن اشعر بالجوع فقد نصحنى دانين بأن املأ طبقى والا كنت كمن يرفض كرم الضيافة العربى · واستغرقتنى الافكار ·· لقد بات واضحا ان عبد الله سيشن الحرب ضدنا ، والدبابات الاردنية ليست نكتة على الرغم من ادعاء دانين بالشجاعة ·· وتملكتنى الحيرة ·· كيف سأنقل هذه الاخبار الى تل ابيب !!

ورحلنا بعد قليل مع سائق عربى كان يرتعد كلما وصلنا الى نقطة تفتيش · وترجلنا قبل الوصول الى نهاراييم بعد ان مررنا بالسيارة بمعسكر المفرق الذى تجمعت عنده القوات العراقية · واخذنا نتحدث اثناء سيرنا عما سيحدث يوم ١٤ مايو (آيار) ، وقال لى دانين ان الحظ لو حالفنا فقد نفقد ١٠٫٠٠٠ شخص ، اما اذا جانبنا الحظ

فسنفقد ٥٠٫٠٠٠ • واكملنا الطريق دون ان نتبادل كلمة واحدة او حتى نتنفس بصوت عال ، وثيابى التى ارتديها تعوق سيرى • وسرنا قرابة نصف الساعة الى ان قابلنا رجل الهاجاناه الذى قادنا الى نهاراييم عبر التلال والاودية • واعتقد اننى لم امسك في حياتى يد أحد بحرارة وقوة مثلما فعلت انئذ •

ولم اقابل عبد الله ثانية ، رغم أننا اجرينا معه بعد الحرب مفاوضات مطولة • وابلغونى انه قال عنى اننى المسئولة عن الحرب لاننى كنت متعالية الى درجة اننى لم اقبل ما عرضه على • ولا بد لى أن أقول اننى عندما أفكر فيما كان سيحدث لنا كأقلية « محمية » في مملكة يحكمها ملك عربى اغتاله العرب ، فإننى لا أندم على انى خيبت آمال عبد الله في تلك الليلة •

على اية حال ، توجهت من نهاراييم الى تل ابيب • وفي صباح اليوم التالى اشتركت في اجتماع لحزب الماباى ، وكانت الاجتماعات مستمرة طوال الاسبوع ، وما أن دخلت حتى سألنى بن جوريون « لا ؟ » فكتبت له ورقة قلت له فيها لم ننجح • ستقوم الحرب • وقد شاهدت انا وعزرا تجمعات الجنود في المفرق » • ولم استطع ان اتحمل رؤية المفرق » • ولم استطع ان احمل رؤية وجه بن جوريون وهو يقرأ الورقة ، لكنه ولله الحمد لم يغير رأيه ــ ورأينا ــ بعد قراءتها •

كان لا بد من اتخاذ قرار نهائى ، هل تعلن الدولة اليهودية ام لا ! وقدمت تقريرا عن محادثاتى مع عبد الله ، وبعدئذ طلب المجتمعون من بن جوريون تقييما اخيرا للموقف ، وتقدير الهاجاناه لساعة الصفر • فدعا بن جوريون رجلين هما يجال يادين رئيس عمليات الهاجاناه واسرائيل جاليلى رئيس الاركان الفعلى فيها • وكانت اجاباتهما متطابقة ، ومفزعة •• قالا ان هناك امرين مؤكدين ، الانجليز

سينسحبون والعرب سيغزون • وتساءلنا ، ثم ماذا ؟ فلم يجيبا الا بعد برهة بقولهما ، ان الفرص امامنا ٥٠ ٪ ، فبقدر ما قد نكسب ، قـد نهزم •

وفي ضوء ذلك تم اتخاذ القرار بأن تعلن الدولة اليهودية يوم الجمعة ١٤ مايو (آيار) ١٩٤٨ (الموافق الخامس من آيار عام ٥٧٠٨ وفق التقويم العبرى) التى يبلغ تعداد سكانها ٦٥٠ر٠٠٠ نسمة ، والتى تتوقف حياتها على قدرة الييشوف على مواجهة هجوم تشنه خمسة جيوش عربية يساعدها مليون من عـرب فلسطين •

وكان مقررا ان اعود الى القدس وابقى هناك الى يوم الخميس • لكننى كنت اتمنى ان اكون في تل ابيب لا شهد احتفال الاعلان الذى قررنا الاحتفاظ بسرية مكانه (الا على المدعوين وعددهم ٢٠٠) الى ما قبل حدوثه بساعة • لكن بن جوريون رفض بشدة وصمم على وجودى في القدس • وهكذا ركبت الطائرة المروحية بجوار الطيار (ولم يكن في هذه الطائرات التى كنا نسميها بريموس سوى مقعدين) لكى يوصلنى الى القدس ويعود باسحاق جرونبوم (اول وزير داخلية في الحكومة المؤقتة) • وما ان عبرنا السهل الساحلى حتى بدأت الات الطائرة تصدر اصواتا فظيعة وكأنها ستتحطم ، وقال لى الطيار انه لا بـد من العودة وظل ينظر الى الارض بحثا ــ كما قال ــ عن قرية عربية للهبوط فيها • ولا تنسوا اننا كنا في يوم ١٣ مايو (ايار) واخيرا تحسنت حالات الالات فقال انه سينزل في قرية بن شيمن اليهودية ، ثم اكمل الرحلة الى تل ابيب • وهكذا حضرت الاحتفالات ، ولم يتمكن جرونبوم من التوقيع على اعلان الاستقلال الا بعد الهدنة الاولى •

وفي صباح ١٤ مايو (آيار) شاركت في اجتماع للمجلس القومى لاختيار اسم الدولة ووضع الصيغة النهائية للاعلان وفي آخر لحظة دارت مناقشة حول الاسم تريد ايراد اشارة للرب · وكانت آخر جملة ، كما عهد بها الى اللجنة الفرعية المكلفة بصياغة النص النهائى ، تبدأ بالكلمات التالية ، « نحن نثق في صخرة اسرائيل ، ونضم ايدينا شهودا على هذا الاعلان ... » وكان بن جوريون يرى ان هذا النص من الابهام بحيث يرضى اليهود الذين لا يتصورون اعلان قيام اسرائيل دون اشارة للرب ، واولئك الذين يعارضون بشدة اية اشارة كهنوتيه في الاعلان ·

لكنه لم يكن من السهل القبول بهذا الحل الوسط · فقد طالب المتحدث باسم الاحزاب الدينية ، الحاخام فيشمان ميمون ، بأن تكون الاشارة الى الرب واضحة لا لبس فيها وأنه يوافق فقط على « صخرة اسرائيل » اذا ما اضيفت اليها « ومخلصها » ، في حين وقف اعارون زيسلنج من الجناح اليسارى في حزب العمال في الاتجاه المعاكس قائلا « لا استطيع أن اوقع على وثيقة تشير الى الرب الذى لا اؤمن به » · وقضى بن جورين الصباح بطوله وهو يحاول اقناع ميمون وزيسلنج بأن « صخرة اسرائيل » تحتمل معنيين ، فهى في الوقت الذى تحمل فيه معنى « الرب » للكثير من اليهود ، فإنها يمكن ان تعتبر اشارة رمزية علمانية الى « قوة الشعب اليهودى » · وفي النهاية وافق ميمون على حذف « المخلص » من النص ، والمضحك ان اول ترجمة انجليزية للاعلان اعدت للنشر بالخارج في نفس اليوم ، لم تتضمن اية اشارة الى « صخرة اسرائيل » اذ ان الرقيب العسكرى حذف الفقرة الاخيرة بأكملها كاجراء امينى ، لانها ذكرت تاريخ ومكان الاحتفال ·

ولم تكن المناقشة بالامر الذى كان متوقعا ان يستغرق وقت رجل

سيصبح بعد قليل رئيسا لوزراء دولة تتعرض للغزو · لكن الخلاف لم يكن على الالفاظ . فقد كنا مهتمين بأن يتضمن البيان المبادىء الاساسية لـدولة اسرائيـل . ولـذا كنا ندقق في كل كلمة . بـل ان صديقى العزيز زئيف شريف (الذى اصبح اول سكرتير للحكومة وارسى اسس الإدارة الحكومية) حرص على ان يهرع بالوثائق التى كنا سنوقعها الى خزائن المصرف الانجلو ـ فلسطينى عقب الاحتفال لكى تحفظ هناك للاجيال القادمة . حتى ولو لم نعش نحن أو الدولة طويلا ·

وفي نحو الثانية بعد الظهر ذهبت الى الفندق حيث غسلت شعرى وارتديت افخر ملابسى السوداء . ثم جلست قليلا لكى التقط انفاسى ولكى افكر ·· لاول مرة خلال الايام الثلاثة الماضية ·· في الاولاد · كان مناحيم انئذ في الولايات المتحدة الامريكية طالبا في مدرسة ما نهاتن الموسيقية ؛ ولم يكن هناك شك في انه سيعود مع اندلاع الحرب . لكن من ذا الذى يعلم متى وأين سنتقابل · اما سارة فكانت في رفيفيم في النقب · وكان العرب الفلسطينيون والمتسللون المصريون قد اغلقوا . منذ عدة اشهر . الطريق الوحيد المؤدى الى النقب . واخذوا ينسفون الانابيب التى كانت تنقل الماء الى المستوطنات السبع والعشرين المتناثرة في صحراء النقب · وكانت الهاجاناه قد نجحت في شق طريق مواز لهذا الطريق كانت تنقل منه بين الحين والآخر امدادات الماء والطعام لكسر الحصار · لكن من ذا الذى يعلم ماذا سيحدث لهذه المستوطنات العزلاء المجردة من السلاح في مواجهة الغزو المصرى المتوقع خلال عدة ايام ! وكانت ساره وصديقها زكريا يعملان على اللاسلكى . حيث كنا على اتصال . لكننى لم اكن قد سمعت منهما شيئا منذ عدة أيام ·· وسيطر القلق على نفسى ·

وجاءت سيارة لاصطحابى الى موقع الاحتفال الذى تقرر ان يقام في متحف تل ابيب في شارع روتشيلد . وكان المتحف بيتا من اقدم مبانى تل أبيب ، اوصى صاحبه ـ وهو اول عمدة لتل ابيب ـ بأن يؤول للشعب اليهودى كمتحف . واختير المكان بالذات لكون حراسته امرا سهلا . وتم تنظيفه ، واسدلت الستائر السوداء على النوافذ خشية تعرض المبنى لغارة جوية ، ووضعت صورة كبيرة لثيودور هرتزل خلف المائدة التى سيجلس عليها الثلاثة عشر عضوا في الحكومة الموقتة . ورغم ان احدا لم يكن يعرف بالموضوع ، فيما عدا المائتى مدعو ، فقد وجدت حشودا كبيرة تنتظر خارج المتحف عند وصولى .

وفي تمام الساعة الرابعة بعد الظهر بدأ الاحتفال . فوقف بن جوريون ، مرتديا حلة سوداء ورباط عنق ، ودق بالمطرقة . وكانت تلك هى الاشارة لكى تعزف فرقة الموسيقى ، في الطابق الثانى ، نشيد « الهاتيكفاه » . لكن خطأ ما حدث ، فلم تعزف الموسيقى . وعلى الفور وقفنا وانشدنا نشيدنا الوطنى . ثم تنحنح بن جوريون وقال : سأقرأ الآن وثيقة الاستقلال . واستغرق الامر منه ربع ساعة لتلاوة الاعلان وكان يقرأ ببطء وبوضوح تام ، واتذكر جيدا كيف علا صوته عندما وصل الى الفقرة الحادية عشرة التى اعلن فيها قيام الدولة اليهودية على ارض اسرائيل ـ دولة اسرائيل .

واغرورقت عيناى بالدموع وارتعشت يداى ، فهذه هى دولة اسرائيل . لقد عملناها وصنعنا دولة اسرائيل . وانا جولدا مابوفيتش مايرسون ، قد عشت لارى هذا اليوم . ولا يهم الثمن الذى قد يدفعه اى منا ، فلقد اعدنا خلق الوطن القومى اليهودى . ومنذ خمسين عاما تقريبا ، وفي ختام المؤتمر الصهيونى الاول في بازل ، كتب ثيودور هرتزل في مفكرته يقول « في بازل اسست الدولة اليهودية . ولو اننى

قلت ذلك اليوم . لقوبلت بالضحكات . لكنه ربما في خمسة اعوام . وبالتأكيد في خمسين سنة . سوف يراها كل فرد » . وهكذا تحققت الامور بالضبط .

وكأنما تلقينا اشارة . فوقفنا جميعا نصفق ونهتف ونحن نستمع الى بن جوريون يقول « ستكون دولة اسرائيل مفتوحة للهجرة اليهودية وتجميع المنفيين » . كان هذا هو لب الاعلان . وسبب قيام الدولة . بل والهدف . ودق بن جوريون مطرقته دعوة للنظام . ومضى يقرأ « حتى في وسط الهجمات العنيفة التى تشن علينا طوال الاشهر الماضية . فنحن ندعو ابناء الشعب العربى المقيمين في اسرائيل الى حفظ السلام وان يلعبوا دورهم في بناء الدولة على اساس من المواطنة الكاملة والمتساوية والتمثيل الواجب في كل مؤسساتها . المؤقتة والدائمة » .

و « اننا لنمد يدنا بالسلام وحسن الجوار الى كل الدول المحيطة بنا والى شعوبها . وندعوهم الى العمل في منفعة متبادلة مع الامة اليهودية المستقلة في أرضها . ان دولة اسرائيل مستعدة لتقديم مساهمتها في جهد مركز من أجل تقدم الشرق الاوسط بأسره » .

وعندما انتهى بن جوريون من تلاوة الـ ٩٧٩ كلمة عبرية التى تكون الاعلان . دعانا الى الوقوف والموافقة عليه . ووقفنا ثانية . وحدث شيء لم يكن مقررا اذ وقف الحاخام فيشمان ميمون وتلا صلاة الشكر التقليدية بالعبرية . وقبل ان نوقع الوثيقة وفق الترتيب الابجدى . تلا بن جوريون أول مراسيم الدولة الجديدة . فتم اعلان الغاء الكتاب الابيض . وتفاديا لحدوث فراغ قانونى تم اعلان سريان بقية احكام ونظم الانتداب بشكل مؤقت .

وبدأ التوقيع . ولمحت اثناء تقدم طابور الموقعين آداجولومب وتمنيت لو اخذت بيدها لا قول لها ان الياهو ودوف كانا يجب ان يحلا محلي في هذا الاحتفال . وتقدمت لاوقع الوثيقة بين بن جوريون وشاريت في وسط المائدة . وانا ابكى بصوت عال غير قادرة حتى على تجفيف دموعى . ولم يوقع الوثيقة من مجلس الشعب سوى خمس وعشرين عضوا يوم ١٤ مايو (ايار) . وكان هناك احد عشر عضوا في القدس وعضو في الولايات المتحدة الامريكية .

وبعد ان عزفت اوركسترا فلسطين الفيلهارمونى نشيد « الهاتيكفاه » دق بن جوريون المطرقة للمرة الثالثة قائلا « قامت دولة اسرائيل . انتهى هذا الاجتماع » . ووقفنا نتبادل القبل . وانتهى الاجتماع . واصبحت اسرائيل حقيقة .

وفي الفندق شربنا كأسا من النبيذ في نخب الدولة . وكان الناس يغنون ويرقصون . اما انا فلم اكن فقط مكتئبة بل خائفة ايضا . كنا الآن دولة مستقلة لكننا سندخل الحرب بعد ساعات . كنا نعرف ان الانتداب سينتهى مع حلول منتصف الليل وسوف يبحر المفوض السامى البريطانى ويرحل آخر جندى بريطانى عن فلسطين . لكننا كنا نعرف ايضا ان الجيوش العربية سوف تعبر حدود الدولة الجديدة . وكنت اعرف ان احدا لن يزحزحنا او يشردنا مرة ثانية .

وفي فجر اليوم التالى ادركت ان الامور لن تعود الى ما كانت عليه . لا بالنسبة لى . ولا بالنسبة للشعب اليهودى . ولا بالنسبة للشرق الاوسط . وشاهدت في السماء اربع طائرات مصرية طراز سبيتفاير تئز في السماء في طريقها الى تل ابيب لنسف محطة الكهرباء فيها . وكانت تلك هى اول غارة جوية في الحرب . وبعد قليل وقفت اشاهد اول المهاجرين (الذين لم يعودوا غير قانونيين) وهم يدخلون

ميناء تل ابيب احرارا . لم يعد هناك من يتعقبهم . ولم تعد هناك شهادات . وكان اول مهاجر قانونى يصل الى دولة اسرائيل رجل عجوز يدعى صمويل براند الذى نجا من معسكر بوخنوالد ، حاملا في يده ورقة صادرة عن دائرة الهجرة في الدولة تقول « بمقتضى هذا تم منح حق الاستيطان في اسرائيل » . وكانت تلك هى أول تأشيرة دخول نصدرها .

وبعد عدة دقائق عقب منتصف ليلة ١٤ مايو (آيار) تلقيت مكالمة سمعت فيها من يقول لى « يا جولدا ــ لقد اعترف بنا ترومان » . لا اذكر ما قلته او فعلته ، لكنى اذكر ما شعرت به وهو ان المعجزة قد وقعت ، وفي وقت عصيب ، عشية الغزو .. واحسست بالفرح والراحة . لكن اعتراف امريكا كان يعنى بالنسبة لى بالذات اكثر مما يعنيه لكل زملائى ، فقد كنت انا « الامريكية » الوحيدة فينا ، التى تربت في احضان هذه الديمقراطية الرائعة . ودهشت ــ كغيرى ــ للسرعة التى تم بها الاعتراف ، وللنبض الدافق الذى نتج عنه وقد اثمرت هذه المعجزة نتيجة امرين ، أولهما شخصية هارى ترومان الذى فهم واحترم مسيرتنا من اجل الاستقلال ، وثانيهما الانطباع الذى خلفه لديه حاييم وايزمان عندما قابله في واشنطون .. ذلك الرجل الذى شرح قضيتنا ودافع عنها بشكل لم يحدث من قبل في البيت الابيض . ولم يكن ممكننا تقدير قيمة العمل الذى قام به وايزمان . اما الاعتراف الامريكى فكان اضخم شىء يمكن ان يحدث لنا في تلك الليلة .

اما الاعتراف الروسى ، الذى اعقب الاعتراف الامريكى ، فكانت له جذور اخرى . لاشك عندى الآن ان الاعتبار الأول لدى السوفيت كان اخراج البريطانيين من الشرق الاوسط . لكننى ادركت من خلال مناقشات الامم المتحدة في خريف ١٩٤٧ ، ان الكتلة السوفيتية تؤيدنا

انطلاقا من واقع العذاب الذى لاقته روسيا خلال الحرب ، والماسى التى تعرض لها اليهود بحيث استحقوا دولة خاصة بهم · لكننى لا استطيع ان أغير الحقيقة التى عشتها ، وهى انه لولا الاسلحة التى استطعنا شراءها في تشيكسولوڤاكيا في بداية الحرب ونقلناها عبر يوغوسلافيا وغيرها من دول البلقان في تلك الايام السوداء لما كنا قد صمدنا الى ان يتغير التيار كما حدث في شهر يونيو (حزيران) ١٩٤٨ · وقد اعتمدنا الى حد كبير (لاكلية) على المدافع والرصاص والقنابل بل والطائرات التى استطاعت الهاجاناه شراءها من اوروبا الشرقية في الوقت الذى اعلنت فيه حتى الولايات المتحدة الامريكية حظر مبيعات السلاح الى الشرق الاوسط · ولا يستطيع المرء ان يمحو التاريخ والماضى لمجرد انه يلائم الحاضر ، فبرغم ان الاتحاد السوفيتى قد انقلب علينا وضدنا بعدئذ ، الا ان الاعتراف الروسى في ١٨ مايو (آيار) كان ينطوى مع اهمية كبيرة لنا ؛ اذ كان يعنى ان الدولتين العظميين في العالم قد اتفقتا على امر واحد ، لاول مرة منذ الحرب العالمية الثانية ، هو مساندة الدولة اليهودية ·

وللتاريخ فإننى اذكر ثانى دولة عرضت علينا الاعتراف باسرائيل في اليوم الثانى لمولدها كانت جواتيمالا ، التى كان سفيرها لدى الامم المتحدة ، جورج جارسيا جرانادوس ، واحدا من انشط اعضاء اللجنة الخاصة للامم المتحدة لفلسطين ·

وفي صباح يوم ١٥ مايو (آيار) تعرضت اسرائيل لهجوم عسكرى من جانب مصر جنوبا ، ومن لبنان وسوريا شمالا وفي الشمال الشرقى ، ومن جانب الاردنيين والعراقيين شرقا ، وكانت هناك اسباب لدى العرب للاعتقاد بأن اسرائيل سوف تسحق خلال عشرة ايام ·

الغريب ان المصريين لم تكن لديهم اى مكاسب يحققونها . فعبد الله كان لديه اسباب للغزو ، وهى انه كان يريد البلد بأسرها بما في ذلك القدس . وكان السوريون واللبنانيون يبغون تقسيم الجليل فيما بينهم . وكانت العراق تريد المشاركة في سفك الدماء والحصول - الى جانب ذلك - على منفذ الى البحر الابيض المتوسط ولو عبر الاردن . اما مصر فلم يكن لها من هدف بالمرة اللهم الا نهب وتدمير كل ما بناه اليهود . والواقع ان الدهشة ظلت تسيطر على ازاء تلك الرغبة المحمومة لدى العرب للحرب ضدنا . والتفسير الوحيد الممكن عندى هو انهم لا يتحملون وجودنا . ولا يسعنى الا ان اؤمن بأن جميع القادة كانوا ومازالو يفكرون بطريقة بدائية .

ثم ما الذى فعلناه كتهديد للدول العربية ؟ صحيح اننا لم نوافق على اعادة الاراضى التى ربحناها خلال الحروب التى بدأوها لكن الارض ليست هى الشيء المهم لدى العرب . فماذا اذن ؟ هل هى رغبة حارقة في تصفيتنا جسديا ؟ هل هو الخوف من التقدم الذى يمكننا ان نقدمه في الشرق الاوسط ؟ هل هى كراهية الحضارة الغربية ؟ . على اية حال سيأتى اليوم الذى يقبلنا فيه العرب على ما نحن عليه. وتحقيق السلام يعتمد على امر واحد ، هو ان يقبل القادة العرب وجودنا هنا .

وكان مفهوما في عام ١٩٤٨ ان العرب كانوا يرون من خلال خيالهم الدافق انهم يستطيعون اختراق اسرائيل خلال ايام قلائل . وقد بدأوا هم الحرب ، وذلك اتاح لهم تفوقا تاكتيكيا ، ثم ان المداخل الى فلسطين كانت مفتوحة امامهم ، وفيها العرب الذين اثيرت مشاعرهم ضدنا . كذلك فإنهم يسيطرون على المواقع المرتفعة التى تتحكم في مستوطناتنا ، وكانت بريطانيا فوق ذلك تساعدهم بشكل ملحوظ .

ما نحن فلم يكن لدينا شيء بالمرة سوى عدة آلاف من البنادق والمدافع وتسع طائرات (احداها بمحركين) ٠

وكنا قد اشترينا معدات تضنيع السلاح ـ بفضل بن جوريون وبعد نظره ـ لكننا لم نكن نستطيع احضارها ثم تشغيلها الا بعد رحيل القوات البريطانية ٠ وكان مجموع قواتنا قرابة ٤٥٫٠٠٠ في الهاجاناه ، وعدة آلاف في الجماعتين السريتين المنشقتين ، وعددا من المهاجرين الذين تلقوا تدريبا في معسكرات المانيا وقبرص ، ثم عدة متطوعين بعد الاستقلال من اليهود وغير اليهود ٠ وازاء ذلك اعدنا ترتيب حساباتنا على اساس ان الـ ٦٥٠٫٠٠٠ نسمة ، مدفوعين بالرغبة في البقاء على قيد الحياة . يجب ان تكون فرصتهم الوحيدة هى كسب الحرب ٠ وقد كسبناها لكنها لم تكن حربا قصيرة ولم يكن الثمن الذى دفعناه زهيدا ٠ فمنذ صدور قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين في ٢٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٤٧ الى ان تم توقيع اتفاقية الهدنة الاولى بين اسرائيل ومصر في ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٤٩ ، كنا قد خسرنا ٦٠٠٠ اسرائيلى راحوا قتلى ، اى ١ ٪ من اجمالى الشعب ٠

ويصعب على ان اصف اضطرارى للسفر خارج الدولة فور قيامها ٠ ففى يوم الاحد ١٦ مايو (آيار) وردت برقية من هنرى مونتور نائب رئيس النداء اليهودى الموحد يصف فيها تأثر اليهود الامريكيين واحساسهم بالفخر . ويطرح امكانية جمع ٥٠ مليون دولار اخرى في حالة عودتى للولايات المتحدة ٠ وكنت اعرف معنى وقيمة هذه النقود ، ومدى احتياجنا للاسلحة التى قد نشتريها بها ، او ما قد يكلفه استيعاب ٣٠٫٠٠٠ مهاجر محشورين في معسكرات قبرص يريدون العودة الى اسرائيل ٠ وبعد بحث الموضوع مع بن جوريون بعثت ببرقية تفيد اننى سوف اسافر على اول طائرة موجودة ٠ ولحسن الحظ فلم يكن

لدى شيء اعده . فجميع ملابسى في القدس التى كان الوصول اليها صعبا صعوبة الوصول الى القمر ؛ وهكذا اخذت فرشاة الشعر وفرشاة الاسنان في حقيبتى . وعندما وصلت الى نيويورك وجدت فيها الحجاب الذى ارتديته في رحلتى الى عمان . ثم اتصلت بابنتى سارة وابلغتها بالرحلة وبأننى سأعود في غضون شهر .

وطفت بكل ارجاء الولايات المتحدة اخطب في اليهود الامريكيين مؤكدة لهم ان اموالهم هى التى ستجعل اسرائيل قادرة على البقاء على قيد الحياة . كانت الرحلة في هذه المرة تشبه الرحلة السابقة . لكنى كنت احمل الآن جنسية مختلفة على وثيقة سماح بالمرور كانت اول وثيقة سفر تصدرها الدولة . بل ان اسابيع مضت قبل ان تعتاد اذناى على كلمة « اسرائيل » . وتحدثت عشرات المرات في لقاءات عامة وخاصة داعية اليهود الى تحمل مسئولياتهم معنا الى ان تقف اسرائيل على قدميها .

وسرعان ما تجاوب مع الجميع واستطعنا جمع ١٥٠ مليون دولار تم تحويل نصفها لصالح اسرائيل (والنصف الثانى الى لجنة التوزيع المشتركة لمساعدة يهود اوروبا) . واذا كان نصف هذا المبلغ قد ساندنا على كسب الحرب . فإنه قد علمنا ان ارتباط يهود الولايات المتحدة الامريكية باسرائيل حقيقة يمكن ان نضعها في حسباننا على الدوام .

وقابلت خلال هذه الجولة السريعة رجالا اصبحوا فيما بعد « متحدثين بلسان » اسرائيل رغم انهم لم يشتركوا في المجهود الصهيونى قبل عام ١٩٤٨ وساعدونى فيما بعد على انشاء منظمة سندات اسرائيل عام ١٩٥٠ . وكنت خلال رحلاتى السابقة اقضى كل وقتى مع الصهاينة العماليين . اما بعد ١٩٤٨ فقد كان هناك يهود آخرون من الموسرين ورجال الاعمال . ومع كل هؤلاء كنت ابحث امكانية بيع

سندات لاسرائيل بنفس الاسلوب الذى كنا نجمع به التبرعات الخيرية ٠

وكنت اتعجل العودة لاسرائيل ، وكنت على يقين من ان وزارة الخارجية التى انشئت حديثا وموشى شاريت وزير الخارجية يعدان لى شيئا آخر ٠ وكان شاريت قد حدثنى قبل سفرى عن صعوبة ايجاد العناصر البشرية اللازمة لتشغيل السفارات والقنصليات التى ستفتحها اسرائيل سواء في العواصم التى اعترفت بنا او تلك التى ستعترف بنا في غضون اسابيع ٠ وعندما قال لى انه لا يوجد احد للذهاب الى موسكو اجبته بقولى حمدا لله انك لم تعرضها على ٠ وعندما قلت ان لغتى الروسية قد انمحت ، قال لى ان ذلك ليس هو المهم ٠ وبقى الموضوع عالقا بذهنى ، وان تمنيت ان يكون شاريت قد نسيه ٠

وذات يوم تلقيت اثناء جولتى برقية من تل ابيب ٠ ونظرت الى التوقيع اولا لكى اطمئن على ان شيئا لم يحدث لساره او مناحيم (الذى كانت فرقته مشتبكة في الحرب فعلا) ٠ وكانت البرقية بشأن تعيينى في موسكو ٠ واخذت افكر « لماذا انا ؟ » ، هناك زملاء يمكنهم ان يؤدوا هذه المهمة خيرا منى ٠ ولماذا روسيا ، ذلك المكان البعيد ! وتلك البلد التى لا احتفظ لها بذكرى سعيدة واحدة ٠ ثم ما الذى اعرفه او يهمنى عن الدبلوماسية ؟ كنت بلاشك اقل زملائى لياقة للدبلوماسية ٠ لكن الواجب طغى فوق كل هذه الاعتبارات ، وهناك النظام ايضا فمن انا لكى اعصى الاوامر ٠ واجبت على برقية شاريت بتأكيد وان كان بغير حماس ٠ وعاهدت نفسى على ان ابرهن لشاريت وبن جوريون انهما مخطئان ٠ وفي نهاية الاسبوع الاول من شهر يونيو (حزيران) تم اعلان تعيينى وزيرة لاسرائيل في موسكو ...

وقررت الذهاب الى نيويورك لزيارة بعض الاصدقاء وقضاء ساعة او اثنين معهم . ولكنى لم اصل الى منزلهم اذ اصطدمت سيارة بسيارة الاجرة التى اركبها . وعندما افقت وجدت ساقى قد كسرت ووضعت في جبيرة . واصبح عنوانى في الاسابيع القليلة التالية لا تل ابيب ولا موسكو . بل مستشفى نيويورك للامراض المشتركة ! ولم يكن هناك شيء ليبقينى في هذه المستشفى (بما فيها الالتهاب الوريدى وجلطات الدم التى أصبت بها) لولا ان القتال توقف في اسرائيل مؤقتا في ١١ يونيو (حزيران) .

في الحادى عشر من يونيو (حزيران) تم ايقاف الغزو العربى . كانت المحاولة المصرية لغزو تل ابيب والقدس قد فشلت . وكان الحى اليهودى في القدس القديمة قد سقط على يد الفيلق العربى الاردنى . ورغم ان تقدم السوريين في الشمال قد اوقف . فإنهم استمروا يحتفظون برأس جسر على نهر الاردن . وظلت الامم المتحدة تحاول فرض هدنة . لكن العرب لم يهتموا . الى ان تبين لهم ان هزيمة اسرائيل لن تحدث فوافقوا على وقف اطلاق النار . وعلى الهدنة الاولى التى مكنتنا من تجميع قوانا والتخطيط للهجوم الكبير الذى تم في يوليو (تموز) وقضى على آخر تهديد لتل ابيب والساحل وفك الحصار عن القدس ودمر القواعد العربية في الجليل .

وبقيت في المستشفى اعانى من ضغط رهيب . كان هناك الصحفيون وعدسات التليفزيون .. وقد كنت بالنسبة اليهم ضربة صحفية .. فأنا لست فقط سيدة سفيرة في موسكو . بل انا وزيرة لهذه الدولة الصغيرة هناك . اما الضغط الاسوأ فكان الذى تعرضت له للذهاب الى موسكو . وانهالت البرقيات من تل ابيب . في الوقت الذى راجت فيه شائعات بأن مرضى « سياسى » . وكأن هذه الحملة لم تكن

كافية . فظهرت علامات على ان الاتحاد السوفيتى يشعر بالضيق من « تمارضى » الذى كان « بالفعل » تاكتيكا يهدف الى تبادل السفراء مع روسيا الى ان يصل السفير الامريكى الى اسرائيل ليكون عميدا للسلك السياسى . وكان على ان اضع كل ذلك في اعتبارى بغض النظر عن حالتى الصحية . وارتكبت اكبر خطأ عندما الححت على اطبائى للسماح لى بالخروج . فلو بقيت عدة اسابيع لكنت قد وفرت على نفسى متاعب جمة وعمليات جراحية . وكان ذلك هو احد العقوبات التى ينالها الموظف الرسمى . اذ كنت مقتنعة بأن كارثة رهيبة سوف تحدث اذا لم اتوجه الى موسكو .

وحاولت بعد عودتى الى اسرائيل ان اثنى شاريت . لكن دون جدوى . وحكى لى ايهود آفرييل . رجل الهاجاناه الذى استطاع تأمين السلاح لنا من تشيكوسلوفاكيا واصبح اول سفير لاسرائيل في براغ . أن السفير السوفييتى قابله في احدى الحفلات وقال له ان سفير اسرائيل لدى موسكو ليس ضروريا ان يجيد الروسية او ان يكون خبيرا بالماركسية واللينينية . وبعد قليل التفت اليه وسأله « بالمناسبة ـ ما اخبار مسز مايرسون ؟ هل ستبقى في اسرائيل ام ان لديها خططا اخرى ؟ » وفهمنا جميعا ـ بما فينا شاريت ـ ان الروس يسألون عنى بطريقتهم . وعندئذ تبدلت مشاعرى .

وكان من بين الامور السارة . والتى سببت لى الشعور بالتأثر والامتنان . اثناء وجودى في المستشفى . تلك البرقية التى وردت من تل أبيب تسألنى « هل تمانعين في ان تعمل ساره وزكريا على اللاسلكى في سفارة موسكو ؟ » . وعندما عدت الى تل ابيب اتفقت مع اختى شينا على ان نقيم حفلا عائليا بسيطا لزواج ساره وزكريا في المنزل الذى كانت شينا وشاماى قد اشترياه منذ عدة سنوات . وكان

ابى قد توفى عام ١٩٤٣ . وهو من الشخصيات العزيزة لدى والتى لم تر مولد الدولة . اما امى فكانت مقعدة . كليلة البصر . غائبة الذهن . لكن موريس كان موجودا بنفس رقته المعهودة واعتزازه . كدلك كان هناك والدا زكريا . وكان ابوه قد هاجر من اليمن الى فلسطين ابان حكم الاتراك لها .

واخذت افكر في نوع التمثيل الدبلوماسى الذى يجب ان نواجه به العالم بشكل عام وروسيا بشكل خاص . فاسرائيل فقيرة وما زالت تحارب وحكومتها مؤقتة (جرت اول انتخابات للكنيست في يناير (كانون الثانى ١٩٤٩) وتمثل اغلبيتها حركة العمال . ولم تكن لدينا اية موارد او ثروات ومازال مئات الآلاف من المهاجرين يتدفقون اليها بحثا عن حياة جديدة . اذا فليكن تمثيلنا صورة لما نحن عليه وكان علينا ان نلتزم بالتقشف والتواضع . اما الترفيه المسرف والمساكن الواسعة والاستهلاك الكبير فأشياء ليست لنا .

وقررت ان تكون الحياة في البعثة في موسكو كحياة الكيبوتز في كل شيء . وكان عددنا ٢٦ شخصا بما فيهم انا وساره وزكريا ومستشار البعثة موردخاى نامير الذى كان ارملا واحضر ابنته يائيل معه (بعد ذلك عمل نامير سفيرا في موسكو ثم وزيرا للعمل وعمدة لتل ابيب لعشرة اعوام) . واخترت ايجاشابيرو . وهى امرأة جذابة لتكون مساعدة لى .

ولم تكن ملابسى تمثل مشكلة . وان بقيت اسفة لعدم وجود زى وطنى لنا يحل مشكلة الثياب بالنسبة لى مثلما كانت المرأة الوحيدة في موسكو ــ وهى الدبلوماسية مسز بانديت ــ ترتدى السارى في كل الحفلات والمناسبات . واخيرا وافقت ايجا على أن ارتدى فستانا طويلا اسود اللون عند تقديم اوراق اعتمادى . وان ارتدى معه قبعة من

القطيفة عن الضرورة . وتولت ايجا شراء اثاث السفارة من اسكندناڤيا . ونظرا لان اللغة الفرنسية اصبحت هى اللغة المعتمدة في الدبلوماسية الاسرائيلية ، فقد احتجنا الى من يجيدها ، ووجدنا فتاة لطيفة ، رفيعة القوام ، تدعى لوكوار ، من مواليد باريس وكانت قد اصيبت بجروح خلال حصار القدس . واصبحت لو صديقة حميمة ، ومساعدة لاغنى لى عنها ، بل ورفيقة في كل اسفارى طوال العشرين عاما التالية .

وبقيت في اسرائيل فترة استقبلت فيها سفير الولايات المتحدة چيمس ماكدونالد وسفير الاتحاد السوفيتى باڤيل بيرشوف . ونظرا لازمة المساكن في تل ابيب ، فقد اقام السفيران في نفس الفندق الذى ارتفعت على طرف سطحه النجوم والخطوط ، والمطرقة والسندان على طرفه الآخر . ولم يخل الامر من « حوادث » كالتى وقعت في احدى الحفلات عندما عزفت الموسيقى السلام الوطنى الامريكى ولم تعزف السلام الروسى ، فانسحب المستشار الروسى . ونجحنا في اقناع السفير الروسى بأنه لو كان موجودا لعزف السلام الروسى . كانت مثل هذه الامور البسيطة تحتل اهتماما كبيرا لدينا في تلك الايام ، وكان شاريت ـ بطبعه ـ دقيقا وحساسا يهتم بأمور البروتوكول ، في الوقت الذى لم اكن اجد فيه ان الامر يستحق كل ذلك .

وفي ١٩ يوليو (تموز) بدأت الهدنة الثانية ، لكى تنطلق بعدها جولة طويلة ومؤلمة عن المفاوضات حول النقب التى اوصى الكونت فولك برنادوت ـ وسيط الامم المتحدة السويدى ـ بتسليمها الى العرب واذا وضعنا في اعتبارنا انه كان مجرد حكم ، لوجدنا أن موقفه كان بعيدا عن الحياد ، وفقد شعبيته كلية عندما اضاف الاهانة الى الجرح فأصر على ابعاد القدس عن الدولة اليهودية وعلى مراقبة الامم المتحدة

لموانىء اسرائيل الجوية والبحرية ٠ وبرهنت هذه التوصيات على ان برنادوت لم يستوعب جيدا مغزى اسرائيل كدولة ٠ وليست جريمة ان يكون الانسان بليدا غبيا . لكننى ارتعبت . يوم ١٧ سبتمبر (ايلول) ـ بعد اسبوعين فقط من وصولى الى موسكو ـ عندما علمت ان برنادوت قتل رميا بالرصاص في واحد من شوارع القدس الهادئة (رغم انه لم يتم التعرف على الذين إغتالوه فقد عرفنا انه سيفترض انهم يهود) ٠ وبدا لى وكأن نهاية الدنيا قد حلت . وتمنيت لو اسرعت بالسفر الى بلدى لأكـون هناك خلال الازمة التى نشبت ٠ لكننى كنت عندئذ قد ارتبطت كلية والى حد كبير بنوع اخر من الحياة ٠

الفصل التاسع

وزيرة إلى موسكو

وصلنا الى موسكو (عن طريق براغ) يوم ٢ سبتمبر (ايلول) ١٩٤٨ . وابلغنا مستقبلونا في المطار ان الطريق الى الفندق سيكون صعبا ، نظرا لتشييع جنازة اندريه زدانوف احد اعوان ستالين المقربين .. وهكذا ارتبط وصولى الى الاتحاد السوفيتي بمشاعر الجنازة التي شاهدتها الى أن وصلنا الى فندق متروبول المخصص للاجانب .
وكأنما كان الفندق من عالم آخر فغرفه واسعة مليئة بالمقاعد الوثيرة والستائر المدلاة بل وفي كل منها آلة بيانو . وفي كل طابق توجد سيدة نسلمها المفاتيح لدى خروجنا ، وهى التي تبلغ المخابرات الروسية بكل شيء . ورغم البحث المستمر فإننا لم نعثر على ميكروفونات ، وان كان الدبلوماسيون القدماء في موسكو يسلمون بأن كل كلمة نقولها في الجناح الذي نقيم فيه أنا وسارة وزكريا ، يتم تسجيلها ..

ونظرا للارتفاع الهائل للاسعار ، ولضخامة حجم فاتورة الفندق في اول اسبوع ، فقد قررت التعجيل بحياة الكيبوتز في الفندق . فكنا نتناول وجبة الظهيرة فقط في صالة الطعام ، اما الافطار والعشاء فكنت انا ولو نشتري الجبن والزبدة وغيره (من سوق اسعاره ارخص من الدكاكين) ونحفظها عند شباكي الجناح كي لا تفسد . واشتريت لكل شخص صحنا واستعرت ادوات للاكل من الفندق . وفي يوم السبت كنت اعد طبقا من الحلوى بينما يعد العزاب اطباقا ساخنة .

وكانت تلك الزيارات للسوق ، ودرجة الحرارة ٤٠ اقل من الصفر ، من امتع الاوقات التي قضيتها خلال الشهور السبع التي بقيتها في موسكو . وكان الفلاحون يعاملوننا برقة وحرارة . لكنني ، كاشتراكية ، صدمت عندما شاهدت هذا المجتمع المفترض فيه انه بلا طبقات . ففي حين كانت النساء كبار السن يكنسن الشوارع وقطع القماش فقط هي التي تلف أرجلهن ، في درجة حرارة تحت الصفر كانت هناك نساء اخريات يرتدين الفراء ويركبن السيارات الفارهة .

وكنت اقيم حفلا مفتوحا مساء كل يوم جمعة . وكنت اتوقع أن يأتي الناس لتناول الشاي والكعك . وغالبا ما كان اليهود وغير اليهود من السفارات الأخرى يأتون ، أو رجال الأعمال اليهود (كتجار الفراء من الولايات المتحدة) ، اما الروس فلم يأت منهم احد ابدا ، بل ولا يهودي روسي واحد .

واستبد بي التوتر قبل ذهابي لتقديم اوراق اعتمادي الى نائب رئيس الاتحاد السوفيتي ، حيث ان رئيسه ميخائيل شفيرنيك لم يكن موجودا في البلاد . وهدأت ايجا من روعي ، واقنعتني بارتداء اقراطها .

وما ان انتهت المراسم حتى ابلغت زملائي ان بوسعنا الآن أن نقابل اليهود الروس . ترى ما هو حالهم تحت حكم ونظام اعلن الحرب على كل الاديان عامة والدين اليهودي بشكل خاص ، واعتبر الصهيونية جريمة تستحق العقاب . ورغم ان اللغة العبرية كانت محظورة ، فإن اللغة الييديش كان مسموحا بها ، بل كان هناك للمتحدثين بالييديش استقلال ذاتي في بيروبيدجان ؛ على الحدود الصينية . لكن الحكومة رفضت اعادة فتح المدارس والصحف الييديش بعد الحرب العالمية الثانية . وقد صاحب وصولنا مولد الحملة الحكومية

المعادية للسامية . والتي تطورت فيما بعد الى اضطهاد اليهود المثقفين واتهامهم بالامبريالية ٠

وفي يوم السبت التالي لتقديم اوراق الاعتماد ، ذهبنا جميعا الى المعبد الكبير (أما المعبدان الآخران فكانا مجرد مبان خشبية) ٠ وهناك وجدنا ١٠٠ أو ١٥٠ من اليهود الطاعنين في السن : وفي نهاية الصلاة تلى الحاخام دعوات لرؤساء الدولة ، ولى ٠ وكنت اجلس في غرفة النساء (في المعابد يجلس الرجال والنساء منفصلين) ٠ ثم تبادلت الحديث مع الحاخام لعدة دقائق ٠

وبعد ذلك بعدة اسابيع اقتربت « روش هاشانا » رأس السنة العبرية ٠ وقيل لى أن يهودا كثيرين يذهبون الى المعبد في هذه المناسبة ٠ وقبل أن يحل موعدها بعدة أيام ظهرت جريدة البرافدا وفيها مقال كتبه ايليا اهرنبورج ـ الصحفى والداعية السوفيتي ، وهو يهودي ـ قال فيه انه لولا ستالين لما ظهر شيء اسمه الدولة اليهودية ، واضاف انه يجب أن يكون مفهوما أن دولة اسرائيل لا علاقة لها بيهود الاتحاد السوفيتي ، فهنا في روسيا لا توجد لهم مشكلة يهودية ، أما هناك في الدول الرأسمالية فمجال عملها حيث معاداة السامية وغيره ٠ وهكذا فهم يهود الاتحاد السوفيتي يومها ان المقصود من هذه المقالة تحذيرهم من الاتصال بنا ٠

ومع ذلك ذهبت وكل اعضاء البعثة الى المعبد يوم الاحتفال ففوجئنا بوجود ما يقارب ٥٠,٠٠٠ يهودي وقد احتشدوا في الشارع ، ثم حملوني حتى المدخل ٠ وفي غرفة النساء كانت النسوة يأتين ليتحسسن ردائى أو يقبلنه ٠ وهكذا اثبت يهود الاتحاد السوفيتي رغبتهم في المساهمة في معجزة انشاء دولة اسرائيل ، وكنت انا رمز هذه الدولة ٠ وانتهت الصلاة وبصعوبة بالغة شققت طريقي وسط هذا البحر من

البشر . ولم اتمالك نفسي من التعجب ، كيف يقول أهرنبورج انه ليس في روسيا ما يسمى بالشعب اليهودي أو ان اسرائيل لا تعني شيئا ليهود روسيا ؟!

ورغم ان ركوب المواصلات محظور عندنا يوم السبت وفي الاعياد ، فقد دفعني بعضهم الى سيارة اجرة شقت طريقها بصعوبة وسط الحشود الهاتفة . وعدنا الى الفندق جميعا ، وبقينا ساعات لا نتبادل كلمة واحدة يلفنا مزيج من العواطف والاحاسيس . ولم اكن اتصور انني سأقابل كثيرا من الذين رأيتهم في روسيا بعد عشرين عاما في اسرائيل . لكنني على يقين أن روسيا بكل قوتها فشلت في تحطيم روح اليهود .. والذين بقوا يهودا .

وبعد عشرة أيام على مرور رأس السنة ، حل يوم الغفران « يوم كيبور » . ومرة ثانية توجهت الى المعبد ، لكنني بقيت هذه المرة طوال اليوم مع اليهود . وعندما اختتم الحاخام الصلاة بقوله « الى اللقاء العام القادم في القدس » تمتمت بصلاة خاصة دعوت فيها بأن يسمح الله لليهود الروس بالهجرة الينا سريعا . ومع ذلك فإنني لم اكن اتصور ان ذلك سيحدث خلال حياتى .

واتيح لى بعد ذلك ان اقابل أهرنبورج في حفلة عيد الاستقلال في السفارة التشيكية . وقدمه الى احد المراسلين الاجانب ، فوجدته ـ كالعادة ـ يترنح من أثر الخمر ، وعدوانيا منذ البداية . وبدأ حديثه باللغة الروسية فأجبته بأنني لا استطيع التحدث بالروسية ، فقال لى « انني اكره اليهود من مواليد روسيا الذين يتكلمون بالانجليزية » فرددت عليه بقولى « انا آسفة لليهود الذين لا يتكلمون العبرية أو على الأقل اليديش » .

ودعينا لحضور ذكرى الثورة الروسية ، حيث صافحنا مولوتوف وزير الخارجية ، وزوجته ايفي مولوتوف ، التي انتحت بي جانبا وتبادلنا حديثا وديا للغاية فاجأتنى خلاله بابلاغي انها يهودية ، بل وتحدثت معي بالييديش • وتطرق بنا الحديث الى موضوع النقب ، التي كان النقاش يدور حولها آنئذ في الأمم المتحدة • وعندما ابلغتها ان ابنتي سارة كانت تعيش فيها ، طلبت مني ايفي أن اقدمها اليها حيث تبادلت حديثا مطولا معها عن الحياة في الكيبوتز • ودهشت ايفي عندما سمعت عن الحياة الجماعية في رفيفيم قالت لسارة « ان الناس يكرهون المشاركة في كل شيء حتى ستالين يكره ذلك • ويجب أن تقرئى كتابات ستالين حول هذا الموضوع » •

ولم ار ايفي مولوتوف بعد ذلك اطلاقا • لكنني بعد عدة سنوات اجتمعت مع مراسل اليونايتد برس المخضرم في موسكو ، هنري شابيرو ، الذي أبلغنى ان ايفي قد اعتقلت بعد محادثتها معنا • وعادت الى ذاكرتي صورة الاحتفال في ذلك اليوم ، صباحا ، عندما كنا نشاهد العرض العسكري ، وتملكني الحسد للسوفييت على كل هذه الاسلحة التي لا نملك جزءا منها • وكأنما قرأ مولوتوف ما يدور بذهني فالتفت الى ، رافعا نخبه ، قائلا « لا تظنني اننا حصلنا على ذلك كله في يوم واحد • وسيحين الوقت الذي تمتلكون انتم ايضا فيه مثل هذه الأشياء » •

وبدا في يناير (كانون الثاني ' ١٩٤٩ ان يهود الاتحاد السوفيتي سوف يدفعون ثمنا غاليا لما اظهروه من تقرب لاسرائيل والاسرائيليين ، بغض النظر عن مدى ايمان أى شخص بالخط الشيوعي والتزامه به •• فقد اعتبروا « خونة » للمبادىء الشيوعية • وهكذا لم تبق ، خلال

خمسة اشهر ، منظمة يهودية واحدة في روسيا . وهكذا تم اقصاء اليهود عنها .

واخذت اقوم بزيارات المجاملة لرؤساء البعثات الأخرى . وأخيرا منحنا مقرا في ڤيلا تتكون من دورين وبها ساحة واسعة تضم عدة مبان تصلح للسكن . وهكذا ذهبت ايجا الى ستوكهولم فاشترت كل الاثاث اللازم بالاسعار التي كنا نستطيع دفعها ؛ كما اشترت لنا ملابس ثقيلة ومأكولات محفوظة .

وقمت بزيارتين لاسرائيل خلال الأشهر السبعة التي قضيتها في موسكو . وكنت في كل مرة أشعر كأني اهبط من كوكب آخر .. بارد تملؤه الشكوك والعداوة . وفي الزيارة الأولى ـ والتي كانت بعد الانتخابات التي جرت في يناير (كانون الثاني ' ١٩٤٩ ـ طلب مني بن جوريون ان انضم الى الحكومة كوزيرة للعمل . وكان حزب الماباى ، اكبر احزاب اسرائيل ، قد فاز بأغلبية ٣٥ ٪ من الأصوات (وتلاه منافسه المابام الذي حصل على ٢٠ ٪ ' . وتشكلت أول حكومة من ائتلاف ضم الجبهة الدينية المتحدة ، والحزب التقدمي (ويتكون في غالبيته من اصحاب المهن من الطبقة المتوسطة الذين يوجههم الماباى لكنهم ينكرون أى انتماء حزبي) والسفارديم (وهو حزب صغير يمثل مصالح من يسمون باليهود الشرقيين)

وعارضت الكتلة الدينية في بادىء الأمر وجود امرأة وزيرة ، لكنها قبلت الحجة التي تقول ان اسرائيل القديمة كانت فيها قاضية هي ديبورا ، وهو مركز يعادل ان لم يكن اهم بكثير من عضوية الوزارة . وتجددت معارضة الكتلة الدينية في الخمسينيات عندما عرض على منصب عمدة تل أبيب . وغمرتني الفرحة باقتراح بن جوريون ،

فأخيرا سأكون حيث اريد وسأعمل ما احبه وما اشعر انى مؤهلة له ٠ صحيح ان احدا لم يكن يعرف اختصاصات وزارة العمل على وجه التحديد . لكن ما اسعدني فيها انها ستعالج موضوع تشغيل واسكان آلاف المهاجرين الوافدين ٠ وبدون ادنى تردد . ابلغت بن جوريون موافقتى ٠ ولا شك ان السنوات السبع التي قضيتها في وزارة العمل كانت اسعد ايام حياتي ٠

وعدت الى موسكو قبل تسلم عملى . وشعرت بالذنب لأني سأترك زملائي وسارة وزكريا في موسكو ٠ وبدأت حفلات الوداع لمن تعرفت عليهم . وخاصة من المسئولين السوفيت الذين تعودنا ألا نسمع منهم ردا ايجابيا - أو رداً بالمرة - على ما نقدمه من طلبات او استفسارات وتمنيت ان اودع يهود روسيا . بل أن أقول لهم الى اللقاء ؛ لكن احدا منم لم يعد يأتي الى البعثة أو الى المعبد ٠

وعدت الى اسرائيل في ٢٠ ابريل (نيسان) ١٩٤٩ ٠ كانت اسرائيل آنئذ تمر بفترة عصيبة ٠٠ اذ كانت حرب الاستقلال قد انتهت (عند هذا الحد) وتم توقيع اتفاقيات الهدنة - وهي ليست معاهدات سلام - مع كل من مصر ولبنان والاردن وسوريا ولم يكن معنى ذلك ان العرب قد اقلعوا عن فكرة الحرب . اذ انهم استبدلوا الحرب العسكرية بالحرب الاقتصادية . فأصبحوا يقاطعون كل المؤسسات والافراد الذين يتعاملون مع اسرائيل . واغلقوا في وجهها الملاحة في قناة السويس ٠

ولم تتوقف الحرب وقتل اليهود ٠ فقد استمرت اعمال التسلل وقيام العصابات العربية بحرق المزارع ونهب الماشية ٠ وكان حريا بنا ان نرد على هذه الهجمات او ننتقم منها . لولا ان شغلنا الشاغل جميعا كان ايجاد الطعام والمسكن والعمل لـ ٦٨٤,٢٠١ من اليهود الذين تدفقوا

على البلاد فيما بين ١٤ مايو (آيار / ١٩٤٨ ونهاية عام ١٩٥١ · واكتفينا في مواجهة هذه الهجمات بتقديم الشكاوى الى الأمم المتحدة لعلها تفعل شيئا بصددها ·

ولم يكن هذا الفيضان من البشر يشبه ايا من الموجات السابقة للهجرة ··· فلاهم اقوياء البنية ·· مصممون ·· كالمهاجرين الذين جئت بينهم انا وشينا · ولاهم من اصحاب الحرف والتجار الذين ساهموا في ازدهار البلد فور وصولهم في الثلاثينيات · كانوا معدمين بالمرة · فيهود اوروبا اصابتهم محن شديدة ، ويهود الشرق الاوسط وشمال افريقيا لم يكن لديهم أى قدر من التعليم ·· ومرضى · كانوا باختصار فيضانا من اليهود جاءوا من كل اطراف الأرض يتحدثون لغات مختلفة ، ولا يعرف احدهم شيئا عن الآخر · ولم يكن هناك ما يجمع بينهم سوى انهم يهود ·

جاء اليهود بعشرات الآلاف من كل بلاد اوروبا الشرقية وبعض الدول العربية ، لكن ابرز هذه الهجرات كانت محمولة على الجسر الجوى الذي نقل اليهود اليمنيين · وليس معروفا كيف ذهب اليهود الى اليمن ، هل مع الملك سليمان أم مع القوات الرومانية في بداية العصر المسيحي المهم انهم عاشوا في اليمن فقراء معدمين ، لكنهم كانوا على قدر من التعليم ، اذ كانوا يعلمون اطفالهم العبرية ·· ويدرسون التوراة · لكنهم اصبحوا سادة الحرف الدقيقة كالصياغة والمجوهرات والفضة ، ومازال الانسان يرى ، ويشترى منهم في اسرائيل حتى الآن مشغولاتهم النادرة من الذهب والفضة ·

وكنت عندما جئت الى فلسطين عام ١٩٢١ قد وجدت يهودا يمنيين جاءوا الى فلسطين عندما علموا بعودة النشاط الاستيطاني في فلسطين ،

من موشي يافنيلي الذي حمل اليهم هذه الاخبار في اليمن عام ١٩٠٨ · وكانت اعداد منهم قد فرت الى عدن ومن هناك جاءت الى فلسطين · وبعد التصويت على التقسيم في الأمم المتحدة ، حدثت اضطرابات عربية واسعة النطاق في عدن وهكذا هرع الكثير من اليهود الى معسكرات الاستقبال التي اقامتها لهم لجنة التوزيع المشتركة في عدن وزودتها بالاطباء ، بعد أن قطعوا الصحاري والفيافي · ونظرا لاغلاق قناة السويس أمام الملاحة الاسرائيلية ، فلم يكن هناك سوى الجو ·· واصبحت الطائرات تنقل ما بين ٦٠٠،٥٠٠ يهودي يمني كل يوم في نطاق العملية التي اسميت « عملية البساط السحري » · واستمر هذا الجسر حتى نهاية ١٩٤٩ ، حيث تم نقل ٤٨،٠٠٠ يهودى يمنى الى اسرائيل ·

وفي يوليو (تموز) ١٩٥٠ اصدر الكنيست قانون العودة الدي يعطي الحق لكل اليهود في الهجرة ويمنح الجنسية الاسرائيلية بشكل آلى الى كل المهاجرين · وعندما رجعت الى اسرائيل ، كان هناك ٢٠٠،٠٠٠ يعيشون في الخيام ، وتضم كل خيمة عائلتين قد لا تكونان قط من نفس البلد بل من قارات مختلفة · ومن المؤكد ان الموقف كان قد تغير لو اننا اولينا هؤلاء المهاجرين رعاية افضل ووفرنا لهم سبل العمل والعيش بسرعة ؛ على اية حال استطاع اطباؤنا القضاء على كل الأمراض التي جلبها المهاجرون معهم ، اما الاسكان فقد بدا في عام ١٩٤٩ مشكلة غير قابلة للحل ·

وكانت مواجهة هذه المشاكل امرا لا مفر منه ، مع وجودنا في حالة حرب مع جيراننا واضطرارنا الى رصد ميزانية عالية للدفاع · ولم يكن هناك من مخرج سوى التقشف وشد الأحزمة على البطون · وهكذا جعلنا كل شيء خاضعا لنظام البطاقات وكان حريا بالإسرائيليين

الذين انهكتهم الحرب أن يثوروا على ما يطلب منهم ، لكنهم لم يفعلوا ذلك . اما بالنسبة لي فقد حددت اولوياتي على أساس الاسكان والعمل ولم أكن اقبل أي تفسيرات يقدمها لي الخبراء عن خطورة نوع الاسكان الذي اقترحه على الاقتصاد وماقد يحدثه من تضخم . وبقيت على موقفي من حيث أن اسكان هؤلاء المهاجرين دعامة لمستقبل اسرائيل .

وبعد عودتي من موسكو بقليل ، عرضت على الكينست خطة لانشاء ٣٠,٠٠٠ وحدة سكنية فوافق عليها . ولم اجد امامي بدا من أن اتوجه الى الولايات المتحدة لكي اطلب من اليهود الأمريكيين العون لا « لكسب حرب » بل « للحفاظ على حياة » . وقلت لهم انني حصلت على موافقة الكنيست على المشروع لكني لا أملك نقودا ! ، وانني بذلك كمن يضع توقيعا مزيفا على شيك ، لقد ارتكبت جريمة . وتركت لهم الخيار ، فإما ان يدعو هؤلاء الناس في الخيام ويرسلو اليهم لفافات الطعام ، أو أن يساعدوهم على بناء منازلهم ورد كرامتهم واعتبارهم .

ولم نتمكن من الوفاء بالتزاماتنا في بناء الوحدات السكنية ، ففي اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٥٠ لم نكن قد انتهينا الا من بناء ثلث هذه الوحدات ، فضلا عن اخطاء التخطيط واختيار المواقع .واستخدمنا كل أنواع المأوي من الخيام الى الاكشاك المعدنية الى الاكشاك المصنوعة من القماش ، لكن المهم ان الجميع كانوا يجدون مكانا ينامون فيه . وتحتم علينا أن نغير من طبيعة هذه المعسكرات المؤقتة للاجئين الجدد ، لتصبح قرى للعمل تقع في ضواحي المدن لتتيح الفرصة لايجاد ايد عاملة . لكننا لم نستطع بالطبع ان نفرض ضرائب على اناس لا يملكون شروى نقير .

وسميت هذه المعسكرات الجديدة بالعبرية « معابروت » (معابر) ، وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥١ كنا قد استطعنا

بناء ١١٢ معابروت تأوي ٢٢٧,٠٠٠ مهاجر · وكان كل همنا الا نخلق طبقتين من الاسرائيليين ، احداهما تضم قدماء الموجودين من قبل ، والأخرى تضم المهاجرين الجدد في معابرهم الكئيبة · وحرصنا على أن يحصل هؤلاء المهاجرون على مقابل مادي لعملهم · ولم اجد الا طريقة واحدة لتحقيق ذلك هي القيام ببرنامج للاشغال العامة · ولم يكن ذلك بالامر اليسير ، فجميع المهاجرين من اليهود الشرقيين كانوا لا يملكون اية مهارات أو حرف فنية وكنا نخشى أن يتعودوا على العيش على المعونات · وهكذا بدأنا برنامجا لتدريبهم ، مع برنامج لانشاء الطرق في كل انحاء البلد ·

لكن المشكلة الملحة التي كانت ـ وما زالت ـ تشغل اذهاننا جميعا هي كيفية صهر هذا الشعب الذي اختلفت طبائع افراده · ورغم معارضة زملائي في مشروع شبكة الطرق ، فقد كنت اراها الحل الوحيد ، حيث كنا نجلب احد العمال المهرة ونوكل اليه رئاسة فريق من عشرة أفراد ، ثم نتركه يحل مشاكل الافراد العشرة الذين يتحدثون عشر لغات · وكنت اعتمد كلية على كرم يهود العالم الذين استجابوا باستمرار لمطالبنا المتكررة ·

وبدأت الهجرة من الخارج تتضاءل ، الى معدل ١٠٠٠ مهاجر كل يوم ، وعندئذ شرعنا في نقل المهاجرين من المعابر الى قرى الحدود ومناطق التنمية ، مع التركيز على الفلاحة والعمل الزراعي وتزويد المهاجرين بلوازم الفلاحة والمواشي · لكن الحياة في هذه القرى وصلت الى حد الاستحالة بالنسبة لساكنيها الذين اختلفت طبائعهم كلية ؛ بل ان البعض منهم هاجر الى المدن وعاشوا في العشش والاحياء الفقيرة ·

أما المصاعب الحقيقية فكانت مع اليهود اليمنيين الذي كانوا ـ كما قيل لي دائما ـ لا يستطيعون العيش في المساكن التي نبنيها لهم ، فهم

لا يعرفون شيئا عن الحمام أو المطبخ أو الدش · ومع ذلك فقد اتيحت لهم هذه الأمور . لكننا بقينا دائما في حاجة الى المال لاتمام واجباتنا · وفكرت في أن اقوم بجولة اخرى لجمع التبرعات ، لكن حجم هذه التبرعات كان قد بدأ يضمحل · وكنت اخشى من أن يفتر حماس اليهود للتبرع ، او ان نبقى معتمدين كلية على هذه الهبات والمنح من الاموال · وهكذا بدأت أفكر في مصادر اخرى للتمويل تجعل اليهود شركاء في « المشروع الصهيوني » وفي « تجميع المنفيين » · وكنت اتبادل الرسائل والبرقيات مع هنري مونتور ، بل واتحدث معه ومع اليعازر كابلان (أول وزير مالية في اسرائيل) حول نوع جديد من النشاط الاقتصادي في صورة اصدار سندات ·

وقد طرحت فكرة سندات اسرائيل علنا لاول مرة خلال مؤتمر كان بن جوريون قد دعا اليه في القدس قادة الجماعات اليهوذية في الولايات المتحدة · وأثيرت عدة استفسارات . الن تتعارض السندات مع النداء اليهودي الموحد ؟ ماذا لو رفضتها الحكومة الأمريكية ؟ لكن الله ساق للسندات مدافعا اقوى منا جميعا هو هنري مورجنتاو ، وزير الخزانة الأمريكي الاسبق ، والذي كان رئيسا للنداء اليهودي الموحد · لقد فهم هذا الرجل جوهر السندات واقتنع بها ، بل واقتنع بها الرئيس ترومان في البيت الابيض · وعلى اثر ذلك انعقد مؤتمر آخر ، في واشنطون هذه المرة ، وكلفت انا بالعمل على اقناع المعارضين وتحويل شكوكهم في المشروع الى دعم ومساندة له ·

ولم أضيع وقتا في صياغة العبارات ، وطرحت الأمر بكل وضوح ، نحن في اسرائيل محتاجون ، لكي نحيا ونزدهر ، الى مبلغ بليون ونصف بليون دولار خلال السنوات الثلاث المقبلة · ومطلوب من يهود

العالم جمع هذا المبلغ بالطرق المختلفة ، ومن بينها السندات . صحيح اننا نريد النداء اليهودي الموحد قويا ، وعن طريقه تأتينا الهبات ، لكننا في حاجة الى رأسمال استثماري ندفع مقابله فوائد . اقرضونا اموالكم واستردوها مع الفائدة . وليس هناك من ضمان اقدمه لكم سوى مئات الالاف من اليهود وابنائهم من كل انحاء العالم ، وهم يلتزمون برد هذا الدين اليكم مع فوائده .

وانطلقت أول حملة لبيع السندات في مايو (آيار) ١٩٥١ ، ومن يومها وحتى الآن تم جمع ثلاثة بلايين من الدولارات مقابل بيع هذه السندات ، وتم تسديد بليون دولار منها . وقد ساهمت هذه السندات ، التي تدفقت على اسرائيل في صورة ميزانية للتنمية ، في ارساء دعائم الاقتصاد القومي للدولة .

وتلقيت ذات يوم من أيام جولتي لجمع التبرعات في عام ١٩٥١ ، تلقيت برقية تبلغني أن موريس قد مات . وعدت الى اسرائيل على الفور لكي اشارك في تشييع جنازته ، والأفكار المتلاطمة تملأ رأسي حول شكل الحياة التي كان يمكن أن اعيشها معه لو اختلفت الأمور عما هي عليه . لم أكن مستعدة للحديث حتى مع أهلي عنه ، بل ولا للكتابة عنه الان ، وليس لدي ما أقوله سوى انني عندما وقفت الى جوار قبره ، ادركت أخيرا مدى فداحة الثمن الذي دفعته ـ وجعلت موريس يدفعه ـ في مقابل كل ما فعلته وانجزته خلال سنوات انفصالنا الطويل عن بعضنا .

كذلك كانت هناك انباء حمل سارة وولادة طفلتها ، ثم اشتداد المرض عليها . واذكر جيدا مدى لهفتي انا وزكريا عليها ، واسراعي الى ريفيفيم لكي اعودها في مرضها اثناء حملها للمرة الثانية ، والرغبة التي

تستبد بي ان اعود بها الى القدس لكي اعتني بها بنفسي · واخيرا ، وحتى لا تفشل مهمتي ، قررت ان اتركها تعيش حياتها كما تشاء ، دون أن تسيطر على مخاوفي وقلقي ·

وكانت الشقة التي عشت فيها في القدس ، من أمتع فترات حياتي خلال عملي كوزيرة للعمل · ولم أكن اهتم بالمنزل في حد ذاته قدر اهتمامي بأن يكون المكان نظيفا ، مرتبا ، ومقبولا · وقد سكنت في عدة منازل منذ قيام الدولة ، كان آخرها ذلك المنزل في تل أبيب الذي يجاور منزل ابني مناحيم وزوجته ايا وابناءهما الثلاثة ، والطاهية ديزي التي كانت تحبني اكثر مما أحببتها · ولهذه الشقة في القدس قصة ·

ففي نهاية عام ١٩٤٩ اصدر بن جوريون قرارا ـ يتفق مع طبيعته ـ يقضي بنقل مكاتب الحكومة من تل أبيب الى القدس · وفي القدس اقسم وايزمان القسم عند تولية رئاسه الدولة ؛ لكن احدا في العالم لا يدرك مدى ارتباط اليهود بالقدس ، مثلما يدرك اليهود ـ ارتباطهم بمدينة داود · وكانت لجنة بيل ولجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين قد اوصتا بألا تضم القدس الى أي من الدولتين العربية أو اليهودية · وقررت الجمعية العامة للأمم المتحدة تدويل القدس وادارتها بواسطة مجلس خاص وحاكم خاص ، على أن تتولى حراستها قوة من الشرطة الدولية ؛ بقصد حماية الأماكن المقدسة فيها واستتباب « النظام والسلام » فيها الى الأبد · وقد رفض العرب بالطبع فكرة التدويل بل والتقسيم ككل · اما نحن فقد قبلنا ذلك على أمل أن تنفذ الأمم المتحدة وعدها باجراء استفتاء بعد عشرة اعوام « يؤدي الى تعديلات معينة » ؛ مؤمنين بأن القدس في النهاية سوف تكون لنا خاصة وأن تعداد سكانها اليهود كان ١٠٠,٠٠٠ في مقابل ٦٥,٠٠٠ عربي فقط ·

لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، ووقعت القدس - التي احتلها الفيلق العربي - تحت مرمى النيران العربية · ومنع اليهود من الصلاة في معبد القدس ومن البكاء عند حائط المبكى · ولم نجد أحدا يدافع عن حقوقنا في أماكننا المقدسة ، فلم يكن هناك بد من أن نمسك نحن بزمام الموقف ، دون أن ننتظر الاستفتاء ، بعد أن فرضت الحرب علينا ·

ومع أن الامم المتحدة اصدرت قرارا في ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٩ بتدويل القدس على الفور ، فإن الشجاعة واتت بن جوريون ليقرر نقل الحكومة اليها قبل أن يتم تنفيذ هذا القرار · وقد ارتفعت اصوات داخل اسرائيل نفسها تحذر من مغبة هذا العمل ، وبقيت البعثات الدبلوماسية الاجنبية (وبالتالي وزارة الخارجية) في تل أبيب · اما وزارة العمل ، وغيرها من الوزارات ، فقد انتقلت الى القدس ، العاصمة ·

ولم أكن على استعداد لأن اعيش في القدس في فندق ، فطلبت من زملائى أن يجدوا لى ولو غرفة واحدة مستقلة اعيش فيها · واخيرا عثرت على هذه الغرفة فوق سطح احد المنازل (من دورين) في حي الطالبية ، كانت القيادة البريطانية تستخدمه من قبل · وكان المنزل يحمل اسم ڤيلا هارون الرشيد !! وقررت على الفور الانتقال الى هذه الغرفة الى أن يتم بناء شقة فوق هذا السطح · واعترض الجميع ، فالغرفة صغيرة جدا بالنسبة للوزيرة ، وهي قريبة جدا من الحدود · وان هى الا شهور حتى انتهى بناء الشقة الجميلة ، التي كنت احتمل كل متاعب النهار من أجل أن اعود اليها فأستلقي في شرفتها لامتع عينى بجمال القدس وهى تفترش التلال المنبسطة امامي ، واقضى الساعات الطوال والسعادة تلفني · وقد عقد مناحيم وايا قرانهما فيما بعد في هذه الشقة واصبحت جزءا من تاريخ العائلة ·

ولا شك انني كنت محظوظة طوال عمري · فلقد شاركت في كل ما حدث ، بل ولعبت وزارتي دورا حاسما في بناء الدولة · ولو انني احصيت المنجزات التي تمت ، لكان أولها هو التشريعات التي صدرت بناء على اقتراحات وزارة العمل ؛ والتي جسدت المساواة الإجتماعية بحق · وكنت أنا أول من قدم الى الكنيست في يناير (كانون الثاني) ١٩٥٢ مشروع قانون التأمين الوطني ، الذي مهد لصدور قانون التأمين الوطني ووضعه موضع التنفيذ · كذلك كانت مراكز التدريب المهني التي استطعنا من خلالها تغيير طبيعة الناس وتعليمهم الحرف والمهن ·· وهناك ايضا تلك القرى الصغيرة التي انتشرت في كل انحاء البلاد ، واستطاع بعضها أن ينمو مثل كيريات شمونة في اقصى الشمال في الجليل الأعلى ، التي ارتبطت بها مشاعري منذ ١٩٤٩ ·

وقد بدأت كيريات شمونة كمعبر يضم أكواخا من الصفيح في موقع منعزل بعيد لا تجاوره الا عدة كيبوتزات ثم مستنقع وادي الحولة الذي كانت الحكومة قد شرعت في استصلاحه ، وقررت انشاء مركز سكني فيه ويمكننا على الخرائط والبيانات ان نضع كل التفاصيل اللازمة لكل شيء للمباني ·· للمنازل ·· بل ولحمام سباحة · لكننا لم نعمل حسابا لرد فعل المهاجرين الجدد الذين كانوا ينقلون الى هذا المكان مباشرة فور وصولهم · فلا اليهود الغربيون اعجبهم المكان المنعزل ، ولا اليهود الشرقيون راق لهم المكان واعتبروه تكريسا لكونهم مواطنين من الدرجة الثانية · واستمرت دورات الهجرة في كيريات شمونة ، حتى بعد أن اصبحت تلك المدينة المأهولة التي رفض سكانها مغادرتها بعد حرب الأيام الستة اصبحت هدفا مفضلا لصواريخ الارهابيين العرب ، بل وحتى بعد أن دخلها الارهابيون وقتلوا بعضا من أهلها · · ·

وقد يدهش بعض الناقدين لاسرائيل ، اذا قلت لهم اننا وجهنا

اهتماما مماثلا للبناء من أجل اسكان العرب · صحيح اننا قد استخدمنا منازل العرب الذين فروا عام ١٩٤٨ في اسكان المهاجرين الجدد ، لكنني اسأل : هل هناك استعمال آخر غير ذلك لهذه المنازل التي بقيت تحت ادارة وصي خاص · وقد اضطررنا ازاء الاحتجاج على اسلوب ادارتنا لاملاك الغائبين ، الى اصدار قانون حيازة الإرض عام ١٩٥٣ ، واعدنا بموجبه ثلثي هذه الأراضي الى اصحابها دون ان نطالبهم ولو بحلف اليمين على صحة مطالبهم ·

وان الدماء لتغلى في عروقي كلما سمعت ما يقال عن القسوة التي عاملنا بها العرب · واذكر جيدا انني وقفت في شهر ابريل (نيسان) ١٩٤٨ على شاطىء حيفا اناشد العرب الا يرحلوا عنها · وكانت الهاجاناة قد احتلتها ، ونصح القادة العرب اتباعهم بمغادرتها · ولم تفلح مساعي الهاجاناة في اقناع العرب بالبقاء رغم استخدام مكبرات الصوت على العربات التي جابت انحاء المدينة تردد باستمرار « لا تخافوا » ·

وهناك ادعاء آخر بأن هناك ملايين من اللاجئين الفلسطينيين ··وهذا ادعاء غير أمين ·· فمجموعهم لا يزيد على ٥٩٠,٠٠٠ لاجىء · ولم نكن نريد رحيلهم أولا لنثبت لهم أن حياة اليهود والعرب سويا امر ممكن ،وثانيا لكي لا نحدث هزة اقتصادية خطيرة في البلد · لقدوجد « اللاجئون الفلسطينيون » (كنتيجة) لرغبة العرب ومحاولاتهم لتدمير اسرائيل ؛ ولم يوجدوا (بسبب) اسرائيل ·

وفي عام ١٩٥٥ · كان موعد الانتخابات قد حان ، واراد الماباي تعيين عمدة عمالى لتل أبيب ؛ وقرر الحزب ترشيحي لهذا المنصب رغم انني كنت افضل البقاء في الوزارة · وغضب منى بن جوريون عندما

ناقشته حول هذا الترشيح ، لكنني والحمد لله لم أنجح اذا رفض احد اعضاء المجلس ، وهو من الكتلة الدينية ، ان يعطي صوته لامرأة ، فبقيت وزيرة للعمل .

وقد استغلت الكتلة الدينية كوني أمرأة لتحجب عني هذا المنصب ، وكأنهم نسوا ان جميع مستوطنات اسرائيل ضمت منذ يومها الاول نساء ، بل وان ممثلى هذه الكتلة يجلسون في الكنيست الى جوار النساء . وصرحت علنا ، دون أن اخفي معنى الكلمات ، بأن ما حدث من الكتلة الدينية ما هو الا تكتيك سياسي انظر اليه بكل احتقار .

وبقيت المسألة الدينية مثار المتاعب طوال الخمسينيات ، وكأن ما لدينا من المشاكل لم يكن كافيا . وكانت تلك المسألة تحدث فرقعات بين الحين والآخر تتلوها ازمات وزارية . ويكفي اننا لم نجد حتى الآن تحديدا واضحا لموقع الدين في الدولة اليهودية . لقد اوقعتنا هذه المسألة في ورطات كثيرة ، ومازالت حتى اليوم .

وفي عام ١٩٥٦ ، كانت لدى بن جوريون مشاريع جديدة تتعلق بي .

الفصل العاشر

الحق في الوجود

قبل أن امضى في سرد هذه المشاريع ، لابد ان اذكر ان بن جوريون ـ خلال عملى كوزيرة ـ ابلغنا انه قرر الابتعاد عن الحياة العامة ، وانه سيلجأ الى مستعمرة سدى بوكر في النقب ليعود الى العمل الطلائعى مستصلحا الصحراء من جديد هناك • لكن الامر بدا مستحيلا ، فالدولة لم تتعد الخامسة من عمرها ، وتجميع المنفيين لم يتم بعد ، ومازال جيران اسرائيل في حالة حرب معها • ولم تفلح توسلاتنا في اقناعه بالعدول عن قراره • وهكذا استقال بن جوريون من رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع ، وحل محله في يناير (كانون الثانى) ١٩٥٤ موشى شاريت مع احتفاظه بوزارة الخارجية • وبقى بن جوريون في سدى بوكر حتى ١٩٥٥ عندما عاد وزيرا للدفاع ثم رئيسا للوزراء وعاد شاريت وزيرا للخارجية فقط •

ومع اننا كنا جميعا نحب شاريت اكثر مما نحب بن جوريون ، فاننا ـ بما فينا شاريت ـ لم نكن نجد سوى بن جوريون ملجأ نلوذ به بحثا عن النصيحة • واصبحت سدى بوكر بين عشية وضحاها واحدة من اشهر مناطق اسرائيل • وهكذا ظل بن جوريون ، برغم ابتعاده ، يضع يده فوق دفة الامور في الدولة • غير ان شاريت وبن جوريون لم يتفقا قط ، اذ كان الخلاف اساسا بين نوع

شخصيتيهما ، برغم زمالة الكفاح بينهما ، وبرغم ان كليهما كان اشتراكيا عتيدا وصهيونيا عتيدا ٠

كان بن جوريون يؤمن بالحركة ، وكان يرى ان المهم في النهاية هو ما يفعله الاسرائيليون وكيف يفعلونه ، وليس مهما ما يظنه العالم في الخارج أو يقوله عنهم ٠ وكان سؤاله لنا دائما عند عرض اى موضوع عليه : « هل سيخدم في المدى الطويل دولة اسرائيل ؟ » ٠ وكان يرى ان التاريخ سيحكم على اسرائيل بأعمالها لا بعدد المقالات المؤيدة لها في الصحافة العالمية ٠ وكان ينظر الى الرأى العام العالمى بل وحتى الرأى العام على أنها امور غير مهمة ٠

اما شاريت فكان يولى اهتماما بالغا للطريقة التى ينظر بها صانعو السياسة في الخارج الى اسرائيل ، وللاسلوب الذى يجعل اسرائيل « حسنة » في نظر وزراء الخارجية الاخرين والامم المتحدة ٠ وكان يرى ان المقياس الصحيح للامور هو الاحكام التى يصدرها المعاصرون لاسرائيل ، لا التاريخ ولا المؤرخون ٠ وكان يريد لصورة اسرائيل ان تبدو دولة اوروبية تقدمية ـ معتدلة ـ متحضرة ، لا يخجل من تصرفاتها لا هو ولا اى اسرائيلى آخر ٠

وكان من حسن الحظ ان الاثنين عملا معا حتى الخمسينيات ٠ فشاريت ولد دبلوماسيا ومفاوضا ، وبن جوريون ولد قائدا وطنيا ومقاتلا ٠ ولا شك في ان الحركة الصهيونية بشكل عام ، والحركة العمالية بشكل خاص ، قد افادتا بصورة هائلة من اجتماع مواهب الرجلين ، بل ومن اختلاف طبائعهما ومواقفهما ٠ ومع انهما لم يكونا صديقين فقد كان يكمل احدهما الآخر ٠ لكنه بعد قيام الدولة طفت الخلافات بينهما على السطح ، ثم اصبحت غير محتملة بعد عودة بن جوريون من سدى بوكر عام ١٩٥٥ ٠

وكانت احدى نقاط الخلاف بينهما هى مسألة الرد الانتقامى على غارات الارهابيين العرب • كان شاريت يحبذ القيام بضغط مكثف على القوى الكبرى لتضغط بدورها على العرب حتى يتوقفوا عن مد يد العون الى الارهابيين والمتسللين . اما الاعمال العسكرية الانتقامية فسوف تؤدى الى حملة من النقد يوجهها العالم الى اسرائيل . وتزيد من سوء موقفها • وكان محقا في تقديره . فما ان تقوم قوات اسرائيل بعمل انتقامى . يروح خلاله بالطبع بعض الضحايا الابرياء . حتى كانت الاعاصير ـ لا الحملات ـ تهب على اسرائيل . وتتم بقسوة ادانة اسرائيل « لاعمالها الوحشية » •

اما بن جوريون فكان يرى انه ليس مسئولا امام رجال الدولة الغربيين او العالم . بقدر ما هو مسئول امام المواطن الاسرائيلى العادى . وكان يرى ان المسئولية الاولى لاى حكومة في العالم هى حماية مواطنيها بغض النظر عن مدى سلبية رد الفعل الذى قد يحدث • وكان من رأيه ان هذا الخليط المتماسك من شعب اسرائيل يجب ان يتعلموا ان الحكومة . والحكومة فقط . هى المسئولة عن أمنهم وكان في مقدورنا ان نسمح بتشكيل جماعات للانتقام . نغض عنها النظر . ثم نتنصل من اية مسئولية عن « الحوادث » ؛ لكننا قررنا ان يكون ردنا بلا رحمة اذا ما تهددت ارواح الاطفال الاسرائيليين في قرى الحدود •

وشهد عام ١٩٥٥ بعضا من الغارات الانتقامية ردا على وضع الالغام ونصب الكمائن ضد قوافلنا ومواطنينا • وقدساعدت هذه الغارات على تعليم الاسرائيليين ان بوسعهم الاعتماد على قواتهم . لكنها للاسف ساعدت على توسيع شقة الخلاف بين بن جوريون وشاريت الذى مضى يبدى اعتراضه على بعض هذه الغارات •

وبعد قليل توقف بن جوريون عن مخاطبة شاريت بإسمه الاول

وبدأ يعامله كغريب . وشعر شاريت بجرح غائر . لكنه لم يصرح بذلك . وانما كان يقضى الساعات في منزله وهو يملأ صفحات مذكراته بتحليلات نارية غاضبة لشخصية بن جوريون . ثم احتاج حزب الماباى في عام ١٩٥٦ الى سكرتير عام له . فاذا بن جوريون يفاتحنى في شغل هذا المنصب . ويدعو عددا من رفاق الحزب الى منزله في القدس لبحث الموضوع . صحيح اننى لم اكن احب ان اتخلى عن الوزارة . لكننى كنت اشعر بالقلق على مستقبل الماباى (الذى خسر كثيرا في انتخابات ١٩٥٥) . وكنت ارى من الضرورى توسيع نطاق عضوية الماباى حتى يمكنه التغلب على التهديدات التى يواجهها سواء من اليسار المتطرف او اليمين المتطرف . شريطة ان تبذل قيادة الماباى جهدا اكبر .

وفجأة انبرى شاريت مازحاً . وهو يقول « ولماذا لا اكون انا سكرتيرا عاما للحزب ؟ » . وضحكنا جميعا . فيما عدا بن جوريون . الذى لم يكن قد سبق ان طلب من شاريت ترك الوزارة . لكن الفرصة لاحت امامه . ولم يكن بن جوريون بالرجل الذى تضيع منه مثل هذه الفرص . وعلى الفور قفز قائلا « رائع .. فكرة رائعة . وسوف تنقذ الماباى » . وبهتنا قليلا . ثم وجدنا بعد قليل ان الفكرة سوف تنقذ مجلس الوزراء من النقاش والخلاف الساخن بين الرجلين . وبعدها بيومين سألنى بن جوريون عن رأيى في فكرة تولية شاريت سكرتارية الماباى . فسألته « ومن سيكون وزيرا للخارجية » فأجابنى بهدوء « انت » . وكانت تلك هى ابعد الافكار عن ذهنى . فلم اكن اريد ترك وزارة العمل . ولم اكن احب ان استولى على منصب شاريت . لكن بن جوريون رفض الاستماع الى اعتراضى قائلا « الامر هكذا » . وبالفعل هكذا كان الامر .

وشعر شاريت بمرارة شديدة . ولعله كان يتخيل اننى لو رفضت عرض بن جوريون على قبول وزارة الخارجية ، لكان شاريت قد بقى فيها بالقطع · لكنه كان مخطئا . فقد كان التوتر بين شاريت وبن جوريون قد وصل الى ذروته · ولم يقتنع شاريت بالواقع الا عندما حذره صديقاه زالمان آران وبنحاس سابير من ان بن جوريون قد يتركنا ويتقاعد مرة اخرى · وهناك قول لليفى اشكول مؤداه « ان بن جوريون كرئيس للوزراء يساوى ثلاثة فرق عسكرية لاسرائيل » ، وهو قول اقره شاريت نفسه · وقد حاول بعض خصوم بن جوريون فيما بعد توجيه الاتهام اليه بأنه سعى للتخلص من شاريت حتى يمكنه التخطيط لحملة سيناء متحررا من مواقف شاريت التى قد لا تؤيدها ، لكننى شخصيا على يقين من انه لم يكن هناك مثل هذا (المخطط) · وانسحب شاريت من الحياة العامة بعض الوقت ، ثم اصبح رئيسا للوكالة اليهودية · وعندما انفجرت « قضية لافون » في عام ١٩٦٠ ، فان شاريت ـ الذى استبد به المرض الى ان قضى عليه في عام ١٩٦٥ ـ اصبح واحدا من اعلى الاصوات الناقدة لبن جوريون لرفضه ترك « القضية » تموت ميتة طبيعية ·

اما قصة لافون فتعود الى عام ١٩٥٤ عندما وقعت غلطة فادحة تتعلق بمهمة للتجسس في مصر (كانت خطأ كبيرا سواء في فكرتها او في تنفيذها) · وكان موشى شاريت آنئذ رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية ، اما وزير الدفاع فكان بنحاس لافون ، عضو الماباى البارز · وكان مشهورا بأنه من « الحمائم » الى ان بدأ يعمل في المجال العسكرى فانقلب الى اشرس « الصقور » ، وكنا جميعا نراه غير لائق لهذه المهمة · وحاولنا اقناع بن جوريون بالعدول عن اختياره خليفة له في وزارة الدفاع ، لكنه كالعادة اصر على موقفه ، لكن الرجل الجديد

لم يستطع ان يتمشى مع اثنين من اخلص تلاميذ بن جوريون . هما موشى ديان رئيس الاركان آنئذ وموشى بيريز مدير عام وزارة الدفاع . فهما لم يحباه ولم يثقا به . واعلنا موقفهما هذا بوضوح . وقابل لافون ذلك علنا بأنه لن يسير في ظل بن جوريون وانه سيضع بصماته الشخصية على العمل . وهكذا زرعت بذور المتاعب .

ولست في حل من ذكر التفاصيل الكاملة الان . ولا اريد ذلك . لكنه على اية حال . تم تشكيل لجنة للتحقيق في العملية . وكان لافون قد ادعى انه لا يعلم شيئا عن هذه العملية وان رئيس المخابرات هو الذى دبرها من وراء ظهره . ولم ينته التحقيق الى نتائج ملموسة . وان كان الاتجاه قد نحا الى تحميل لافون جزءا من المسئولية . وكان اجماعنا ـ رغم ان خطأ قد حدث ـ على ان نعتبر الموضوع منتهيا . واستقال لافون . واستدعى بن جوريون من سدى بوكر لتولى وزارة الدفاع .

وبعد ستة اعوام انفجرت القضية من جديد في شكل فضيحة سياسية هزت حزب الماباى . واحدثت ضجة في اسرائيل . فقد اعلن بنحاس لافون ان المحاكمة الاولية تضمنت شهادة زائفة ووثائق مزورة . وطالب بن جوريون بتبرئته علنا . ولم يكن بن جوريون قد اتهم لافون من قبل ولذا رفض تبرئته . وتم تشكيل لجنة لفحص سلوك الضباط الذين اتهمهم لافون . لكن الموضوع عرض على احدى اللجان الهامة في الكنيست . وتسرب بالتالى الى الصحافة .

وقد ادت هذه الفضيحة الى خلافي مع بن جوريون والى استقالته للمرة الثانية . وحاولنا جميعا تهدئة كل الاطراف . لكن بن جوريون كان مصراً على عدم توجيه اى طعن الى الجيش او وزارة الدفاع .. غير آبه بأن يضر الحزب او زملاءه . واخيرا وافق على اقتراح بتشكيل

لجنة تحقيق من سبعة وزراء ، على امل ان تؤيده اللجنة في تحقيقاتها ٠ واعلنت اللجنة في نتائج التحقيق ان لافون غير مسئول عن العملية ، وعليه يطوى الموضوع برمته ٠ وكان تعليق بن جوريون على ما انتهت اليه اللجنة ، ان ذلك يعنى وقوع المسئولية على المخابرات العسكرية ، واذا فلابد من تحقيق قضائى جديد ، ووصف اللجنة بأنها عار ٠ وفي يناير (كانون الثانى) ١٩٦١ استقال بن جوريون ، وتم تعيين ليفى اشكول رئيسا للوزارة بناء على اقتراح بن جوريون ٠ وبدلا من ان يطيع اشكول بن جوريون ، فانه اعلن رفضه لفكرة التحقيق القضائى ٠ وهنا وجه بن جوريون كل نيران غضبه نحو اشكول ورفاقه في الحزب ٠

ولا يمكننى ان اغفر لبن جوريون ملاحقته لاشكول او طريقته في معاملتنا او الحديث عنا جميعا ، بما فيهم انا ٠ وبدا وكأن السنين التى قضيناها سويا لم يعد لها حساب لدى بن جوريون ، وانقلبنا جميعا في نظره الى أعداء شخصيين له ٠ وقد بعث الى برسول خاص لدعوتى لحضور عيد ميلاده الثمانين (الذى استبعد اشكول من حضوره) في عام ١٩٦٩ ، لكننى لم استطع قبول الدعوة ٠ كان قد الحق بنا جميعا ضررا كبيرا لا يمكننى التغاضى عنه ٠ لقد قال عنا اننا اغبياء ، وليس ذنبا ان يولد المرء غبيا ، اما ان يقول أننا فاسدون ٠٠ فهذا اتهام خطير ٠ ولو انه وجهه الى قادة الاحزاب الاخرى لهان الامر ، اما انا واشكول فلم نكن كما وصفنا ٠

وعندما قدمت حكومتى الى الكنيست عام ١٩٦٩ ، امتنع بن جوريون عن التصويت ، وكان عندئذ منفصلا عن الماباى في حزب رافي (قائمة عمال اسرائيل) مع ديان وبيريز ٠ لكن ما بيننا انصلح قرب نهاية حياة بن جوريون ٠ ففى عيد ميلاده الخامس والثمانين ذهبت

الى سدى بوكر ، وبلا عتاب رسمى عدنا اصدقاء كما كنا . وقابل هو ذلك بالمجىء الى ريڤيڤيم عندما أقام لى الكيبوتز حفلا بمناسبة عيد ميلادى الخامس والسبعين عام ١٩٧٣ ٠ تلك هى باختصار قضية لافون التى شكلت واحدة من المراحل التى تنتظرنا في عام ١٩٥٦ . عندما اصبحت ثانى وزير للخارجية الاسرائيلية ٠

وكانت العادة ان تتم مراسم تسليم الوزارة بحضور الوزير السابق والوزير الجديد ، لكن شاريت ذهب بمفرده الى الوزارة وودع مديرى الدوائر ، ثم دعانى لمقابلة استمرت ثلاثة ايام قدم لى فيها تلخيصا لكل شىء ٠ وكعادته كان ملما بكل دقائق العمل بل والعاملين معه وعائلاتهم ٠ ثم ابلغنى انه لن يصحبنى الى الوزارة ٠ وهكذا توجهت وحدى الى الوزارة وانا اشعر بالتعاسة ـ بل وابدو تعيسة ـ لاننى لا اخلف فقط رجلا اسس هذه الوزارة ، وانما رأسها ايضا منذ ١٩٤٨ ٠

ولم تكن شهورى الاولى في وزارة الخارجية سعيدة ، فقد كنت مستجدة بين خبراء ٠ وكان كبار رجال الوزارة والسفراء من الذين تلقوا تعليما بريطانيا عاليا ، كان شاريت يعجب بهم ، لكننى لم أكن اعجب بهم ٠ ولم اكن لأخدع نفسى ، فقد كان البعض منهم يرى اننى لست الشخص المناسب لمثل هذا المنصب ٠ لكننا بعد فترة اعتدنا على العمل سويا ، وربما كان السبب في ذلك هو كثرة الاخطار التى كانت تواجهنا آنئذ ٠

وعندما دخلت وزارة الخارجية عام ١٩٥٦ ، كان نشاط الفدائيين (عصابات من المغيرين تدربهم مصر) قد اتسع وكثرت ضحاياه من الاسرائيليين ٠ وكانت هجماتهم تنطلق من قطاع غزة ، مع وجود قواعد لهم في سوريا ولبنان والاردن ٠ وكان العرب قد حددوا مواقفهم منذ وقت طويل ٠ ففى عام ١٩٥١ قال مندوب مصرى في معرض دفاعه عن

اغلاق قناة السويس في وجه الملاحة الاسرائيلية « نحن نمارس حق حرب » ؛ « والهدنة لا تضع نهاية للحرب » · وكان البكباشى جمال عبد الناصر ، الذى جاء الى السلطة في مصر عام ١٩٥٢ ، قد اصبح اقوى الشخصيات في العالم العربى وكان يشجع الفدائيين علنا ، قائلا « لقد اثبتم انكم ابطال يمكن لأمتنا ان تعتمد عليهم » · وأخذ راديو القاهرة يمدح الفدائيين ويقول « ابك يا اسرائيل فقد اقترب يوم الفناء » ·

ولم تستطع الامم المتحدة ان تفعل شيئا لمواجهة هجمات الفدائيين · ونجح سكرتيرها العام داج همرشولد في ترتيب وقف لاطلاق النار في ربيع عام ١٩٥٦ ، لكنه لم يعد بعد ذلك الى الشرق الاوسط عندما عادت الهجمات ثانية · وكان يأتى الى اسرائيل فيلتقى ببن جوريون حيث يتحدثان عن البوذية وغيرها من الامور الفلسفية التى يجيدانها ، ثم اقابله انا فأحدثه عن جملة يجب تصحيحها في اتفاقية الهدنة مع الاردن او اقدم له شكوى · والأعجب انه كان يرى أن بن جوريون ملاك بينما كنت انا شخصا يصعب التعامل معه · والواقع انه لم يكن صديقا لاسرائيل ، بل انه لم يكن محايدا فيما يتعلق بالشرق الاوسط · فما ان يرفض العرب شيئا ـ وغالبا ما كانوا يفعلون ـ حتى كان يتوقف عن الحركة على الفور · وليس معنى ذلك ان خلفه يوثانت (السياسى من بورما) كان افضل منه حالا · فعلى الرغم من العلاقات الطيبة بين بورما واسرائيل ، بل وبينه وبيننا ، فقد اتعبنا معه ، وتشدد وايانا الى حد كبير رغم انه لم يقف موقفا متشددا لا من روسيا ولا من العرب ·

وفي احدى هذه الهجمات من جانب الفدائيين ، كانت هناك مجموعة من رجال الاثار يعملون في رامات راثيل بالقرب من القدس عندما تعرضوا للنيران من الحدود الاردنية ، فقتل اربعة وجرح كثيرون

غيرهم · وكان من بين الاربعة قتلى واحد من العائلة هو والد ايا زوجة مناحيم (حماه) · وقلت لنفسى ياله من عالم مجنون يقبل « حقوق الحرب » ولا يأبه « لحقوق السلام » · لكن المسئولية . هنا ايضا . تقع على عاتق الروس ·

ففى عام ١٩٥٥ وقعت مصر وتشيكو سلوفاكيا (اى الاتحاد السوفيتى) اتفاقية تلقت بموجبها مصر كميات هائلة من العتاد الحربى من الغواصات الى حاملات الجنود · كيف حدث اذا ان يؤيد الاتحاد السوفيتى دولة اعلن رئيسها البكباشى عبد الناصر انه سوف يعيد غزو فلسطين ؟ الاجابه ان ذلك حدث نتيجة لسياسة الحرب الباردة في الخمسينيات عندما كانت الولايات المتحدة وبريطانيا تزايدان على بعضهما لصالح العرب . دون ان ترتاحا الى الود مع مصر . لكن الاتحاد السوفيتى لم تساوره اية هواجس . واندفع يبرر لمصر تحقيق حلمها بالحرب ضد اسرائيل · بل وصلت الامور بالاتحاد السوفيتى الى حد التأكيد على ان الصهيونية شر ينبغى القضاء عليه في كل مكان ، وتم اختراع مؤامرة الاطباء في موسكو عام ١٩٥٣ . عندما اعلن ان تسعة من الاطباء (من بينهم ستة من اليهود) حاولوا اغتيال ستالين وجرت محاكمة كانت جزءا من حملة معاداة اليهودية التى انتشرت في كل انحاء الاتحاد السوفيتى ·

وبرغم التقارب المصرى السوفيتى . فان بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية رفضتا بيع السلاح لنا ، واصمتا اذانهما عن طلباتنا المتكررة · وفي اوائل ١٩٥٦ ابلغت الولايات المتحدة الامريكية كلا من فرنسا وكندا انها لا تمانع اذا باعتا الاسلحة لنا · ولم تنتظر فرنسا الاذن من الولايات المتحدة . اذ كانت قد هرعت لمساعدة اسرائيل . لاسباب خاصة لديها ·· واصبحت لدينا الاسلحة . ولم نعد وحدنا ·

وبينما كنت في صيف ١٩٥٦ ارتب اوضاعى في وزارة الخارجية ، بما في ذلك التعود على مناداتى باسم « مسز مائير » (وهو اقرب الاسماء العبرية الى اسم مايرسون ، وحملت هذا الاسم بناء على نصيحة بن جوريون بأن احمل اسما عبريا · ومائير بالعبرية تعنى اضاء) ، كانت الحلقة تشتد حول رقابنا · فقد أقدم عبد الناصر على اكبر خطوة له عندما امم قناة السويس في يوليو (تموز) · ولم يكن احد من الزعماء العرب قد قام بمثل هذا المشهد الكبير · ولم يعد امام عبد الناصر من اجل ان يجعل مصر اعلى قوة اسلامية الا ان يقضى علينا · وبينما كانت القوى الكبرى تناقش تأميم القناة ، كنا في اسرائيل نشعر بالقلق من تزايد القوة العسكرية لمصر وسوريا اللتين اعلنتا توحيد قيادتيهما · ومرة اخرى وقعت مصر فريسة لوهم الانتصار على اسرائيل ، لوهم تمجيد النفس ، وهو بالصدفة نفس الوهم الذى بلوره عبد الناصر نفسه في كتاب فلسفة الثورة ·

توجد كتب كثيرة (بعضها حقيقى وبعضها خيال) عن معركة سيناء ، لذا اعتقد ان مساهمتى ستكون متواضعة · لكننى لابد ان أؤكد على شيء واحد ، رغم فشل الهجوم البريطانى الفرنسى على القناة ، الا وهو ان ضربة اسرائيل ضد المصريين كان لها هدف واحد هو منع تدمير الدولة اليهودية · كان الخطر واضحا امامنا ، وادركنا اغراضه · كنا نعلم ان الديكتاتوريات تحافظ دائما على وعودها ، بما في ذلك الديكتاتوريات التى تفصح عن خططها علنا ، وليس في اسرائيل من ينسى درس المحارق والابادة الجماعية ·· وهكذا وجدنا امامنا احد خيارين فاما أن نستعد لنقتل ـ سواء بالتجزئة او في هجوم مفاجيء ـ أو ان نأخذ المبادرة · ويعلم الله ان اتخاذ القرار لم يكن سهلا ، لكنه تم · وبدأنا نعد سرا لمعركة سيناء (المعروفة في اسرائيل بعملية قادش) ·

وزودنا الفرنسيون بالسلاح ومضوا يعدون خطة الهجوم الانجلو فرنسى على القناة . وفي سبتمبر (ايلول) وجهو الدعوة الى بن جوريون ، والى بوصفى وزيرة للخارجية ضمن وفد يقابل جى موليه (رئيس الحكومة الاشتراكية الفرنسية) وكريستيان بينو (وزير الخارجية الفرنسى) وموريس بورج مانورى (وزير الدفاع) . وضم الوفد المسافر ، الذى لم يعلم بسفره سوى اشخاص يعدون على الاصابع ، كلا من موشى ديان وشمعون بيريز وموشى كارمل (وزير النقل لدينا ، والقائد البارز خلال حرب الاستقلال) . ولم استطع حتى التلميح لساره بأننى سوف اسافر ، بل ان الحكومة احيطت علما بالخطة قبل ايام من تنفيذها يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر (تشرين الاول) . وقام بن جوريون بعد ذلك باطلاع قادة المعارضة .. باختصار .. لم يكن ناصر وحده هو الذى فوجىء .. وانما فوجىء لجميع .

وركبنا الطائرة سرا ، وكانت من طائرات الجيش الفرنسى . وجلسنا صامتين متوترين . وكاد كارمل وهو يسير داخل الطائرة . ان يسقط من فتحة القاء القنابل ، لولا ان تمالك نفسه بحركات عنيفة حطمت له ثلاثة اضلع . ثم توقفنا في شمال افريقيا حيث نزلنا في دار للضيافة . وسافرنا من هناك الى مطار خارج باريس ، ومنه الى مقر الاجتماعات . وكان الهدف من هذه المحادثات وضع التفاصيل المختلفة للمساعدة العسكرية التى وعدتنا بها فرنسا ، وخاصة حماية سمائنا بطائراتها في حالة طلبنا . ولم اجرؤ على السير في باريس بل وغضبت من ديان لانه فعل ذلك ، وان لم يتعرف عليه احد .

وبدأنا في يوم ٢٤ اكتوبر وفي سرية مطلقة ، في تعبئة قوات الاحتياطى . وكانت الصورة امام الشعب وامام المخابرات المصرية ، اننا

نعبىء جنودنا لمواجهة الحشود العراقية التى دخلت الاردن (والتى كانت قد انضمت الى القيادة الموحدة) . وكنت قد دعوت الى مؤتمر لسفراء اسرائيل في الخارج ، عقد في وزارة الخارجية قبل المعركة بأسبوع ، اردت فيه ان اجتمع ببعض السفراء قبل ان تنعقد الجمعية العامة للأمم المتحدة . وعاد الجميع الى مواقعهم بالخارج دون ان يعلموا شيئا ، حتى شاريت ـ الذى ذهب الى الهند بعد ترك الوزارة ـ سمع ان المعركة بدأت خلال جلوسه مع نهرو الذى لم يصدق بالطبع ان محدثه لا يعلم شيئا . لكن السرية المطلقة كانت امرا حيويا .

ولم استطع التخلص من التفكير في الحرب في كل مكان اذهب اليه او عمل اؤديه ، كنت افكر فيما سيحدث يوم ٢٩ . ان من اصعب الامور ان يضطر الانسان الى كتم سر يؤثر في حياة كل الناس المحيطين به ، بل ان ذلك يحتاج الى جهد فوق طاقة البشر . لكنه لم يكن لدينا حيلة . فقد كان ضروريا التخلص من الفدائيين وافهام مصر ان اسرائيل ليست بالشىء التافه الذى يمكن القضاء عليه . وقضيت عطلة نهاية الاسبوع في ريفيفيم مع سارة وزكريا والاطفال والاصدقاء ، غير قادرة حتى على ان احذرهم .. فمن هنا .. من النقب سيهجم الجيش المصرى قاصدا التدمير فيما لو حدث خطأ في حساباتنا . واخذت اسأل نفسى « هل يجب علينا حقا ان نمضى هكذا الى الابد ، نقلق على الاطفال والاحفاد . نقتل ونقتل ؟! »

وبدأت معركة سيناء ، كما هو مقرر ، بعد غروب يوم ٢٩ اكتوبر (ت ١) . وانتهت ـ كما هو مقرر ـ يوم ٥ نوفمبر واستغرق الامر من قوات الدفاع الاسرائيلية ١٠٠ ساعة لكى يعبروا ويستولوا من المصريين على قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ، وهى منطقة تبلغ مساحتها مرتين ونصف مساحة اسرائيل . وكان اعتمادنا على المفاجأة والسرعة واحداث

الفوضى الشاملة في الجيش المصرى · ولم ادرك مدى النصر الذى حققناه الا بعد ان ركبت الطائرة حتى شرم الشيخ في اقصى جنوب شبه جزيرة سيناء وبعد ان طفت قطاع غزة بالسيارة · وكانت هزيمة المصريين كاملة ، فقد تم قطع الاتصال بين الفرق المصرية الموجودة في الصحراء ، وتم تطهير مخابىء الفدائيين ، واصبحت مئات الآلاف من الاسلحة وملايين القطع من الذخيرة ، عديمة القيمة ، وتم تحطيم ثلث الجيش المصرى ، كذلك اسرنا ٥٠,٠٠٠ جندى مصرى ، واستبدلناهم بالطبع بالأسير الاسرائيلى الوحيد الذى تمكن منه المصريون ·

لكننا لم نكن نريد من معركة سيناء ارضا ولا غنائم ولا اسرى ، فقد حققنا ما نريده وهو السلام او على الاقل السلام الموعود · ورغم ان خسائرنا كانت « طفيفة » فقد حدتنا الامال بأن يكون قتلانا (وعددهم ١٧٠ وجرح ٨٠) هم آخر خسائرنا في آخر المعارك · وكان اصرارنا هذه المرة ان يصل جيراننا الى تفاهم معنا وعن وجودنا ·

لكن الامور لم تسر على هذا النحو ، فقد كسبنا معركتنا لكن البريطانيين والفرنسيين خسروا معركتهم بسبب غبائهم وبسبب رد الفعل السلبى الواسع في كلا البلدين ازاء هجومهما على بلد برىء : واعتقد ان رد الفعل ما كان ليصبح بهذا العنف لو نجح الهجوم الانجلو فرنسى على اساس ان هذا امر واقع · ثم تراجع البريطانيون والفرنسيون بمجرد ان طلبت منهما الامم المتحدة ـ تحت ضغط امريكى وسوفيتى هائل ـ سحب قواتهما من منطقة قناة السويس · كذلك طلبت الامم المتحدة انسحاب اسرائيل من شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة ·

وكانت تلك هى بداية اربعة اشهر ونصف من المحاولات المضنية ـ التى خسرناها ـ لاقناع دول العالم بأننا لو انسحبنا الى خطوط هدنة ١٩٤٩ فسوف يتكرر الانهيار في الشرق الاوسط مرة ثانية · وازداد

الضغط علينا فاضطررنا للقبول . وكان حلفاء الرئيس الامريكى ايزنهاور الأوروبيون قد اخفوا عنه كل شيء ، فهدد غاضبا بأن تؤيد امريكا فرض العقوبات على اسرائيل ان لم تنسحب . لكن مصدر الضغط الاكبر جاءنا من الاتحاد السوفيتى ، وكنت لا اصدق ان نيكولاى بولجانين سوف يقود العالم الى حرب كبرى بتهديداته . المهم اننا وجدنا العالم كله تقريبا ضدنا ، ومع ذلك فقد كان رأيى الا نسلم دون ان نقاتل .

وتوجهت في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٦ الى الامم المتحدة . لكننى قررت قبل سفرى ان اقوم برحلة الى شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة .. وبعد هذه الجولة تجسدت امامى ضخامة الاخطار التى كنا معرضين لها على يد الجيش المصرى في سيناء . وشاهدت منطقة شرم الشيخ التى اعتقد ان زرقة مياهها تعد اصفى ما رأيت في حياتى وجبال البحر الأحمر تمتد في سلسلة تتفاوت الوانها بين الاحمر القانى والبنفسجى والقرمزى . وهناك رأيت المدفعية البحرية الجبارة التى تسببت في شلل ميناء ايلات . ثم طفت بقطاع غزة الذى كان الفدائيون يشنون منه هجماتهم . وهناك رأيت اللاجئين العرب في حالة مؤسفة من الفقر والحاجة .. اولئك الذين اصر القادة العرب على ابقائهم في خيامهم وحياتهم المهينة لكى يجعلوا منهم قضية سياسية ، في حين كان الواجب اعادة توطينهم في اى من دول الشرق الاوسط ، وهى دول يتكلمون لغتها ويشتركون معها في التقاليد والدين .. ثم يستمر العرب في شجارهم معنا .

والقيت كلمتى في الجمعية العامة للامم المتحدة يوم ٥ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٦ ، محاولة طرح مقترحات ملموسة عن السلام .

وقد مرت الآن عشرون سنة ، نكرر فيها نفس الكلام ، دون ان نحصل على اى نتيجة او نحقق اى نجاح ·

وفي الجلسة التاسعة للجمعية العامة اقترح المندوب الاسرائيلى ، كمرحلة انتقالية او اولية ، ان تعقد بين الاطراف المعنية اتفاقيات تلزمها بسياسة عدم الاعتداء والتسوية السلمية · وكان الرد رفضا قاطعا · ولا يزال العرض الذى قدمناه قائما من حيث استعدادنا للالتقاء بممثلين عن كل او اى من الدول العربية · ولم نسمع حتى صدى لندائنا يأتينا عبر الحدود ·

واخذنا نفكر فيما سيحدث بعد ذلك ، هل نعود الى نظام الهدنة ؟ وهل تعود غزة وكرا للفدائيين مرة ثانية ؟ ام تتجه الجمعية العامة الى التفكير في المستقبل ؟ · وقبل ان القى كلمتى بأيام تحدث مندوب مصر ، وكان حديثه بعيدا عن الحرب · فطلبت نسخة من نص حديثه وانطلقت منها في كلمتى الى رسم صورة المستقبل في المنطقة فيما لو وفرنا ثمن السلاح وكرسناه لمحو الامية وتنمية المنطقة ورفاهيتها · وطالبت باحلال السلام مكان الحقد من اجل سعادة كل شعوب المنطقة ·

لكننى لاحظت ، خلال عودتى الى مقعدى ، انه لا يوجد من يشاركنى رأيى بين هؤلاء المندوبين ممثلى الاسرة العالمية · وبعد ان جلست لاحظت ان وفدا واحدا صفق لى ، كان وفد هولندا التى تعتبر من الاصوات القليلة التى لا تصوت ضدنا · ولم اجد واحدا من الوفود يطالب ولو بمناقشة ما قلته · وعلى اية حال فقد قررت ان اجرى اتصالا مباشرا وشخصيا بالعرب قبل انتهاء الدورة ، لان المستقبل كان مظلما في نظرى ·

وفي أثناء تلك الشهور الرهيبة ، كان انسحابنا يتم على مراحل من غزة وسيناء ٠ لكن احدا لم يقل او يفعل شيئا يجعل مصر تدخل معنا في مفاوضات لفك الحصار عن مضايق تيران او لحل مشكلة قطاع غزة ٠ وهكذا لم نتلق ردا على الاسئلة التى اثرناها في نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٦ ، مع اننا اصبحنا في فبراير (شباط) ١٩٥٧ ٠ ولم يجد لا المنطق ولا النداءات بل ولا فصاحة سفيرنا في واشنطون ، ابا ايبان ٠ وفشلت في اقناع جون فوستر دالاس وزير خارجية امريكا ، الرجل الذى سيطرت عليه فكرة « حافة الهاوية » ، والذى كثيرا ما قال له ان الحرب العالمية إذا نشبت ، ستكون اسرائيل هى المسئولة عنها بسبب « عدم معقوليتها » ٠

وكنت اتمنى لو عدت الى اسرائيل وتركت لغيرى مهمة الالحاح على جون فوستر دالاس وهنرى كابوت لودج ممثل امريكا في الامم المتحدة ، لكننى بقيت ، مبتلعة مرارتى واحساسى بالخيانة ٠ وفي اواخر شهر فبراير (شباط) وبينما آخر قواتنا تغادر مواقعها توصلنا الى حل وسط ، يقضى بأن قواتنا سترحل عن غزة وشرم الشيخ في مقابل « افتراض » ان الامم المتحدة ستتكفل بضمان حق المرور الحر لسفننا عبر مضايق تيران ، وعدم عودة الجنود المصريين الى غزة ٠ ولم يكن ذلك بالطبع ما حاربنا من اجله ، لكنه كان على اية حال افضل من لا شيء ٠

وفي ٣ مارس (آذار) ١٩٥٧ القيت البيان النهائى ، بعد ان راجعه دالاس في واشنطون ودقق في كل حرف فيه ٠ وقلت ان اسرائيل ، وفقا للقرار رقم ١ بتاريخ ٢ فبراير (شباط) ١٩٥٧ ، تعلن ان هدفها الوحيد هو انه بعد اتمام انسحاب القوات الاسرائيلية ان تستمر حرية الملاحة امام اسرائيل والملاحة العالمية في خليج العقبة ومضايق تيران ٠ ثم

اضفت من عندى نداء للدول العربية المجاورة لنا بأن تفتح صفحة جديدة نعمل فيها سويا من اجل ازدهار ونمو منطقتنا ·

ودهشت لدى عودتى الى مقعدى ، عندما وقف هنرى كابوت لودج واكد لكل دول العالم ان ضمان حرية المرور للملاحة سوف يكون مكفولا ، اما مستقبل قطاع غزة فسيتم معالجته في اطار اتفاقية الهدنة · ربما لم يفهم احد آنئذ ما الذى يعنيه كابوت لودج ، لكننا « نحن » فهمناه جيدا · لقد ربحت وزارة الخارجية معركتها ضدنا ؛ وسوف تعود الحكومة العسكرية بحاميتها الى غزة · ولم استطع حتى ان انظر الى كابوت لودج ، ذلك الرجل الانيق الذى تولى تهدئة المتخوفين من ان ترفض اسرائيل الانسحاب بدون شروط · وجلست اقضم شفتى في لحظة من اسوأ لحظات حياتى ·

ولم يكن هناك مفر من مواجهة الواقع · فقد توقف نشاط الفدائيين ، وتم تنفيذ حرية الملاحة عبر مضايق تيران ، وتحركت قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة الى قطاع غزة ومنطقة شرم الشيخ · وحققنا نصرا دخل التاريخ العسكرى ، لنبرهن على مقدرتنا ـ مع ان الامر لا يحتاج الى برهان ـ على حمل السلاح دفاعا عن انفسنا ·

وعدت الى الامم المتحدة مرة ثانية خلال هذا العام في شهر اكتوبر (تشرين الاول) · وتوجهت بالحديث مباشرة الى العرب دون اى اعداد وبدون نص مكتوب · وقلت لهم ان التاريخ قرر ان توجد اسرائيل في المنطقة مستقلة مثلكم تماما ، برغم انكم حاربتمونا ، فلماذا لا نتعاون سويا لصالح المنطقة · ان اسرائيل ستبقى حتى بدون السلام ، ولكن انزعوا الكراهية واقبلوا وجودنا كدولة مستقلة مثلكم · وبالطبع لم يكترث العرب حتى بالتطلع الى وجهى ·

وقد زرت الامم المتحدة خلال عملى كوزيرة لاسرائيل مرات

عديدة ، على الاقل مرة كل عام كرئيسة لوفد اسرائيل · لكننى للاسف لم انجح في ترتيب اى لقاء مع العرب رغم محاولاتى المتكررة · واذكر اننى في عام ١٩٥٧ رأيت عبد الناصر يجلس عن بعد ، فأخذت افكر ترى ما الذى قد يحدث لو توجهت اليه هكذا وبدأت الحديث معه · لكنه كان محاطا بالحراس ، وكنت انا ايضا محاطة بالحراس ، وبالطبع ما كانت المحاولة لتنجح · لكننى فكرت في ان تيتو - الذى كان موجودا في الدورة - قد يتمكن من ترتيب شيء · فطلبت الى احد اعضاء وفدنا ان يفاتح احد اعضاء وفد يوغوسلافيا لعقد لقاء بينى وبين تيتو · وطال انتظارى ، بل وأجلت عودتى لاسرائيل ، دون ان اتلقى ردا · وفي اليوم التالى لسفرى جاءنا الرد بأن تيتو مستعد لمقابلتى في نيويورك · لكننى كنت قد عدت ·

وكنت قد تعرفت على زوجة نائب رئيس وفد باكستان التى فاتحتنى في الدور الذى يجب ان تلعبه النساء من اجل السلام · وعندئذ طلبت اليها ان تقيم حفلا تدعو اليه بعض العرب وتدعونى معهم ، واقسمت لها بشرفي ان احدا لن يعلم بهذا الاجتماع · وطال انتظارى دون ان يتم شيء · وذات يوم جلست معها في صالة الوفود نتناول القهوة ، حينما دخل وزير خارجية العراق (وهو الذى اشار الى بإصبعه من فوق المنصة قائلا ؛ يا مسز مائير عودى الى ميلووكى ، فهناك مكانك) · وما ان رأته حتى امتقع لونها وصاحت ؛ يا الهى ، سيرانى وانا اتحدث معك ، وغادرت المكان مفزوعة · وانتهت بذلك القصة ·

وكان رؤساء الوفود في الامم المتحدة يعلمون جيدا انهم اذا ارادوا ان يحضر العرب حفلاتهم ، فلا يجب عليهم ان يوجهوا الينا الدعوة لحضور نفس الحفل · وحدث ان جاء احد رؤساء الوفود الجدد غير عالم

بهذه اللعبة ، فوجه الدعوة الى العرب والاسرائيليين ، بل انه جعل مكان مندوب العراق على المائدة في مواجهتى · وهم العربى بتناول طعامه وعندما لمحنى امامه ، وقف على الفور وغادر الحفلة ، وهكذا اصبح اى عربى يترك المكان بمجرد ان يجد فيه اسرائيليا ، ولم يكن بوسعنا شيء نفعله ·

غير ان هناك ذكريات لا تنسى في تلك الفترة ، لعل ابرزها لقائى بجون كنيدى وليندون چونسون وشارل ديجول · وقد التقيت بكندى مرتين ، اولاهما عندما كان عضوا في مجلس الشيوخ عن ماساتشوستس · وكان اللقاء في حفل اقامه الصهيونيون في بوسطون عقب معركة سيناء ، وجلست الى جواره · وبدا لى خجولا ، لكن حديثه كان طلقا · اما المرة الثانية فكانت قبل اغتياله بقليل ، اذ ذهبت اليه في منزله في فيلا فيلادلفيا وجلسنا سويا في الشرفة نتحدث طويلا عن حاجة اسرائيل الى السلاح · وكان من الصعب على ان اتصور ان هذا الرجل الانيق ، بأكمام قميصه المرفوعة ، ووجهه الصبيانى ، هو رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، وان كنت اعتقد انه ايضا لم يكن يصدمه اننى وزيرة خارجية · وشارك في الاجتماع إثنان او ثلاثة ، من بينهم « مايك » فيلدمان ، اليد اليمنى لكنيدى ، لكنهم لم يشاركوننا النقاش ·

وبدأت بالحديث عن الموقف الراهن في الشرق الاوسط ، ثم قررت انتهاز الفرصة فأخذت احدث كنيدى عن تاريخ اليهود عبر ثلاثة آلاف عام الى ان قامت اسرائيل ، مبينة له اننا لو فقدنا استقلالنا هذه المرة ، ثانية ، فلن تقوم لنا قائمة بعد ذلك إبدا · وبعد ان انهيت حديثى مال نحوى وامسك بيدى قائلا ، وهو ينظر في عينى : « لقد فهمت

يا مسز مائير · لا تقلقى لن يحدث شيء لاسرائيل » · واعتقد انه فهم بالفعل ·

ثم قابلت كنيدى بعدئذ في حفل اقامته الامم المتحدة ، وكان يحيى رؤساء الوفود فتبادلنا التحية فقط ، ولم اره بعدئذ · لكننى شاركت في تشييع جنازته وصافحت جاكلين كنيدى ، التى برغم شحوب لونها ودموعها وجدت الكلمات التى ترد بها على كل منا · وحضرت حفل المشاء الذى اقامه الرئيس الجديد ليندون ب · جونسون · وكنت قد رأيته قبل ذلك خلال اجتماع الجمعية العامة عام ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ، عندما كان رئيسا للاغلبية الديموقراطية في مجلس الشيوخ وعارض علنا وبقوة فكرة العقوبات التى طرحها ايزنهاور ضدنا ؛ ولذا فقد كنت اعلم مشاعره نحو اسرائيل · وعندما مددت يدى لمصافحته احاطنى بذراعه لفترة وقال لى « اننى اعرف انك فقدت صديقا ، لكنى ازجو ان تفهمى اننى ايضا صديق » · وقد اثبت ذلك بالفعل ·

وكنت دائما ما اتذكر الكلمات التى قالها لى جونسون ، طوال حرب الستة ايام عندما ايدنا في رفض العودة الى خطوط ما قبل عام ١٩٦٧ الا اذا تم ذلك في اطار تسوية سلمية ، وساعدنا على تحقيق الوسائل العسكرية والاقتصادية للحفاظ على موقفنا · ولم اره هو الآخر بعد ذلك ، لكننى لم ادهش عندما علمت ان الامور سارت على خير بينه وبين ليفى اشكول عندما اصبح رئيسا للوزراء ·· فقد كانا متشابهين في الشيء الكثير · وصحيح اننى اعلم فقد جونسون لشعبيته في الولايات المتحدة ، لكنه كان بالقطع صديقا يعتمد عليه ، وان اسرائيل لمدينة له بالكثير · واعتقد أنه كان القائد الوحيد الذى فهم

الغلطة التى إرتكبتها حكومة ايزنهاور ، عندما اجبرنا على الانسحاب دون ان تبدأ اى مفاوضات مع العرب ·

وعندما توفي جونسون في عام ١٩٧٣ ، وكنت رئيسة للوزراء ، ابرقت الى زوجته اعزيها ، فتلقيت منها ردا يقول « لعلك تعلمين يا مسز مائير ان زوجى كان يتطلع الى زيارتك المقبلة ، بل كان يتحدث دائما عن زيارة اسرائيل في يوم من الايام · لقد كان اهتمامه ببلدك حقيقيا وعميقا ، وكان احترامه لشعبك نابعا من اعماق قلبه » ·

وكان الجنرال ديجول من بين الشخصيات التى كان لها تأثير حاسم في مستقبل اسرائيل · وقد قابلته في جنازة كنيدى · وكنت قد لقيته من قبل عام ١٩٥٨ عندما اصر السفير الفرنسى في اسرائيل بييرجيلبير (وكان ديجوليا وصهيونيا متعصبا) على ان اقابل الجنرال · وقد اصابنى كل ما عرفته بالخوف ، وخاصة توقعه ان يعرف كل انسان اللغة الفرنسية التى لم اكن اعرف منها كلمة واحدة · وقبل ان التقى بالجنرال اجتمعت مع وزير الخارجية كوف دى مورڤيل ، الذى لم يكن موقفه يتسم بالصداقة ، وهو اكثر الفرنسيين الذين عرفتهم تشيعا لبريطانيا · وجرى استقبالى رسميا في قصر الاليزية ، وخيل الى اننى استعرض الجيش الفرنسى بأكمله ·

وكنت اشعر بقلق شديد قبل ان ادخل الى مكتب الجنرال وها هو شارل ديجول الاسطورى ، بارتفاع قامته ومجده : وكان بصحبتى چاكوب تسور المدير العام لوزارة خارجيتنا وسفيرنا فيما بعد الى فرنسا · وتمكنت من تبادل الحديث مع الجنرال بواسطة مترجمه وتسبور · وان هى الا دقائق حتى استرخت اعصابى ، ووجدت ان ديجول صديق وعطوف · وتبادلنا حوارا مرضيا عن مشاكل الشرق الاوسط ، وسط تأكيداته بصداقته لاسرائيل ·

ثم رأيته بعدئذ في جنازة كنيدى اولا في الكاتدرائية (واظن ان الوحيدين اللذين لم يركعاهما ديجول وزالمان شازار رئيس دولة اسرائيل وانا) ؛ ثم بعدئذ في حفلة العشاء التى سبق ذكرها . وفكرت ان اذهب اليه . فقال لى مرافقى ان ديجول لا يأتى لأحد وانما يستدعى الناس اليه . وفجأة بدأ يتحرك والناس تتباعد من طريقه ، وكأنهم البحر الاحمر ينشق لكى يعبره ابناء اسرائيل ، ثم يتجه نحوى مباشرة ويفعل شيئا لم يسبق ان فعله اذ تحدث معى بالانجليزية ، معبرا عن سروره بلقائى رغم المناسبة الحزينة . وكنت في تلك الاثناء قد اصبحت صديقة لكوف دى مورڤيل الذى كان يحكى لى عن اعتزاز ديجول بى . واعتقد انه لم يغفر لنا عصياننا لما نصحنا به في عام ١٩٦٧ (وهو الا نفعل شيئا . وكان ديجول قد قال لابا ايبان خلال الايام التى سبقت حرب الايام الستة « لو تعرضتم لخطر حقيقى ، فيمكنكم ان تعتمدوا على . اما اذا بدأتم بالضربة الاولى ، فسوف تتحطمون وتجلبون الكارثة على العالم اجمع » .

وقد ثبت ان ديجول مخطىء .. فلم نتحطم ولم تقع حرب عالمية ، لكن علاقاتنا به وبالحكومة الفرنسية لم تعد كما كانت ابتداء من هذا اليوم . وكان ديجول الذى رفع في عام ١٩٦١ نخب اسرائيل « صديقتنا وحليفتنا » ، هو نفسه الذى لخص موقفه تجاه اليهود بعد حرب الايام الستة عندما وصفنا بأننا « متعالون ، واثقون من أنفسنا ، متجبرون » .

اما اهم وابرز مساهمة قدمتها كوزيرة للخارجية فكانت في ميدان مختلف كلية ، يتعلق بدور اسرائيل الجديد في الدول النامية في امريكا اللاتينية واسيا ، بل وربما في افريقيا خاصة . وبدأ فصل جديد كلية فى حياتى .

الفصل الحادى عشر

صداقات افريقية وغيرها

جاء ارتباطى الأول بأفريقيا نتيجة استجابة عاطفية للموقف الذى وجدنا انفسنا فيه بعد معركة سيناء .. فقد شعرنا بالوحدة . وبفقدان الشعبية وافتقاد الفهم كانت فرنسا صديقة وحليفة وكانت هناك دولتان اوربيتان تتعاطفان معنا اما علاقتنا مع الولايات المتحدة فكانت متوترة . وعلاقاتنا بالاتحاد السوفيتى اكثر من متوترة ولم تفلح محاولاتنا في آسيا لاختراق اسوارها صحيح اننا اقمنا بعثات في بورما واليابان وسيلان وقنصليات في الفلبين وتايلاند والهند لكن جمهورية الصين الشعبية رفضت قيام سفارة اسرائيلية في بكين رغم اننا كنا من اول الدول التى اعترفت بها ، واتخذت اندونيسيا وباكستان موقفا معاديا منا باعتبارهما دولتين اسلاميتين اما العالم الثالث الذى لعب فيه نهرو من ناحية وتيتو من ناحية اخرى دورا هاما . فقد توجه نحو عبد الناصر والعرب وغض الطرف عنا وعلقنا الآمال على ان نتلقى دعوة لحضور مؤتمر الدول الافريقية الاسيوية في باندونج في ربيع ١٩٥٥ غير ان الدول العربية هددت بمقاطعة المؤتمر اذا ما دعيت اليه اسرائيل وهكذا تم استبعادنا من هذا « النادى » ايضا .

واعتدت على ان اجيل النظر حولى في الامم المتحدة خلال عامى ٥٧ و ١٩٥٨ قائلة لنفسى ليست لنا عائلة هنا فلا يوجد هنا من يشاركنا ديننا أو لغتنا او ماضينا ان بقية العالم تبدو كتلا وتجمعات نشأت

بسبب التاريخ والجغرافيا واجتمعت لتخلق اهتمامات مشتركة لديهم لكن جيراننا حلفاءنا الطبيعيين ، لايريدون اى صلة بنا ونحن في الواقع لا ننتمى لاى مكان ولا لاى احد . سوى انفسنا » لقد كنا اول مولود للأمم المتحدة لكننا عوملنا كطفل غير مرغوب فيه ·

لكن العالم لم يكن قاصرا على الاوروبيين والاسيويين ، فقد كانت هناك الدول الافريقية الناشئة ، الساعية الى الاستقلال وكان لدى اسرائيل الكثير مما تعطيه لهذه الدول السوداء · فقد كنا مثلهم حصلنا على استقلالنا بكفاحنا وتعلمنا كل شيء وواجهنا نفس المشاكل · لم تكن لدينا اموال او اسلحة نقدمها لافريقيا لكننا لم نكن مستغلين فقد كنا نريد صداقة افريقيا فقط وقد يقول قائل اننا ذهبنا الى افريقيا لاننا كنا بحاجة الى اصوات مؤيدة في الامم المتحدة ، واقول نعم ! صحيح ان ذلك لم يكن العامل الوحيد لكنه كان عاملا هاما ·

واليوم في أعقاب حرب يوم الغفران وقطع العلاقات الدبلوماسية بين اسرائيل ومعظم الدول الافريقية فقد يقول قائل « كان الامر مجرد ضياع للوقت والجهد والمال ، وكان تحركا في غير محتوم عليه بالانهيار بمجرد ان تزاول الدول العربية ضغطها على الافارقة » لكننى اقول لهم ان الدول تصاب بالنكسات مثل الافراد وانه لا يتوقع لكل مشروع ان ينجح كلية او بسرعة ·· فالأمر لم يكن مجرد هات وخذ ·

لقد ذهبنا الى افريقيا كى نعلمهم ما تعلمناه ولا أظن ان هناك من يحس بمرارة مثلى ازاء موقف الدول الافريقية التى ادارت ظهورها لنا لكن المهم بالفعل هو ما حققناه نحن وهم ـ سويا وما فعله آلاف الخبراء الاسرائيليين في كل الميادين منذ ١٩٥٨ حتى ١٩٧٣ وما حمله آلاف الافريقيين عند عودتهم الى بلادهم بعد تلقيهم التدريب في اسرائيل ستبقى هذه الانجازات ولن يمحوها شيء مهما كانت خسارة

اسرائيل لكنه يبقى ان هذه الحكومات ناكرة للجميل ، وقد تركت لدينا اسوأ الاثر بهجرها لنا في وقت الازمة واننى لفخورة ببرنامج التعاون الدولى الاسرائيلى وبالمعونة الفنية التى قدمناها لافريقيا أكثر من اى مشروع اخر قمنا به ٠

ان هذا البرنامج في نظرى يمثل تجسيدا للعداله الاجتماعية والتعمير وهذا هو لب الصهيونية العمالية ـ واليهودية لقد ذهبنا الى افريقيا بنفس روح الرواد والطلائع التى حملتنا الى مرحافيا في العشرينيات وحملت ابنتى الى ريفيفيم في الاربعينيات ٠ وليس معنى ذلك ان جميع من ذهبوا الى إفريقيا كانوا من الاشتراكيين ، بل بالعكس لكن ما فعلناه في افريقيا لم يضع سدى ولا اظن ان احدا من الافارقة ينظر اليه على هذا النحو ٠

يضاف الى ذلك اننا والافارقة كنا قد عانينا حتى الامس القريب من الكبت والتفرقة والعبودية وقد كتب ثيودور هرتزل رواية في عام ١٩٠٢ بعنوان (التنيولاند) « أى الارض القديمة الجديدة » تصدرت صفحتها الاولى هذه العبارة « اذا عزمت عليها فإنها ليست حلما » ، وهى العبارة التى اصبحت شعار الحركة الصهيونية ومصدر الهامها ٠ وقد وردت في هذه الرواية فقرة كنت اقولها دائما لاصدقائى الافريقيين تقول هذه الفقرة ان المسألة الافريقية هى المسألة الاخرى التى لم يوجد لها حل حتى الآن فالافريقى يباع عبدا ويستعبد فقط لمجرد ان لونه اسود ويختم هرتزل الفقرة بقوله « اننى لا اخجل من ان اقول ـ رغم انى اعرض نفسى للسخرية بقولى هذا ـ اننى ما ان اشهد خلاص اليهود ، شعبى ، حتى اتمنى ان اساعد على خلاص الافريقيين »

ولقد كنت مسئولة عن بداية مشاريع التنمية المائتين التى نفذتها اسرائيل في ثمانين دولة افريقية واسيوية وامريكية لاتينية بأيدى ٥٠٠٠

مستشار اسرائيلى ... لكننى بالطبع لم اخترع الفكرة فقد كان أول اسرائيلى يستكشف امكانية التعاون الدولى هو صديقى ريوفين بركات الذى جلب ـ بوصفه رئيسا للدائرة السياسية في الهستدروث عددا من الافارقة والآسيويين الى اسرائيل ليشاهدوا بأنفسهم كيفية حل المشاكل . وعندما عينت وزيرة للخارجية عام ١٩٥٦ كانت غانا على وشك الحصول على استقلالها وكان الشاب شنان يافور قد عين ممثلا لاسرائيل فيها بناء على ترشيح شاريت وعندما استقلت غانا عام ١٩٥٧ عين ايحود آفرييل سفيرا لاسرائيل في غانا وفي ليبريا واقترح ايحود أن احضر الذكرى الاولى لاستقلال غانا في عام ١٩٥٨ ، وان ازور ايضا ليبيريا والسنغال وساحل العاج ونيجيريا وتقرر أن يصاحبنى في هذه الرحلة إيحود ويعقوب تسور ، سفيرنا الى فرنسا فيما بعد .

وكنت قد قابلت افارقة من قبل في اللقاءات الاشتراكية لكننى لم اكن قد زرت افريقيا وكنت اقضى الساعات الطويلة وانا افكر في الدور الذى يمكننا ان نلعبه في هذه القارة العظيمة لدى صحوتها . وبت اشعر بالفرحة وكأننى طفل صغير وبدأت اعد حقائبى (من عيوبى كمسافره ـ بالمناسبة ـ ان احمل اكثر مما احتاجه فعلا عندما اسافر) .

وكانت المحطة الاولى في مونروفيا ، عاصمة ليبريا ، حيث حللت ضيفة على الرئيس توبمان . وكانت الصفوة الاشتراكية والمثقفه في ليبريا تعيش في ظروف من الرفاهية الحادة بينما يعيش بقية الشعب في فقر مدقع . لكن ما شأنى ، لقد جئت لاقابل افريقيا لا لكى اعظ وكان الرئيس توبمان صديقا مخلصا لليهود .. والسبب في ذلك انه خلال علاقته الطويلة بالولايات المتحدة كان على صلة صداقة حميمة مع عضو يهودى من اعضاء مجلس الشيوخ هو ايمانويل سيلار . كان

ايمانويل هو الوحيد بين كل من اتصل بهم توبمان في واشنطون ، الذى فهم مدى الوحدة التى يشعر بها قائد افريقى اسود . في وقت لم يكن احد فيه يولى مشاعر السود اى اعتبار . ولم اتمالك نفسى من الاستجابة لعواطف توبمان الواضحة تجاه اسرائيل ولشعوره بتشابهنا .

وتمتعت برؤية افريقيا وقطعت مسافات طويلة في ليبريا وبرفقتى فتاة من وزارة الخارجية وفي اخر ايام زيارتى جاءتنى الفتاة وطلبت منى ان اذهب معها لرؤية امها العجوز التى لم تصدق انها ترافق ضيفة من القدس قائلة انه لا يوجد على الارض مكان اسمه القدس وانما القدس في السماء وذهبت معها وقابلت امها التى اخذت تطوف حولى وهى تسألنى : هل هناك حقيقة قدس على الارض فيها شوارع ومنازل واناس حقيقيون ؟ ومع انى اكدت لها انى اعيش فيها ، فإننى اعتقد انها لم تصدقنى .

ولعل ابرز احداث هذه الزيارة هو الاحتفال الذى نصبت فيه رئيسا أعلى لقبيلة جولا (وكانت هذه القصة في اسرائيل مثار دهشة اذ ان كلمة جولا في اللغة العبرية تعنى الشتات . كان ذلك واحدا من اكثر لحظات حياتى اثارة . واعترف اننى وقفت ورجال القبيله يرقصون ويغنون حولى . وانا لا اكاد اصدق ان كل هذا التكريم يجرى من اجلى انا جولدا مائير . وصممت على ان تأتى تصرفاتى خلال الحفل وكأنى معتادة على مثل هذه الامور طوال حياتى ثم اقتادتنى مائتان من النسوة الى داخل كوخ حيث البسننى رداء الرئيس الاعلى المزركش ولن انسى نظرات الفزع في عيون مرافقى الاسرائيليين عندما اختفيت في ظلام الكوخ ثم علامات الارتياح التى ارتسمت على وجوههم عندما خرجت منه سالمة . المهم ان هذا الاحتفال ازال عنى الاحساس بالغربة في اى مكان زرته في افريقيا بعدئذ

ثم انتقلنا من ليبيريا الى غانا اول دولة افريقية تحصل على استقلالها ، حيث التقيت .كوامى نكروما الذى كان بمثابة شبه إله القومية الافريقية انئذ . وكان مستحيلا الا اعجب بنكروما لولا حديثه الطويل عن الاستقلال الرسمى وحرصه على ان يظل هو رمزا للتحرر الافريقى كنا نتحدث على مستويين مختلفين . فكان مهتما بأمجاد الحرية بينما كنت اتحدث عن تطوير ثروات افريقيا والتعليم والصحة وغيره واعتقد اننا بعد ساعات طويلة من الحديث لم يتمكن احدنا من اقناع الآخر .

كنت اتحدث عن الامور العمالية بينما كان نكروما يستعرض مواهبه الخطابية واذكر انه حدثنى عن تمثاله الذى وضعه امام مبنى البرلمان في اكرا . وان الاستقلال لا يعنى شيئا لدى سكان الاحراش . فهم لا يعرفون معنى الكلمة . لكنهم عندما يرون صورتى على العملة المعدنية بدلا من صورة الملكة . فإنهم عندئذ فقط سيدركون معنى الاستقلال . ومع هذا الاختلاف بيننا فإن العلاقات الوثيقة نمت إلى حد كبير بين اسرائيل وغانا وتمثلت في برامج التدريب واعمال الانشاء والهندسة . كما ساعدنا على انشاء وادارة شركة الملاحة الغانية .

وقد التقيت بعدئذ بقادة افريقيين آخرين . من بينهم الرئيس هوفوييه بوانييه رئيس ساحل العاج (وهو من نفس قبيلة نكروما ولا يتحدثان الا بلغتهما القبليه لان نكروما لا يتكلم الفرنسية وبوانييه لا يتكلم الانجليزية) وكان على العكس من نكروما يرى ان التنمية تماثل الاستقلال اهمية . ويدرك الاخطار التى قد يواجهها الافارقة فيما لو اصروا على الاستقلال دون اعداد كاف . ولكن بوانييه ـ هو الآخر ـ استسلم في نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٣ وقطع علاقاته معنا . شارحا بحزن انه اضطر للاختيار بين « اشقائه » العرب و « اصدقائه »

الاسرائيليين، لكننا على اية حال نتحدث الآن عن عام ١٩٥٨ . وكانت الامور حسنة .

وبالرغم من ان لقائى الاول بنكروما كان محزنا ، فإن زيارتى لغانا كانت هامة جدا لكل عملنا في افريقيا فقد كانت غانا تستضيف مؤتمر كل شعوب افريقيا الذى يضم ممثلى كل حركات التحرير الافريقية بما فيها جبهة التحرير الوطنى الجزائرية وكنت قد التقيت بالدكتور جورج بادمور . وهو شيوعى سابق من الهند الغربية وقد اصبح اهم المفكرين والايديولوجيين لحركات التحرر « التقدمية » وهو صاحب نظرية تنمية افريقيا بالاعتماد اساسا ـ كما قال ـ على زنوج الولايات المتحدة الامريكية وعلى النداء اليهودى الموحد واصر بادمور على ان التقى بممثلى افريقيا المجتمعين في اكرا في فندق امباسادور .

ودخلت إلى قاعة الاجتماع فوجدت ستين قائدا إفريقيا حول مائدة الاجتماع . وقدمنى اليهم بادمور . وما هى الا لحظة حتى وقف مندوب الجزائر ووجه السؤال الى مباشرة لماذا يأتينى السلاح من فرنسا وهى الدولة الوحيدة التى تحارب بشراسة في بلده وضد اخواته الافريقيين . وبهدوء اشعلت سيجارتى وقلت للجميع اننى مضطرة إلى حماية بلدى من جيرانى الذين يأتيهم السلاح من الاتحاد السوفيتى وان البلد الوحيدة المستعدة لبيع السلاح لى مقابل المال هى فرنسا . وقلت لهم انه لو كان ديجول هو الشيطان نفسه لمددت اليه يدى لشراء السلاح . فهل كنتم تفعلون مثلى لو كنتم في مكانى ؟ وسمعت اهات الارتياح .. فقد عرف الافريقيون اننى لا اكذب عليهم ؛ وانهالت اسئلتهم على عن اسرائيل

واستمر هذا الحوار مع الآفارقة طوال فترة اقامتى في غانا ، بل وساهم في ارساء قواعد برنامجنا للتعاون الدولى واستطعت ان اكسب

احترام وصداقة الافريقيين الذين اعربوا عن تشوقهم إلى العمل مع الاسرائيليين · ولم يكونوا معتادين على البيض الذين يعملون بأيديهم في مواقع العمل بعيدا عن مكاتبهم ·

واعتقد اننا نجحنا مع الافريقيين لاننا لم نتصرف بالاسلوب الذى كانوا يتوقعونه منا كأجانب ولقد ساعدنا بذلك على بناء الثقة بالنفس لدى الافارقة وجعلهم يؤمنون بأنهم يمكن ان يصبحوا جراحين وطيارين وزراع وغيره على عكس ما ادخل في عقولهم من انه حق قاصر على الابيض فقط ·

وحاول العرب من جانبهم انئذ ان يقنعوا الافريقيين بأننا لا نختلف اساسا عن غيرنا من « الاستعماريين » غير ان الافريقيين فهموا جيدا ان الخبراء الاسرائيليين عندما عملوا في مزارع الدجاج في زامبيا لم ينتجوا دجاجا « استعماريا » ، او ان مشروع تعبئة السمك مع مالى لم ينتج سمكا « امبرياليا »

ووضعنا ثلاثة معايير لاى مشروع ، كنا نوجهها في صورة اسئلة لدى طرح اى مشروع جديد ، هل المشروع مرغوب فيه ؟ وهل هناك حاجة اليه ؟ وهل تستطيع اسرائيل المساعدة فيه ؟ وكنا لا نشرع في اى مشروع،الا اذا كان الرد بالايجاب على الاسئلة الثلاثة · وهكذا عرفت الدول الافريقية اننا انفسنا قادرون على حل مشاكلهم ·

واعتدت على زيارة افريقيا والتلاؤم مع متاعب الرحلات فيها · وفي ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٩ زرت الكاميرون · ثم عدت إلى غانا ومن هناك توجهت للمرة الأولى إلى توجو (حيث ساعدنا على انشاء حركة للشباب وقرية تعاونية ، · وذهبت إلى غينيا حيث التقيت بالرئيس سيكوتورى ، وهو القائد الافريقى الوحيد الذى لم استطع تكوين صداقة معه رغم اعجابى بقدراته الثقافية وكان مثل نكروما ونيريرى

رئيس تانزانيا ، مهتما بموقف بلاده الدولى اكثر من اهتمامه برفاهيتها • ورغم انه كان تقدميا يساريا ، فلم يبد عليه ان لديه مفاهيم اجتماعية ولذا لم يكن هناك الكثير مما يمكننا ان نقدمه له • على اية حال لم تكن غينيا صديقة لاسرائيل ، ولم ادهش عندما قطعت علاقاتها باسرائيل عقب حرب الايام الستة •

وانشأ الهستدروث في اسرائيل المعهد الافريقى الاسيوى ، كما اشتركنا في الوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة والمهتمة بالدول النامية • وفي صيف ١٩٦٠ ، وبتوجيه من ابا ايبان (الذى كان قد عاد من مهمته الناجحة كسفير لاسرائيل في واشنطون ، والذى اصبح في ١٩٦٦ خليفتى في وزارة الخارجية) تم عقد المؤتمر الدولى للعلوم واثرها في تقدم الدول الجديدة وذلك في معهد وايزمان للعلوم في رجوبوت • وكان الهدف من المؤتمر هو استكشاف الوسائل الكفيلة بأن يقوم العلم والتكنولوجيا بخدمة الدول حديثة الاستقلال وكان نصف المشتركين في المؤتمر من الافارقة والآسيويين والنصف الآخر من العلماء البارزين الاوروبيين والامريكيين ، واصبح انعقاد هذا المؤتمر تقليدا كل عامين حيث يتناول واحدا من الموضوعات كالزراعة او الاقتصاد او التعليم •

اما المشروع الآخر الذى اعتز به ، ومازال قائما ، فهو مركز جبل الكرمل للتدريب على الخدمة الاجتماعية ومازال هذا المركز يخرج النساء الوافدات من دول افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية بعد تدريبهن على اداء دور حيوى في تنمية بلادهن • ويحتل هذا المركز مكانة بارزة في قلبى لاننى ساهمت في تأسيسه بالتعاون مع انجه ثورسون السويدية ومينا بن زفى الاسرائيلية ، ولأننى كنت اكن اعجابا كبيرا لهؤلاء النساء اللائى يتركن عائلاتهن وبلادهن سعيا وراء تلقى علوم تنفعهن وتنفع اولادهن فيما بعد •

ولم يقتصر نشاطنا في تدريب الافريقيين على داخل اسرائيل ، اذ أنشأنا بالتعاون بين غانا ومركز جبل الكرمل مدرسة لتدريب العمال الاجتماعيين في كينيا ـ وقمت بإفتتاح هذه المدرسة في عام ١٩٦٣ في أول جولة لى في شرق افريقيا زرت فيها كينيا ،وتنجانيقا واوغندا ومدغشقر ، على متن طائرة صغيرة كانت تهبط بين الحين والاخر في موقع يعمل به خبير اسرائيلى ·

ولم يكن ذلك يعنى ان كل الاسرائيليين نجحوا ، فقد فشلت مشاريع عديدة · لكننى كنت افرح برؤية الافريقيين الذين تدربوا في اسرائيل وهم يطوفون بى في مزارعهم او عياداتهم الطبية في افريقيا ، متحدثين معى بالعبرية · وهؤلاء لا اظن انهم يعتبروننى في قرارة انفسهم « عدوة » لهم ، بصرف النظر عما قد يقولونه علنا

وتعلمت خلال هذه الرحلة الكبيرة في شرق افريقيا شيئا هاما ، هو اننا يجب ان نغير من اسلوبنا في الترفيه عن ضيوف اسرائيل الرسميين ففى كل مكان ذهبت اليه كانوا يصرون على اصطحابى في جولات لمشاهدة المعالم والطبيعة تستغرق كل منها ١٢ ساعة ، تليها ولائم حافلة تتخللها الخطب الطويلة وكنت اجلس في هذه الولائم ، منهكة القوى ، افكر في ان نفس ما أنا فيه الآن سوف يتكرر غدا واقسمت على ان اعمل عند عودتى إلى اسرائيل على اختصار جوانب كرم الضيافة والحماس ، واعترف اننى لم انجح في ذلك كثيرا ·

ومرضت فاضطررت إلى اختصار الرحلة رغم ان ذلك كان يعنى الغاء حفل الاستقبال الذى اعده لى ميلتون اوبوتى رئيس اوغندا ، الذى اقصاه فيما بعد عيدى أمين · ويخطر لى الآن ان اوبوتى وامين يمثلان طرفى نقيض فعلى عكس امين كان اوبوتى معتقلا ، جادا دءوبا ، ومؤثرا · ولم اكن قد عرفت امين عندما كان يتلقى تدريبه على القفز

بالمظلات في اسرائيل لكننى سمعت حينئذ انه كان شاذا غريب الاطوار . وقد اقنعتنى مقابلتى الاخيرة له في القدس ، كرئيسة للوزراء ، انه مجنون بالمرة . بل ان الحوار الذى دار بيننا يصلح لان يؤديه شارلى شابلن على المسرح .

بادرنى بقوله بكل جدية « اريد بعض الطائرات الفانتوم » فأبديت دهشتى وقلت له اننا لا نصنعها ولكننا نشتريها من الولايات المتحدة .. ثم سألته لماذا يريدها فأجاب « لاستعملها ضد تانزانيا » بعد ذلك بعث الى برسالة يقول فيها انه محتاج إلى عشرة ملايين من الجنيهات الاسترلينية على الفور ، ولم يجد جوابا على طلبه . وهنا غادر اسرائيل على الفور واتجه إلى العقيد القذافى في ليبيا ، وقطعت اوغندا علاقاتها باسرائيل في ١٩٧٢ ، اى قبل عام ونصف من حرب يوم الغفران .

واعتقد ان السر في العلاقة الطيبة بينى وبين كثير من القادة الافريقيين هو اننى كنت اتصرف وفق ما اقوله ، وانهم رأونى وانا اتصرف على هذا النحو ففى ١٩٦٤ ، على سبيل المثال ، شاركت في احتفالات زامبيا (روديسيا الشمالية سابقا) بيوم الاستقلال وتضمنت الاحتفالات زيارة الشخصيات الهامة لشلالات ڤيكتوريا بين حدود زامبيا وروديسيا الجنوبية . ووصلنا بالاوتوبيسات إلى الحدود فما كان من الشرطة الا ان منعت السود من النزول وقال الضابط « البيض فقط » وعندئذ قلت « اذا فأنا لن ادخل روديسيا الجنوبية ، ولن انفصل عن اصدقائى » وعدنا بالسيارات إلى لوزاكا حيث استقبلنى كاوندا كما لو كنت جان دارك . لا كسيدة لم تحتمل ممارسة التفرقة العنصرية بأى شكل .

وكان مقررا ان استقل طائرة خاصة من نيروبى لتقلنى إلى نيجيريا وتلقيت في مطار نيروبى مكالمة من السفير الاسرائيلى يحذرنى فيها من المجىء إلى لاجوس لان زوجات السفراء العرب قرروا القيام بمظاهرة ضدى . كما ان معظم الوزراء يقومون بجولات انتخابية تمهيدا للانتخابات العامة . لكننى مع شعورى بالتعب والارهاق قررت السفر إلى لاجوس . وبدلا من ان اجد هناك مظاهرات معادية . وجدت مظاهرة مؤيدة تضم اولئك الذين تدربوا في اسرائيل او دربهم اسرائيليون في نيجيريا . واستقبلنى الرئيس ايزكوى قائلا « نحن نحترمك ونحييك كسفيرة لحسن النية الحقيقى » .

اما في آسيا فقد قضيت فيها وقتا اقل . وان كنت اقابل دائما بالترحاب . كانت آسيا بعيدة عن نطاق الاهتمام باليهود والتوراة في حين ان افريقيا كانت على وعى بالعهد القديم عندما دخلتها المسيحية بل وكثيرا ما قابلت في افريقيا من يدعون « شاءول » و « موسى » و « صمويل (اما في آسيا فكانت هناك ضرورة لان نفسر ونشرح للناس من نحن ومن نكون . وقد حكى رئيس وزراء بورما الاسبق اونو لسفيرنا في رانجون . انه لم يكن يعلم شيئا عنا إلى ان عثر بالصدفة على كتاب قرأه فعرف من هم اليهود اما سر العلاقة الوثيقة بين اونو وبن جوريون فسببها ان اهتمام بن جوريون بالبوذية جاء متأخرا وهو كبير في السن .

وقبل ان احكى عن رحلاتى إلى الشرق الاقصى فإننى اكرر ما قلته من قبل وهو ان الصين هى الدولة الآسيوية الوحيدة التى لم ننجح معها . وهناك من يقولون اننا لم نبذل جهدا كافيا لكسب صداقتها لكننى على يقين من انه لم يكن بوسعنا ان نقبل اكثر مما فعلناه ففى عام ١٩٥٥ ارسلنا بعثة تجارية إلى بكين ووجهنا اليهم الدعوة

لزيارة اسرائيل ، لكنهم لم يلبوها وفي مؤتمر باندونج في اواخر هذا العام بدأ التقارب المصرى الصينى وكان موقف الصين العنيف بعد معركة السويس ثم التأييد المطلق للعرب والواقع ان الحكومة الصينية مرتبطة بالحرب العربية ضد اسرائيل ، ومازال السيد عرفات ورفاقه يحصلون على الاسلحة والاموال والدعم من بكين وكنت على يقين من اننا سوف ننفذ إلى الصين بمجرد ان نتحدث معهم ولو مرة واحدة ·

وهناك صورتان تقفزان إلى ذهنى كلما ذكرت الصين احداهما صورة اللغم المصنوع في الصين والذى اودى بحياة طفلة في احدى مستعمرات الحدود · اما الثانية فأثناء حفل عيد الاستقلال في كينيا اذ جاءت مائدتنا مجاورة لمائدة الوفد الصينى وفكرت في ان جو الحفل قد يساعد على ان اتحدث معهم وطلبت من ايحود اڤرييل ان يقدم نفسه للصينيين فذهب ايحود ومد يده لرئيس الوفد الصينى قائلا ان وزيرة خارجيتى تريد الحديث معك واكتفى اعضاء الوفد بأن اداروا انظارهم إلى الناحية الاخرى دون حتى ان يرفضوا

ولكننى لم أيأس فقد كان صديقى الاشتراكى الايطالى بترونينى مدعوا لزيارة الصين · وعندما التقينا في القدس طلبت اليه ان يتحدث مع الصينيين عن اسرائيل وقد فعل الرجل ذلك فعلا محاولا شرح ماهية اسرائيل لكن المسئولين الصينيين كانوا لا يولون الامر اهتماما · وبالطبع وصفونا بأننا « دمية في يد الولايات المتحدة » بل قال له احدهم لو ان كل مجموعة من ثلاثة ملايين انشأت لها دولة ، فلك ان تتصور كيف سيكون العالم ·

وكم كنت اتمنى لو ان احدا من اولادى صاحبنى في رحلاتى ، فسارة لم تكن تحب مغادرة ريڤيڤيم ومناحيم لم يكن يفضل ترك آيا (واولادهما الثلاثة عمنون ودانييل وجدعون) أو آلة التشيلو وكنت

اعود دائما محملة بالهدايا والأقمشة المشغولة والاقنعه الخشبية لكننى كنت اتمنى ان يروا ما اراه وان يقابلوا من اقابلهم وكنت دائما افكر في الشعور الذى يساور اولادى وأحفادى ازاء هذه الحياة التى اعيشها وانا احب احفادى الخمسة ، واتمنى الا يروا حروبا اخرى .. لكننى لا استطيع ان اعدهم بذلك ·

وظللت الح على ساره ومناحيم الى ان وافقا على ان يصطحبانى ، كل على حدة ، في رحلتين · وسافرت معى سارة عام ١٩٦٢ في زيارتى إلى كينيا وإلى اثيوبيا حيث قدمتها للامبراطور هيلاسيلاسى · وقد كانت العلاقات بين اثيوبيا واسرائيل قوية وذات طبيعة خاصة ، ومع ذلك قطعت اثيوبيا علاقاتها بنا في عام ١٩٧٣ · وكان هيلاسيلاسى قد لجأ مع عائلته إلى القدس اثناء الاحتلال الايطالى لبلاده ومكث فيها عاما كاملا كنت اراه خلاله وهو يتنزه مع الامبراطوره في شوارع القدس · ولم يكن لاجئا عاديا ، فهو سليل الملوك الاثيوبيين الذين يقولون بأنهم نسل ابن الملك سليمان والملكة سبأ ، وعليه فهم اقرباء لنا

ومع ان اثيوبيا دولة مسيحية فإنها كانت افريقية ، وبالتالى وقعت تحت ضغط العرب · واصر هيلاسيلاسى على الاحتفاظ بعلاقاته معنا سرا ، ولم نكن من جانبنا نعلن عنها كما ساهمت معركة سيناء بفتح مضايق تيران ، على تدعيم التجارة بيننا ولم تبهر ساره بهيلاسيلاسى مثلى ، ومع ذلك تخلى عنا وقت شدتنا وتأكدت ـ ولم اكن في حاجة إلى دليل ـ من انه لا يجب لاحد ان يعتمد على احد الا على نفسه ·

وفرحتى عندما ابلغنى مناحيم أنه سيسافر معى إلى اليابان وقد استقبلنى هناك كل من الامبراطور ورئيس الوزراء ووزير الخارجية وكان هيروهيتو رقيقا دمثا لكن اليابانيين لم يلزموا انفسهم بشىء فيما

يتعلق بالشرق الاوسط . وكانوا يتناولون الموضوع وكأنه عملية ترتيب للزهور يجب ان تتوازن كل عناصرها بدقة ٠

وقال يعقوب شيمونى (رئيس قسم الشرق الاقصى) لمناحيم ونحن على متن الطائرة انه نظرا لان جولدا امرأة ووزيرة خارجية فإن اليابانيين لم يدرجوا في برنامج الزيارة حفلا لفتيات الجيشا وفق عادتهم في الحفاوة بضيوفهم وعندما وصلنا إلى طوكيو طلبت إلى مناحيم ان يبلغ اليابانيين ترحيبى بمشاهدة حفلة الجيشا ، وبالفعل اقيم الحفل في كيتوتو وتمتعت به وقد تأثرت ، كغيرى من الناس إلى حد كبير بجمال اليابان وقدرة اليابانيين على خلق الجمال في كل جوانب حياتهم اليومية كما قابلت عددا من اليهود اليابانيين ، او الذين تحولوا إلى اليهودية وكان احدهم - لدهشتى - من افراد العائلة الامبراطورية ٠

وتوجهنا من اليابان إلى الفلبين ، حيث منحت درجة فخرية من الجامعة الكاثوليكية في مانيلا ٠ وجرت مراسيم الاحتفال وسط القساوسة وحملة الصليب وكان بذهنى ان هناك عددا من المعاهد والجامعات لا تقبل حتى الآن الا القليل من اليهود ، بينما انا اليهودية امنح هذه الدرجة من جامعة مسيحية وهنا تذكرت ولم تكن تلك هى المرة الأولى - رسالة شينا التى حذرتنى فيها بقولها « اياك ان تنسى من انت » ولم اكن في حاجة إلى تحذير فقد كنت اعى جيدا اننى لا اتلقى التكريم لجمالى او حكمتى او علمى ، فأنا لم انس اننى من عائلة فقيرة ٠

ثم زرنا بورما ٠ وكانت العلاقات بيننا قوية منذ ١٩٥٢ ، عندما قام وفد من الاشتراكيين في بورما بزيارة اسرائيل كما قام شاريت بعد عام بزيارة رانجون لحضور المؤتمر الاشتراكى الآسيوى الأول وبحلول عام ١٩٥٥ كانت العلاقات الدبلوماسية الكاملة قد اقيمت بين

بورما واسرائيل وعين دافيد هاكوهين سفيرا . وجاء اونو رئيس وزراء بورما إلى اسرائيل ضيفا على بن جوريون ·

ولا اظن ان هناك علاقة حب عنيفة كالتى نشأت بيننا وبين بورما فلم يبق في اسرائيل شيء الا اعجب به البورميون وترسموا خطاه ونظرا لكونهم الدولة الاشتراكية الآسيوية الوحيدة . فانهم ارادوا نوعا من الهستدروث . والكيبوتز والجيش ولما كانت حدود بورما تتاخم حدود الصين فقد كان الحل هو « الناحال » (الحروف الاولى : للشباب الطلائعى المقاتل) ؛ حيث نصحتهم ببناء مستعمرات على الحدود يعمل فيها الناس بالزراعة ويدافعون عن انفسهم وعرضت عليهم ايفاد جماعات كبيرة من الجنود البورميين المسرحين إلى اسرائيل لمدة عام للعمل في الموشاف (القرى التعاونية) مع ايفاد الاسرائيليين إلى بورما لانشاء الموشاف هناك ·

وكانت هناك عدة مشاريع اخرى منها انشاء صناعة للأدوية في بورما . وتخريج الاطباء والممرضات - وانشاء نظم للرى لكننى كنت شغوفة بالذهاب الى منطقة الموشاف في نامسانج · وقد رافقنى في رحلاتى عبر بورما نى وين الذى كان رئيسا لاركان الحرب انئذ · وان هى الا اسابيع قليلة حتى استولى على السلطة واعلن سياسة جديدة مشايعة للروس ومناهضة للامريكيين · صحيح ان ذلك لم ينه العلاقات التجارية بين بورما واسرائيل . لكنه انهى قصة الحب ·

وعدت إلى اسرائيل محتاجة الى الراحة غير انى في الاعوام ٦٤ و ٦٥ و ١٩٦٦ انطلقت ثانية إلى الفضاء الخارجى ؛ إلى اوربا وافريقيا وامريكا اللاتينية وكنت على الدوام مريضة فقد بدأت اشعر بالتعب من كثرة السفر · ثم اننى لم اعد صغيرة السن كما كنت من قبل ؛ فقد احتفلت في عام ١٩٦٣ بعيد ميلادى الخامس والستين ولم تكن الطاقة قد انتهت عندى ،

لكنى كنت اتمنى لو اتيح لى وقت اخلو فيه الى نفسى او ازور فيه اصدقائى القدامى دون ان يتبعنى الحراس ٠ وكنت مهما حرصت على ان ابدأ يوم العمل مبكرا لا انتهى منه الا في الساعات الاولى من صباح اليوم التالى ٠

لكن الامر لم يكن يخلو من ترويح عن النفس كتلك الحفلة التى اقمتها عام ١٩٦١ لزملائى الذين جاءوا معى على ظهر الباخرة إلى فلسطين منذ اربعين عاما ٠٠ اذ كنت اريد ان ارى من منهم قد استقر في اسرائيل ومن عاد منهم إلى الولايات المتحدة وكان محور الحديث والنقاش بينى وبين زملائى في الماباى في تلك الايام هو انخفاض نسبة المهاجرين اليهود القادمين الينا من الغرب وكان بعضنا يرى ان من الصعب عليهم ان ينتقلوا إلى وطن جديد تحوطه المخاطر وان يضحوا بمستوى معيشتهم الحالى . ثم ان الناس لم يعودوا مثاليين وعاطفيين كما كنا بالامس ومع ان الغضب كان يستبد بى ازاء تردد هؤلاء اليهود في الهجرة . فإننى لم اكن على استعداد في هذه الفترة من تاريخ اسرائيل ان اطلب منهم الا يعتبروا انفسهم اسرائيليين وانما « اصدقاء لصهيون » . وفقا للصيغة المخففة التى اقترحها بن جوريون في ثورة غضبه ٠

المهم اننى اردت ان اقابل التسعة عشر رجلا وامرأة الذين رافقونى على ظهر الباخرة إلى فلسطين ٠ ولانى لم اكن اعرف عناوينهم فقد نشرت اعلانا في الصحف ادعوهم إلى حفل في منزلى هم وأزواجهم وزوجاتهم واطفالهم واحفادهم لكن معظمهم لم يأت فإما كانوا قد ماتوا أو اصبحوا كهلة بينما عاد واحد منهم إلى الولايات المتحدة نهائيا وحضر سبعة او ثمانية منهم ٠ ورفضت بشدة الحاح الصحفيين ان يحضروا الحفل ولو لعدة دقائق ٠٠ فقد كانت الذكرى شخصية ٠ وبعد ان انتهى الحفل وانصرف المدعوون. خلوت إلى نفسى في الحديقة .

اسرح بأفكارى عبر هذه السنين الاربعين واتمنى لو ان موريس كان معنا

واحسست في نهاية عام ١٩٦٥ اننى في حاجة إلى التغيير . وكانت الحملة الانتخابية في هذا الصيف قد انهكت قواى وساءت احوال الصداع النصفى الذى يصيبنى وبدأت اشعر ان المسئوليات التى حملتها على كتفى ثلاثين عاما قد بدأت تثقل كاهلى ولم اكن اريد ان احيا إلى الابد . لكننى لم اكن ايضا اريد ان احيا نصف مريضة باختصار كنت في حاجة إلى عملية شحن بعد التعب وكانت الاحوال الداخلية سيئة فالاقتصاد متعب . والهجرة إلى الخارج تتزايد وفضيحة لافون مازالت آثارها بادية بين صفوف حركة العمل ولم اكن ارى كارثة تحدث اذا انسحبت من الحياة العامة فالحزب سيضمد جراحه . وليس بوسعى حل المشكلة الاقتصادية التى كانت نتيجة لقرب انتهاء التعويضات الالمانية في الوقت الذى لم تنخفض فيه لا ميزانية الدفاع ولا المقاطعة العربية

وجاءت احزانى الشخصية لتضيف المزيد إلى هذه الاحزان كانت صحة شينا قد ساءت . وكما حدث مع امى . فإن الكهولة اصابت جسدها وعقلها وحاول ليفى اشكول (الذى اصبح رئيسا للوزراء) وبنحاس سابير (وزير المالية) اقناعى بالعدول عن الاستقالة لكننى لم اكن اجد سببا للتمسك بالوزارة في الوقت الذى كان فيه ابا ايبان يعد نفسه لتوليها . وعرض على اشكول منصب نائب رئيس الوزراء . لكن العرض لم يستهونى واكدت لاشكول اننى لن اعتزل الحياة السياسية وانه خير لى ان اكون جدة طوال الوقت عن ان اكون وزيرة بعض الوقت . وقلت له اننى اريد ان اقرأ كتابا او ان استمع إلى الموسيقى . كما اننى لا اريد ان ارى مطارا لعدة سنوات مقبلة .

الفصل الثانى عشر

نحن .. بمفردنا !!

احتجت الى عدة شهور لكى أرتب تقاعدى .. وبادىء ذى بدء كان على أن أنتقل من القدس الى منزل في احد ضواحى تل ابيب ، ملاصق تماماً لمنزل مناحيم وأيا . ولم يقتصر الأمر على مجرد الانتقال من مدينة الى أخرى . فقد كان على أن أقرر ما هى الاشياء والهدايا التى ساخذها معى وتلك التى سأتركها . وكانت أمامى اكوام من مخلفات الرحلات الكثيرة التى قمت بها خلال الخمس والعشرين سنة الماضية . وجاءت كلارا من امريكا ، حيث ساعدتنى هى ولو في اختيار الكتب والهدايا واللوحات التى كانت تحمل عندى معان خاصة . لكننى كنت على يقين من أننى لن احتاج مرة أخرى الى جمع حاجياتى من جديد بعد الآن

وكان منزلى الجديد - وهو الذى مازلت اسكنه - يبلغ من حيث الحجم ربع مقر وزير الخارجية الذى شغلته تسعة اعوام . لكنه كان مريحاً ووافياً بحاجتى . ففية غرفتا معيشة وطعام مشتركتين تحيطهما ارفف المكتب ، وتؤديان إلى الحديقة التى اشترك فيها مع عائلة مناخيم وزوجته ، وهناك درج يؤدى إلى الطابق الأعلى حيث توجد غرفة نوم ومكتب كنت استقبل فيه الضيوف احياناً .

ولم تصدق عائلتى أننى سأعتاد على الحياة العادية .. لكننى بالفعل كنت أحس أننى حرة ، .كالسجين الذى اطلق سراحه . فأنا

أشترى حاجياتى واستقل المواصلات العامة ، واطبخ بل ـ وأنظف المنزل . واعددت قائمة بالكتب التى سأقرؤها وبالاصدقاء الذين لم ارهم منذ سنين . كنت أحس أننى خرجت في الوقت المناسب قبل أن يقول قائل « أما ان لهذه المرأة العجوز ان تدرك أن الوقت قد حان لكى تتقاعد ؟ » .

واعترف أننى كنت القى من الجمهور احياناً معاملة خاصة . فأصحاب الحوانيت كانوا يرسلون حاجياتى الى المنزل لكى لاتحمل وزيرة الخارجية السابقة الاكياس ، وسائقو الاوتوبيس كانوا يقفون احياناً عند باب البيت حتى لا أسير طويلاً . المهم اننى تحررت من قيود المكتب والرسميات، لكننى بقيت ملمة بكل ما يحدث في البلد . فأنا عضو في الكنيست وفي اللجنة التنفيذية للماباى ، وفي كلا المكانين كنت أعمل وفق ما احب واشتهى . باختصار كنت راضية عن كل شيء ..

وكان مفروضاً ان أتوقع ان هذا الهدوء الجديد الذى سررت به لن يستمر طويلاً . فقد الح زملائى في الحزب على ان اعود للعمل متفرغة طوال الوقت ، ولو مؤقتاً كى أعمل على توحيد قطاعات حركة العمل التى اهتزت اخيراً بسبب قضية لافون . وكان هذا هو الوقت الذى تتحتم فيه الوحدة . فقد وصلت الاحوال الاقتصادية حداً من السوء هدد بنهاية قيادة حزب العمل للبلاد ما لم تتحقق الوحدة والجبهة الموحدة على الفور . كان حزب الماباى قد انهكه انشقاق حزب رافى (الذى رأسه بن جوريون وديان) ، قبل ان تلتئم . جراحة اثر الانشقاق المبكر (عام ١٩٤٤) لحزب احدوت ها عفودا ، واثر تشكيل حزب المابام الماركسى بعد ذلك بأربعة اعوام . ويأتى التأييد للمابام من اعضاء الكيبوتز والمثقفين من الشباب الذين ينادون بتقارب اسرائيلى

سوفيتى ويؤمنون بامكانية تحقيق ذلك لو أن اسرائيل أرادت ذلك بالفعل ·

ولم تكن الخلافات بين الماباى واحدوت ها عفودا والمابام من الكبر بحيث تمنع قيام جبهة عمالية موحدة وتحتم وجود شخص يستطيع ان يوفق بين الاراء ويصلح النزاعات ، بشرط ان يكون هذا الشخص ـ كما قال لى زملائى ـ ملتزما بفكرة الجبهة العمالية الموحدة القادرة على احتواء خلافاتها ، وان يكون لديه الوقت لتحقيق ذلك · وقالوا لى انه ليس هناك سواى للقيام بهذه المهمة ، والا فانها لن تتحقق · واكدوا لى انه ما أن يتم هذا التوحيد فان باستطاعتى عندئذ ان اعود الى التقاعد وطلبوا منى ان اكون السكرتير العام لحزب الماباى ··

ولم يكن بوسعى أن أرفض هذا الطلب ، لاثقة منى بنجاحى ، ولا رغبة منى في العودة إلى قلب الاحداث ، ولا احساساً بالملل ، بل لسبب بسيط هو أننى كنت على يقين من أن الحركة العمالية في خطر · واثرت أن أضحى بالهدوء والراحة اللذين نعمت بهما عدة أشهر على أن أخذل زملائى · وهكذا وافقت وعدت إلى العمل والسفر والاجتماعات المستمرة والارتباط بجدول المواعيد ، لكننى وعدت نفسى ـ واولادى ـ أن تكون تلك هى أخر وظيفة اقبلها ·

وكانت تلك الفترة قد شهدت احداثاً في الشرق الأوسط أكبر من الخلافات في الحركة العمالية · ففى عام ١٩٦٦ كان العرب قد اتخذوا اهبتهم لجولة جديدة من الحرب · وظهرت الاعراض واضحة ، بل بدأنا في الواقع نرى نفس المقدمات التى سبقت معركة السويس عام ١٩٥٦ · فمثلما فعل الفدائيون في الخمسينيات ، اصبحت عصابات الارهابيين تقوم بعملياتها من غزة والاردن بتشجيع من الرئيس عبد

الناصر . وفي عام ١٩٦٥ تأسست منظمة جديدة تحت اسم فتح ، يرأسها ياسر عرفات ، اصبحت اقوى العناصر واشهرها في منظمة التحرير الفلسطينية . وتشكلت قيادة عسكرية موحدة سورية ، وخصص مؤتمر القمة أموالاً طائلة لتكديس السلاح لاستعماله ضد اسرائيل ، وتدفقت الاسلحة والاموال من الاتحاد السوفيتى على الدول العربية . وظهرت نية السوريين جلية في تصعيد الموقف ، عن طريق القصف اليومى للمستوطنات الاسرائيلية الواقعة تحت مرتفعات الجولان ، واعمال القناصة .

وفجأة بدأ الاتحاد السوفيتى في اتهام اسرائيل بحشد قواتها من اجل هجوم شامل على سوريا . وكان الاتهام سخيفاً ، اكدت الأمم المتحدة بعد التحقيق فيه انه لا يقوم على أساس . ومع ذلك مضى الاتحاد السوفيتى في اتهامنا بـ « العدوان » المبيت ، واستمرت الغارات السورية على مستوطنات الحدود ، وكلما تزايدت الغارات السورية تكفل سلاح الطيران الاسرائيلى بالهجوم ضد الفدائيين . وفي شهر ابريل (نيسان) ١٩٦٧ اشتبك الطيران الاسرائيلى في معركة مع الطيران السورى سقطت فيها ست طائرات من طراز ميج . وعلى الفور ، وبتشجيع من الاتحاد السوفيتى ، اثارت سوريا ضجة حول الهجوم الاسرائيلى الكبير ضدها ، بل وقدمت شكوى في هذا الصدد إلى أشكول عن طريق السفير السوفيتى شوفاخين . وكان هذا الحادث من اسباب تفجر الموقف وشد زناد الحرب .

وقال السفير الروسى لاشكول ان هناك ، برغم تصريحاتنا الرسمية ، حشوداً هائلة من القوات الاسرائيلية على طول الحدود السورية . وهنا لم يكتف اشكول بالنفى ، بل طلب إلى السفير الروسي زيارة الحدود الشمالية كلها ليرى بنفسه الموقف هناك ، وعرض

عليه ان يصاحبه · لكن السفير السوفيتى اعتذر بأعماله الأخرى ، في حين أن الجولة لم تكن لتستغرق منه عدة ساعات ، يعود بها بالدليل على انه لا مبرر للانذار السورى · وعندما رفض القيام بهذه الرحلة ، كان في الواقع ينفخ الروح في الكذبة التى أدت فيما بعد إلى دخول عبد الناصر في الصورة ، ثم الى حرب الايام الستة ·

وقام عبد الناصر في اوائل مايو (ايار) بالاستجابة الى ما أسماه « بورطة » السوريين ، فأمر القوات والمدرعات المصرية بالاحتشاد في سيناء · وحتى لا يسيء احد فهم نواياه ، فقد اعلن راديو القاهرة بوضوح « ان مصر بكل مواردها ، مستعدة للدخول في حرب تكون فيها نهاية اسرائيل » ·

وفي ١٦ مايو (ايار) تحرك عبد الناصر ثانية ، لكنه في هذه المرة لم يأمر جيشه وانما أمر الأمم المتحدة · فطلب من قوات الطوارىء الدولية ان تغادر مواقعها التى كانت فيها منذ ١٩٥٦ في قطاع غزة وشرم الشيخ · وكان محقاً في طلبه من الناحية القانونية اذ كان البوليس الدولى موجوداً على الأرض المصرية بموافقة مصر ، ولا يساورنى ادنى شك في ان ناصر لم يكن يتوقع فعلاً ان تستجيب الأمم المتحدة لاوامره بهذا الخنوع · اذ كان منافياً للمنطق ان تأتى قوة دولية للاشراف على وقف اطلاق النار بين مصر واسرائيل ثم تنسحب لدى أول طلب من أحد الطرفين المتحاربين ، واعتقد ان عبد الناصر كان يتوقع جولة طويلة من المناقشات والأخذ والرد · بل انه على الأقل كان ينتظر من الأمم المتحدة ان تصر على عملية متعددة المراحل · على اية حال ، استسلم يوثانت السكرتير العام للامم المتحدة لمطالب عبد الناصر على الفور ، لاسباب لم يفهمها احد حتى ولا أنا · فلم يستشر أحداً ، ولم يطلب رأى مجلس الأمن ، بل لم يقترح حتى التأجيل لعدة أيام ،

ووافق يوثانت من جانبه على الانسحاب الفورى . وبدأت عملية الانسحاب في اليوم التالى مباشرة ، وفي يوم ١٩ مايو (ايار) كانت مصر قد سيطرت بالكامل على حدودها مع اسرائيل .

ولم يشعر أحد مثلى بالمرارة ازاء استسلام يوثانت السخيف لعبد الناصر . وعادت الى ذاكرتى تلك الشهور المفزعة في نيويورك عندما كان العالم كله يطالبنا بالانسحاب الفورى من غزة بصرف النظر عما كنا نتوقع حدوثه . وتذكرت المحاولات الدءوبة الفاشلة مع دالاس وغيره من وفود الدول العظمى في محاولة لاقناعهم بأن ضمان السلم في الشرق الأوسط لن يتحقق الا عن طريق توقيع معاهدة لعدم الاعتداء بين الدول العربية واسرائيل بواسطة نزع السلاح اقليميا والمفاوضات .

وفي غمرة نشوته بالتخلص من قوات الطوارىء الدولية ، قام عبد الناصر في ٢٢ مايو (ايار) باختبار اخر لرد فعل العالم ازاء نواياه المعلنة في شن حرب شاملة ضد اسرائيل . فأعلن أن مصر تعيد فرض الحصار على مضايق تيران ، برغم ان أربع دول ضمنت حق اسرائيل في الملاحة في خليج العقبة (هى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وكندا) كان الأمر تحدياً من جانب عبد الناصر ، انتظر معرفة كيفية مواجهته . لكن احداً ايضاً لم يفعل شيئاً هذه المرة . وحدثت احتجاجات غاضبة . فقد وصف الرئيس جونسون هذا العمل بأنه « غير قانونى » وانه يحمل مخاطر تهديد السلام في المنطقة ، بل واقترح تشكيل قافلة بحرية تضم سفينة اسرائيلية لاختبار نوايا عبد الناصر ، لكنه لم يستطع اقناع بريطانيا وفرنسا بالاشتراك معه . وعقد مجلس الأمن جلسة طارئة ، لكن الروس سعوا الى عدم توصله الى أى قرار . وطار رئيس وزراء بريطانيا ، صديقى الحميم هارولد ويلسون ، الى الولايات المتحدة وكندا لمحاولة اقناعهما بتشكيل قوة عمل بحرية

لحراسة مضايق تيران ، لكن مساعيه فشلت · حتى يوثانث ، الذى ادرك مدى فداحة الخطأ الذى ارتكبه ، تحرك اخيراً إلى القاهرة في محاولة للتفاهم مع عبد الناصر · لكن المحاولة كانت متأخرة جداً ·

كان عبد الناصر قد خلص إلى نتيجة مؤداها انه مادامت الضمانات التى اعطتها الدول البحرية لاسرائيل بهذا القدر من التفاهة كما ثبت الآن ، فأى قوة الآن تستطيع منع المصريين من كسب هذا النصر الرائع والنهائى على الدولة اليهودية بحيث يصبح عبد الناصر هو الشخصية الاعلى في العالم العربى ! وتكفل الروس بإزالة اى شكوك لديه في هذا الصدد · وجاء وزير الدفاع الروسى برسالة في اخر لحظة الى عبد الناصر من كوسيجين تفيد أن الاتحاد السوفيتى سيقف خلف مصر في المعركة · وقال عبد الناصر لشعبه ان هدفه من الحرب هو تدمير دولة اسرائيل ، بل قال لمجلس الامة المصرى في الاسبوع الاخير من مايو (ايار) « ليست المسألة هى العقبة او مضايق تيران او قوات الطوارىء ·· وإنما هى العدوان الذى حدث ضد فلسطين عام ١٩٤٨ » · باختصار كانت الحرب المرتقبة هى الحرب النهائية للعرب ضد اسرائيل ، وكان عبد الناصر مقتنعاً بأنه سيربحها ·

وفي يوم أول يونيو (حزيران) كان في سيناء ١٠٠٫٠٠٠ جندى مصرى و ٩٠٠ دبابة ، بينما تكتلت في الشمال ستة ألوية سورية و ٣٠٠ دبابة · وقرر الملك حسين ملك الاردن اخيراً ، بعد تردد طويل ، أن ينضم الى عبد الناصر في مغامرته · وبعثنا برسائل كثيرة الى الملك حسين نبلغه فيها أنه لن يصاب بأى ضرر اذا ما بقى بعيدا عن الحرب (وكان اشكول قد بعث باخر هذه الرسائل الى الملك عن طريق هيئة الرقابة الدولية صباح نفس يوم اندلاع الحرب) · لكن اغراء المشاركة في النصر ، والخوف من تحدى عبد الناصر ، دفعا الملك

حسين الى الارتماء في احضان المصريين الذين استطاعوا ان يضيفوا الى المجهود الحربى سبعة الوية أخرى و ٢٧٠ دبابة وقوة أخرى من الطيران • وكان اخر المنضمين هو العراق ، الذى وقع مع مصر اتفاقية للدفاع المشترك قبل الحرب بيوم واحد • وحيث ان الغرب بدا اما مسئولا أو غير آبه ، وان الروس ساندوا العرب إلى آخر المدى ، فان عبد الناصر لم يكن ملوماً عندما افترض انه قد وصل أخيراً إلى وضع يمكنه من توجيه ضربة قاضية إلى اسرائيل •

حسن •• هذا ما كان لدى العرب وهذا حلمهم ، فما الذى كان يحدث عندنا ؟ لا اظنني في حاجة ـ ولا أريد ـ ان احكى عن حرب الايام الستة بعد كل ما كتب عنها • لكنني لا اعتقد ان هناك من ينسى في اسرائيل تلك الايام العصيبة التى سبقت الحرب ، والتى اسميناها بالعبرية (كونينات) اى الاستعداد • ولم اكن ايامها عضوة في الوزارة ، لكنه كان طبيعياً في مثل تلك الازمات أن أستدعى لكى اشارك في اتخاذ قرارات بالحياة او الموت •

ولم يكن هناك نقاش •• فسوف نحارب اذا اضطررنا لذلك ، وسنكسب • واخذ اشكول يسعى من أجل ايجاد اى تدخل دبلوماسى • وسافر ايبان الى باريس ولندن وواشنطون ، في الوقت الذى اعطى فيه اشكول الاشارة بهدوء للامة لكى تأخذ اهبتها للمرة الثالثة خلال تسع عشرة سنة للدفاع عن حقها في الوجود • وتأكدت مخاوفنا ، فلندن وواشنطون متعاطفتان لكنهما لا تريدان اتخاذ اية خطوة ، ونصحتانا بالصبر وضبط النفس • اما ديجول فكان واضحا وقال لايبان ان اسرائيل لا يجب ان تقوم بالخطوة الأولى ما لم يبدأ الهجوم العربى بالفعل ، وعندئذ ستتدخل فرنسا لانقاذ الموقف • وتساءل ايبان عما سيحدث لو لم نبق على قيد الحياة لكى تنقذونا ،

ولكن ديجول لم يجب واكتفى بأن أكد له ان استمرار صداقة فرنسا يتوقف كلية على مدى طاعتنا له ٠

وفجأة بدأ وجودنا يتعرض للخطر . واصبحنا بمفردنا بكل ما تحمله هذه العبارة من معان مفزعة ٠ فالعالم الغربى الذى طالما اعتبرنا انفسنا جزءاً منه استمع الينا والى تقييمنا للخطر المحدق بنا ، ثم ادار ظهره لنا ٠ وهكذا بدأنا الاستعداد للحرب المحتومة ٠ فأعد الجيش خططه الطارئة . وأمر اشكول بالتعبئة العامة ٠ وأعد الأهالى المخابىء . وقبعت القوات في النقب تحت سواترها المموهة تنتظر ٠ وبدا وكأن ساعة جبارة تدق دقاتها لنا جميعاً ٠ دون أن يعرف احد سوى عبد الناصر ساعة الصفر ٠

وفي أواخر مايو انتهى شكل الحياة الطبيعية التى نعرفها ٠ واخذت الدقائق تمر ببطء ٠ وفعلت كما فعل الاخرون فأعددت حقيبة للطوارىء فيها كل ما احتاجه في المخبأ اذا ما انطلقت صفارات الانذار ٠ وساعدت أيا في تجهيز منزلها . وذهبت الى ريفيفيم لرؤية سارة والأطفال ٠ واستمرت الساعة تدق ٠ وبقينا ننتظر وننتظر ٠ وتم اخلاء الفنادق لاستخدامها كمراكز للاسعاف العاجل ٠ وجرى تخزين المواد الغذائية والادوية . هذا بالاضافة الى الاستعدادات العسكرية بالطبع ٠ واصبح الجميع الآن مستوعبين لحقيقة اننا نقف بمفردنا ، وانه لا مناص من أن نكسب هذه الحرب ٠ ويسترجع ذهنى الآن ذكرى الروح المعجزة التى سيطرت على كل اسرائيلى في تلك الايام ، والتى حولتنا في غضون اسبوعين من مجتمع صغير خائف الى ٢ ١/٢ مليون يهودى يعتبر كل منهم نفسه مسئولا عن بقاء دولة اسرائيل على قيد الحياة . وكل منهم يعلم جيداً ان عدونا مصمم على القضاء علينا ٠

ولم تكن مشكلتنا أن نخرج سالمين أو بأقل خسائر . وانما أن نبقى على قيد الحياة كشعب .. ولم يكن من سبيل امامنا لتحقيق ذلك الا أن ننتصر .. وزالت خلافاتنا . واصبحنا باختصار عائلة واحدة . مصممة على الا تتزحزح عن وقفتها .. والاهم من ذلك ان يهود العالم تأكد لديهم ان زوال دولة اسرائيل معناه الا يشعروا بالحرية اطلاقاً بعدها . وتوجهت بعد الحرب . أو في يومها الاخير على وجه الدقة . الى الولايات المتحدة في زيارة لعدة أيام ألقيت فيها كلمة في حشد هائل في ماريسون سكوير . ورغم أنني كنت في عجلة من أمرى للعودة الى اسرائيل . فقد كانت امنيتى أن أقابل آلاف اليهود من الشباب الذين حاصروا قنصليات اسرائيل يريدون السفر اليها . تماما مثلما فعل اليهود البريطانيون في مطار لندن عندما احدثوا اضطرابات لأن طائرات العال (وهى الطائرات الوحيدة التى كانت تطير الى اسرائيل خلال الحرب) لم تستطع ان تنقل كل المتطوعين الموجودين . ولم يكن هؤلاء الشباب بغافلين عن الاخطار الرهيبة التى تنتظرهم في اسرائيل . والة الحرب العربية الجبارة تقترب من حدودنا شيئا فشيئا على أية حال انتهت الحرب في ستة ايام .

وتم بناء على طلبى . ترتيب اجتماع عاجل لى مع ١٠٠٠ من هؤلاء المتطوعين . وسألتهم لماذا ارادوا الذهاب الى اسرائيل . ؟ هل هم صهاينة ؟ ام لانهم كانوا يبحثون عن الاثارة ؟ او أن تربيتهم هى السبب ؟! . ولم تكن الاجابة واحدة لدى الجميع . لكن واحداً منهم عبر عن الآخرين عندما قال لى ان الأمور قد تغيرت كلية بعد الحرب ولم تعد حياته بل ولا علاقاته مع عائلته كما كانت من قبل وفهمت ما يعنيه هذا الشاب . انه يقصد هويته كيهودى وانتماءه لعائلة أكبر يمثل فرداً منها . كان الخطر الذى يواجهنا جميعاً . هو خطر الابادة .

وقد حكم عبد الناصر واعوانه على حربهم بالفشل عندما اعلنوا هذا الهدف ، لأننا ـ جميعا ـ كنا قد قررنا الا يتكرر « الحل النهائى » لهتلر ، والا تحدث مذبحة ثانية ·

وقد ساهم هذا التكاتف اليهودى الى حد ما في الدعوة الى قيام تحالف كامل شامل بين كل احزابنا (فيما عدا الشيوعيين) والى تولية وزارة الدفاع لمن هو اكفأ من ليفى اشكول · ولا بد أن أقول اننى لم اكن اؤكد كلا الدعوتين · فقد يكون التحالف الوطنى ـ وهو ما اضطررت الى تجربته فيما بعد ـ مثمرا في الظروف العادية التى تسمح بوجود الوقت الكافى لعرض وجهات النظر المتباينة ، أما في اللحظات التى يتحتم فيها اتخاذ قرارات مصيرية ، ويتوجب فيها توحد المفاهيم والمواقف ، فان هذا التحالف لا يؤتى ثماره · وكنت ارى أنه لو أريد تقوية حكومة اشكول فان ذلك لا يستدعى القيام بتغييرات كبيرة أو احداث تغييرات كبيرة في الأشخاص · وكنت اعلم جيداً ـ رغم أن الكثيرين في اسرائيل كانوا لا يعرفون أنئذ ـ ان اشكول بوضعه رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع ، قد عمل كل ما يلزم حتى تستعد قوات الدفاع الاسرائيلية لاداء مهمتها ، دون اية دعاية أو ضجيج ودون ان يلفت اليه الانظار · ولم يكن هناك شك في علاقته بالجيش وفهمه لحاجاته ومتطلباته ·

وقد كنا نعرف اشكول واسلوبه .. عندما تحدث الى الشعب خلال اسوأ أيام الاستعداد (كونينات) ، وقال كل شيء ، لكنه قاله بتردد ، في الوقت الذى كانت الامة تبحث عن قيادة ديناميكية · لكنى كنت أدرى ان ذلك ليس هو المهم ، فقد كان اشكول رجلًا حكيماً متفانياً حمل على اكتافه مسئولية ناء بحملها ، ولم يسبق لاى رجل دولة ان حملها · اما من كان شعوره مختلفاً ازاء هذه الحقيقة ، فلا يعود كونه

ابلها . اما ان يتردد الرجل في ارسال شعبه للحرب . فذلك أمر يحسب لصالحه .

وقد مرت بى هذه التجربة . وكثيراً ما فكرت في أشكول . عندما كنت اضطر الى الظهور على شاشة التليفزيون لكى ابلغ الشعب اشياء خطيرة دون ان اهتم باختيار الالفاظ والكلمات . وشعر الكثير من الاسرائيليين . وقد توترت اعصابهم . بأن اشكول قد خذلهم باحاديثه المذاعة ومحاولاته اليائسة المتكررة لايجاد مخرج من المأزق غير الحرب . واخذوا يتساءلون اليس هناك نهاية لهذا الموقف ؟ هل سنبقى تحت التعبئة ننتظر هكذا ؟ ما جدوى ارسال ايبان ليطرق بابا اخر ؟ . وبات اشكول غير واثق . ومترددا في القيام بأى حركة .

ولم تبرز خلال هذه الحملة من النقد اية حاجة حقيقية لاستقالة اشكول . وانما ازداد عدم الرضا عنه ثم انقلب إلى ضغط متزايد من أجل تعيين وزير جديد للدفاع . يكون على قدر أكبر من الشجاعة والجاذبية الجماهيرية . وبحلول نهاية شهر مايو (ايار) بان واضحاً ان الآلاف من الاسرائيليين يتطلعون نحو موشى ديان تعبيراً عن التصميم على الصمود . وكأنما أصبح الاسرائيليون (كثير منهم . ولكن ليسوا كلهم) يتوقعون أن ديان سوف يقدم ما لم يستطعه اشكول . ولا يمكننى حتى الآن أن أحدد بالضبط ما الذى كانوا يريدونه .. ربما ضمان ان يقودهم مقاتل في وقت الضائقة . وربما كان الامر هو ميزة عدم الخوف التى تشكل جانباً كبيراً من شخصية ديان . على اية حال استسلم اشكول . بعد أن اصيب في الصميم . وبعد أن أدرك ان الحفاظ على الوحدة القصوى امر ضرورى . ولم أعد أسأل نفسى متعجبة . انه لو كان ديان مرشحاً بارزاً الى هذا الحد كوزير للدفاع . فان بن جوريون نفسه لم يكن ليعهد اليه بهذه الوزارة .

وبقى ديان وزيراً للدفاع حتى عام ١٩٧٤ . وكان وزيراً للدفاع في حكومتى . وكان العمل بيننا جيداً . وأملى أن يغفر لى ديان قولى أننى اؤمن بأن تعيينه وزيراً للدفاع في عام ١٩٦٧ لم يغير تغييراً اساسياً في مجرى حرب الايام الستة . وانه لم يكن مهندس النصر الذى حققناه . فقوات الدفاع الاسرائيلية لم تنتظر حتى أول يونيو (حزيران) حتى ترسم استراتيجيتها وتتدرب عليها . واجد من الصعب على ان اعتقد ان الحرب كان من الممكن ان تنتهى بشكل مختلف لو لم يدخل ديان الحكومة . واعترف هنا انه برغم الظلم الذى حاق باشكول . فان جماهير اسرائيل حصلت اخيراً على ما كانت تريده وهو القيادة العسكرية الديناميكية المؤثرة . وحمدت الله على ان الامر انتهى على هذا النحو .

وهناك امر هام لابد من توضيحه . الا وهو اننا قد حاربنا بهذا القدر من النجاح لاننا نأمل ان ننهى الحرب بشكل شامل لا يجعلنا نحارب مرة ثانية . فاذا ما جاءت هزيمة الجيوش العربية شاملة . فلعل جيراننا العرب يدركون اهمية السلام لنا جميعاً . لكننا كنا مخطئين . فبرغم ضخامة الخسائر والهزيمة . فإن العرب لم يدركوا . ومازالوا . ان اسرائيل لن تزول من الوجود . ولابد لى هنا أن أذكر القارىء بأنه في عام ١٩٦٧ كانت سيناء وغزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان كلها من ممتلكات العرب . ولذا فإنه من دواعى السخرية ان يقال اليوم ان وجود اسرائيل في هذه المناطق منذ عام ١٩٦٧ هو سبب التوتر في الشرق الأوسط وسبب حرب يوم الغفران . وانني اسأل رجال الدولة العرب الذين يطالبون اسرائيل بالانسحاب الى خطوط ما قبل ١٩٦٧ . اذا كانت هذه الخطوط مقدسة لديكم الى هذا الحد . فلم قمتم بحرب الايام الستة لتدميرها ؟ .

وبدأت الحرب في الساعات الأولى من صباح يوم الاثنين ٥ يونيو (حزيران) وعلمنا أن الانتظار قد انتهى عندما سمعنا صفارات الانذار . وما أن حل الليل حتى كانت ابعاد الضربة الاسرائيلية قد اتضحت . والتصقت اذاننا بأجهزة الراديو ، في الوقت الذى كانت فيه الموجات المتتالية من طائراتنا تعبر البحر الابيض المتوسط وتقصف المطارات المصرية وتنسف الطائرات المعدة للهجوم علينا وأعلن قائد سلاح الجو في الليل قصة الساعات الست الخرافية التى تم فيها تدمير ٤٠٠ طائرة للعدو ، بما في ذلك الطائرات الموجودة في المطارات السورية والاردنية . ودانت لنا السيطرة الكاملة على الجو من سيناء حتى الحدود السورية . وادركت الحقيقة عندما وقفت على باب دارى اتطلع الى السماء الصافية مدركة اننا قد نجونا من وهم الغارات الذى كان مسيطرا علينا .. وتنفست الصعداء .

وفي نفس اليوم ، وعلى نفس الطرق الثلاثة في سيناء ، تقدمت قواتنا تساندها الطائرات متجهة نحو قناة السويس ووقعت اشتباكات بين اعداد من المدرعات فاقت عدد المدرعات التى كانت متحاربة في الصحراء الغربية خلال الحرب العالمية الثانية . وانقلبت يد اسرائيل الممدودة بالسلام ، الى قبضة . ولم تعد هناك قوة توقف تقدمنا . ولم يكن عبد الناصر هو الوحيد الذى تبددت طائراته .

فقد كان هناك حسين ايضاً ، الذى وازن بين رسالة اشكول اليه بأن شيئا لن يصيبه اذا لم يشترك في الحرب ، وبين الرسالة التى تلقاها من عبد الناصر في الصباح تبلغه ان المصريين يقصفون تل ابيب ، في الوقت الذى لم تكن فيه لدى عبد الناصر قاذفة واحدة . ووقع حسين في الخطأ ، مثلما فعل جده من قبل ، فأمر قواته في ٥ يونيو (حزيران) بأن تشرع في قصف القدس والمستعمرات الاسرائيلية

على الحدود الاردنية · وكان مفروضا ان تقوم قواته بدور الذراع الايمن في الكماشة التى تحيط بنا · ومع حلول الليل بدا واضحاً انه سوف يخسر القدس الشرقية على الاقل · وكما حدث في عام ١٩٤٨ ، فان القوات العربية في ١٩٦٧ قصفت القدس دون ان تكترث بالخسائر التى قد تحل بالاماكن المقدسة فيها · اقول ذلك تعبيراً عن رفضنا لما يثار من مخاوف حول قدسية القدس تحت الادارة الاسرائيلية · فلا يحاول احد أن يقنعنى بأن احوال القدس كانت أفضل وهى في يد العرب او اننا غير جديرين برعايتها ·

واستغرقت هزيمة المصريين يومين ، ودفع حسين ثمن قراره الخاطىء في يومين · فبحلول يوم الخميس ٨ يونيو (حزيران) كان حاكم غزة قد استسلم ، وكانت قواتنا قد تمركزت على الحافة الشرقية لقناة السويس ، وعادت مضايق تيران إلى الإسرائيليين وسيطرتهم ، وتم تدمير ٨٠ ٪ من المعدات العسكرية المصرية · واعترف عبد الناصر بأنه فقد ١٠٫٠٠٠ جندى و ١٫٥٠٠ ضابط · واسرنا ٦٠٠٠ مصرى تقريباً وأصبحنا نسيطر على كل سيناء وغزة وكل الضفة الغربية التى تعادل نصف المملكة الأردنية ، والقدس القديمة · وفي يوم الجمعة ٩ يونيو (حزيران) استدارت قوات الدفاع الإسرائيلية نحو معتد آخر هو سوريا · وعرفت بنفسى السر في الثقة بالنفس التى كان السوريون يتمتعون بها ، فقد زرت المرتفعات السورية بعد الحرب ورأيت المساحات الشاسعة من المخابىء المسلحة المكسوة بالاسلاك الشائكة والمكدسة بالمدفعية والمدافع المضادة للدبابات ·· وادركت السبب في استمرار المعركة الشرسة لمدة يومين وليلة للاستيلاء عليها · وطلب السوريون من الأمم المتحدة ترتيب وقف لاطلاق النار ·

وانتهى الأمر ، وخسر العرب والروس حربهم · غير أن ثمن

انسحابنا هذه المرة لابد أن يكون أعلى وأعلى بكثير مما كان عليه عام ١٩٥٦ . فالثمن في هذه المرة هو السلام . والسلام الدائم . عن طريق معاهدة تقوم على أساس ضمان الحدود الامنة المتفق عليها . كانت الحرب خاطفة . لكنها كانت قاسية .. وشهدت اسرائيل الجنازات العسكرية من جديد . لكن الأمور لن تعود الى ما كانت عليه .. لن يقول لنا أحد ان الإسرائيليين شعب رائع يحقق نصراً على عشرة اعوام . وها هم قد عملوها ثانية . الآن وقد ربحنا هذه الجولة . لن تعود المدافع السورية الى المرتفعات لتقصف القرى الآمنة تحتها . ولن يعود الجنود الأردنيون الى اسوار القدس لقصفها . ولن تعود غزة مركزاً للارهاب . ولن تعود سيناء مسرحاً لانطلاق الوية عبد الناصر .

ولقد طرحت في ذلك الاجتماع في نيويورك السؤال التالى .. « من لديه الشجاعة ليقول لنا هيا .. عودا لوطنكم .. واعدوا اطفالكم الذين في التاسعة والعاشرة للحرب المقبلة ! » .. اننى على ثقة من أن أى انسان عاقل سيقول « لا » . واعذرونى اذا قلتها لكم بوضوح : المهم اننا جميعاً نقول « لا » .

حاربنا من أجل وجودنا وامننا . ودفعنا الثمن . وبدا لنا أن فجراً جديداً قد لاح سيوافق العرب فيه ـ بعد الهزيمة في المعركة ـ على الجلوس معنا وحل كل خلافاتنا . وكلها قابلة للحل . وما أن انتهت الحرب حتى منحت جميع العائلات في اسرائيل نفسها اجازة .. بما في ذلك عائلتى . وأخذ الآلاف من الاسرائيليين . بكل وسائل النقل . يتنقلون في رحلات لمشاهدة الأراضى الجديدة التى وقعت تحت حكمنا . وكانت القدس بالطبع هى المقصد الأول لجميع اليهود الذين وقفوا امام حائط المبكى يبللون بدموعهم . كذلك رأينا بيت لحم

وجرس والخليل وغزة وشرم الشيخ · وقابلنا العرب واشترينا منتجاتهم ·· وغمرنا الأمل في أن نعيش سوياً في سلام من جديد ·

وفعل العرب نفس الشيء ·· فذهبوا الى تل ابيب وجلسوا على المقاهى في الشوارع الرئيسية وشاهدوا نوافذ العرض في دكاكين القدس الغربية · ولا أريد أن أبدو وكأنى أقول ان العرب ولـوا وجـوههم شاكرين الله على هزيمتهم فقد كان بعض الاسرائيليين يرون أن ما يحدث هو احتفال لا يليق في وقت لم تشف فيه بعد جراح الحرب · لكننى لا أعتقد أن هناك أحداً شاهد اسرائيل في صيف ١٩٦٧ الا وشهد بأن النشوة الطاغية قد استبدت باليهود · كان الأمر في حقيقته كمثل حكم بالاعدام تم الغاؤه ·

ولو أردت ان اختار مشهداً يصور تلك الفترة التى اعقبت الحرب ، لاخترت منظر الاسوار التى كانت تفصل بين شطرى القدس والبولدوزرات تزيلها لتعميرها بين ليلة وضحاها مدينة موحدة ·· ذلك مشهد كان يبشر بمولد عصر جديد · وقلت لاحفادى ان الجنود سيرجعون وسيحل السلام وسنستطيع السفر الى مصر والاردن · كنت مؤمنه بذلك . لكنه لم يحدث ·

واعاد القادة العرب تقييمهم للموقف ، في مؤتمر للقمة عقد في شهر اغسطس (اب) في الخرطوم . وانتهوا الى أمر مختلف بالمرة · فأصدروا « اللاءات » الثلاثة الشهيرة ؛ انه لا سلام مع اسرائيل ، ولا اعتراف بالدولة اليهودية . ولا مفاوضات · لا ! لا ! لا ! ويجب ان تنسحب اسرائيل من كل الأراضى التى استولت عليها دون شروط · وكان ذلك هو جوابهم على نداء الحكومة الاسرائيلية الذى طالب « بأن نجتمع لا كغالب ومغلوب ، بل كمتساويين نبحث عن السلام دون شروط مسبقة » ، بصرف النظر عمن بدأ الحرب وعمن ربحها · وهكذا ذوت

ثمار النصر قبل أن تنضج . وتبخرت احلام السلام العاجل · لكننا كنا قد تعلمنا شيئاً هاماً وهو الا نكرر تجربة ١٩٥٦ · فمقبول أن نناقش او نفاوض أو نصل لحلول وسط او نرضخ ·· ذلك كله نقول عنه نعم . أما أن نعود الى حيث كنا يوم ٤ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ . فلا وهكذا لم يعد امامنا الا أمر واحد : هو ان اسرائيل لن تنسحب من أى من الأراضى الى أن تضع الدول العربية نهاية للصراع الى الأبد · وقررنا ـ ولم يكن القرار سهلاً ـ ان نصمد على خطوط وقف اطلاق النار مهما كان الثمن . وأن ننتظر من العرب ان يقبلوا حقيقة ان السلام هو البديل الوحيد للحرب . وان المفاوضات هى طريق السلام ·

في نفس الوقت استمرت الحياة بالنسبة لسكان الاراضى المحتلة الذين بلغ عددهم قرابة المليون نسمة · من بينهم ٦٠٠ر٠٠٠ في الضفة الغربية لنهر الاردن وقرابة ٣٦٥ر٠٠٠ في قطاع غزة وسيناء بالاضافة الى الدروز الذين اختاروا البقاء في مرتفعات الجولان ولم يتدخل الجيش ولا الحكومة العسكرية في حياة العرب اليومية الا بقدر ضئيل . وذلك بفضل مفهوم ديان عن الدور الذى يجب ان تؤديه · وتمت المحافظة على القوانين المحلية وعلى القادة المحليين · وفتحت الجسور المقامة على نهر الاردن . وعبرها العرب للتجارة مع الدول العربية وللدراسة فيها وزيارة اقاربهم · وكان هذا الاجراء مؤقتاً فقط . فلم يكن هناك اسرائيلى عاقل واحد يتصور ان كل هذه الأراضى سوف تبقى الى الأبد تحت سيطرة اسرائيل ·

فستبقى القدس مثلا موحدة ولكن مع وضع ترتيبات معينة لكى يسيطر المسلمون على الاماكن الاسلامية المقدسة · وسيتعين رسم حدود جديدة بين الاردن واسرائيل · وليس من المستحسن اعادة مرتفعات الجولان برمتها الى السوريين . أو أن تعاد سيناء كلها للمصريين ·

وبقى قطاع غزة مشكلة على وجه التأكيد . لكنه لم يكن هناك أى داع لرسم خرائط تبين شكل الشرق الأوسط أو حتى ان نتناقش فيما بيننا حول أى من الأراضى نعيدها لمن . وذلك الى أن يعالج هذا الأمر المعنيون به حقاً وهم جيراننا . ثم انك لا يمكن أن تعيد الأراضى في طرد بريدى . وهكذا قبعنا ننتظر رداً على نداءاتنا المتكررة بشأن المحادثات .

وأصدر مجلس الأمن قراره الشهير رقم ٢٤٢ ، الذى صاغة البريطانيون ، محدداً اطار التسوية السلمية « للنزاع العربى الاسرائيلى » . وتم تعيين ممثل خاص ، هو الدكتور جونار يارنج ، عهد اليه بمهمة الاشراف على « التسوية السلمية والمقبولة » . ولقد كتب الكثير عن القرار ٢٤٢ ، وتعرض لتشويه كبير من جانب العرب والروس .

ويلاحظ على نص هذا القرار أنه لم يقل ان اسرائيل يجب ان تنسحب من كل الاراضى ، او انها يجب أن تنسحب من « الـ » اراضى ، لكنه يقول ان من حق كل دولة ان تعيش داخل حدود « آمنة معترف بها » ، كما انه ينص على انهاء حالة الحرب ، وفوق ذلك فإنه لم يتحدث عن « الدولة الفلسطينية » ، وانما تحدث عن مشكلة اللاجئين .

ولم يكن هذا القرار فقط هو الذى اسىء تفسيره ، بل اسىء تفسير موقفنا نفسه . فبعد حرب الايام الستة الف افرايم كيشون أكبر كتاب اسرائيل الساخرين ، بالتعاون مع رسام الكاريكاتير دوش ، كتاباً عنوانه « نحن متأسفون لأننا انتصرنا » . وقد لخص هذا الكتاب باختصار الطريقة التى كنا قد بدأنا نشعر بها بعد ١٩٦٧ ، وهى ان الوصفة الوحيدة لتحسين صورة اسرائيل المتدهورة ، هى أن ننسى السلام

بالمرة · وان جريمتنا اننا ظللنا نقول للعرب « دعونا نتفاوض » . بدلا من أن نقول لهم « هذه هى الخريطة الجديدة . تعالوا ووقعوا على هذه الخطوط » ·

واصبحنا بهذا الشكل اشراراً · ولست افهم لماذا يحصل ويلى برانت على جائزة نوبل لاعترافه بخط حدود الأودرنية بذلك مصححاً الخطأ الذى ارتكبته المانيا النازية في حق بولندا ، بينما يوصم اشكول ـ وانا من بعده ـ بأننا توسعيون لأننا نريد نفس التعديلات بين اسرائيل وجيرانها · ولم يكن التوسع هو المهمة الوحيدة ، فكثيراً ما كانوا يسألوننا اذا لم يكن يقلقنا ان تنقلب اسرائيل الى أم عسكرية (او اسبرطه صغيرة) تضطر الى الأعتماد على « وحشية » قواتها المحتلة من أجل السيطرة على الأراضى التى تحتلها · لكنه لا أشكول ولا أنا ولا الغالبية العظمى من الاسرائيليين . كنا نخفى حقيقة أننا لم نكن نهتم بتسوية تجلب لنا الثناء على حكمتنا وتعقلنا في الوقت الذى تعرضنا فيه للخطر ·

وبقيت المهمة ملقاة على عاتقى في توحيد الحركة العمالية . الأمر الذى شغلنى طوال شتاء ١٩٦٧ وبداية ١٩٦٨ · وكنت في نفس الوقت أضع نفسى تحت تصرف أشكول لمساعدته في الازمات الحرجة سواء ما تعلق منها بتصاعد نشاط فتح والمنظمات الارهابية الأخرى أو ما اتصل بمحاولات الضغط علينا بالقرار ٢٤٢ للانسحاب من كل الاراضى المحتلة . وفي يناير (كانون الثانى) ١٩٦٨ تشكل حزب العمل الاسرائيلى . وهو اتحاد بين احزاب : الماباى واحدوت هاعفودا ورافى ، وتم انتخابى سكرتيراً عاما له في فبراير (شباط) · لكن الوحدة بهذا الشكل ظلت جزئية الى ان انضم اليها المابام بعد سنة كاملة ، وتم تكوين التحالف الاوسع او « المعراخ » كما يسمى بالعبرية · ورغم ان

الروابط بين الاحزاب الثلاثة كانت واهية . الا انها على الأقل جمعتها تحت سقف سياسي واحد ٠ وكانت تلك هى المهمة التى عهد بها الى لإنجازها. وأحسست ان من حقى ان أعود بعدها الى التقاعد . وذلك ما فعلته في شهر يوليو (تموز) ٠

اصبح عمرى الآن سبعون عاما . وتلك ليست خطيئة أن يصل العمر إلى هذا الحد . لكنه أيضاً ليس نكتة . وكنت قد اصبت بالمرض ثانية عام ١٩٦٧ ٠ وشعرت ان من حق نفسى على أن أخلد إلى السلام والهدوء . وصممت في هذه المرة على أن لا يثنينى أحد أو شىء عن عزمى ٠ وذهبت إلى الولايات المتحدة في حملة لترويج سندات اسرائيل . وهناك زرت مناحيم وأيا وأطفالهما في كونيكتيكت . حيث كانت أيا في منحة دراسية جامعية ومناحيم يقوم بتعليم التشيللو ٠ وقضيت لأول مرة في حياتى اجازة كاملة في سويسرا لعدة أسابيع . عدت بعدها إلى اسرائيل في كامل عافيتى ٠

ولم يكن الموقف قد تحسن في البلد ٠ فقد كانت هناك حرب من نوع ما على قناة السويس . يمطر فيها المصريون ضفة القناة بالقصف والقنابل بعد أن عوضتهم روسيا عن كل ما فقدوه في الحرب ٠ وكان عبد الناصر يزأر قائلاً سنضرب عندما يحين الوقت » . ويكرر ما اسماه أسس السياسة المصرية : لا اعتراف باسرائيل ولا تفاوض ولا سلام معها ٠ وفي ربيع ١٩٦٩ بدأ عبد الناصر ما عرف فيما بعد بـ « حرب الاستنزاف » ٠

وكان الناس . بعيداً عن الشرق الأوسط . ينظرون إلى ما يحدث على انه نوع من « الحوادث » ولم يكن هناك أحد في الخارج يأخذ أعمال المصريين في خرق وقف اطلاق النار مأخذ الجد ٠ لكننا اخذناها

مأخذ الجد . لأننا كنا نعرف ما تخبؤه وراءها . وبدأنا نبنى خطا دفاعيا قويا لحماية قواتنا على ضفة القناة . هو خط بارليف .

واتجهت المنظمات الارهابية الى حرب اسرائيل على بعد الاف الاميال منها . عندما فشلت في تحريض الأهالى داخل الأراضى المحتلة على اتخاذ تحركات ضخمة . اللهم الا اضرابا في الخليل او مظاهرة في جنين . وحظيت هذه المنظمات بتأييد السعودية وعبد الناصر بل والملك حسين الذى حاربوه فيما بعد سعيا وراء السيطرة على الاردن . وتراوحت اهداف الارهابيين ما بين الطائرات المدنية والمسافرين المدنيين . وكانوا كلهم من اليهود .

ولم يكن هناك سلام أيضا في الشمال . فقد تحول جنوب لبنان إلى ما سمى « أرض فتح » . وتعرضت للقصف كل المستوطنات والقرى الاسرائيلية بل وسيارات الاوتوبيس التى تحمل الاطفال . وذرفت حكومة لبنان دموع التماسيح مدعية انها لا تستطيع ان تفعل شيئا . رغم ان الارهابيين كانوا يتدربون داخل الأرض اللبنانية وينطلقون منها .

لكننا كنا قد قررنا الدفاع عن خطوط وقف اطلاق النار بالرغم من فتح ومن عبد الناصر . وبقى جنودنا في مواقعهم متأهبين . وكانت التضحية كبيرة . فهذا الجيش ليس جيشا عاديا من جنود يتقاضون رواتبهم . وانما من الاحتياطى .. من الطلبة والسائقين والاطباء واصحاب المحال .. جاءوا يؤدون واجبهم ويتمنون العودة إلى بيوتهم . ليواجهوا التزاماتهم في الحياة . ولا أظن أن هناك جيشا انتصر وغلبه الحزن كجيشنا . لان الحرب التى خاضها لم تصل الى نهاية حقيقية . فكان الجنود يعودون إلى بيوتهم لعدة أسابيع أو أشهر ثم يستدعون من

جديد ورغم تذمرهم فان الشك لم يخالجهم في الحاجة الى البقاء عند هذه الخطوط الى أن يتحقق سلام دائم ·

وفجأة في ٢٦ فبراير (شباط) ١٩٦٩ ، اصيب صديقى الذى عملت معه طويلاً واحببته كثيراً ، ليڤى اشكول بأزمة قلبية ثم توفى · وبلغتنى الانباء في منزلى فأصابتنى صدمة شلت حركتى تقريباً ، دون أن أجد احداً يأخذنى الى القدس ـ كان غياب اشكول شيئا يشبه المستحيل ، واخذت أفكر من ذا الذى يحل محله · وتوجهت الى منزل اشكول في القدس ، ثم جلست في احد المكاتب انتظر ما سيسفر عنه اجتماع الوزارة الطارىء من ترتيبات بشأن الجنازة · وعندئذ دخل أحد الصحفيين الاسرائيليين ·

وبادرنى على الفور بقوله « اننى أعرف مشاعرك الآن · لكننى عائد لتوي من الكنيست · وكل الناس هناك تقول ان الحل الوحيد هو عودة جولدا » · واجبته بغضب اننى لا أعرف ما الذى يتحدث عنه ، وقلت له ان هذا ليس وقتاً للحديث في السياسة ، وطلبت اليه ان يتركنى وحدى · وكررت اليه الطلب ان يتركنى بمفردى بعد أن أكد لى أن رئيس تحريره يريد التحدث معى هذه الليلة ·

وانتهى اجتماع الوزارة ، وتولى مقاليد الامور ايجال الون الذى كان نائبا لرئيس الوزراء · وبعد زيارة مريم ليفى اشكول ، عدت الى تل ابيب · وفي العاشرة مساء جاءنى رئيس التحرير قائلاً ان الجميع قرروا أننى الشخص الوحيد صاحب السلطة والخبرة والرصيد في الحزب الذى يمكن أن يقبله الجميع · ولولا الحالة التى كنت عليها ، لذكرته بأن اخر استفتاء عن المرشح لمنصب رئيس الوزراء اسفر عن حصولى انا على ٣ ٪ من الاصوات ، بينما حصل ديان على أعلى نسبة فى الاصوات ،

وكذلك حصل الون على نسبة طيبة · وصرفت رئيس التحرير بعد ان لمته على مفاتحتى فى امر كهذا بينما اشكول لم يدفن بعد ·

وبدأ الحزب في غضون ايام يزاول ضغطه على · كان الكل ، بما فيهم الون ، يلحون على في أن اؤدى أخر خدمة للدولة وللحزب الذي توحد اخيراً ، خاصة وان الانتخابات قد اقتربت والمطلوب فقط رئيس وزراء مؤقت لعدة أشهر · ولم يكن الكل يحبذون ترشيحى ، فحزب رافى ، برئاسة ديان وبيريز ، لم يكن متلهفا على ان أرأس الوزارة · وكنت بالطبع اقدر مشاعر الناس الذين كانوا يرون ان جدة في السبعين من عمرها ليست بالمرشح الكامل لرئاسة دولة عمرها عشرون عاما ·

ولم أكن قادرة على اتخاذ قرار · فعدم موافقتى كان يعنى انفجار الحرب بين الون وديان ، وذلك ما لم تكن اسرائيل في حاجة اليه عندئذ · فتكفينا الحرب مع العرب ، وعندما ننتهى منها نبدأ حرب اليهود · ولم أكن من ناحية أخرى أريد تحمل اعباء ومسئوليات رئاسة الوزراء · وأردت ان اتحدث مع العائلة ، فطلبت مكالمة تليفونية الى كونيكتيكت وتحدثت مع مناحيم وأيا ، ثم طلبت من سارة وزكريا ان يوافيانى في القدس ، حيث قضينا الليل نتحدث · وفي الصباح ابلغتنى سارة وزكريا ان قرارهما متفق مع رأى مناحيم ، وأنهما برغم علمهما بمدى المشقة التى سأعانيها فانه لا مفر امامى من ان اقبل ·

وفي ٧ مارس (اذار) اجتمعت اللجنة المركزية لحزب العمل واجرت تصويتا على ترشيحى رئيسه للوزراء ، وكانت النتيجة حصولى على سبعين صوتا ، دون اى معارضة ، وامتنع حزب رافى عن التصويت · وكثيرا ما سئلت عن مشاعرى في تلك اللحظة ، واتمنى لو

اننى اجبت برد مشاعرى · لقد انهالت الدموع من عينى . وامسكت برأسى بين يدى عندما انتهى التصويت . لكن ما اذكره بالفعل اننى كنت مذهولة · لم يكن في خططى ان اكون رئيسه للوزراء . بل اننى لم اخطط في الواقع لاى منصب · كنت قد خططت للذهاب الى فلسطين . لبذل النشاط في الحركة العمالية ـ اما لهذا المنصب الذى سأشغله . فلم يحدث قط · عرفت الآن ان علـى ان اتخذ كل يوم من القرارات ما قد يؤثر في حياة الملايين من الناس . ولعلى لهذا بكيت · لكن الوقت لم يكن ليتسع لافكارى حول الطريق الذى بدأ في كييف وانتهى في مكتب رئيسة الوزراء · لقد اصبحت رئيسه للوزراء بنفس الاسلوب الذى اصبح فيه بائع اللبن عندى قائدا لموقع متقدم في جبل الشيخ · كلانا لم تكن لديه الرغبة في هذه المهمة . لكن كلانا قام بها خير قيام ·

الفصل الثالث عشر

رئيسة الوزراء !!

وهكذا انتقلت مرة ثانية الى مقر رئيس الوزراء في القدس ، الذى عاش فيه قبلى بن جوريون وشاريت واشكول ، وبدأت في التعود على وجود الشرطة والحرس الخاص باستمرار ، وعلى يوم العمل الذى يستمر ست عشرة ساعة على الاقل ، وعلى ادنى قدر من الاحساس بالخلوة ٠ كانت هناك بالطبع ايام اقصر واقل توترا ، فلن ادعى ان السنوات الخمس التى قضيتها رئيسة للوزراء كنت فيها من الشهداء او اننى لم اتمتع بوقتى ٠ لكن فترة عملى بدأت بحرب وانتهت بحرب ٠ وكانت اول اوامرى كرئيسة للوزراء ، موجهة الى يسرائيل ليور - سكرتيرى العسكرى - بابلاغى فورا باى تحرك عسكرى ، حتى ولو كان ذلك في منتصف الليل ٠

وقلت له اننى اريد ان اعرف كل شىء ، موعد عودة الاولاد ، احوالهم ! وفهم ليور ، وقال لى انه لا يمكن تصور ان يوقظنى في الثالثة صباحا خاصة واننى لن افعل شيئا مادامت لم تقع خسائر ٠ واجبرت ليور على اطاعتى ٠ وكم من ليلة قضيتها في هذا المنزل الواسع الخالى اجوب ارجاءه في انتظار حلول الصباح او وصول مزيد من المعلومات ٠

كانت حرب الاستنزاف المصرية قد بدأت في مارس (آذار) ١٩٦٨ ، ثم ازدادت شراستها حتى صيف ١٩٧٠ ٠ وكان السوفيت قد زودوا مصر

وسوريا والعراق بما قيمته ، مع التحفظ ٣ ½ بليون دولار · لكن المستفيد الاول من فيضان الاسلحة والدبابات والطائرات كان عبد الناصر ، على امل ان يسفر استمرار اطلاق النار علينا ووقوع الخسائر بين صفوفنا ، عن موافقتنا على الانسحاب من القناة دون تحقيق اى سلام او اية نهاية للنزاع ·

كان عبد الناصر والروس يعلمون ان كل جندى يسقط لدينا يعتبر بمثابة طعنة في قلب الامة ، وعليه فانهم اذا ما واصلوا قصف مواقعنا في القناة فاننا سوف نستسلم · لكننا لم نفعل ذلك ـ لم تكن لدينا رغبة في محاربة احد ، لكنه لم يكن هناك بديل امامنا · كان الحل الوحيد امامنا لمنع الحرب الشاملة التى اعلن عبد الناصر انها الهدف النهائى لحرب الاستنزاف ، هو أن نرد بعنف ضاربين المنشآت العسكرية المصرية ، والاهداف العسكرية المصرية ، لا على خطوط وقف اطلاق النار فقط وانما داخل مصر نفسها ، بل واحيانا عند اللزوم كنا نوصل رسالتنا الى المصريين على ابوابهم في عمق الاراضى المصرية ولم يكن اتخاذ القرار امرا سهلا ، خاصة واننا كنا نعرف ان الروس على استعداد لتوسيع تدخلهم في مصر · وهكذا بدأنا استراتيجية الغارات الانتقامية « في العمق » ·

وقد اصبحت من القصص المعادة المملة ان نتحدث عن حرب الاستنزاف او عن السفن السوفيتية التى وصلت الى مصر سرا حاملة صواريخ سام ٣ · لكن رجالنا صمدوا بشجاعة على خطوط وقف اطلاق النار ، ومنعوا المصريين والروس من اقامة منصات الصواريخ قرب خطوط وقف النار · لكن مقدرتنا على الحفاظ على هذه الخطوط كانت في حاجة الى الدعم والمعاونة ·

ولم يكن امامنا الا قوة عظمى واحدة نتجه اليها هى الولايات المتحدة . صديقنا التقليدى الكبير . التى كانت تبيعنا الطائرات ، والتى لم تكن متفهمة لموقفنا مما بث المخاوف في نفوسنا ان تقطع عنا مساعداتها في هذا الوقت · وكان الرئيس نيكسون اكثر من صديق · لكنه لا هو ولا وزير خارجيته وليام روجرز كانا يتعاطفان مع رفضنا لاية حلول مفروضة . ولا مع معارضتى العنيفة لاقتراح روجرز بان يجتمع الامريكيون والبريطانيون والروسيون والفرنسيون للبحث عن حل وسط للنزاع بيننا وبين العرب · وشرحت لروجرز مرارا ان ذلك قد يرضى الوفاق الامريكى السوفيتى ، لكنه لن يأتى بضمانات حقيقية لأمن اسرائيل · فمن بين هذه الدول الاربع هناك ثلاث مع العرب وواحدة فقط ـ هى الولايات المتحدة ـ مع اسرائيل . ولم اكن اتصور امكانية التوصل الى حل اى شىء تحت هذه الظروف · ثم اننا من ناحية اخرى لو بقينا نغضب نيكسون وروجرز فقد لا نحصل على اى سلاح بالمرة · وتحتم فتح الطريق المسدود ·

كان ويليام روجرز رجلا دمثا . صبورا الى اقصى حد . استحوذ على اعجابى الشخصى · ثم انه هو الذى حقق وقف اطلاق النار في اغسطس (آب) ١٩٧٠ · لكننى (وارجو ان يسامحنى على قولى هذا) اشك في انه فهم خلفية الحرب العربية ضد اسرائيل او انه ادرك ان القادة العرب لا يمكن الوثوق بتعهداتهم الشفوية · واذكر حماسه في الحديث معى بعد زيارته الاولى للدول العربية وعن تأثره البالغ « بعطش فيصل للسلام » · ولعله لكونه « جنتيلمانا » قد احسن الظن بكل العالم حوله ·

ولم تفلح محاولاتى لاجراء اية اتصالات مع القادة العرب · بل اننى اعلنت يوم تولى منصبى اننا على استعداد لمناقشة السلام مع

جيراننا في اى يوم · وجاءنى الرد خلال ساعات . في خطبة لعبد الناصر قال فيها انه لن يعلو صوت فوق صوت المعركة ، ولم يأتنى اى رد مشجع من دمشق او بيروت او عمان . بل وصفت احدى الصحف الاردنية حديثى بانه يشبه القصص التى تحكيها الجدة لاحفادها قبل النوم ·

وظل الناس في الخارج يستفسرون منا عما اذا لم تكن لدينا نية لاسقاط عبد الناصر . وكأننا نحن الذين جئنا به ونحن الذين نخطط لاستبداله · وكانوا يسألوننا عما اذا كانت غاراتنا في العمق ضرورية « فعلا » ولازمة للدفاع عن النفس . وكأنهم يريدون منا ان ننتظر الى ان يتم ذبحنا لنتأكد نوايا المجرم ·

وورثت عن اشكول حكومة الوحدة الوطنية ، التى ضمت كتلة جاحال المعادية للاشتراكية (وتتكون من حزب حيروت اليمينى المتطرف ، وحزب الاحرار المعتدل ، بقيادة مناحيم بيجن) · وكانت هناك بالاضافة الى الخلافات الايديولوجية بين اليمين واليسار في اسرائيل ، اختلافات في معالجة الموقف الذى وجدت اسرائيل نفسها فيه · ففى شهر يونيو (حزيران) اقترح روجرز ان تجرى اسرائيل محادثات مع مصر والاردن تحت رعاية د · يارنج ، بهدف الوصول الى سلام دائم وعادل ، على ان يتم ذلك على اساس « العلم المتبادل بسيادة كل دولة وسلامة اراضيها واستقلالها السياسى » وعلى « الانسحاب الاسرائيلى من اراض محتلة عام ١٩٦٧ » وفقا للقرار ٢٤٢ · واقتراح روجرز وقفا لاطلاق النار لمدة ٩٠ يوما · وكان موقف جاحال ازاء ذلك ان هذا يعتبر تغييرا للسياسة المتبعة منذ ١٩٦٧ والتى قضت بوجود الجيش على خطوط وقف النار الى ان يتحقق السلام · ومع ان جاحال

قبلت وقف اطلاق النار فانها رفضت الموافقة على اجراء اية مفاوضات بشأن الانسحاب قبل تحقيق السلام ·

وحاولت ان اشرح لمناحيم بيجن الموقف ، دون جدوى · فقد اصر على موقفه ، قائلا ان ما علينا ان نفعله هو ان « نطلب » الاسلحة من امريكا فتصلنا · ولم اكن اشاركه رأيه في ان يهود امريكا سيضغطون على قادتها ، وان امريكا محتاجة الينا اكثر من حاجتنا اليها ، وان الضغط الامريكى على اسرائيل سيتوقف طالما استمر دفاعنا عن موقفنا · وليس عندى الا وصف واحد لهذا التفكير ، هو انه « اسطورى » لانه لا يعتمد على حقائق الواقع · ومن يدرى ما الذى كان يحدث عام ١٩٧٣ ، لو اننا اتبعنا سياسة تدمير نفسنا وتحدينا امريكا عام ١٩٧٠ ، لاشك انه ما كانت لتصلنا اية مساعدات عسكرية امريكية ، ولا انتهت حرب يوم كيبور نهاية مختلفة ·

ولم افاجأ عندما استقال وزراء جاحال الاربعة في اغسطس (آب) انطلاقا من المفهوم السخيف ان قبول وقف اطلاق النار هو بداية التراجع غير المشروط عن خطوط وقف النار · ورجوناهم البقاء من اجل تجنب المزيد من المشاكل ، لكنهم اصروا على الخروج ·

اما الامر الاخر الذى نغص على حياتى طوال عملى كرئيسة للوزراء ، فهو ما كان الوزراء يسرون به للصحافة · وكانت الشكوك تراودنى حول مصدر تسرب هذه الانباء المثيرة الى من كانوا يسمون انفسهم « المحررين الدبلوماسيين » ، لكننى لم استطع العثور على الادلة التى تؤكدها · واعتاد موظفو مكتبى على رؤيتى صباح اليوم التالى لاجتماع الوزراء ، سوداء الوجه ، لان الصحف نشرت انباء مشوهة عن الاجتماع · ولم تكن تلك هى المشكلة ، وانما المشكلة هى البقاء والعيش في سلام ، في مثل هذا الجو ·

وقررت بعد عدة اشهر ان اسافر بنفسى الى الولايات المتحدة لالتقى بالرئيس نيكسون وباعضاء مجلس الشيوخ . ولكى اعرف بنفسى موقفنا من الولايات المتحدة وموقفها منا . ولم اكن قد افلحت في اقناع روجرز باستبعاد الروس من اى تسوية للشرق الاوسط . ولا كان بوسعى ان احقق اكثر مما حققه رجالنا الموهوبون امثال ابا ايبان وزير الخارجية والجنرال اسحق رابين سفيرنا الجديد في واشنطن . ووافقت الحكومة على الفكرة . وبدأت الاستعداد للرحلة فور وصول الدعوة من البيت الابيض .

ولم اكن قد قابلت نيكسون من قبل . ولا عرفت الرجال المحيطين به . ولعله كان ينظر الى باعتبارى رئيسة وزراء لسد فجوة موجودة . لكننى قد لا يعاد انتخابى ثانية . لكننى قررت ان اذهب الى الرئيس الامريكى وان اطرح امامه كل مشاكلنا والمصاعب التى تواجهنا بكل صراحة . محاولة اقناعه كلية بأننا يمكن ان نتوصل لحلول وسط وتنازلات . لكننا لسنا على استعداد لسحب جندى واحد من بوصة واحدة من الارض المحتلة ما لم نصل الى اتفاق مع العرب . اما احتياجاتنا من الاسلحة . فقد قررت ان اعرضها عليه بنفسى .

واتممت استعداداتى للرحلة . واشتريت فستانين وبعض القفازات وقبعتين . ثم قضيت عدة اسابيع في عمل متواصل مع مستشارى وخاصة ديان ورئيس الاركان حاييم بارليف . حول « قائمة المشتريات » التى سأحملها الى واشنطون والتى تضمنت ٢٥ طائرة فانتوم و ٨٠ سكاى هوك . وانتويت ان اطلب من الرئيس قرضا بفائدة بسيطة قيمته ٢٠٠ مليون دولار لدفع ثمن الطائرات على خمسة اعوام .

ولابد هنا ان ابين ان اول رئيس يسمح ببيع الفانتوم والسكاى هوك لاسرائيل كان ليندون جونسون . الذى وعد بان يولى اهتماما

خاصا بالطلب الذى قدمه اليه اشكول عندما زاره في تكساس · ولم تكن الطائرات قد وصلت بسرعة ، ولذا وجدت نفسى مضطرة الى ان ابين لنيكسون مدى احتياجنا الشديد اليها،خاصة ازاء انعدام التوازن في التسلح في المنطقة · وكنت على ثقة من اننى سأحصل على الاموال المطلوبة ·· فرصيدنا ممتاز ، ولم يحدث ان تخلفت اسرائيل عن سداد اية اقساط لاحد · راذكر في هذا الصدد ان اقساطا كبيرة استحقت السداد عام ٥٦ ـ ١٩٥٧ لبنك الاستيراد والتصدير الامريكى ، ومع الركود الذى ساد اسرائيل فقد قررنا تحمل العبء على ان نؤجل السداد ·

وراودتنى الافكار اثناء رحلتى بالطائرة ·· هل ستكون الحفاوة بى مماثلة لما استقبلت به في اعقاب حرب الايام السته سواء من الرئيس الامريكى او من اليهود الامريكيين · وما ان وصلت مطار فيلادلفيا حتى وجدت عشرات الالاف من اليهود الامريكيين ينتظرون رؤيتى · وقضيت الليلة في فيلادلفيا ، ثم ركبت طائرة هليكوبتر حملتنى الى البيت الابيض · وهناك ركبت سيارة وصلت بها الى مكان الاستقبال ، ووجدت نيكسون يساعدنى على الخروج من العربة ، بينما زوجته تقدم لى باقة من الورود الحمراء · وشعرت من اول وهلة باننى في منزلى ·· وشعرت بالامتنان لنيكسون وزوجته ·

وبدأ الاحتفال الرسمى ، ولم اتمالك نفسى عندما سمعت السلام الوطنى الاسرائيلى ،فانهالت الدموع من عينى · ها انذا رئيس لوزراء الدولة اليهودية. اقف بجانب رئيس الولايات المتحدة الامريكية ·· وتمنيت لو ان اولادنا على القناة رأونى الان · ونحن في اسرائيل نولى اهمية كبيرة لهذه الاحتفالات ·· فقد كانت نوعا من الاحلام التى

كانت تراودنا عندما كنا نفكر فيما ستكون عليه دولتنا وعندما تكون لنا بزة تشريفة ٠

وبدأت اجتماعاتى مع الرئيس ، واتسمت بالحرارة والود والصراحة ، كما كنت امل ٠ وكان اتفاقنا تاما حول ضرورة استمرار اسرائيل في موقفها الى ان يتم التوصل الى اتفاق مع العرب ، وحول اهمية ان تحافظ الدولة العظمى على وعودها التى تقطعها لدولة صغرى ٠ كذلك فقد تحدثنا عن الفلسطينيين ، وكان حديثى معه صريحا ايضا في هذه النقطة ٠ فقلت له ان هناك دولتين فيما كان يعرف باسم فلسطين حتى حدود العراق ، احداهما يهودية والاخرى عربية ، ولا مكان بينهما لدولة ثالثة ٠ وستصبح هذه « الدولة الفلسطينية » بين الاردن واسرائيل قاعدة للهجوم على اسرائيل وتدميرها . ولذا فان على الفلسطينيين ترتيب أمورهم مع الأردن . واستمع الى نيكسون بكل اهتمام ، لكنه ظل مجندا لفكرة المحادثات الثنائية بين الدولتين العظميين والمحادثات الرباعية ٠ وقد سررت عندما علمت انه في الوقت الذى كنت مجتمعة فيه مع نيكسون ، كان اندريه جروميكو وزير خارجية روسيا مجتمعا في نيويورك مع وليم روجرز ٠ ولا ريب ان جروميكو قد ضايقه ذلك التوقيت للاجتماعين ٠

والح على الصحفيون حتى كادوا يقتلونى فاكتفيت بان ابلغتهم ان الحكومة الامريكية سوف تستمر في سياسة حفظ توازن القوة العسكرية في المنطقة ٠ وخيل الى بعض الصحفيين اننى خرجت خالية الوفاض بسبب عدم صدور بيان مشترك ٠ ولم اكن ارى فائدة لاصدار مثل هذا البيان ، ووافقنى نيكسون على ذلك ٠ اما قائمة المشتريات فقد تم تسليمها ، وكان ذلك هو المطلوب ٠

واقام لى نيكسون وزوجته حفل عشاء رسمى في البيت الابيض ،
كان من أسعد الليالى التى مرت في حياتى كان السبب في ذلك اننى لقيت منذ اللحظة الاولى تفهما كبيرا من نيكسون . كما اننى عرفت بالفعل موقف الولايات المتحدة منا · وكان مما ضاعف بهجتى وجود عائلتى في هذا الحفل · وضمت قائمة المدعوين ١٢٠ شخصا من بينهم اصدقائى من الحزبين الامريكيين · وارثر جولدبرج والسناتور جاكوب جافيتس ، وروجرز . وكسينجر ، وايبان ورابين · وبلغ من روعة العزف الذى اداه اثنان من امهر العازفين اليهود للموسيقى الاسرائيلية . اننى نسيت نفسى وقفزت من مكانى احتضنهما بعد ان انهيا عزفهما ·

والقى الرئيس نيكسون كلمة اكد فيها على رغبة شعب اسرائيل في اقرار سلام دائم لصالح المنطقة والعالم · ورددت عليه بكلمة شكرته فيها على كل شىء وخاصة على الفرصة التى اتاحها لى لكى ابلغ شعبى ان لنا صديقا كبيرا في البيت الأبيض · وقبل ان نغادر الحفل تبادلت القبلات مع زوجة نيكسون وكأننا اصدقاء قدامى ·

وقضيت في واشنطن أربعة أيام زرت في خلالها مقبرة الجندى المجهول ، وقابلت ويليام روجورز وزير الخارجية وملفين ليرد وزير الدفاع واعضاء لجنة الشئون الخارجية في الكونجرس ، ودعيت الى نادى الصحافة حيث قابلت اعتى الصحفيين الأمريكيين وأجبت على كل اسئلتهم ببساطة واختصار ، ولم يكن في اسئلتهم جديد ·

لكن سؤالين جديدين طرحا على · أولهما : هل تستخدم اسرائيل الأسلحة الذرية اذا ما تعرض بقاؤها الى الخطر ؟ . وأجبت بقولى أننا قد نجحنا حتى الآن بالأسلحة التقليدية . ولقيت الاجابة تصفيقا وضحكا. أما الثانى فقال لى : يقول حفيدك چدعون انك أحسن من يطبخ

السمك المحشو في اسرائيل . فهل لك أن تذكرى لنا طريقة عمله ؟ وأجبت بقولى اننى في زيارتى القادمة سأدعوكم جميعا الى تناول هذه الأكلة . وتصادف بعد عدة اشهر ان عرض التليفزيون في لوس انجلوس لقاء معى ورد فيه اننى سوف ارسل الى محدثى طريقة عمل الحساء (الشوربة) . وفي الأسبوع التالى تلقى البرنامج ٤٠,٠٠٠ طلب لهذه الوصفة .

وادلى نيكسون وقبل سفرى ، ببيان الى الصحفيين باسمه ونيابة عنى قال فيه ان التفاهم تام بيننا ، وأننا سنحاول البحث عن طريق نحو السلام . واضاف انه ليست لدينا اية مبادرات جديدة ، لكننا تفاهمنا على اسلوب العمل فيما بيننا من الآن فصاعدا .

ثم سافرت الى نيويورك حيث ابتلعتنى دوامة من المقابلات والاجتماعات والحفلات . وكان مفروضا ان اعود الى بلادى يوم ٥ اكتوبر (تشرين الأول) ، لكننى اجلت سفرى يوما كى البى دعوة اتحاد العمال الامريكى ، الذى تربطه بالهستدروث روابط وثيقة وامام هذا الحشد من العمال وقادة الاتحادات احسست انى اقف في ارض بلادى .

ولم استطع بعد عودتى الى اسرائيل ان اعلن عن حصولنا على الفانتوم . وكان الموقف على ما هو عليه .. فحرب الاستنزاف مستمرة والارهابيون نشطون ، والخبراء السوفيت يزدادون عددا في مصر بما في ذلك طيارو المقاتلات رجال الصواريخ الأرضية

ثم جرت الانتخابات ، السابقة منذ قيام الدولة واسفرت ـ كما كان متوقعا ـ عن فوز المعراخ ب ٦٥ مقعدا من ١٢٠ مقعدا في الكنسيت وتقدمت الى الكنيست بحكومتى « الائتلافية » التى خرجت منها كتلة جاحات فيما بعد في الصيف .

واصبحت الان رئيسة للوزراء عن جدارة وبحق · وبدأت اعمل على حل المشاكل الاقتصادية التى كانت تخلق شقاقا بين قطاعات المجتمع المختلفة · كانت هناك « اسرائيل الثانية » التى تتكون ممن جاءونا في اعوام ٤٨ و ٥٠ و ١٩٥١ من اليمن ومختلف بلاد الشرق الاوسط ، والذين ازدادت احوالهم تدهورا في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات · كان هناك عشرات الالاف ممن لا يجدون مأوى ولا لباسا ولا طعاما لائقا · لكنه كان هناك هؤلاء الذين يملكون كل ما يحتاجون ، بل وكل ما يريدون · اى ان هناك فقرا في اسرائيل ، وهناك ثروة ·· لكن كلاهما لم يكن كبيرا ·

كان هناك ، ومازال ، اسرائيليون يعيش كل عشرة منهم في غرفتين ، واطفالهم لا يذهبون الى المدارس ، ونظرا لخوفهم من ان يتحولوا الى مواطنين محرومين من الدرجة الثانية ، اصبحوا ينظرون الى المهاجرين الجدد على انهم سيسببون لهم مزيدا من التعاسة وسوء الحال · كذلك فان هناك اسرائيليين ـ ممن يحيون حياة مرفهة ويقودون افخر السيارات وكل مستلزماتهم مستوردة من الخارج ، اى انهم لا يحيون حياة المجتمع ولا طبقا لظروفه · وفيما بين هاتين المجموعتين يقع العمال والفنيون الذين يعيشون على مرتباتهم ، والذين اعتبرهم مسئولين عن تفشى ظاهرة الاضراب والمطالبة برفع الاجور ·

كانت تلك هى الطبقة التى وجهت اليها اهتمامى ، دون ان احقق نجاحا يذكر · لكن الهستدروث كان يمر بمرحلة غريبة · فلم يكن به من يؤمن مثلى بان من حق بل وواجب اتحاد العمال ان يدافع عن حقوق العمال ويحميها وان يدعو للاضراب اذا لم تسفر المفاوضات عن اية اتفاقات ·· لكن الاتفاقات التى يتم توقيعها لم تكن تلقى احتراما ، وكانت تليها على الفور مطالبات اخرى برفع الاجور صحيح ان اطباء

اسرائيل وممرضاتها ومدرسيها يعانون من الناحية الاقتصادية ، لكن عليهم ان يفهموا ان هناك من اصحاب المرتبات المنخفضة من يطحنهم التضخم وارتفاع الاسعار الى حد اهلاكهم . لكننى على وجه العموم كنت اعارض بشدة اية اضرابات في الخدمات العامة ، وخاصة في دول تعيش حالة الحرب .

وخرجت على الشعب بحديث قلت لهم فيه اننى لا استطيع ان افعل كل شيء في وقت واحد .. فلا يمكننى ان اقضى على الفقر بدون فرض ضرائب ، وان اكسب حروبا ، واصلح الاحوال الاقتصادية ، واستوعب المهاجرين ، ثم اعطى كل واحد حقه بعد ذلك كله . وطلبت الى الفقراء الا يتحولوا الى ادوات سلبية ، بل ان ينشطوا من جانبهم ، حتى يمكننا تحقيق الاندماج الاجتماعى .

وقمت بتشكيل لجنة خاصة لدراسة طرق التغلب على مشاكل الشباب ، استمر عملها سنتين بدلا من عدة اشهر كما كنت اتوقع . وبدأنا في تنفيذ توصياتها قبل ان تطبع ، ومن ذلك مثلا اننا عندما كنا نضطر الى رفع اسعار المواد الاساسية ، كنا نعطى اصحاب الدخول المنخفضة تخفيضات ضرائبية ، واوليت اهتماما خاصا بانشاء الوحدات السكنية . المهم اننا كنا ننفذ ذلك في وقت استمرت فيه الحرب واعمال الارهاب ، ولو ان جيراننا وافقوا على السلام لامكننا ان نبنى مجتمعا افضل .. لكن انى لنا بالسلام !!

وفي اغسطس (آب) ١٩٧٠ تحقق وقف اطلاق النار الذى دعا اليه روجرز . واعلن عبد الناصر من جانبه ان هذا الوقف سيستمر وقتا مدته ثلاثة اشهر . وكأنما كان الوقت رمزا للقدر ، فقد توفى في سبتمبر (ايلول) واصبح انور السادات رئيسا لمصر . ولم يكن السادات فقط - كما بدا - اكثر تعقلا في تفكيره في الفوائد التى ستعود على شعبه من

جراء انهاء الحرب . وانما كانت هناك اشارات ايضا على انه لم يكن على وفاق مع الروس · اما الملك حسين . فقد وجد ان الفلسطينيين يشكلون تهديدا عليه . فانقلب عليهم وسحقهم · وربما كان ايلول (سبتمبر) أسودا بالنسبة لفتح . اما بالنسبة لى فقد بدا وكأن هناك فرصة ضئيلة متاحة امام المبادرة الامريكية والدكتور يارنج · ولم يغير العرب من تصريحاتهم بالنسبة لاسرائيل ولا من مطالبهم بانسحابها الشامل . لكن الحديث بدأ يتردد عن اعادة فتح قناة السويس وتعمير مدنها . الامر الذى بعث بعضا من التفاؤل في اسرائيل · واستمر وقف اطلاق النار . وخبا التفاؤل في اسرائيل . ولم تحدث الحرب في ١٩٧١ ولا في ١٩٧٢ . لكن السلام ايضا لم يحدث . واستمرت اعمال الارهاب وازدادت عنفا وشراسة ·

ولم يوافق احد بالطبع في كل العالم المتحضر على اجبار الطائرات على النزول في مطار اللد . او خطف وقتل الرياضيين الاسرائيليين في ميونيخ . ولا على قتل الاطفال في قرية معالوت · وفي كل مرة كانت تنهال على التعازى ومشاعر التعاطف · ولكن كثيرا كانوا يتوقعون منا ان نتوصل الى تفاهم مع اولئك الارهابيين الذين يريدون ابتزازنا واجبارنا على الركوع امامهم · لقد ثبت ان الاستسلام امام الارهاب لا يؤدى الا الى مزيد من الارهاب ·

لكننا تعلمنا ان نصمد امام الارهاب . وان نحمى طائراتنا وركابنا . وان نحول سفاراتنا الى قلاع صغيرة . وان تطوف الدوريات بشوارعنا لحمايتها · وكنت اسير في جنازات الضحايا وازور اسر المنكوبين . وانا اشعر بالفخر لانتمائى الى امة لم تخضع للارهاب او تستسلم له · هذا في الوقت الذى استسلمت فيه حكومات اخرى لهؤلاء الارهابيين الذين اسماهم اليسار الجديد بـ « الفدائيين » و « المدافعين

عن الحرية » · وبقى هؤلاء الارهابيون في نظرنا مجرمين لا ابطالا ، بل اننى اصبت فعلا بالمرض عندما تم الافراج عن قتلة الرياضيين الاسرائيلين في ميونيخ وارسلوا الى ليبيا ·

وكان السلام الدائم والمشرف ، هو الحل الوحيد والممكن · وكانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك هى الاستمرار في اقناع اصدقائنا بصحة موقفنا ، مادام اعداؤنا يرفضون الحديث معنا ، وتحدى كل احتمال قد يؤدى الى المفاوضات ·

وسيبقى الكثير من رحلاتى ومحادثاتى سرا وان كنت قد تعلمت من احدى رحلاتى انه لا يمكن الحفاظ على سرية اى تحرك · فقد كنت في ربيع ١٩٧١ في جولة بين الدانمرك وفنلندا والسويد · وفكرت في ان اقضى يومين في عطلة بين زيارتى لهلسنكى وستوكهولم ·· وقررت قبول دعوة لزيارة لابلاند في اطراف فنلندا · وثار الجميع ضدى سواء لوكدار او حرسى الخاص او رجال الامن الفلنديين ، فهذه المنطقة بعيدة جدا وليس فيها الا الثلوج ولا تبعد عن الحدود الروسية كثيرا · لكننى صممت وذهبت · وهبطنا الى مطار لا تزيد مساحته على مساحة ملعب التنس حيث كان في استقبالنا عمدة لابلاند ومعه بعض سيارات التاكسى · وتصادف ان كان بالمطار احد الصحفيين الذى لاحظ ان زوجة العمدة تحمل زهورا ·· اذا فلابد ان هناك ضيفا هاما ستقدم اليه هذه الزهور النادرة في هذه المنطقة ·· ولمحنى وانا اهبط من الطائرة فابرق بالخبر على الفور الى رئيسه · وقضيت اليومين في راحة وسعادة اطوف بالبحيرات المتجمدة واشترى الهدايا · ثم عدت الى ستوكهولم لاكتشف ان العالم كله يتحدث عن رحلتى السرية الى قرب الحدود الروسية ويتساءل عمن قابلته من المسئولين الروس هناك ·

ولقد مرت بى فترات خلال هذه السنوات الخمس ، كنت اتمنى فيها لو تركت كل شيء ، لا لارهاق صحى او تعب وانما لملل من تكرار نفسى واضطرارى الى ان اقول نفس الاشياء في كل مكان تعبت من الحديث عن العقد التى تحكمنى ، مع اناس كانوا يرون ان الحل هو ان تسلم اسرائيل اما الى السادات او الى عرفات · نعم ان لدى عقد ·· ان لم تكن هذه العقد قد بدأت في كييف ، فقد بدأت في مؤتمر ايفيان عام ١٩٣٨ ، ولم يحدث شيء من ايامها يخفف من حدتها · بل ان اناسا في اسرائيل نفسها اخذوا يتهمون الحكومة بانها لا تبذل جهدا « كافيا » للتوصل الى تفاهم مشترك مع العرب ·· لكنهم لم يقترحوا علينا شيئا في هذا الصدد ·

كما حدثت احتجاجات مستمرة ، من قطاع صغير من الاهالى ، حول القرار الذى اتخذته الحكومة عقب حرب الايام السته .بالسماح لعدد من اليهود بالاستيطان في مدينة الخليل ، التى كانت عاصمة للملك داود قبل ان ينتقل الى القدس · وكان الصليبيون قد طردوا اليهود منها ، ثم عاد بعضهم اليها تحت الحكم العثمانى ، واصبح بالمدينة مجتمع يهودى ظل موجودا بها الى ان اقتلعته منها الاضطرابات والمذابح العربية عام ١٩٢٩ · وعندما جاءت سنه ١٩٤٨ لم يسمح الاردنيون لليهود حتى بزيارة كهف ماكفيلا المقدس لاداء الصلاة على ارواح الانبياء اليهود ·

وبعد حرب الايام الستة ، وفي عيد الفصح في ١٩٦٨ قامت مجموعة من اليهود المتعصبين باحتلال مركز الشرطة في الخليل دون استئذان ، متحدين بذلك قرار الحاكم العسكرى بمنع الاستيطان في الضفة الغربية · ولم يكن هناك خلاف على ان هذا التصرف غير لائق ويشوه « صورة » اسرائيل · واقام العرب الدنيا واقعدوها حول « الضم

اليهودى » للخليل . وكان واضحا ان المستوطنين الجدد ارادوا خلق « امر واقع » لاجبار الحكومة الاسرائيلية على اتخاذ قرار بشأن سياسة الاستيطان اليهودى في الضفة الغربية . ولقد اسفت على الطريقة التى نفذوا بها القانون بايديهم . لكننى كنت ارى ان هناك شيئا اهم من ذلك .

فسألت نفسى وزملائى . هل من المنطق ان تصدر حكومة يهودية تشريعا يمنع اليهود من الاستيطان في اى مكان على الارض ؟ وقلت اننى سافترض اننا سنوقع معاهدة سلام مع الاردن و « نعيد » الخليل . فهل يعنى ذلك عدم السماح لليهود بالعودة للعيش فيها ثانية ؟ بالطبع لم يكن في سلطة اى حكومة اسرائيلية ان تمنع اليهود من الاستيطان في الارض المحتلة .. ناهيك عن الخليل التى تعنى الكثير للمتدينين اليهود . واخيرا . وبعد استعراض كافة الجوانب . قررنا في عام ١٩٧٠ السماح ببناء عدد من الوحدات السكنية في كريات عرابه (اى مدينة الاربعة . وهو الاسم العبرى للخليل) . وجرت محاولات للاستيطان . لكننا استعملنا الحزم ازاءها . وكم كان مؤلما ان يؤمر الجنود الاسرائيليون باخراج اليهود من الاراضى التى ارادوا استيطانها في الضفة الغربية . وقد سمحنا على اية حال لليهود بالاستيطان في الاراضى المحتلة في المواقع التى تمشت مع مصالحنا السياسية والعسكرية .

وكانت الاماكن المسيحية المقدسة في الضفة الغربية . واحدا من مراكز الاهتمام الدولى . ولا اظننى في حاجة الى التعبير عن سعادتى بلقاء البابا بول السادس في الفاتيكان عام ١٩٧٣ في جلسة استمرت ثمانين دقيقة . يلتقى فيها لأول مرة برئيس وزراء اسرائيل . وكان البابا قد زار اسرائيل عام ١٩٦٤ خلال رحلته للحج . والتقى خلالها بالرئيس شازار واشكول وكل

اعصاء الوزارة تقريبا ٠ لكن الجد الاعظم كان حريصا على ان يؤكد ان الزيارة لا تعنى باى حال اعتراف الفاتيكان بدولة اسرائيل . بل انه جعل الاردن مقرا له خلال الرحلة . وحرص على ان يوجه برقيته من الطائرة الى تل ابيب لا الى القدس ٠

وقد كانت العلاقة بين الفاتيكان والحركة الصهيونية دقيقة على الدوام . حتى منذ ايام ثيودور هرتزل الذى التقى به البابا بيوس العاشر عام ١٩٠٤ وقال له « اننا لا نستطيع ان نمنع اليهود من الذهاب الى القدس ‥ لكننا لا يمكن ان نعطى اذنا بذلك ‥ فاليهود لم يعترفوا بسيدنا . ونحن لا نستطيع الاعتراف باليهود » ٠ لكن هناك بابوات آخرون كانت لهم مواقف اكثر صداقة وودا . فقد استقبل البابا بيوس الثانى عشر موشى شاريت مرتين (احداهما بصفته وزيرا للخارجية) . وكان البابا يوحنا الثالث والعشرون ودودا نحو اسرائيل ومتعاطفا ٠ واستقبل بول ابا إيبان عام ١٩٦٩ . كما ان لسفيرنا في روما علاقات طيبة مع شخصيات الفاتيكان الكبيرة ٠ ولم يعترف الفاتيكان باسرائيل حتى الان رغم اعترافه بكل الدول العربية ٠ ومازال موقفه من مسألة القدس في حاجة الى توضيح ٠ لكننى اعتقد ان الفاتيكان اصبح الان مؤمنا بوجود الدولة اليهودية ٠

وقد بدأت قصة لقائى بالبابا في باريس ٠ فقد كنت في طريقى الى فرنسا لحضور مؤتمر الاشتراكية الدولية (الذى اشغل فيه منصب نائب الرئيس) ٠ ويشترك في هذا المؤتمر القادة الاشتراكيون لحكومات اخرى منها النمسا والدانمرك وفنلندا والسويد بالاضافة الى زعماء احزاب المعارضة وكانت الانتخابات الفرنسية على الابواب . ففوجئت بجورج بومبيدو يتهمنى باننى حضرت لكى ادفع بالاصوات اليهودية في فرنسا الى جانب الاشتراكيين ٠ وكان من نتيجة ذلك ان حصل

مؤتمر الاشتراكية الدولية على قدر من الدعاية · وكان سفيرنا في روما ، اميل نجار ، قد اقترح على ان انتهز فرصة رحلتى الى باريس كى امر بروما والتقى بالبابا · ووافقت . وتمت الاتصالات . ثم تلقيت رسالة تبلغنى ان البابا قرر مقابلتى يوم الاثنين ١٦ يناير (كانون الثانى) ١٩٧٣ ·

وهزنى النبأ . فسوف اقابل البابا بكل بساطته وعظمته ونظرات عينيه الثاقبتين · ولا ريب ان عصبيتى كانت ستزداد لولا انه بادرنى بقوله انه يجد من الصعب عليه ان يصدق ان اليهود ، دونا عن غيرهم ، يمكن ان يتصرفوا بهذه « الفظاظة » في بلادهم ، خاصة وانهم قاسوا كثيرا · اه ! هذا هو نوع الحديث الذى لا يمكننى ان احتمله ، خاصة وانه غير صحيح . فلم يحدث اننا اسأنا معاملة العرب في الاراضى المحتلة · فليست هناك في اسرائيل عقوبة الاعدام ، وكل ما فعلناه اننا وضعنا في السجون اولئك الذين يشجعون الارهاب او نسفنا منازلهم بعد تحذيرهم مرارا ، او طردنا بعضهم · وكدت اسأل البابا عن مصدر معلوماته . لكننى لم افعل · واكاد اسمع الان صوتى المرتعش وانا اقول له « هل تعلم يا صاحب القداسة ان اول ذكريات حياتى هى انتظار مذبحة في كييف · دعنى أؤكد لك ان شعبنا يعرف معنى « الفظاظة » وقد تعلمنا معنى الرحمة ونحن نساق الى غرف الغاز النازية ·

ولم تكن تلك هى الطريقة المتبعة في مخاطبة البابا . لكننى احسست اننى اتحدث بالنيابة عن اليهود في كل مكان ، الاحياء منهم او الذين هلكوا في الوقت الذى اصر فيه الفاتيكان على حياده اثناء الحرب العالمية الثانية · وشعرت اننى اقف في مواجهة تاريخية · وحملق البابا في عينى لوهله ، وبادلته النظرات بنفس الاسلوب

واخذت اشرح له ، بكل الاحترام ، اننا لم نعد « تحت رحمة » احد بعد ان اصبحت لنا دولة · وكان كمن يقرأ افكارى عندما قال لى « انها لحظة تاريخية » ·

ومضينا نتحدث عن وضع القدس ومشكلة الشرق الاوسط عموما · فاشار البابا الى « الحوار المستمر » بين الكنيسة وبيننا لتحديد شروط معينة بشأن الاماكن المقدسة ، واعرب عن تقديره لرعاية اسرائيل لهذه الأماكن · واكدت للبابا استعدادنا لاتخاذ اية اجراءات لادارة الأماكن المقدسة والاسلامية ايضا · وطلبت منه ان يستخدم نفوذه لتحقيق تسوية في الشرق الأوسط ولاطلاق سراح الأسرى الاسرائيليين الذين بقوا في ايدى المصريين والسوريين منذ حرب الاستنزاف ·

وما ان مرت الدقائق الصعبة الاولى ، حتى ساد الجو ود واسترخاء · وكانت الجلسة في مكتبة البابا في الطابق الثانى من القصر البابوى · وكم دهشت بعدها لما حدث · فقد طلع البروفيسور اليساندريني ، المتحدث بلسان البابا ، بمذكرة شفوية على الصحفيين ـ على غير العادة · وظهر جليا ان المقصود من وراء ذلك هو تهدئة العرب بعد اجتماعى بالبابا · وقال اليساندرينى ان اللقاء لم يكن تعبيرا عن التفضيل او المعاملة الخاصة ، وانما قبل البابا طلب مسز مائير ايمانا منه بان واجبه الا يضيع ادنى فرصة من اجل البحث عن السلام ، دفاعا عن كل المصالح الدينية الضعيفة ، وعن اللاجئين الفلسطينيين ·

واجرى نجار اتصالا تلفونيا بالفاتيكان اعرب فيه عن الاحتجاج الشديد على البيان المضلل · وعقدت مؤتمرا صحفيا في السفارة الاسرائيلية بعد ظهر اليوم نفسه قلت فيه اننى لم اقتحم الفاتيكان ، وان هذه المقابلة مع البابا ، برغم محاولة الفاتيكان التقليل من

اهميتها ، فانها كانت موضع تقديرى وتقدير شعبى .. واكدت للصحفيين انه فيما يتعلق بالسعى نحو السلام وحسن النية في العالم كله ، فان هناك تطابقا كاملا في الاراء بين البابا واليهود .

وتلقيت في اليوم التالى عدة هدايا من الفاتيكان ، كما تلقت لو وسيمحا ميداليات . كانت الزيارة تجربة هائلة ومثيرة ، وامل ان تكون قد قربت الفاتيكان الى فهم اسرائيل والصهيونية ومشاغر اليهودى امثالى عن انفسهم .

اننى لأ اشعر بالسعادة عندما اتذكر ربيع عام ١٩٧٣ . ففى تلك الايام كنت أوى الى فراشى في الساعة الثانية صباحا ، قائلة لنفسى اننى قد جننت . فها انذا في الخامسة والسبعين من عمرى ومع ذلك فاننى اعمل واسافر اكثر مما كنت اعمل واسافر في شبابى . وحاول الجميع اقناعى بتغيير نظام حياتى ، بما في ذلك الاطفال ولو وسيمحا ، وكلارا (التى اصبحت تأتى من الولايات المتحدة حيث تقضى معى اسبوعين كل مرة) .. لكننى لم اكن قادرة على تغيير طبيعتى .. فاذا ما قدر لى ان استمر رئيسة للوزراء ، فيجب ان اتحدث مع من يريد الحديث معى واستمع الى من يريد نقل شىء الى .

فلم اكن لاذهب الى ندوة للمعلمين على سبيل المثال ، دون ان اعد بنفسى الكلمة التى سألقيها . وكلما بحثت في موضوع الكلمة كلما وجدت مزيدا من الاسئلة تطرح نفسها دون جواب عليها . فقد اردت أن اعرف عدد الاطفال المتسربين من المدارس ، ولم استطع العثور على عددهم لا من رئيس اتحاد المعلمين ولا من الوزارة . ولو ان كل معلم ابلغ ناظره عن الغائبين ، وابلغ النظار وزارة التعليم بذلك ، لكان العدد الحقيقى للمتسربين معروفا . ثم تثور الاسئلة حول الطريقة التى

تعمل بها المدارس ، وحول الحياة في المدن ومستوى التعليم فيها ٠ هكذا كانت الحصيلة تتجمع امامى لكى اطرحها بالفعل في هذه الندوة ٠

وكنت اعطى كل وقتى لكل الناس ٠ فاليهود المهاجرون من روسيا من حقهم مقابلة رئيسة الوزراء وقضاء وقت معها ٠ وقادة الاحزاب كانوا يأتون لمقابلتى فلا اختصر اللقاء معهم ٠ وكنت التقى بممثلى الطوائف والمهن وبالزائرين من الخارج او المستثمرين الاجانب ٠ وغيرهم ٠ اى اننى كنت احب مقابلة الناس سواء في المكتب او البيت ، ولكن ذلك كان على حساب البريد والاوراق التى انغمس فيها طويلا بعد ذلك ٠ وكنت اعمل جاهدة على تناول طعام الغداء في المنزل مع لو ، ثم اعود الى مكتبى مباشرة ٠ وكانت لدى خادمة تنصرف بعد تقديم الغداء ٠ لكننى نادرا ما كنت اجد وقتا اشاهد فيه فيلما قديما في التليفزيون أو ارتب فيه الارفف ٠

وكان هناك بعض اعضاء الحكومة الذين يأتون لزيارتى في المنزل حيث نتبادل حديثا وديا حول عدد من الموضوعات ٠ ولم تكن هناك اية قرارات تصدر في هذه الاجتماعات الودية التى كنا نجلس فيها حول مائدة المطبخ نتناول شيئا من القهوة او الطعام ٠ فكان بنحاس سابير ، وزير ماليتى (ورئيس الوكالة اليهودية الان) يأتينى كل اسبوعين او ثلاثة لبحث بعض الامور قبل ان يطرحها امام الحكومة ٠ ويمتلك سبير قدرة هائلة على العمل ، كما انه انجح من ينظم حملات التبرع ٠ وقد عملنا طويلا سويا ، رغم اننا كنا كقطبين متنافرين في عدد من الامور السياسية لكننى لم اكن اتصور ان ارأس حكومة لا يكون هو عضوا فيها ٠

وهناك عضو اخر لا غنى عنه في حكومتى هو يسرائيل جاليلى ، وزير الدولة ، الذى كنت اعتمد على نصائحه الى حد كبير ٠ وهو رجل

يتميز بالحكمة والتواضع ، والمقدرة على النفاذ الى لب الامور وصياغة حلولها في اسهل الصور ٠

كنت ، بشكل عام ، سعيدة الحظ ان اناسا رائعين احاطوا بى ٠ ومن هؤلاء مدير عام الوزارة المرحوم يعقوب هرتزوج ، الذى كان واحدا من اكبر المثقفين ، بالاضافة الى اناس اخلاصهم منقطع النظير امثال موردخاى جازيث ، ويسرائيل ليور ، وايلى مزراحى ، وبالطبع : سيمحا دنيتس ولو ٠

وقررت سارة ان تحصل على اجازة من الكيبوتز لمدة عام تقضيها في دراسة الادب الانجليزى في الجامعة العبرية ، وكان ذلك من دواعى سرورى ، فلن اقضى الليل بمفردى ٠ لكن العقبة كانت اننا كنا نقضى كل الوقت نتحدث في امر واحد هو هل ارأس قائمة الحزب في الانتخابات المقبلة ٠ واينما توجهت كنت اسمع نفس المناقشات والحجج التى سمعتها عام ١٩٦٩ ، فالموقف العسكرى قد يتدهور في اى لحظة ، وعلاقتى الرائعة مع نيكسون ليس من السهل على احد غيرى ان يحققها ٠ وكما حدث بعد وفاة اشكول ، ثار نفس التساؤل حول من يخلفنى في منصبى ٠ وانشغل زملائى في الحزب بالنقاش معى حول هذا الموضوع ، وانشغلت الصحافة به بالتالى ، وكأنه ليس هناك من مشاغل في اسرائيل سواى ٠ واقول لنفسى الان اننى حتى لو كنت قد قررت آنئذ ان اتخلى عن رئاسة قائمة الحزب في الانتخابات ، فاننى كنت سابقى رئيسة للوزراء في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ ، فقد كان موعد الانتخابات مقررا في شهر نوفمبر (تشرين الثانى) ٠

وقمت في شهر مارس (آذار) بزيارة لواشنطون ، سبقها حادث مؤسف ٠ فقد اسقطت طائراتنا طائرة ليبية من طراز بوينج ٧٢٧ ضلت طريقها في شبه جزيرة سيناء ، وراح ضحيتها ١٠٦ اشخاص ٠ وكان

الحادث واحدا من المآسى التى تحدث في دولة اضطرت الى ان تعيش في حالة استنفار دائم ، ليلا ونهارا ، ضد الارهاب · فقد نمى الى علمنا ان الارهابيين سيحاولون انزال طائرة محملة بالمفرقعات ، ولم يكن في وسعنا ان نخاطر للحظة · وكان التراجع ممكنا لو ان الطيار ادلى بهويته ، لكنه رفض وثبت ذلك من الصندوق الاسود بعد العثور عليه · واستمع الى الرئيس نيكسون ، واعضاء لجنة الشئون الخارجية ، وانا اشرح لهم كيفية وقوع هذا الحادث · وفي نهاية لقائى مع نيكسون الذى استمر تسعين دقيقة ، اكد لى من جديد استمرار المساعدة الامريكية لاسرائيل واستمرار تأييدها لمطلب المفاوضات مع جيراننا · وكنت ارْيد لصوتنا ان يصل الى اوربا ، فبادرت على الفور الى قبول الدعوة التى وجهها الى رئيس المجلس الاوربى لحضور جلسات المجلس في ستراسبورج · ولم اكن في حاجة الى دعوة رسمية من فرنسا ، وطلبت من سفارتنا في باريس الاكتفاء بابلاغ وزارة الخارجية ، وتوجهت مباشرة الى ستراسبورج ·

وسمعت أنباء صاعقة قبل مغادرتى اسرائيل . فقد نجح الارهابيون في « اقناع » الحكومة النمساوية بإغلاق معسكر الترانزيت في قلعة شاناو ، التابع للوكالة اليهودية والذى استخدم لعدة أعوام كمحطة في منتصف الطريق لاغنى عنها لليهود المهاجرين من الاتحاد السوفيتى الى اسرائيل ، وقبل ان احكى عن قصة الاستسلام لهذا الارهاب ، فلابد ان اتحدث قليلا عن المهمة التى كانت شاناو تؤديها ، فالمعروف ان من يجرؤ على طلب الهجرة من الاتحاد السوفيتى ينتظر اعواما طويلة قبل ان يأتيه رد مقتضب بأن عليه ان يغادر الاتحاد السوفيتى في غضون اسبوع أو عشرة أيام على الأكثر . وخلال هذه الفترة يقوم المهاجر بترتيب حاجياته التى سيسمح له بأخذها الى اسرائيل ويسعى الى

الجمارك لتخليصها ، ثم يغوص في سلسلة من الاجراءات اللازمة لسفره ، بالاضافة الى توديع الناس الذين قد لا يراهم في حياته مرة ثانية . كانت المعاملة سيئة وغير انسانية ولا لائقة . لكنها كانت الأسلوب الوحيد لمغادرة الاتحاد السوڤيتى .. كأنهم مجرمون يجرى ترحيلهم .

وكانت القطارات التى تحمل المهاجرين الى العالم الحر ، تتوقف عند الحدود التشيكية النمساوية ، حيث يتولى النمساويون منحهم تأشيرات الدخول . ويتولى رجال الوكالة اليهودية تسجيل اعداد واسماء المهاجرين الجدد . ثم تكتمل الرحلة في ڤيينا حيث تحملهم سيارات الأوتوبيس الى معسكر الترانزيت في قلعة شاناو التى استأجرتها الوكالة اليهودية من كونتيسة نمساوية . ولم يكن المكان مجرد محطة في الطريق الى اسرائيل . وانما كان يتم فيه اعطاء المهاجرين معلومات عن اسرائيل ، وتصنيفهم وفقا لمهنهم ، واعدادهم ولو بقدر ضئيل للحياة الجديدة ولم تكن فترة بقائهم في شاناو تتعدى اليومين أو الثلاثة ، ينقلون بعدها بطائرات العال الى اسرائيل . وقد قمت بنفسى بزيارة شاناو قبل ذلك بعامين ، وشاهدت سوء الحالة العقلية والجسدية للمهاجرين القادمين من الاتحاد السوڤيتى . المهم ان النمسا كانت هى المنفذ الوحيد لهؤلاء المهاجرين . وكانت شاناو بالنسبة لهم رمزا للحرية والأمل .

وكان الارهابيون العرب يعرفون ذلك ايضا . وفي نهاية شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٧٣ اقتحم رجلان مسلحان واحدا من هذه القطارات ، واحتجزوا سبع رهائن ، وابلغوا الحكومة النمساوية انها ما لم تضع حدا للمساعدات التى تقدمها للمهاجرين وتغلق شاناو ، فانهم لن يقتلوا هذه الرهائن فحسب ، بل ان اعمالا انتقامية اخرى

ستحدث ضد النمسا · واصبنا بالدهشة والفزع ، اذ استسلمت على الفور الحكومة النمساوية برئاسة المستشار برونو كرايسكى · وعلى الفور تم ترحيل الرجلين الى ليبيا . واعربت الصحافة العربية عن ابتهاجها لما اسمته « ضربة الفدائيين الناجحة ضد حركة هجرة اليهود من روسيا » ·

كنت اعرف كرايسكى معرفة قديمة وجيدة · وقد قابلته مرارا في الامم المتحدة عندما كان وزيرا للخارجية النمساوية · وكان اشتراكيا · والتقيت به في مؤتمر للاشتراكية الدولية في ڤيينا . وما ان دعوته لزيارة اسرائيل حتى بدأ يتمتم ويهمهم · فقلت له اننى اعلم ما ستقوله وهو انك ستضطر لزيارة الدول العربية ايضا ، ونحن لا نرى ضررا في ذلك · وعندئذ فقط قبل الدعوة وزار اسرائيل · ورغم ان كرايسكى يهودى ، فانه لم يبد اى اهتمام باسرائيل · وزار اسرائيل في عام ١٩٧٤ على رأس وفد من زعماء الاشتراكية الاوروبيين · واردت ان اشرح له وجها لوجه مدى التعقيدات التى سيخلقها اغلاق شاناو ليهود روسيا · وطلبت الى سفيرنا في ڤيينا ان يستفسر منه عما اذا كان بوسعه مقابلتى وانا في الطريق الى ستراسبورج ·

ولا بد لى من ان اشير ، حتى اكون منصفة ، الى اننى رغم اقتناعى بانه لا يوجد سبب واحد للخضوع امام الارهاب ، فان القرار النمساوى كان معقولا في بعض جوانبه · فقد كانت شاناو قد اصبحت معروفة للجميع ، رغم حرصنا على ابعاد الزائرين وحجب الصحفيين عنها ، وثارت شائعات بان الارهابيين قد يهاجمونها · وكانت اجراءات الامن من الجانب النمساوى رائعة ، فالقطارات تجرى حراستها جيدا هى وقلعة شاناو · لكن اى مكان اخر سوف يكون معرضا لنفس الهجمات · المهم اننى اردت ان احادث كرايسكى شخصيا فلعلى انجح في اقناعه بالعدول عن قراره · وانتظرت الرد على احر من الجمر ، وعندما

وصلنى الرد علمت انه لن يستطيع مقابلتى في رحلة الذهاب الى ستراسبورج ، لكنه سيقابلنى في طريق العودة ·

وكنت قد اعددت كلمتى في المجلس الاوربى ، شكرت فيها الاحزاب الأوربية على تأييدها للسماح بهجرة اليهود السوفيت ، وعلى توقعاتنا للتعايش السلمى مع العرب ـ من وجهة نظرنا · وناشدت المجلس في ختام هذه الكلمة ان يساعد الشرق الاوسط « على تبنى النموذج الذى ارسى المجلس قواعده » · ووجدت ان خير ما اختتم به كلمتى قول رجل الدولة الاوربى الشهير جان مونيه : « لا يعتمد السلام على المعاهدات والوعود فحسب ، ولكنه يعتمد اساسا على خلق الظروف التى ان لم تغير طبيعة الانسان ، فانها على الاقل سوف تقود خطواته نحو طريق السلام » · واحسست ان هذه الكلمات تعبر خير تعبير عما يمكن ان اقوله عن مشاعر اسرائيل وما تطلبه من العرب ومن العالم ·

وبدا نوعا من البله ان اقرأ ما كتبته من قبل امام المجلس الاوربى ، فقلت لهم ان احداث اليومين الماضيين فرضت على ان اغير كلمتى التى اعددتها والموجودة امامكم · وارتجلت كلمة تحدثت فيها عن القرار النمساوى قائلة ان الارهابيين قد نقلوا نشاطهم الى اوربا بعد ان فشلوا في اسرائيل نفسها · واكدت اننى افهم موقف الحكومة · التى قد تقول انها لا دخل لها بهذا النزاع ، والتى قد تتساءل عن السبب وراء اختيار ارضها بالذات مسرحا لهذه العمليات ، والتى قد تجد لها مخرجا في منع اليهود (وبالتالى الاسرائيليين) والارهابيين من استخدام اراضيها · وقلت ان ما حدث فى

ڤيينا هو ان حكومة قد توصلت لاول مرة الى تفاهم واتفاق مع الارها بيين اعطتهم بمقتضاه كل ماطالبوا به . وقلت ان ذلك قد وضع مبدأ حرية تنقل الشعوب موضع التساؤل وخاصة بالنسبة لليهود .. وجعلت من الارهاب نصرا للارهاب والارها بيين .

وقضيت في ستراسبورج يومين . توجهت بعدهما الى ڤيينا والى مكتب كرايسكى مباشرة . واخذ رئيس الوزراء يعدد لى اسباب خضوع حكومته للعرب . ثم تساءل لماذا اختيرت النمسا بالذات لتكون فيها مشكلة اليهود الروس ولماذا لا تكون هولندا مثلا هى هذا المكان . فقلت له ان الهولنديين لاشك يرحبون بمشاركته هذا العبء . لكن الامر يعتمد اساسا على الروس الذين لا يسمحون بالهجرة الا عن طريق النمسا . وعندئذ قال كرايسكى شيئا لم يكن في استطاعتى قبوله فعلا . اذ قال لى « انت وانا ننتمى الى عالمين مختلفين » . ولو ان الظروف كانت عادية لما عاد هناك شيء اقوله . لكننى لانى لم اكن هنا ممثلة لشخصى فقط . فقد اضطررت الى مواصلة النقاش .

واصر كرايسكى على موقفه من اغلاق شاناو مكررا « اننى لم اسمح باراقة الدماء على الارض النمساوية . ويجب عمل تراتيب اخرى . » وحاولت ان اوضح له باغلاقه محطة الترانزيت في شاناو . فانه يعطى الروس الحجة في منع هجرة اليهود . فاجابنى بانه لا يسعه عمل شيء في هذا الصدد . واقترح ان يقوم رجالنا بنقل المهاجرين فور وصول القطارات . فقلت له ان ذلك مستحيل حيث اننا لا نعرف عدد اليهود في كل قطار . لكنه بدا واضحا أنه لا فائدة ترجى من وراء مواصلة الحديث .

فقد كان كرايسكى حريصا على تجنب المتاعب مع العرب · وهكذا شكرته على استقبالى ورحلت ·

وقمنا الى غرفة اجتمع فيها الصحفيون تمهيدا لعقد مؤتمر صحفى ، وما ان فتح لى كرايسكى الباب حتى هززت رأسى قائلة « لا · ليس لدى ما اقوله للصحفيين · انا لا اريد الدخول » · ولا اعلم حتى اليوم ما اذا كان قد تحدث للصحفيين بمفرده ام انه الغى المؤتمر ، لكن ما اعرفه جيدا هو اننى احسست وكأن فمى قد امتلأ بالرماد · « نحن » ننتمى الى عالمين مختلفين ؟ ·· وظلت الاشياء التى قالها لى كرايسكى تدور في رأسى وتدور · ولم تكن لدى بالطبع اية فكرة عما ينتظرنى في اسرائيل ·

الفصل الرابع عشر

الهزيمة !

ليس أشق على نفسى في الكتابة ، من بين كل الموضوعات التى كتبت عنها في هذا الكتاب ، قدر أن اكتب عن حرب أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ ، حرب يوم كيبور ٠

لكنها حدثت ، ومن هنا فلا بد أن اكتب عنها ـ لا من الناحية العسكرية ، فذلك أمر أتركه للآخرين ، وانما ككارثة ساحقة ، وككابوس عشته بنفسى ، وسيظل باقيا معى على الدوام ٠

فقد وجدت نفسى في موقف كنت في قمة المسئولية في الوقت الذى واجهت فيه الدولة أكبر خطر عرفته

وما زال هناك ، حتى على الصعيد الشخصى ، الكثير مما لا يمكن قوله الان ، ولذا فان ماسأقوله ليس هو كل شيء ٠٠ لكنه الحقيقة في كل ما عرفته وشعرت به خلال مجرى هذه الحرب ، التى كانت الحرب الخامسة خلال سبعة وعشرين عاما من قيام اسرائيل !

ولا بد من أن أؤكد هنا للعالم بشكل عام ، ولأعداء اسرائيل بشكل خاص ، أن الظروف التى أودت بحياة ٢٥٠٠ اسرائيلى قتلوا في حرب يوم كيبور ، لن تتكرر مرة ثانية ٠

لقد بدأت الحرب يوم ٦ اكتوبر (ت ١) ، لكننى لابد أن اعود بالذاكرة أولا الى شهر مايو (ايار) عندما وصلتنا معلومات عن تعزيز القوات المصرية والسورية على الحدود

ولم ير رجال مخابراتنا أن الحرب قد تندلع ، لكننا مع ذلك قررنا معالجة الموقف بجدية · وذهبت بنفسى انئذ الى مقر القيادة العامة ، حيث التقيت بوزير الدفاع ورئيس الاركان دافيد اليعازر « المعروف باسم دادو » ، واستعرضت معهما درجة استعداد القوات المسلحة ، واقتنعت بأن الجيش مستعد لكافة الطوارىء ، بما في ذلك الحرب الشاملة ·

وأحس عقلى بالراحة ازاء مسألة الانذار المبكر بوقت كاف · ولسبب ما زال التوتر ·

وبدأنا في شهر سبتمبر (ايلول ؛ نتلقى معلومات عن احتشاد القوات السورية في مرتفعات الجولان . وفي اليوم الثالث عشر من هذا الشهر وقعت معركة جوية تم فيها اسقاط ١٣ طائرة سورية من طراز ميج ·

ورغم ذلك أكد لنا رجال المخابرات أنه ليس من المتوقع أن يقوم السوريون برد فعل كبير ·

غير أن التوتر استمر في هذه المرة ، وامتد الى المصريين ·

وظلت تقديرات المخابرات على ما هى عليه ·· بل انهم قالوا لنا ان التفسير للحشود السورية هو خوف سوريا من أن نقوم نحن بالهجوم ·

وظلت هذه التفسيرات تتردد الى عيشة سفرى الى أوربا ·

واتصل بى يسرائيل جاليلى تليفونيا في استراسبورج يوم ١ أكتوبر (ت ١) ، وكان من بين ما أبغله لى أنه تحدث مع ديان ، وانهما يشعران أننا يجب أن نناقش بجدية الموقف في الجولان عند عودتى ·

وأبلغته اننى سأعود في اليوم التالى ثم نلتقى في اليوم الذى يليه ·

وبالفعل عقدت اجتماعا صباح الاربعاء مع كل من ديان والون وجاليلى وقائد سلاح الطيران ورئيس الاركان ورئيس الابحاث العسكرية في المخابرات نظرا لان رئيس المخابرات كان مريضا يومها ٠

واستهل ديان الاجتماع ، وتلاه رئيس الابحاث العسكرية في المخابرات حيث قدما عرضا مفصلا للموقف على الجبهتين ٠

وكانت هناك أمور تثير قلقهما لكن الموقف العسكرى ما زال يتلخص في اننا لا نواجه خطر هجوم مصرى سورى ، والاكثر من ذلك هو أنه لا يبدو أن سوريا ستهاجمنا بمفردها ٠

اما حشود القوات المصرية وتحركاتها في الجنوب فهى على الارجح المناورات التى تجرى في مثل هذا الوقت من العام وبقى نفس التفسير بالنسبة لانتشار القوات السورية في الشمال على ما كان عليه ٠

وتم تفسير نقل الوحدات السورية من الحدود السورية ـ الاردنية على أنه نوع من الوفاق بين الدولتين واظهار من سوريا لحسن نياتها تجاه الاردن ٠

ولم يجد احد من المجتمعين ضرورة لاستدعاء الاحتياطى ، ولم يفكر أحد في أن الحرب وشيكة الوقوع ٠

وتقرر ادراج موضوع مناقشة الموقف في جدول اعمال اجتماع الحكومة يوم الاحد ٠

وذهبت كالعادة ، الى تل ابيب يوم الخميس ٠ وكانت عادتى ، لعدة أعوام ، أن اقضى يومى الخميس والجمعة في مكتبى في تل ابيب ، وايام السبت في منزلى في رامات افيف ، ثم اعود الى القدس اما في مساء السبت أو صباح الأحد ، ولم يكن هناك سبب يدعو الى تغيير عادتى هذا الاسبوع ٠ وكان هذا الاسبوع بالذات قصيرا ، لوقوع يوم

كيبور (يوم الغفران) فيه مساء يوم الجمعه ، وهكذا فان عطلة نهاية الأسبوع لدى معظم الناس في اسرائيل كانت طويلة ·

واعتقد أن هذه الحرب قد جعلت الكثيرين من غير اليهود ، والذين لم يسمعوا من قبل عن يوم كيبور ، يعرفون انه اكثر ايام التقويم اليهودى خشوعا وقداسة ! انه اليوم الوحيد في السنة الذى يتحد فيه كل اليهود في كل انحاء العالم في نوع من العبادة حتى ولو لم يكونوا من الورعين الاتقياء ·

ويمتنع المؤمنون من اليهود كلية في هذا اليوم عن الطعام والشراب والعمل ، ويقضونه في المعبد في الصلاة والاستغفار عن الخطايا التى ارتكبوها خلال العام ·

ويبدأ هذا اليوم كغيره من الاعياد اليهودية ، بل وكيوم السبت ، اعتبارا من مساء اليوم السابق له وينتهى في مساء اليوم التالى ·

أما اليهود الآخرون بما فيهم من لا يصومون فانهم يحتفلون بيوم كيبور على طريقتهم ، فلا يذهبون الى العمل ، ولا يتناولون طعامهم علانية ، ويذهبون الى المعبد ولو ساعة لسماع الصلاة الافتتاحية عشية يوم كيبور ، أو يستمعون الى نفخ البوق (الشوفار) ايذانا بانتهاء الصيام · لكن يوم كيبور ، بالنسبة لمعظم اليهود في كل مكان ، بصرف النظر عن طريقة احتفالهم به ، لا يشبه غيره من الايام ·

وفي اسرائيل ، فان الحياة تتوقف كلية في هذا اليوم · فلا توجد بالنسبة لليهود اية صحف أو تليفزيون أو اذاعة ، وتغلق كل المدارس والمحال والمطاعم والمقاهى والمكاتب لمدة أربع وعشرين ساعة ·

لكنه نظرا لانه ليس لدى اليهود ما هو أهم من الحياة ذاتها ، ولا حتى يوم كيبور ، فان الخطر الذى يتهدد الحياة يفوق كل شىء

آخر ، ولذا فان كل الخدمات العامة الضرورية تعمل خلال هذه الساعات الاربع والعشرين ولو بالقليل من الموظفين

ولسوء الحظ ، فان الجيش هو اهم الخدمات العامة الضرورية ، لكن اكبر قدر من الجنود يمنحون اجازات لقضاء هذا اليوم في بيوتهم مع عائلاتهم ٠

وتلقينا في يوم الجمعة ٥ اكتوبر (ت ٢١) تقريرا اثار قلقى !

ان عائلات المستشارين الروس في سوريا تحزم امتعتها وترحل على عجل ٠

وتذكرت ماحدث قبيل الايام الستة ، ولم يعجبنى الامر ٠

لماذا العجلة ؟ وهل هى عملية اجلاء ؟ واستوقفتنى هذه المعلومة البسيطة من بين فيضان المعلومات المنهمر على مكتبى ، وبقيت عالقة بذهنى ٠٠

ولما لم اجد احدا يقلقه هذا الموضوع فقد حاولت الا أبدو موهومة ٠ ثم ان الالهام أمر اما ان يتصرف الانسان بناء عليه مباشرة ، أو قد يكون مجرد اعراض للقلق وعندئذ قد يؤدى الى عواقب وخيمة ٠

وسألت وزير الدفاع ورئيس الاركان ورئيس المخابرات عما اذا كانت هذه المعلومة تعتبر هامة ٠٠ فوجدت انها لم تغير من تقديرهم للموقف ٠

وتلقيت تاكيدا بأن لدينا انذارا كافيا لاى متاعب ٠٠ كما ان تعزيزات قد تم ارسالها الى الجبهات لصد اية عمليات عند اللزوم ٠٠

وقد تم اتخاذ اللازم ، فوضع الجيش في اقصى حالات التأهب وخاصة الطيران والمدرعات ٠٠

وبعد أن انصرف رئيس المخابرات بقيت مع لوكدار فربت على كتفى قائلا : لا تقلقى ، لن تكون هناك حرب ٠

لكننى كنت قلقة ، ولم أكن لافهم سر تأكده من أن الامور تسير سيرا حسنا .

ما الذى يحدث لو انه كان على خطأ ؟ فلو ان هناك ادنى احتمال لقيام الحرب فلنستدعى الاحتياطى على الاقل .

واردت أن اعقد اجتماعا على الاقل مع الوزراء الذين سيمضون عطلة يوم كيبور في تل أبيب لكنه تبين أن القليل منهم هم الموجودون .

وترددت في ان اطلب من وزيرى الحزب القومى الدينى اللذين يقيمان في القدس أن يوافيانى في تل ابيب لعقد اجتماع عشية يوم كيبور ، خاصة وان كثيرا من الوزراء سافروا الى « كيبوتزاتهم » البعيدة ..

مع ذلك فقد كان هناك تسعة وزراء في المدينة ، فطلبت من سكرتيرى العسكرى أن يرتب اجتماعا طارئا ظهر يوم الجمعة .

وعقدنا الاجتماع في مكتبى في تل ابيب .. واشترك فيه بالاضافة الى الوزراء ، رئيس الاركان ورئيس المخابرات . واستعرضنا كافة التقارير مرة أخرى بما فيها ذلك التقرير الخاص بالرحيل العاجل ـ والذى كان لا يزال غير مفهوم بالنسبة لى ـ للعائلات الروسية من سوريا ..

لكن أحدا لم يبد عليه الانزعاج ..

ومع ذلك فقد قررت أن اعبر عما في نفسى فقلت : « اسمعوا ـ ان لدى احساسا مخيفا بان ذلك كله قد حدث من قبل . ان ذلك يذكرنى بعام ١٩٦٧ عندما اتهمنا بحشد قواتنا ضد سوريا ، فذلك بالضبط هو ما تقوله الصحافة العربية ، .

وأنا اعتقد أن ذلك يعنى شيئا .

وكان من نتيجة ذلك أن اتخذنا قرارا ـ باقتراح من جاليلى ـ بأن أقوم أنا ووزير الدفاع باستعداء الاحتياطى واعلان التعبئة العامة اذا ما كان ذلك ضروريا ٠

هذا على الرغم من أن مثل هذا العمل يحتاج الى قرار من الحكومة كلها ٠

وقلت كذلك اننا يجب أن نتصل بالأمريكان لكى يبلغوا الروس بوضوح أن الولايات المتحدة ليست في حالة تسمح لها بقبول المتاعب ٠

وانفض الاجتماع ، لكنى بقيت في مكتبى برهة أفكر ٠

كيف يمكن أن يظل الرعب مسيطرا على من اندلاع الحرب ، في حين ان هناك رئيس اركان حاليا ، واثنين من رؤساء الاركان السابقين (هما ديان وحاييم بارليف الذى كان وزيرا معى للصناعة والتجارة) ورئيسا للمخابرات ، وكلهم يقطعون بأنها احتمال بعيد ؟

انهم فوق كل شىء ليسوا جنودا عاديين ! لقد كانوا جميعا من الجنرالات ذوى الخبرة العالية ، ومن الرجال الذين قادوا الاخرين في معارك وانتصارات وكان لكل منهم سجل عسكرى حافل ، اما مخابراتنا فمعروف عنها أنها من بين احسن المخابرات في العالم ٠

ولم يقتصر الامر على ذلك فحسب ، بل ان المصادر الاجنبية التى كنا على اتصال مستمر معها قد وافقت بصورة مطلقة على تقديرات خبرائنا ٠ فلماذا اذن ما زلت أشعر بالقلق ؟ ولم أستطع الاجابة على سؤالى ٠

اما اليوم فاننى أعلم ما الذى كان ينبغى على ان افعله ٠ كان يجب على أن أتغلب على ترددى ٠ لقد كنت أعلم كغيرى ما الذى تعنيه التعبئة العامة ومقدار الاموال التى تتكلفها ٠ وكنت أعلم أيضا

أننا منذ عدة اشهر ، في مايو (آيار) تلقينا انذارا وقمنا باستدعاء الاحتياطى ، ولم يحدث شىء ٠

لكننى فهمت أن الحرب ربما لم تقع في مايو (آيار) لنفس هذا السبب وهو أننا استدعينا الاحتياطى ٠

كان يجب على في صباح يوم الجمعة هذا ان استمع الى انذار قلبى واستدعى الاحتياطى وامر بالتعبئة أن هذه الحقيقة ـ بالنسبة لى ـ لا يمكن أن تنمحى ، وليس هناك أى عزاء فيما قد يقوله احد أو في كل التهدئة والتحجج بالعقل الذى حاول زملائى تهدئتى به ٠

ليس المهم هو ما يمليه المنطق ٠

المهم هو أننى ، أنا التى تعودت على اصدار القرارات والتى اصدرتها فعلا خلال الحرب ، قد فشلت في اتخاذ هذا القرار ٠

وليست المسألة شعورا بالذنب ، اننى أنا أيضا استطيع أن احتكم الى العقل واقول لنفسى إن في مواجهة مثل هذا اليقين الكلى من جانب مخابراتنا العسكرية ـ والقبول الكلى بقدر مساو لتقديراتها من جانب ابرز رجالنا العسكريين ـ فان اصرارى على الامر بالتعبئة كان سيبدو أمرا غير مقبول ٠

لكننى أعلم أنه كان على أن افعل ذلك ، وسوف احيا بهذا الحلم المفزع بقية حياتى ، ولن أعود مرة أخرى نفس الشخص الذى كنته قبل حرب يوم كيبور ٠

على اية حال ، بقيت في مكتبى الى ان اصبح ضروريا أن أعود الى منزلى ٠ وكان مناحم وأبا قد دعيا بعض الاصدقاء الى زيارتهما بعد موعد العشاء

وفي العادة فان اليهود يتناولون العشاء مبكرين ليلة يوم كيبور ، باعتبارها اخر وجبة لهم خلال اربع وعشرين ساعة ٠

وجلسنا لتناول العشاء ، ولكنى كنت قلقة وفاقدة لشهيتى ، ورغم الحاحهما على في ان ابقى مع اصدقائهما فقد اعتذرت واويت الى فراشي ، لكنى لم أستطع النوم ٠

وكان الليل ساكنا حارا ، وكانت اصوات مناحم وأبا وهما يتحدثان مع اصدقائهما في الحديقة تصل الى مسامعى عبر النافذة المفتوحة ٠

وفيما عدا المرات التى نبح فيها الكلب ، فقد كانت الامسية ساكنة كأمسيات يوم كيبور بالضبط ٠

ورقدت مستيقظة غير قادرة على النوم ٠ ولا بد اننى غفوت قليلا بالطبع ٠

ثم دق جرس التليفون الى جوارى في حوالى الساعة الرابعة صباحا ، وكان المتحدث هو سكرتيرى العسكرى ! وكانت المعلومات التى وصلت تفيد أن المصريين والسوريين سوف يشنون هجوما مشتركا « في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم » ٠

ولم يعد هناك مجال للشك ٠

لقد كانت مصادر المخابرات موثوقة ٠ وابلغت ليور ان يطلب من ديان ودادو والون وجاليلى أن يكونوا في مكتبى قبل الساعة السابعة صباحا ٠

وبدأ الاجتماع في الساعة الثامنة ٠ وكان كل اهتمام ديان ودادو موجها نحو حجم الاستنفار ٠

فأوصى رئيس الاركان بتعبئة كل سلاح الطيران وأربع فرق وقال ، انه إذا تم الاستدعاء فورا فسيكون بامكان هذه القوات أن تتحرك وتعمل في صباح اليوم التالى ، أى الاحد أما ديان فكان يحبذ من ناحية أخرى ، استدعاء سلاح الطيران

وفرقتين فقط (احداهما للشمال والاخرى للجنوب) ، وبرر ذلك بأننا لو أعلنا التعبئة العامة قبل اطلاق رصاصة واحدة ، فسوف نعطى العالم الحجة لاتهامنا بأننا « معتدون وكان يرى ، الى جانب ذلك ، أن سلاح الطيران وفرقتين في مقدورهما معالجة الموقف ، فاذا ماساء الموقف في المساء فان بامكاننا استدعاء المزيد خلال ساعات . وقال : « هذا هو اقتراحى ، لكننى لن استقيل اذا قــررتم عكس ذلك » .

وهالتنى الفكرة !! فأنا التى يجب أن تقرر ايهما على صواب !

ولكننى قلت ان هناك معيارا واحدا : فما دامت هناك حرب ، فليكن موقفنا في اقصى حالات الاستعداد الممكنة ، ويتم الاستدعاء وفق ما أقترحه دادو . لكن هذا اليوم كان بالطبع هو اليوم الوحيد الذى خذلتنا فيه قدرتنا الاسطورية على التعبئة بسرعة .

وكان من رأى دادو أن نبدأ بضربة اجهاضية مادام قد بات واضحا أن الحرب لا مفر منها :

وقال : « اريدكم أن تعلموا أن سلاح طيراننا يمكن أن يكون جاهزا للضرب عند الظهر ، لكن عليكم أن تضيئوا لى الضوء الاخضر الان » .

لكننى كنت قد اتخذت قرارى ، فقلت له : « يادادو : اننى اعرف كل مبررات الضربة الوقائية لكننى ضدها . فكلنا لا يعلم الان ما الذى يخبئه لنا المستقبل ، لكنه يبقى هناك احتمال ان نحتاج الى المساعدة . فاذا ما بدأنا بالضربة الاولى فلن نحصل على شىء من احد .

وكم كنت احب أن اقول نعم لانى اعرف مالذى تعنيه ، لكننى سأقول لا بقلب كسير » .

ثم توجه ديان ودادو الى مكتبيهما ، وطلبت من سميحا دنيتز

(سفيرنا الان في واشنطون الذى تصادف وجوده في اسرائيل) أن يعود على الفور الى واشنطون . واستدعيت مناحم بيجين لا بلاغه بما يحدث .

وطلبت عقد اجتماع للحكومة عند الظهيرة ، كما طلبت الى سفير امريكا انئذ ، كنيث كيتنج أن يأتى لمقابلتى ... وابلغته امرين : انه طبقا لتقارير مخابراتنا فان الهجوم سوف يبدأ في ساعة متأخرة من بعد الظهر ، واننا لن نبدأ الضربة الاولى .

كذلك فربما يكون هناك شيء يمكن عمله من اجل منع وقوع الحرب سواء بتدخل امريكى مع الروس او حتى مع المصريين والسوريين مباشرة .

وفي كل الاحوال ، فاننا لن نقوم بضربة اجهاضية وقائية واردت ابلاغه بذلك لكى ينقله على الفور الى واشنطون . ولقد كان السفير كيتنج صديقا حميما لاسرائيل ، سواء في مجلس الشيوخ الامريكى أو في اسرائيل نفسها ولقد شعرت بالعرفان له بالجميل في هذا الصباح الرهيب لمساعدته وتفهمه .

واستمعت الحكومة ، عند اجتماعها ظهرا الى وصف كامل للموقف بما في ذلك قرار تعبئة الاحتياطى وكذلك قرارى بشأن الضربة الوقائية ولم يعارض احد بالمرة .

وفجأة ، وبينما نحن مجتمعون ، دفع سكرتيرى العسكرى باب غرفة الاجتماع حاملا الانباء بأن الضرب قد بدأ وسمعنا في نفس اللحظة تقريبا نعيق صفارات الانذار في تل ابيب وبدأت الحرب .

لم يقتصر الامر على اننا لم نتلق انذارا في الوقت المناسب ، بل اننا كنا نحارب في نفس الوقت على جبهتين ونقاتل اعداء كانوا يعدون انفسهم للهجوم علينا منذ سنين .

كان هناك تفوق ساحق علينا من الناحية العددية ـ سواء في الاسلحة او الدبابات او الطائرات او الرجال . وكنا نقاسى من انهيار نفسى سحيق ·

ولم تكن الصدمة في الطريقة التى بدأت بها الحرب فحسب ولكن ايضا في حقيقة ان عددا من افتراضاتنا الاساسية قد ثبت خطؤها !

فقد كان احتمال الهجوم في اكتوبر ضئيلا وكان هناك يقين بأننا سنحصل على الانذار الكافى قبل وقوع الهجوم وكان هناك ايمان بأننا سنقدر على منع المصريين من عبور قناة السويس ·

ولم يكن ممكنا ان تكون الظروف اسوأ مما هى عليه الآن

اننى لن احاول حتى أن اصف كيف كانت تلك الايام بالنسبة لى

واظن انه يكفى ان اقول اننى لم أستطع ان ابكى عندما انفردت بنفسى ··

وكان من النادر أن ابقى بمفردى. فقد كنت امكث في مكتبى طوال الوقت . او اذهب بين الفينة والاخرى الى غرفة الحرب . وكانت (لو) احيانا تأخذنى إلى المنزل لكى استلقى قليلا الى أن يستدعينى التليفون للعودة ·

وكانت الاجتماعات مستمرة طوال الليل والنهار . تتخللها مكالمات تليفونية من واشنطن او انباء سيئة من الجبهات ·

وكانت الخطط توضع وتحلل وتناقش ·

ولم تكن فترة غيابى عن المكتب تزيد على الساعة فقد كان ديان وداود ورجال وزارة الخارجية والوزراء يأتون الى باستمرار . اما لاطلاعى على آخر التطورات او لطلب مشورتى في مختلف الامور

لكننا حتى في احلك الايام تلك التى عرفنا فيها مدى الخسائر التى لحقت بنا . لم نفقد ايماننا بجنود جيش الدفاع الاسرائيلى ·

لقد كنت اعرف ان كل تقرير حول امكانية مواجهة المصريين يحمل في طياته الثمن الباهظ الذى ندفعه من الارواح البشرية . وكان بمثابة سكين تغمد في قلبى

ولا اظننى سوف انسى ذلك اليوم الذى سمعت فيه اسوأ التنبؤات المتشائمة .

ففى عصر يوم ٧ اكتوبر (ت أ) عاد ديان من احدى جولاته على الجبهة وطلب مقابلتى على الفور . وعندما قابلته ابلغنى ان رأيه هو ان الموقف في الجنوب قد وصل الى درجة من السوء إلى حد اننا يجب ان نقوم بانسحاب جذرى . ونقيم خطا جديدا للدفاع واستمعت اليه في فزع .

وكان بالغرفة كل من آلون وجاليلى وسكرتيرى العسكرى . فطلبت من دادو ان يحضر ايضا فوجدنا لديه اقتراحا آخر هو اننا يجب ان نستمر في الهجوم في الجنوب وتساءل عما اذا كان في امكانه ان يذهب الى القيادة الجنوبية ليشرف بنفسه على سير الامور . وان يسمح له باتخاذ اية قرارات قد يراها على الطبيعة فوافق ديان ورحل دادو .

ودعوت الحكومة الى اجتماع في ذلك المساء وحصلت على موافقة الوزراء على القيام بهجوم مضاد ضد المصريين يوم ٨ اكتوبر .

وعندما اصبحت بمفردى في الغرفة اغلقت عينى وبقيت بلا حراك تماما لمدة دقيقة

واعتقد اننى لو لم اتعلم خلال كل هذه الاعوام كيف اكون قوية لكنت قد تحطمت كلية انئذ

كان المصريون قد عبروا القناة . وكانت قواتنا في سيناء قد تحطمت

وكان السوريون قد تغلغلوا في عمق مرتفعات الجولان .

وكانت الخسائر على كلا الجبهتين مرتفعة للغاية وثار سؤال حارق : هل نبلغ الامة عند هذا الحد مدى السوء الذى بلغه الموقف . وكان لدى احساس بأننا يجب ان ننتظر قليلا .

كان اقل ما يجب ان نفعله من اجل جنودنا ومن اجل عائلاتهم ، ان نحتفظ لانفسنا بالحقيقة عدة أيام اخرى .

ومع ذلك فقد كان من الضرورى اعلان أى بيان على الفور ، وهكذا تحدثت في اول ايام الحرب الى مواطنى اسرائيل .

وكانت واحدة من اشق المهام في حياتى لاننى كنت اعلم اننى لا يجب ان اقول كل الحقائق

وتحدثت الى شعب ليس لديه ادنى فكرة عن الضريبة الرهيبة التى ندفعها في الشمال وفي الجنوب . أو عن الخطر الذى تواجهه اسرائيل إلى ان تتم تعبئة الاحتياطى كلية ويدفعون إلى المعركة : فقلت انه ليس هناك شك في اننا سوف ننتصر واننا فعلنا كل ما يجب من اجل منع اندلاع الحرب . لكن الهجوم المصرى السورى قد بدأ .

وجاء ديان الى مكتبى يوم الاحد . واغلق الباب خلفه ثم وقف امامى وسألنى « هل تريدين منى ان استقيل ؟ فقلت له : « اننى على استعداد لذلك لو انك وجدت ان ذلك يجب ان يحدث من جانبى ومالم أحصل على ثقتك . فلن استطيع الاستمرار

ولم اندم على انه اضطر للبقاء وزيرا للدفاع . وقررنا ارسال بارليف الى الشمال لكى يضع تقييما شخصيا للموقف .

ثم بدأنا محادثات حول الحصول على معونة عسكرية من الولايات المتحدة .

وكان من الضرورى اتخاذ القرارات بكل سرعة وان تكون هذه القرارات صحيحة · فلم يكن هناك وقت للاخطاء ·

وفي يوم الاربعاء . خامس ايام الحرب . دفعنا السوريين الى العودة عبر خطوط وقف اطلاق النار عام ١٩٧٠ . وبدأنا هجومنا على سوريا اما في الجنوب فقد سكن الوضع نسبيا وفكرنا في قيام جنودنا بعبور القناة

لكن ما الذى سيحدث لو ان قواتنا عبرت ثم وقعت في مصيدة هناك ؟

كذلك كان على ان افكر في امكانية ان تكون الحرب طويلة وان نجد انفسنا بدون ما نحتاجه من طائرات او دبابات اوذخيرة ·

كنا في مسيس الحاجة الى كل ذلك وكانت هذه الاشياء تأتينا في البداية ببطء

وقد تحدثت مع دنيتز في واشنطن في كل ساعات النهار والليل . اين الجسر الجوى ؟ لماذا لم يبدأ بعد ؟

واذكر اننى تحدثت معه ذات مرة في الساعة الثالثة صباحا فقال لى ، (لا يمكننى يا جولدا ان اتحدث مع احد . ان الوقت مبكر للغاية !

لكننى لم أكن لاستمع الى صوت العقل

كنت اعلم ان الرئيس نيكسون قد وعد بمساعدتنا واعلم من خلال تجاربى السابقة معه انه لن يخذلنا ·

واسمحوا لى . عند هذه النقطة ان اقول شيئا طالما كررته (الى حد انه ضايق اصدقائى الأمريكيين)

مهما كان حكم التاريخ على ريتشارد نيكسون ـ وهو حكم اعتقد انه سيكون قاسيا ـ فانه يجب ان يسجل الى الابد انه لم يخلف وعدا واحدا قطعه لنا اذا لماذا التأخير ؟ ·

وصرخت في دنيتز بغضب : « لا يهمنى ما هى الساعة الآن . اطلب كيسنجر حالا . في وسط الليل . نحن في حاجة الى النجدة بسرعة اليوم لانها قد تكون متأخرة جدا غدا »

ولقد نشرت قصة هذا التأخير وكيف تمنعت وزارة الدفاع الامريكية عن ارسال المعدات العسكرية الينا على طائرات امريكية والمشكلة التى ثارت عندما بدأنا كالمحمومين نتسوق الطائرات . في الوقت الذى كانت شحنات الاسلحة الروسية تنهال فيه على مصر وسوريا وفي الوقت الذى كنا نخسر فيه الطائرات بمعدل مزعج .

وكانت كل ساعة من ساعات الانتظار تنقضى وكأنها قرن بالنسبة لى . ولم يكن امامنا خيار الا ان نصمد أملين ان تحمل الينا الساعة المقبلة اخبارا افضل .

وابلغت دنيتز تليفونيا اننى على استعداد للسفر الى واشنطن سرا لمقابلة نيكسون اذا كان في وسعه ترتيب ذلك وقلت له : « ابلغنى حالا فأنا اريد السفر بأسرع ما يمكن » .

لكن ذلك لم يكن ضروريا فقد أمر نيكسون بنفسه ـ اخيرا ـ بارسال الطائرات الجبارة جالاكسى ووصلت اولى رحلاتها في اليوم التاسع من الحرب ١٤ اكتوبر

ان هذا الجسر الجوى لا يمكن تقدير قيمته ! انه لم يرفع فقط من روحنا المعنوية وانما ساهم في توضيح الموقف الامريكى امام الاتحاد السوفيتى وساعدنا من الناحية العسكرية . وبكيت لاول مرة منذ بداية الحرب عندما علمت ان الطائرات قد حطت بمطار اللد . وكان ذلك هو اول يوم نعلن فيه قائمة خسائرنا : فقد مات لنا في المعركة ٦٥٦ اسرائيليا .

ومع أن هذه « الجالاكسى » قد احضرت لنا الدبابات والذخيرة والملابس والامدادات الطبية وصواريخ الجو . فانها لم تجلب لنا كل ما نحتاجه :

ماذا عن الطائرات ؟ .

كان من الضرورى اعادة تموين الفانتوم والسكاى هوك في الطريق فكانت اعادة تموينها تتم في الجو .

وجاءت . وجاءت الجالاكسى ايضا التى كانت تهبط في مطار اللد . بمعدل طائرة كل خمس عشرة دقيقة احيانا .

وفي الربيع . وعندما كان كل شيء قد انتهى . جاء الى اسرائيل الكولونيل الامريكى الذى كان مسئولا عن الجسر الجوى . في زيارة لها مع زوجته . وجاآ لرؤيتى .

وكان من الاشخاص الظرفاء المتحمسين للبلد ولرجالنا .

وأذكر أننى ذهبت مرة لمشاهدة الطائرات الجالاكسى أثناء وصولها .

وبدت أمامى كنوع من الوحوش الطائرة الهائلة فيما قبل التاريخ وقلت لنفسى : حمداً لله أننى كنت مصيبة في معارضتى لفكرة الضربة الوقائية الاجهاضية . صحيح أنها كانت ـ ستنقذ أرواحنا في البداية . لكننى على ثقة من أنها لم تكن لتجلب لنا هذا الجسر الجوى . الذى ينقذ الآن الكثير من الارواح .

وكان دادو في هذه الاثناء يتنقل من جبهة الى أخرى .

وعاد بارليف من الشمال . فأرسلناه الى الجنوب لكى يقضى على الفوضى التى نشأت هناك نظرا للاختلافات الحرجة بين آراء الجنرالات على الطبيعة حول التكتيكات التى يجب استعمالها . وطلب اليه أن يبقى هناك طالما كان ذلك لازما .

واتصل بى تليفونيا من سيناء يوم الاربعاء . مباشرة عقب معركة الدبابات الرهيبة . وما أن قال لى . بأسلوبه البطىء في الحديث ، « ج ـ و أ ـ د ـ ا » . علمت أن الامور تسير سيرا حسنا . رغم أن معارك دموية أخرى حدثت بعد ذلك وراحت ضحيتها مئات الارواح من الصغار والكبار ايضا . ولعل ذلك هو ما جعل الناس بعدئذ يقترحون تسميتها لا بحرب يوم كيبور . وانما حرب الاباء والابناء الذين حاربوا بالفعل غالبا جنبا الى جنب .

وقضيت عدة ايام والعذاب يمزقنى خوفا من أن تنفتح علينا جبهة ثالثة وتنضم الاردن الى الهجوم علينا . لكنه بدا واضحا أن الملك حسين تعلم من درس حرب الايام الستة . وكانت مساهمته في حرب الايام الستة لحسن الحظ هى ارسال فيلق أردنى مدرع لمساعدة السوريين .

لكننا كنا عندئذ نهاجم اهدافا استراتيجية في داخل عمق سوريا ، وكانت مدفعيتنا قد وصلت الى ضواحى دمشق . ولذا فان دبابات حسين لم تكن ذات فائدة .

وفي يوم ١٥ أكتوبر بدأت القوات الاسرائيلية في عبور قناة السويس من أجل اقامة رأس جسر على الجانب الاخر .

وقضيت تلك الليلة في مكتبى . وأنا أظن أنها لن تنتهى .

وكان مقررا أن يتم العبور أصلا في الساعة السابعة مساء . وكنت قد قررت دعوة الحكومة الى اجتماع لكى أحيط الوزراء علما بما يحدث قبل ساعة من وقوعه .

ثم أبلغت أن العبور قد تأجل الى الساعة التاسعة فقررنا عقد الاجتماع في الساعة الثامنة .

ثم تأجل العبور حتى العاشرة .

وتأجل مرة ثانية بسبب عجزنا من اقامة الجسر ..

وكان الوزراء في هذا الوقت قد حضروا الى مكتبى . وجلسوا فيه ينتظرون معى طوال الليل أنباء العملية .

وبين كل عشر دقائق أو ربع ساعة . كان احدهم يدخل ليقول : « سيتم الامر حالا . فقط ربع ساعة أخرى »

وهكذا انقضى الليل في عذاب وتوتر واستطاع المظليون العبور . أما المشاة والمدفعية والدبابات فقد تعطل نتيجة لقتال وحشى واجهناه .

وتحدثت في اليوم التالى أمام الكنيست . ورغم شعورى بالتعب فقد تحدثت لمدة أربعين دقيقة . اذ كان لدى الكثير لاقوله .

كذلك اردت أن أعلن على الملأ مدى امتناننا للرئيس والشعب الامريكى . ومدى غضبنا من تلك الحكومات . وخاصة الفرنسية والبريطانية . التى اختارت فرض حظر على شحنات الاسلحة أثناء القتال دفاعا عن أرواحنا .

وأردت فوق كل شىء أن يعرف العالم ما الذى كنا سنواجهه لو اننا انسحبنا الى خطوط ما قبل حرب الايام الستة لعام ١٩٦٧ . تلك الخطوط التى حدث أنها هى نفسها لم تمنع وقوع حرب الايام الستة .

ان الشك لم يخالجنى ولو للحظة أن هدف الدول العربية كان ، وما زال ، هو تدمير دولة اسرائيل . واننا حتى لو كنا تراجعنا الى ما هو وراء خطوط ١٩٦٧ الى بقعة صغيرة لما توقفوا عن محاولة اجتثاث شأفتها وشأفتنا .

كذلك لم اكن من السذاجة بحيث أصدق أن الخطب والكلمات يمكن ان تقنع كل فرد بكل شىء . .

لكننى رأيت من واجبى في يوم ١٦ أكتوبر أن أذكر الدول الأعضاء في الأمم المتحدة والعرب بالسبب الذى دعانا الى التمسك بعناد

بالاراضى التى استولينا عليها في عام ١٩٦٧ . ألا وهو انتظار محادثات السلام .

وقلت أمام الكنيست في هذا اليوم ان الانسان لا يحتاج الى خيال خصب لكى يتصور موقف اسرائيل فيما لو أنها كانت قد عادت الى خطوط ٤ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

ففى الشمال كانت سوريا تريد ارسال بطاريات من مدافعها وصواريخها الى مرتفعات الجولان لكى توفر غطاء لجيوشها عند اقتحامها لقلب اسرائيل .

وفي الجنوب كانت مصر تريد توزيع قواتها في كل سيناء لكى تصل الى حدود اسرائيل .

ها هى الحرب تشن مرة أخرى ضد وجود الدولة والامة .

لقد ادعى الحكام العرب أن هدفهم هو الوصول الى خطوط ٤ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ . لكننا نعلم جيدا أن هدفهم الحقيقى هو اخضاع دولة اسرائيل كلية .

وواجبنا أن ندرك الحقيقة بكل خطورتها حتى يمكننا الاستمرار في تعبئة أنفسنا وتعبئة كل الموارد اللازمة من الشعب اليهودى لكى نهزم الذين يهاجموننا .

وأردت أيضا أن أسجل اللوم للاتحاد السوفيتى والدور الشرير الذى يلعبه في المنطقة فقلت ان الاثر السوفييتى واضح سواء في المعدات أو العقائد العسكرية التى تتبناها الجيوش العربية .. بالاضافة الى شحنات الاسلحة جوا وبحرا الى مصر وسوريا والعراق .

عدت الى مكتبى لكى أواجه واحدا من أقسى واجباتى . وهو مقابلة الاباء الذين فقدوا ابناءهم في القتال .

ولعل واحدا من أفظع الجوانب في حرب يوم كيبور، أننا بقينا لعدة أيام غير قادرين على تحديد مصير الجنود الذين فشلوا في الاتصال بعائلاتهم، منذ بدء القتال.

فاسرائيل دولة صغيرة وجيشها ـ كما يعلم الجميع ـ جيش مواطنين يتكون من قوة دائمة محدودة ثم من الاحتياطيين.

ولم يكن قد سبق لنا أن حاربنا بعيدا عن حدودنا. ولذا فقد كان من السهل المحافظة على الاتصالات مستمرة بين الجنود وعائلاتهم.

لكن الحرب كانت قد استمرت فترة أطول من أى حرب أخرى ـ باستثناء حرب الاستقلال ـ وكنا قد أخذنا بالمفاجأة على حين غرة.

وكان استدعاء الاحتياطيين قد تم وهم في المعابد. بعيدا عن منازلهم، فلم يستطع بعضهم من فرط العجلة ان يعثر على وحدته.

والتحق الاحتياطيون بالمدرعات دون تدريب كاف.

وقد شنت علينا هذه الحرب باسلحة مفزعة مثل الصواريخ المضادة للدبابات التى زودت روسيا بها مصر وسوريا. والتى كانت تحيل الدبابات الى لهيب مشتعل، وتعجن أطقمها بداخلها لدرجة يستحيل معها التعرف على هوياتهم.

وليس واحدا من التقاليد التى تفخر بها قوات الدفاع الاسرائيلية، ان قتلانا وجرحانا لا يتركون للعدو. لكن الايام الاولى من حرب يوم كيبور لم تسمح بأى خيار.

وهكذا استبد القلق بمئات الاباء الذين بداوا يتساءلون عن ابنائهم: هل مات؟

اذا كان الامر كذلك. فأين جثته؟

هل هو اسير حرب؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا لا يعرف أحد ذلك؟

وكنت قد عانيت مثل هذا العذاب مع اهالى الذين اسروا خلال حرب الاستنزاف .

ومرت ايام في شتاء ١٩٧٣ لم أكن فيها أقدر على الوقوف أمام جماعة أخرى من الاهالى . لعلمى أننى لا أملك شيئا أقوله لهم . اذ كان المصريون والسوريون قد رفضوا تسليم الصليب الاحمر قوائم بالاسرى بعد نهاية الحرب بعدة أشهر . أو حتى السماح لحاخامات الجيش بتفتيش أرض المعركة بحثا عن الموتى .

لكن كيف كان في استطاعتى أن أقول لا للآباء والزوجات الذين كانوا يظنون أنهم ما أن يقابلونى حتى يجدوا عندى بطريقة سحرية جوابا على تساؤلاتهم رغم أننى كنت أعلم . أنهم في قرارة أنفسهم يلوموننى على هذه الحرب وعلى نفس الاستعدادات ولذا فقد كنت أقابلهم جميعا .

وكانوا لا يريدون منى الا جزءا من معلومة أو حقيقة أو اثنتين يتعلقون بهما مهما كانت مرارة هذه الحقيقة . فقط شئيا ملموسا يهدىء آلامهم .

لكننى بقيت عدة أسابيع لا اجد شيئا أقوله لهم .

وقضيت معهم الساعات الطويلة . وكان كل ما قلته لهم اننا لن نوافق على أية ترتيبات ما لم تضمن عودة الاسرى ؟

لكن كم هو عدد الاسرى ؟

لا أعتقد أننى أردت شيئا في حياتى بالحاح قدر ما أردت قوائم الاسرى هذه .

وأنا شخصيا لن أغفر للمصرين وللسوريين أشياء كثيرة . لكننى فوق كل شىء لن أغفر لهم منع هذه المعلومات أياما عنا . لمجرد سوء

القصد ولمحاولة استخدام غضب الاهالى الاسرائيليين ضدنا كورقة سياسية في اللعبة .

وأخيرا . وبعد وقف اطلاق النار . وبعد شهور من المفاوضات التى انتهت بالفصل بين القوات على الجبهتين . عاد اسرانا من مصر وسوريا .

وكلما جلست مع مجموعة من هؤلاء الاباء أو الزوجات او الاخوات المذعورين . وكلما تذكرت قولى لهم اننا نفعل كل ما في وسعنا للحصول على هذه القوائم . قلت لنفسى ان الموت أهون وأخف من أن يعذبنا أعداؤنا .

وفي ١٩ أكتوبر . وهو اليوم الثالث عشر في الحرب . جاء المستر كوسيجين الى القاهرة في زيارة عاجلة . في محاولة لانقاذ ماء وجه بلاده .

وبدأ الروس في عمل ما كانوا يعملونه دائما في مثل هذه المواقف . وهو حملة واسعة النطاق من أجل وقف اطلاق النار .. بغض النظر عمن بدأ الحرب وعمن خسرها .

على أية حال لقد كان لدينا هدف واحد . هو السلام .

وكان مطلبنا هذه المرة أن يقابلنا العرب . لا في أرض المعركة وانما على مائدة المفاوضات . وأن يجدوا معنا حلا للمشكلة التى أزهقت بسببها الالاف من الارواح ـ من عندنا ومن عندهم ـ عبر السنين الثلاثين الماضيات .

لقد ظللنا سنين ننادى (السلام) لكى نستمع الى صداها .. الجانب الآخر (الحرب) وظللنا سنين نرى أولادنا يقتلون ونتحمل موقفا يتعدى حدود المعقول .. وكانت المرة الاولى التى أبدت فيها الدول الغربية استعدادها للاعتراف بوجود دولة اسرائيل . هى المرة التى هاجمتها بهدف محوها .

وأذكر في إحدى الليالى اننى كنت عائدة من مكتبى في شوارع تل أبيب المظلمة . وكانت محادثات بريجنيف ـ كيسنجر قد بدأت في موسكو للوصول الى وقف لاطلاق النار اننى أقسمت في صمت أنه على قدر تعلق الامر بى فإن هذه الحرب لابد أن تنتهى بمعاهدة سلام . مواجهة (اللاءات) الثلاثة العربية التى اعلنوها في الخرطوم عقب حرب الايام الستة والتى قضت ب (لا) للتفاوض معنا و (لا) (للاعتراف) بنا و (لا) للسلام .

وأقسمت في تلك الليلة أن أبذل كل ما في وسعى لتحقيق السلام مع العرب . عن طريق المفاوضات .

وكنت قد عقدت مؤتمرا صحفيا قبل ايام يوم ١٣ أكتوبر سألنى فيه أحد الصحفيين عما اذا كانت اسرائيل توافق على وقف اطلاق النار على اساس الخطوط التى كانت قائمة يوم ٥ أكتوبر قبل الهجوم العربى بيوم واحد . فأجبته بأنه لا فائدة من التكهن بما قد تقبله اسرائيل أو ترفضه طالما لم يبد جيراننا في الشمال وفي الجنوب اية رغبة في وقف القتال .

وسنفكر بجدية عندما نصل الى اقتراح وقف اطلاق النار ونقرر ما يجب . لأننا نرغب في انهاء هذه الحرب باسرع ما يمكن . وأضفت قائلة انه برغم تفوق العرب علينا في الاعداد والسلاح والذخيرة . فاننا نتميز عنهم بشيئين ، كراهيتنا للحرب وكراهيتنا للموت .

وشعرت بضرورة التفاوض مع العرب . في أى وقت ومكان يختاره العرب وذلك في مواجهة الضغط الشديد الذى سيقع علينا بهدف الوصول الى وقف لاطلاق النار .

صحيح أننى لم أستخف بحظر تصدير النفط الذى استعملته

السعودية وليبيا والكويت وغيرها ضد العالم . لكنه كان واجبا أن نضع حدودا معينة لتصرفاتنا .

ولنكن صرحاء .. فمصير الدول الصغيرة يعتمد في النهاية على القوى العظمى التى دائما ما تكون لها مصالح تريد حمايتها . وكنا نريد مواصلة الحرب لايقاع الهزائم بالمصريين والسوريين وربما لو حصلنا على مزيد من الوقت لتمكنا من تحقيق ذلك . لكن موقف السادات كان بالطبع أقوى منا وكذلك كانت لديه الوسائل لاقناع روسيا وكانت المراهنات عليه في موسكو مرتفعة جدا حقا . ولذا فاننى لم أفاجا عندها عقد مجلس الامن جلسة طارئة فجر ٢٢ اكتوبر وأصدر قرارا يدعو الى وقف اطلاق النار خلال اثنتى عشرة ساعة .

وقد دعا هذا القرار ، رقم ٣٣٨ ، الى (أن تبدأ المفاوضات بين الاطراف المعنية تحت الرعاية المناسبة بهدف اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط . لكنه لم يبين كيفية تحقيق ذلك . وطار وزير خارجية الولايات المتحدة من موسكو الى القدس لاقناعى بأننا يجب أن نقبل وقف اطلاق النار واعلنا أننا سنفعل ذلك .

لكن السوريين رفضوه بالمرة .

ومع أن المصريين أعلنوا قبوله فانهم لم يتوقفوا عن اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر . واستمر القتال .

وادليت ببيان أمام الكنيست يوم ٢٣ أكتوبر عن وقف اطلاق النار .

وحاولت أن اقنع شعب أسرائيل باننا لم نقبله لضعف عسكرى ، واننا لم نطلبه ، وقلت انه اذا لم يلتزم المصريون به فلن نقف ساكتين .

وكان متوقعا أن يتحسن موقفنا على الجبهتين عما كان عليه عندما بدأت الحرب · صحيح أن مصر سيطرت على الضفة الشرقية للقناة ، لكن بعض قواتنا كانت متمركزة على الضفة الغربية ·

أما في سوريا فقد سيطرت قواتنا على كل الاراضى التى كانت تحت يدها قبيل الحرب وأصبح لنا جيب داخل سوريا ·

ومع ذلك فقد قلت ، وأنا أعنى كل كلمة ، ان اسرائيل تريد لمباحثات السلام أن تبدأ في نفس الوقت مع وقف اطلاق النار ·· لتحقيق سلام مشرف داخل حدود آمنة ·

ودخلت الحرب يومها التاسع عشر بأزمة جديدة ، فقد طلب السادات أمرا كان يعلم أننا لا يمكن أن نوافق عليه ، وهو أن تقوم قوة أمريكية سوفيتية مشتركة بالاشراف على وقف اطلاق النار ، وبدأ الروس استعدادات نشيطة للدخول في المنطقة ·

أما قصة الاستنفار الامريكى الذى تلا لذلك ، فلست أنا الذى أتحدث عنه ·

لكن هناك شيء واحد أريد أن أقوله عنه : اننى أعلم أن هناك أناسا في الولايات المتحدة في ذلك الوقت افترضوا أن نيكسون (اخترع) هذا الاستنفار لكى يحول الانظار عن فضيحة ووترجيت ، لكننى لم أصدق ذلك في حينه وما زلت لا أصدقه الان ·

وأنا لا أدعى أن لدى قدرة غير طبيعية على فهم الناس ، لكننى في هذه المرحلة من عمرى أستطيع أن أعرف متى يتحدث الانسان بايمان صحيح ·

وتحضرنى الان ذكرى مناقشة حية جرت بينى وبين الرئيس نيكسون عندما قام الارهابيون بقتل اثنين من الدبلوماسيين

الامريكيين في الخرطوم · وكنت مدعوة لتناول العشاء في البيت الابيض في الامسية التى سبقت قتلهما ·

ووقفنا قبيل العشاء أنا والرئيس نيكسون وزوجته واسحق رابين (سفيرنا انئذ في واشنطون) نتحدث عما يجرى في الخرطوم ، عندما بادرنى نيكسون بهدوء قائلا : (يجب أن تعلمى يامسز مائير اننى لن أخضع للابتزاز ، ولو اننى ساومت الارهابيين على حل وسط الان ، فاننى أخاطر بتعريض أرواح كثيرة للخطر في المستقبل) ·

وكان عند كلمته ·

وعندما زارنا في اسرائيل عام ١٩٧٤ ، عندما كان الغضب شديدا بشأن مقتل الاطفال في معالوت على يد الارهابيين ـ عاد الى إثارة الموضوع ، فقال لى عندما زارنى في منزلى في القدس : (لقد تربيت على كراهية عقوبة الاعدام ، فاجدادى من الكويكرز · لكنه لا يمكن التعامل مع الارهابيين بطريقة أخرى · فلا يجب أن تخضعى للابتزاز) ·

وكنت على يقين مطلق ، في هاتين المناسبتين ، من أن الرجل الذى يتحدث معى ، بعيدا عن الصحافة وكاميرات التليفزيون ـ كان يتحدث باخلاص كامل ·

واننى ما زلت على ثقة من أن الرئيس نيكسون أمر بالاستنفار الامريكى لانه ـ بصرف النظر عن الوفاق واللاوفاق ـ لم يكن مستعدا للخضوع للابتزاز السوفيتى ·

وأعتقد أن هذا القرار كان قرارا خطيرا ، وكان قرارا شجاعا ، وكان قرارا صائبا · ·

لكنه أدى الى تصعيد في الازمة ، وتحتم على أحد أن يدفع من أجل تهدئة التوتر ·

وكان الثمن ، الذى تحتم بالطبع أن تدفعه اسرائيل ، يتضمن السماح بوصول الامدادات الى الجيش المصرى الثالث ، وأن نوافق على وقف ثان لاطلاق النار يتم تنفيذه تحت اشراف قوات الامم المتحدة ٠

ولم تكن مسألة تقديم الطعام والماء الى الجيش الثالث مسألة انسانية ، فقد كنا نرحب بتقديم ذلك كله اليهم لو أن المصريين كانوا على استعداد لالقاء سلاحهم والعودة الى بيوتهم ٠

لكن الرئيس السادات لم يكن يريد أن يتم ذلك ، في الوقت الذى كانت النشوة تسيطر على المصريين لانتصارهم علينا ٠

وقلت للحكومة في ذلك الوقت ، دعونا على الاقل نسمى الاشياء بأسمائها ، فما هو ابيض أبيض وما هو أسود أسود ! ليست هناك سوى دولة واحدة يمكن أن نتجه اليها وأحيانا نستسلم لها ، رغم علمنا أن ذلك لا يجب أن يحدث ٠

لكنها الصديق الوحيد لنا ، وهى صديق قوى ٠ وليس هناك ما يخجل في أن دولة صغيرة كاسرائيل ، عليها في هذا الموقف ، أن تستسلم أمام الولايات المتحدة ٠

ولكننا لم نوافق على كل شيء ، فقد كان هناك حد أدنى من المطالب من جانبنا ، فيما يلى بيانها كما ذكرته أمام الكنيست يوم ٢٣ أكتوبر :

- أن نوضح ونؤكد أن وقف اطلاق النار ملزم لكل القوات النظامية في أرض الدولة التى تقبله ، بما في ذلك قوات الدول الأخرى مثل جيوش الاردن والعراق في سوريا ، والقوات التى أرسلتها الدول العربية الاخرى واشتركت في العمليات ٠
- يكون وقف اطلاق النار ملزما للقوات غير النظامية التى تعمل ضد اسرائيل من اراضى الدولة التى تقبله ٠

● يكون تقرير الاشراف على وقف اطلاق النار، بواسطة اتفاقيات ·

● اطلاق سراح الاسرى موضوع هام · وقد قررت حكومة اسرائيل طلب تبادل الاسرى ·

عند هذا الحد كانت الشخصية البارزة في الشرق الاوسط هى شخصية وزير خارجية الولايات المتحدة . الدكتور هنرى كيسنجر ، الذى يمكن وصف جهوده من أجل السلام في المنطقة بأنها فوق طاقة البشر ، وقد تراوحت علاقتى مع هنرى كيسنجر بين الصعود والهبوط ، فكانت تتعقد في بعض الاحيان . وكنت أعلم أننى في بعض الاحيان قد ضايقته بل وربما أغضبته ، والعكس بالعكس ·

لكننى أعجبت بمواهبه الثقافية ، وكان صبورا الى ما لا حد ، وفي النهاية أصبحنا أصدقاء حميمين ، وقد قابلت زوجته وقضيت معها وقتا طويلا في اسرائيل ، وأعجبت بها الى حد كبير ·

وأعتقد أن واحدا من أبرز صفات كيسنجر هى مقدرته الرائعة على تناول أدق التفاصيل في أية مشاكل يعهد اليه بحلها ·

وقد ابلغنى أنه لم يكن منذ عامين قد سمع عن مكان يدعى القنيطرة · لكنه عندما اشترك في مفاوضات فك الاشتباك بين القوات السورية والاسرائيلية على الجولان ، لم يكن هناك شيء واحد لا يعرفه عن كل طريق أو بيت أو حتى شجرة هناك ·

وقد قلت له آنئذ : انه باستثناء الجنرالات السابقين الذين أصبحوا الان وزراء في الحكومة ، فأنا لا أعتقد أن لدينا وزيرا واحدا يعرف الكثير عندما بدأنا في الطريق الوعر الذى أدى الى فض الاشتباك على مرتفعات الجولان . كنا قد قلنا اننا لا نستطيع أن نتخلى عن بعض

المواقع على التلال القريبة من القنيطرة والا عرضنا المستوطنات الاسرائيلية تحتها للخطر .

عندئذ أبدى كيسنجر تشككه وقال لى : (انكم تتحدثون عن هذه التلال وكأنها جبال الالب أو الهيملايا) .

(لقد ذهبت الى مرتفعات الجولان ولم أر جبال الالب هناك) .

لكنه كعادته ، كان يستمع بكل اهتمام ، ويعرف بنفسه كل التفاصيل الطوبوغرافية ، وعندما يشعر بالرضى ويقتنع بكلامنا ، فانه كان يقضى أياما وأياما في محاولة اقناع الاسد بأن السوريين يجب أن يتركوا هذه المنطقة أو تلك .. وذلك ما كانوا يفعلونه في النهاية .

لكن كيسنجر ظل طوال الوقت يغدو ويروح وكأنه لم يسمع مطلقا عن كلمة اسمها (التعب) .

وكادت المفاوضات مع السوريين تنهار في بعض الاحيان ، فكان كيسنجر يشرع في كتابة مشروع البيانات التى سيصدرونها ونصدرها حتى يقال على الاقل انها قد تأجلت ولم تنته كلية ..

ثم جاءنا في اليوم الأخير بطلب جديد من الاسد . فرفضناه وعندئذ قال لنا : « حسن . هذه هى النهاية . وسيذهب سيسكو الى دمشق بتعليمات منى ليقول لهم انه لم تعد هناك أى مفاوضات واننا نقترح اصدار بيان مشترك » ..

وجاء كيسنجر لزيارتى عصرا ، وكان مفروضا أن يسافر في الليل وقال لى : « حسن . هذه هى النهاية » ..

ثم نظر الى قائلا : « هل تظنين أنه يجب ان اذهب الى دمشق بدلا من سيسكو ؟ »

فاجبته بأننى « لم اجرؤ على أن اطلب ذلك منك . فقد ابلغتنى انك لن تلتقى مع جروميكو في دمشق ، وهو الان هناك » .

واعمل كيسنجر فكره لمدة دقيقة ثم قال : « يجب أن اقابله حتى ولو في لقاء مجاملة قصير . ماذا ترين ؟ اننى سأفعل ما تقترحينه » ..

فقلت له « اظن اننى اعرف شيئا واحدا . لو انك ذهبت بنفسك فان هناك فرصة في ان تنجح هذه المرة ، والا فلن تكون هناك فرصة على الاطلاق » .

واعرب جوزيف سيسكو الذى كان موجودا في الغرفة ، على موافقته ..

وعندئذ نهض كيسنجر قائلا : « اوكى . سأذهب ، فربما فعلت شيئا بعد كل هذا » ..

وانصرف على الفور ..

ثم عاد الى اسرائيل في حوالى الواحدة والنصف صباحا ، وابرق من طائرته انه يريد منا ان نجتمع في الساعة الثانية والنصف صباحا . وجاء نشطا كأنه قضى الشهر الفائت في مصيف ، رغم ان كل المحيطين به كانوا ذابلين .

وقفز صائحا « كل شيء على ما يرام . لقد فعلتها » . ولو ان كيسنجر ، مع ذكائه اللامع ومقدرته المدهشة على العمل الشاق كان وزيرا لخارجية جابون لما توصل الى اية نتيجة مع السوريين .. لكنه كان يمتلك كل شيء : الذكاء والمثابرة ، والجلد بالاضافة الى حقيقة أنه كان يمثل اكبر قوة في العالم ، الامر الذى شكل توليفة مؤثرة حقا .

اما كونه يهوديا ، فلا أعتقد أن ذلك قد ساعده أو اعاقه في كل شهر المفاوضات ..

فاذا ما كان مرتبطا بنا عاطفيا ، فان هذا الارتباط لم يعكس

نفسه ـ ولا لدقيقة واحدة ـ سواء فيما قاله لنا أو ما فعله بالنيابة عنا ..

وقد القى عليه فيصل محاضرة في اول زيارة له للسعودية عن « الشيوعيين ، الاسرائيليين ، اليهود » .. وهى نظرية فيصل ، التى لم يتردد في شرح تفاصيلها لكيسنجر ..

وتتلخص النظرية في أن اليهود هم الذين خلقوا الشيوعية من أجل قهر العالم ..

وقد اصبح جزء من العالم ملكا لهم أما الاجزاء التى لم يستطع اليهود قهرها ، فقد وضعوا يهودا في المناصب الحكومية الهامة ..

وقال له فيصل : « هل تعلم أن جولدا مائير قد ولدت في كييف ؟ » فأجاب كيسنجر بالايجاب . فسأله فيصل : « الا يعنى ذلك شيئا بالنسبة لك ؟ فقال « لا ليس بالضرورة وهنا قال فيصل : « كييف ، روسيا ، الشيوعية ، هذه هى المعادلة » ..

وقد خضت مع كيسنجر مناقشة أو اثنتين بخصوص الادعاءات الروسية والمصرية بأننا قد خرقنا وقف اطلاق النار ..

كان من الواضح أن كيسنجر يميل الى تصديق ذلك . وفي احدى المرات اتصل بى دنيتز تليفونيا من واشنطون ليرجونى ان اقدم لكيسنجر تأكيداتى الشخصية بأننا لم نفعل ذلك .

وكانت المراسلات مستمرة طوال هذا الاسبوع بيننا .. وكان الرئيس نيكسون وكيسنجر يطلبان منا فيها ان نتنازل ـ عن شيء ؛ ثم عن شيء آخر ثم عن ثالث ـ ؛ وكنت برغم فهمى جيدا للموقف الامريكى فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى ارى أن هذا الوابل من الطلبات قد وصل الى حد مزعج ..

وكتبت خطابا الى كيسنجر اطلب منه فيه أن يبلغنا بكل شيء يريده منا مرة واحدة حتى يمكننا أن نجتمع ونتخذ القرارات بأنفسنا ، بدلا من أن نتلقى طلبا جديدا كل عدة ساعات ..

ولهذا فما ان تحدث دنيتز في هذه الحالة حتى قررت ان ارفع سماعة التليفون واتحدث مع كيسنجر ؛ بدلا من ان اكتب له رسالة أخرى .

وقلت له : « يمكن لك أن تقول أى شيء تريده عنا وأن تفعل أى شيء تريده لكننا لسنا كذابين ، والادعاءات غير صحيحة » ..

وتوجهت في ٣١ اكتوبر الى واشنطون لمعالجة ما شاب علاقتنا معهم ، ولكى اشرح لهم بنفسى السبب في اننا نرى بعض المطالب غير عادلة فقط بل وغير مقبولة ..

وذهبت قبلها بيوم الى « افريقيا » مع ديان ودادو لكى ازور القادة هناك واقضى مع القوات بعض الوقت ..

وتحدثت مع الجنود في الخيام وفي المخابىء تحت الارض واجبت على اسئلتهم ثم طرت الى مرتفعات الجولان في زيارة مماثلة ..

ووجه الى بعض الجنود اسئلة لم اجب عليها بطريقة ترضينى ! فقد كان الغضب مسيطرا على ازاء رفض رفاقى الاشتراكيين في اوروبا السماح لطائرات الفانتوم والسكاى هوك بالهبوط للتزود بالوقود كجزء من عملية الجسر الجوى .

واجريت ذات يوم ، بعد عدة اسابيع من الحرب ، اتصالا هاتفيا بويلى براندات (الرجل الذى يحظى باحترام كبير في الاشتراكية الدولية) وقلت له : « انه ليست لدى مطالب من احد ؛ واريد فقط أن اتحدث مع اصدقائى ! أريد فقط أن اعرف لنفسى ما هو معنى الاشتراكية اذا لم تكن دولة اشتراكية واحدة من كل اوروبا مستعدة

لمساعدة الدولة « الديمقراطية » الوحيدة في الشرق الاوسط ! هل من المعقول الا تنطبق الديمقراطية والاخوة على حالتنا ؟ على أية حال اردت أن اسمع بنفسى وباذنى . ما هو الذى منع رؤساء هذه الحكومات الاشتراكية من مساعدتنا ؟ » ..

وتمت دعوة الاشتراكية الدولية الى الانعقاد في لندن . وجاء الجميع . وتتكون هذه الاجتماعات في العادة من رؤساء الاحزاب الاشتراكية . سواء من كان منها في الحكم أو أولئك الذين في المعارضة البرلمانية .

ولكونى أنا التى طلبت عقد هذا الاجتماع فقد افتتحت الحديث فأبلغت زملائى الاشتراكيون كل تفاصيل الموقف . وكيف أخذتنا المفاجأة . وكيف خدعتنا النوايا الطيبة وايماننا بالتفسيرات التى قدمتها لنا تقارير مخابراتنا . ثم كيف حاربنا .

وقلت : « اننى اريد أن افهم . في ضوء ذلك كله . ما الذى تعنيه الاشتراكية اليوم .

ها انتم الآن أمامى . ولم توضع بوصة واحدة من أرض بلادكم تحت تصرفنا من أجل اعادة تموين الطائرات التى انقذتنا من الدمار ولنفترض الآن ان نيكسون قال لنا انه لا يستطيع عمل أى شىء من اجلنا مادام لم يجد مكانا واحدا في اوروبا لاعادة التموين فما الذى كنتم فاعلين من اجلنا ؟...

انكم تعرفوننا ـ ونحن اصدقاء قدامى .

ما الذى فكرتم فيه ؟ وعلى أى أساس رفضتم السماح لهذه الطائرات بالتموين ؟ .

اننى آخر انسان يستهين بحقيقة أننا دولة يهودية صغيرة واحدة وأن هناك عشرين دولة عربية كبيرة المساحة ولا حدود لنفطها أو

ملايين دولاراتها · لكننى أريد أن أعرف منكم اليوم ما اذا كانت هذه الاشياء تمثل عوامل حاسمة في تفكير الاشتراكية الآن ·

وعقب انتهاء حديثى سأل رئيس الاجتماع عما اذا كان هناك من يريد الحديث فلم يتحدث أحد · وفجأة إنبرى أحد الجالسين خلفى (ولم أشأ أن استدير لانظر الى وجهه كى لا احرجه) قائلا : « انهم بالطبع لا يريدون أن يتحدثوا ·· فالنفط يخنق حلوقهم » ··
ومع أنه لم تجر أى مناقشة ، فلم يكن هناك في الواقع ما يقال ·· لقد قال هذا الرجل الذى لم ار وجهه كل شيء ·

وقضيت في واشنطون ساعة ونصفا مع الرئيس نيكسون · واراد الصحفيون بعد ذلك ان يعرفوا ما اذا كان هناك ضغط على اسرائيل لتقديم تنازلات للعرب فأكدت لهم انه لم يحدث أى ضغط · وسألنى احدهم : « اذا كان الامر كذلك فلماذا جئت الى واشنطون ؟ » فأجبته قائلة : « لكى أعرف انه ليس هناك ضغط ، فذلك وحده يستحق الحضور » ·

وكانت النقطة الجوهرية في محادثاتى مع كيسنجر هى خطوط وقف اطلاق النار في الجنوب · ولم تكن المحادثات سهلة أو باعثة على السرور · وكنت قد أحضرت معى اقتراحا من ست نقاط واذكر أن كيسنجر بقى ليلة بكاملها يناقشها معى وقلت له في أحد المراحل : « انت تعرف أن ما نملكه هو الروح ، وانت الآن تطالبنى بأن أعود الى بلدى وأحطم هذه الروح ، وساعتها لن نكون بحاجة الى اى مساعدة » ··

وقد تم توقيع الاتفاقية بين اسرائيل ومصر في يوم ١١ نوفمبر ١٩٧٣ عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة ـ السويس ووقعها الجنرال اهاروف

ياريف عن اسرائيل واللواء عبد الغنى الجمسى عن مصر . ونصت على ما يلى :

١ ـ توافق مصر واسرائيل على الالتزام بدقة بوقف اطلاق النار الذى دعا اليه مجلس الامن .

٢ ـ يوافق الطرفان على ان المحادثات بينهما تبدأ مباشرة بتسوية مسألة العودة الى مواقع ٢٢ أكتوبر في اطار اتفاقية فصل القوات تحت رعاية الامم المتحدة .

٣ ـ تتلقى مدينة السويس الإمدادات اليومية من الطعام والماء والادوية ، ويتم اخلاء جميع الجرحى من المدنيين في المدينة .

٤ ـ لن تكون هناك اية عوائق امام مرور الامدادات غير العسكرية الى الضفة الشرقية .

٥ ـ يتم استبدال نقاط التفتيش الاسرائيلية على طريق القاهرة ـ السويس بنقاط تابعة للامم المتحدة . وفي نهاية الطريق عند السويس يمكن للضباط الاسرائيليين ان يساهموا مع الامم المتحدة في الاشراف على ان تكون الشحنات الى الضفة الشرقية غير عسكرية .

٦ ـ فور اقامة نقاط التفتيش التابعة للامم المتحدة على طريق القاهرة ـ السويس ، يتم تبادل الاسرى ، بما في ذلك الجرحى .

وهكذا تم ، لاول مرة من ربع قرن ، اجراء اتصال مباشر بسيط ، شخصى بين الاسرائيليين والمصريين . فجلسوا في الخيام سويا ، وبحثوا تفاصيل فك الاشتباك .

وعاد اسرانا من مصر ، سواء الذين اسروا في حرب الاستنزاف أو في حرب يوم كيبور ..

وقد بكى بعضهم كالاطفال عندما تقابلنا . وقد احضروا معهم العديد من الهدايا .

ولكننا بقينا نجهل كل شيء عن اسرى الحرب في سوريا . وفي كل يوم تقريبا كانت هناك جنازات عسكرية للذين قتلوا في سيناء ثم عثر على جثثهم المتفحمة مؤخراً وتم التعرف عليهم ..

ومما زاد الطين بلة ان المزاج العام في اسرائيل كان سوداويا برغم الشعور المتزايد بأن الفصل بين القوات قد يسفر هذه المرة عن سلام حقيقى ..

وانطلقت الصيحات من كل قطاعات الشعب تطالب الحكومة بالاستقالة ، والاتهامات بأن حالة الاستعداد الضعيفة لدى الجيش كانت نتيجة لاخطاء القيادة والاهمال وانعدام الاتصال بين الحكومة والشعب .

وقامت عدة حركات احتجاج ، اختلفت في برامجها ومنطلقاتها ، لكنها كانت تشترك في مطلب واحد هو التغيير وضمت هذه الحركات بعض الاحتياطيين الذين غالبا ما كانوا يعبرون عن ارائهم بتسرع واحيانا بطريقة المتنى .

وكنت اختلف مع الكثير مما قالوه عن الماضى لكن بعض ما قالوه كان صحيحا ..

لكننى على اية حال تحتم على ان استمع الى ما لديهم ، فالتقيت مع كثير من الشباب المنضمين لهذه الحركات . وحاولت أن اسهل لهم الحديث معى وتكون لدى الانطباع بأنهم قد فوجئوا بالفرق بين هذه المرأة التى تستمع اليهم باهتمام وبين الصورة التى كونوها عنى .

وأعتقد انهم ، في هذا الجو المشحون بالشك والاتهام ، قد فوجئوا أيضا بنفس القدر بما قلته لهم .

ولقد كان السخط حقيقيا وكان معظمه تعبيرا طبيعيا عن الغضب ازاء السلسلة القاتلة من الأخطاء التى وقعت ..

ولم تكن استقالتى أواستقالة ديان هى المطلوبة في هذه العاصفة من الاحتجاج . لقد كان المطلوب ان يزال من على المسرح كل من كان مسئولا عما حدث وان نبدأ من جديد بأناس جدد ، اناس اصغر سنا أناس لم يوصموا بتهمة تضليل الامة في مسيرتها ..

كانت المسالة رد فعل للموقف المتطرف الذى كنا فيه ، ولهذا كانت المسألة مفهومة رغم انها كانت موجعة ومؤلمة ..

لكن جانبا من هذا الانفجار كان شريرا ، وكان الجانب الاخر ديماجوجيا ، أو كان ببساطة يتخلص في تكوين رصيد ورأسمال سياسى بركوب موجة المعارضة لمأساة وطنية

واستمعت في اول مناقشة سياسية في الكنيست بعد الحرب الى الخطب التى القاها اقطاب المعارضة ، بما في ذلك مناحيم بيجين وشامويل تامير ، اللذين مزقانى اربا ..

كان الكلام مليئا بالالفاظ الضخمة والحركات المسرحية الى حد لم احتمله . وعندما قمت لكى انهى المناقشة قلت لهم ان طبيعة كلماتهم وخطبهم من النوع الذى لن اجيب عليه .

وقلت : ان استفاضتهم وطلاقتهم في الحديث ذكرتنى بما قاله صديق صهيونى عمالى حينما حضر احدى المناقشات التى لم تكن تماثل في خطورتها ما نناقشه الآن وقال تعليقا على كلام احد المتحدثين بقوله : « تمنيت فقط لو انه تلعثم او تردد مرة واحدة » ..

لقد كان بيجين وتامير يتحدثان عن كارثة حديثة ، عن رجال ماتوا أو أصبحوا معقدين ، عن أشياء رهيبة ، ومع ذلك فقد كان حديثهم متدفقا ، لم يتوقفوا فيه حتى ولو لحظة لالتقاط انفاسهم ، واصبت بالاشمئزاز .

كان موشى ديان هو قلب العاصفة .

وقد جاء أول طلب صريح باستقالته ، على ما أذكر ، من احد وزراء الحكومة وهو يعقوب شمشون شابيرو وزير العدل ..

ولا أظن أنى سوف أنسى غضبتى عليه لانه اختار تقديم هذا الطلب في ذروة الازمة التى سبقت وقف اطلاق النار الثانى ، ولانه قدم هذا الطلب في اجتماع كان يعلم أن الصحافة سوف تلتقطه منه فيه .

وكأنه لم يكتف بذلك ، فقد أبلغنى أنه أخذ يطوف بالمجموعات الموجودة في مطعم الكنيست ليبلغهم بما فعله ..

فطلبت اليه أن يأتى لمقابلتى .. فجاء الى مكتبى وقال لى ، حيث اننى أعلم أنك لم تطلبى من ديان الخروج من الوزارة ، فقد جئت لكى أقدم استقالتى) .

فقلت له ان لدى سؤالين ، ولن أطلب منه البقاء ، لانه جعل من المستحيل على أن أفعل ذلك .

أولا ــ أردت أن أعرف لماذا اختار هذا اليوم بالذات ؟ فأجابنى قائلا : حسن . لان هذا هو يوم وقف اطلاق النار .

فقلت له : هكذا تتصور ؟ أن لدى أخبارا لك مؤادها أن القتال مستمر اليوم وقد قتل بعض رجالنا وجرح اخرون .

وليس هذا في الواقع هو اليوم الذى لك أن تتقدم فيه بهذا الطلب الى وزير آخر .

وثانيا ــ لماذا لا تطالبنى بالاستقالة ؟ فأنا رئيسة الوزراء .

وهنا أجاب شابيرو بقوله (أنت لست مسئولة . فأنت لست وزير الدفاع) .

وجاء ديان بعد ذلك الى مكتبى وسألنى مرة ثانية ، (هل تريدين منى أن أستقيل ؟ اننى على استعداد لان أفعل ذلك) .

ومرة ثانية قلت له : لا .. فقد كنت أعلم أن تشكيل لجنة تحقيق رسمية أصبح وشيكا .

وهى اللجنة التى شكلت في ١٨ نوفمبر تحت رئاسة شيمون اجرانات رئيس المحكمة العليا .

وعلى هذا فالى أن تنهى عملها وترفع نتائجها ، فان مبدأ مسئولية الحكومة الجماعية يظل قائما وتظل نفس أهمية المسئولية الوزارية .

وكانت الازمة الحكومية هى آخر ما تحتاجه اسرائيل في مثل هذا الوقت .

وكنا على أية حال قد أجلنا موعد الانتخابات العامة من ٣١ أكتوبر الى ٣١ ديسمبر (كانون الاول) ، وعندئذ تصبح الامة قادرة على التنفيس عن مشاعرها .

وعلى هذا ، ورغم أن الاستقالة كانت تراودنى ، فقد وجدت أن من الأفضل أن أبقى وقتا قليلا ، وكذلك ديان .

ولقد كان ديان ، بالطبع ، أكثر أعضاء الحكومة تناقضا ، بل وربما أكثرهم تعقيدا .

وكان دائما الرجل الذى ينتزع أقوى استجابة من الجماهير .

وكانت له . بالطبع ، أخطاؤه التى كانت ـ كفضائله ـ كبيرة .

وحتى أكون صريحة ، فان واحدا من الاشياء التى أفخر بها الى حد كبير أننى حافظت طوال خمسة أعوام على حكومة لم تضم ديان فحسب ، بل ضمت عددا من الرجال الذين كانوا يكرهونه ويستاءون منه جدا .

لكننى منذ البداية كونت فكرة جيدة عن المشاكل التى قد أواجهها في هذا الصدد .

فقد عرفت ديان لسنين طويلة . وكنت اعلم أنه عارض رئاستى للوزارة بعد وفاة أشكول . ولذ فقد كانت الطريقة الوحيدة التى تحتم على العمل بمقتضاها ، هى أن تكون أية مواقف اتخذها مبنية على أساس جوهر كل موضوع ، وأن أثبت للحكومة ـ ولديان نفسه ـ أننى لا أضع تقييما للمقترحات بناء على شخصية من يقدمها .

ولا بد أن أقول شيئا لصالح ديان ، وهو أننى عندما لم أكن أؤيد ديان في شيء ما ، فانه يتقبله بصدر رحب ، رغم أنه لم يكن من السهل عليه أن يعمل مع الناس وانه كان معتادا على التصرف بأسلوبه الخاص .

وقد أصبحنا في النهاية صديقين حميمين ، ولم تكن هناك مناسبة واحدة شكوت فيها من عدم اخلاصه .

حتى في الامور العسكرية ، فانه كان يحرص دائما على أن يأتينى أولا وبرفقته رئيس الاركان .

وكنت أقول له أحيانا : (اننى لن أصوت لصالح هذا الموضوع ، لكن لك الحرية في عرض اقتراحك على الحكومة) .

لكننى ما أن كنت أخالفه في أحد أفكاره ، حتى كان يصرف النظر عنها .

فاذا وضعنا في اعتبارنا ما عرف عن ديان من أنه لا يستطيع العمل كجزء من فريق ، وما عرف عنى انه لا أصل الى حلول وسط بسهولة ، فاننى أعتقد أننا بشكل عام قد نجحنا .

كذلك فانه ليس صحيحا أنه رجل قاس !

فلقد شاهدته وهو يعود ممزقا من تلك الجنازات المؤلمة بعد الحرب ، عندما كانت النساء يدفعن الاطفال في وجهه صارخات

(انت قتلت أباهم) ، وكان النائحون يلوحون بقبضاتهم في وجهة وهم يصفونه بأنه مجرم ٠

اننى اعرف مشاعرى ، وأعرف كيف شعر ديان ٠ وكان في الايام الاولى من حرب يوم كيبور متشائما الى حد كبير ، وأراد أن يعد الامة لمواجهة تدهور الموقف الى ما هو أسوأ ٠ فدعا الى اجتماع لرؤساء تحرير الصحف لكى يصف لهم الموقف ، وحضر الاجتماع ٠٠ وذلك لم يكن بالقطع امرا سهلا عليه ٠

ولقد منعته من الاستقالة أثناء الحرب ، لكننى أعتقد أنه ربما كان عليه أن يستقيل مباشرة عقب قيام لجنة أجرانات للتحقيق بنشر تقريرها الاول يوم ٣ ابريل ١٩٧٤ ٠

وقد برأ هذا التقرير ديان (وبرأنى) من أية (مسئولية مباشرة) عن عدم استعداد اسرائيل في يوم كيبور ، لكن التقرير عامل رئيس الأركان ورئيس المخابرات بقسوة الى حد أن داود استقال على الفور ٠

ولطالما شككت في أن ديان كان يمكن أن يحتفظ بصورته (ذات السحر والبريق) ، أو بعضا منها على الأقل ، لو أنه تضامن مع رفاقه في السلاح آنئذ ، وعلنا ٠

ولقد قرأ التقرير المبدئى (والجزئى فقط) في مكتبى ، ثم سألنى للمرة الثالثة عما اذا كان عليه أن يستقيل ، فقلت له ٠ (في هذه المرة يجب أن يكون القرار للحزب) ٠

لكنه كان يسير على منطق خاص به ، ولم أشعر أنه يجب على أن أقدم له النصيحة في مثل هذا الامر الكبير ٠

أما بالنسبة لى فقد قالت اللجنة عنى : (انها في صباح يوم كيبور قد قررت بحكمة ، وبادراك حسن وسرعة ، الامر بالتعبئة الشاملة

للاحتياطى ، وفقا لتوصية رئيس الاركان ، برغم الاعتبارات السياسية الكبيرة ، فقدمت بذلك خدمة هامة للدفاع عن الدولة) .

وكان الكثيرون من خارج اسرائيل يرون أن الموقف فيها خلال شتاء ٧٣ ـ ١٩٧٤ كان أكثر اشراقا مما بدا لدى للاسرائيليين أنفسهم .

وقد زارنى في تلك الفترة المرحوم ريتشارد كروسمان ، الذى ارتبط بميلاد الدولة ، ولم يفهم السبب في الكآبة واليأس المسيطرين ، وسألنى عما يحدث .

فسألته : (ما هو الرد الفعلى الذى يمكن أن يحدث في انجلترا لو أن شيئا مماثلا حدث للبريطانيين ؟) .

وقد فوجىء بسؤالى لدرجة أنه سكب فنجان القهوة .

وقال : (هل تظنين أن أشياء كهذه لم تحدث لنا ؟ أو أن تشرشل لم يرتكب أخطاء أثناء الحرب ؟ أو أن دانكرك لم تحدث لنا غيرها من النكسات أيضا ؟ .. المسألة أننا لم نأخذ الامور بهذه الطريقة المتوترة) .

لكننى أعتقد اننا مختلفون ، وان كلمة (الصدمة) التى كانت على كل لسان طوال هذا الشتاء ، تصف بكل دقة الاحساس القومى بالخسارة الجسيمة والضرر البالغ ، اللذين كان كروسمان يرى انهما مبالغ فيهما .

الفصل الخامس عشر

نهاية الطريق

ومرت الايام · وظل الاحتياطيون في حالة تعبئة في الجنوب وفي الشمال الذى غمرته الثلوج · ولم ينته اطلاق النار . وبقى المزاج العام في اسرائيل سوداويا متململا قلقا · واستمر كيسنجر في مزاولة جهوده من اجل تأمين فصل القوات بين سوريا واسرائيل والحصول على قائمة بالاسرى الاسرائيليين في سوريا ، وتحقيق محادثات جنيف بين المصريين والاردنيين وبيننا ؛ نظرا لان السوريين اعلنوا في شهر ديسمبر (كانون الاول) انهم لن يشاركوا فيها · ورغم انه قد بدا على السطح وكأننا اقرب الى السلام من ذى قبل ، فالواقع انه لا انا ولا كثير من الاسرائيليين كنا نعتقد في قرارة انفسنا اننا سوف نخرج من جنيف بمعاهدات سلام في ايدينا ، بل وذهبنا الى هناك دون ان تراودنا اية اوهام او تستبد بنا النشوة · ومع ذلك فقد وافق المصريون والاردنيون على الجلوس معنا في نفس الغرفة ، وكان ذلك في حد ذاته شيئا لم يسبق لهم ان وافقوا عليه من قبل ·

وبدأت محادثات جنيف في ٢١ ديسمبر (كانون الاول) ، ولم تؤد الى اى نتيجة ، تماما كما كنت اخشى · فلم يكن هناك حوار حقيقى بين المصريين وبيننا · بل على العكس بدا واضحا منذ اللحظة الاولى ان شيئا لم يتغير · فقد رفض الوفد المصرى السماح بوضع مائدته الى جوار مائدتنا ، وكان الجو بعيدا عن ان يوصف بالصداقة · وكان من الواضح ان المصريين يريدون اتفاقية عسكرية ، اما السلام فقد اكتشفنا

مرة اخرى انه ليس هدفهم · ومع ذلك ، ورغم ان الاجتماع لم يخرج بحل سياسى ، فقد تم بعد عدة ايام ، وعند الكيلو ١٠١ ، توقيع اتفاقية فصل القوات · وبقى الامل يراودنا في ايجاد حل سياسى بشكل من الاشكال · فمن المؤكد ان المسيح المخلص لم يقطع هذا الطريق الطويل حتى الكيلو ١٠١ ثم تكاسل عن مواصلته ·

وجرت الانتخابات عندنا في ٣١ ديسمبر (كانون الاول) · واظهرت نتائج التصويت ان البلد لا تريد تغيير الجياد في وسط الطريق · ورغم اننا خسرنا بعض الاصوات ـ تماما كما حدث مع الحزب القومى الدينى ـ فقد خرج « المعراخ » متقدما باكبر نسبة من الاصوات · لكن المعارضة للمعراخ اصبحت اكثر قوة بسبب اشتراك كل الجناح اليمينى في كتلة واحدة · وهكذا تحتم تشكيل ائتلاف من جديد ، رغم صعوبة هذه المهمة ، نظرا لان الكتلة الدينية ، التى كانت شريكنا التقليدى في الائتلاف ، منقسمة على نفسها حول موضوع من يتولى قيادتها وما هى سياستها في هذا الوقت العصيب ·

وكنت قد بدأت اشعر بالاثار النفسية والجسدية لأحداث الشهور السابقة · وكان الارهاق المميت قد حل بى لدرجة اننى لم اكن على ثقة من اننى سوف انجح ـ في مثل هذا الموقف ـ في تشكيل حكومة ، او اننى يجب حتى ان احاول ذلك · فلم تكن هناك فقط مشاكل لا داع لها ، بل كانت هناك ايضا مصاعب في داخل الحزب · وشعرت في اوائل مارس (آذار) باننى غير قادرة على الاستمرار ، فابلغت الحزب باننى قد اكتفيت بهذا القدر · لكن الوفود انهمرت على ترجونى ان اغير رأيى · فمازال الاحتمال قائما بان تندلع الحرب ثانية ، حيث انه لم يتم فصل القوات مع سوريا ، وكان السوريون مستمرين في خرق وقف اطلاق النار · وقيل لى مرة اخرى ان المعراخ سوف يتفسخ ما لم ابق في موضعى ·

وكان يبدو لى في بعض الاحيان ان كل ما وقع منذ بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) قد وقع في يوم ممتد لا نهاية له . وكنت اريد لهذا اليوم ان ينتهى . وطغى الضيق على صدرى ازاء انهيار التضامن داخل دوائر الحزب . كذلك بدا وكأن الناس الذين كانوا وزراء في حكومتى ، اولئك الزملاء الذين عملت معهم سنوات ، والذين كانوا شركاء في تشكيل سياسة الحكومة ، بدوا غير مستعدين للوقوف في وجه حملة النقد الظالم ، بل والقذف ، التى انهالت على وعلى ديان وجاليلى على اساس ان ثلاثتنا تولينا مهمة اتخاذ قرارات حاسمة ادت الى الحرب ، دون ان نستشير الاخرين . كذلك فقد كرهت ذلك الحديث الذى لا يتسم بالمسئولية عما يدعى بـ « حكومة المطبخ » التى افترضوا انها قد حلت محل الحكومة الى حد ما وذلك عندما تصرفت كهيئة لصنع القرارات . لقد كان من الطبيعى ان ابحث عن النصيحة لدى الناس الذين كنت اكن تقديرا لاحكامهم . لكن هذه المشاورات الرسمية ، على اية حال ، لم يحدث انها في اى وقت او باى اسلوب اخذت شكل القرار الحكومى او حلت محله .

ومضيت ، مع ذلك كله ، خلال شهر مارس (اذار) كله اصارع من اجل تشكيل الحكومة ، رغم ان هذه المهمة بدأت تزداد استحالة ، وخاصة ازاء المطالبة المستمرة بتآلف شامل ، وهو الامر الذى كنت ومعظم الحزب نعارضه اكثر من اى وقت مضى . فلم يكن الوقت يسمح باجراء تجارب سياسية ، وضاع كل ايمان لدى بان المعارضة يمكنها ان تصدر احكاما جيدة او تظهر ادراكا طيبا او تبدى اية مرونة ازاء المحاولات التى بدأت اسرائيل تزاولها ، اخيرا ، للوصول الى نوع من التفاهم مع جيراننا . ولم اكن اريد لاعباء الحكومة ان يضاف اليها عنصر قد يرفض التفاوض - عندما يحين الوقت - بسبب موقفه

السلبى كلية ازاء اية تنازلات اقليمية . وخاصة فيما يتعلق بالضفة الغربية · وكنت اعلم ان هناك ـ لاسباب تاريخية ـ خلافا بين مواقف الناس فيما يتصل بالتنازلات الاقليمية في سيناء مثلا والضفة الغربية . رغم اننى كنت اشعر شخصيا بان معظم الاسرائيليين مستعدون للوصول الى حل وسط فيما يتعلق بالضفة الغربية ايضا · وعلى اية حال فقد رأيت من الضرورى ان ادرج في بيان سياسة الحكومة فقرة تنص على انه بالرغم من ان الحكومة مخولة بالتفاوض واتخاذ القرارات بشأن التنازلات الاقليمية مع الاردن . فانه لا بد قبل توقيع اية اتفاقية في هذا الصدد من الرجوع بشأنها الى الشعب في صورة انتخابات جديدة .

ثم حدث امران : اولهما ان ديان استقال . ورغم اننى اقنعته بالعودة الى الحكومة . فان الضجة التى اثيرت حوله داخل الحزب جعلت الانشقاق بين صفوفه امرا وشيك الخطر · وبدا واضحا انه ليس هناك طريق لايجاد معادلة تسمح بارضاء الالحاح المتزايد داخل الحزب على ان يتخلى ديان عن وزارة الدفاع . وتبقى في نفس الوقت على جناح رافى الذى يرأسه داخل اطار المعراخ · كذلك كانت هناك مشاكل اخرى : فالكتلة الدينية التى ظلت تضغط علينا اسابيع طوال من اجل تشكيل حكومة وحدة وطنية . قررت على حين فجأة ـ كنتيجة لخلافاتها الداخلية ـ انها لن تصبح شريكا في ائتلاف ضيق وانها لن تنضم الى حكومتى · وكان معنى ذلك تشكيل حكومة اقليمية . ولم يكن ذلك يمثل مشكلة خطيرة فبوسعنا ان نحصل على تأييد الاحزاب الصغيرة المختلفة في الكنيست · اما الموضوع الذى كنت اراه حرجا فهو احتمال انهيار المعراخ وتفسخه · واستطعت تشكيل حكومة احتل فيها ديان منصب وزير الدفاع . لكن الحملة المضادة له ازدادت عنفا . وتركزت الان على تقرير اجرانات المؤقت الذى برأه ـ

كما سبق ان قلت ـ من اية مسئولية مباشرة عن الاخطاء في الاحكام التى اتخذتها السلطات العسكرية عشية حرب يوم كيبور .

لكن التقرير لم يكن قد تطرق الى موضوع المسئولية البرلمانية او الوزارية . وكان ذلك بالضبط هو الموضوع الذى عبر عنه الرأى العام بقوة داخل الحزب وخارجه . وشعر كثير من الناس في البلد بان رئيس الاركان قد عومل بطريقة غير عادلة وانه كان من الواجب على الاقل توجيه نفس القدر من اللوم الذى وجه الى دادو . الى شخص ديان بوصفه وزيرا للدفاع . (واريد في هذا الصدد . بدون تعليق على تقرير اجرانات . ان اقول ان سلوك دادو في الحرب ذاتها كان رائعا ولا يستحق اى لوم) . وتزايد السخط على اسلوب معاملة ديان فى هذا التقرير .

وكلما تحدثت مع زملائى عن الصراع المستمر في الحزب . وكلما حللت الامور بنفسى . كلما بدأت اشعر بانه ليس في استطاعتى الاستمرار اكثر من ذلك . ووصلت الى نقطة شعرت معها اننى ما لم احصل على تأييد الحزب كله (وكانت الاغلبية دائما في صفى ؛ فلن يعود في مقدورى ان اعمل كرئيسة له بعد ذلك . وحانت اللحظة التى قلت فيها لنفسى « ها قد وصلت . سوف استقيل وعلى الناس الاخرين ان يفعلوا ما في استطاعتهم لتشكيل الائتلاف . ان هناك حدا لما يمكننى احتماله . وقد وصلت الى هذا الحد » .

وبقيت طوال هذه الاسابيع المضنية من المحادثات والمناقشات والمرارة . اتلقى رسائل مؤثرة تحمل لى التشجيع والتأييد من كل انحاء اسرائيل من اناس لم يسبق لى ان قابلتهم . لكنهم كانوا يقدرون الظروف التى امر بها . وكانت كل الرسائل تدعونى الى الصمود والتحمل . وكنت اود بالفعل الا اخذلهم . لكننى ابلغت قيادة الحزب . في ١٠ ابريل (نسيان) . اننى قد اكتفيت .

وقلت « ان خمسة اعوام فترة كافية · وانه لما يفوق طاقتى ان استمر في تحمل هذا العبء · وإنا لا انتمى الى اية دائرة او جناح في داخل الحزب · · وليس هناك سوى دائرة واحدة استشيرها . وهى نفسى · وقرارى في هذه المرة نهائى لا رجعة فيه · واتوسل اليكم الا تحاولوا اقناعى بالعدول عن رأيى لاية اسباب · فلا فائدة » · وبذلت بالطبع المحاولات لاقناعى بالرجوع عن قرارى . ولكن دون جدوى · فقد كنت على وشك ان اتم خمسين عاما من الخدمة العامة ، وكنت على يقين مطلق من اننى افعل الصواب · ولقد كنت اريد عمل ذلك من قبل ، اما الان فلن يقف امامى شىء · وهذا ما حدث وانتهت حياتى السياسية ·

وتحتم على مع ذلك ان ابقى رئيسة لحكومة انتقالية لحين تشكيل حكومة جديدة · واستطعت بحمد الله . قبل ان اترك وظيفتى في ٤ يونيو (حزيران) ان ابلغ الكنيست انه قد تم ابرام اتفاقية لفصل القوات مع سوريا من خلال المساعى الحسنة للدكتور كيسنجر · وتم توقيع هذه الاتفاقية في جنيف يوم ٥ يونيو (حزيران) وعاد اسرانا · ويعجز قلمى عن وصف المعانى التى جاشت في نفسى وانا احييهم لدى عودتهم ، رغم ان العدد الذى عاد من الاسر كان اقل مما كنا نأمل ·

ثم عدت انا الى بيتى ، بلا رجعة هذه المرة · واصبح رئيس الوزراء واحدا من جيل السابرا ـ وهو اسحق رابين ـ الذى ولد في القدس في نفس العام الذى جئت فيه انا وموريس الى مرحافيا · وهناك اختلافات عديدة بين جيله وجيلى ـ اختلافات في الاسلوب وفي المدخل وفي التجربة · وذلك من طبائع الامور ، فاسرائيل بلد النمو التى يتحرك كل شىء فيها الى الامام · لكن نواحى الاختلاف هذه ليست هامة قدر اهمية نواحى التشابه ·

وسوف يبذل هذا الجيل من السابرا جهده ، مثل جيلى ،

وسيكافح . ويرتكب اخطاء . وينجز . وهم كمثلنا ملتزمون بتنمية دولة اسرائيل وامنها وبحلم اقامة المجتمع العادل هنا . وهم يعلمون مثلنا . انه من اجل ان يبقى الشعب اليهودى كشعب . فلا بد ان تكون هناك دولة يهودية يستطيع اليهود فيها ان يعيشوا كيهود . لا على الالام ولا كأقلية واننى على ثقة من انهم سوف يضيفون رصيدا الى الشعب اليهودى في كل مكان مثلما حاولنا ان نضيف . ولا بد لى من ان اضيف عند هذه النقطة شيئا حول ان يكون المرء يهوديا . اننى اعتقد انها ليست مراعاة الشعائر الدينية ومزاولتها . ان كونى يهودية . يعنى . وكان يعنى . ان اكون جزءا من شعب قاسى طويلا وحافظ على هويته .

ولست اعلم ما هى اشكال ممارسة اليهودية التى سوف يزاولها اليهود في المستقبل . في اسرائيل وغيرها . بعد الف عام من الان . لكننى اعلم ان اسرائيل ليست فقط مجرد دولة صغيرة محاربة يحاول فيها ثلاثة ملايين ان يظلوا على قيد الحياة . بل هى دولة يهودية جاءت الى الوجود لتضم جزءا من يهود العالم . ولتغير التاريخ اليهودى الى الابد .

اما انا . فقد بارك الله حياتى . فقد عشت لارى مولد دولة اسرائيل . ولاراها وهى تستوعب بنجاح جماهير اليهود من كل انحاء العالم . لقد كان تعداد اليهود في هذه البلد عندما جئتها في عام ١٩٢١ يبلغ ٨٠،٠٠٠ . وكان دخول كل يهودى متوقفا على الاذن الذى تمنحه حكومة الانتداب . ونحن الان شعب يبلغ تعداده ثلاثة ملايين . وصل مليون منهم الى البلاد بعد قيام الدولة تحت ظل قانون العودة الذى اعطى لكل يهودى الحق في الاستيطان هنا . كذلك فاننى اشعر بالامتنان لانى احيا في بلد يعيش في بحر من الكراهية دون ان يتخلى عن امله في السلام .

واخيرا ، فاننى اود ان اقول ، انه من وقت ان جئت الى فلسطين امرأة شابة ، ونحن مدفوعون للاختيار بين ما هو اكثر خطرا علينا وما هو اقل خطرا . وكم وقعنا تحت اغراء الخضوع للضغوط المختلفة وقبول الاقتراحات التى ان منحتنا هدوءا قليلا لعدة اشهر او سنوات . فانها تقودنا حتما الى اخطار اكبر . ولطالما واجهنا هذا السؤال ، اى هذه الاشياء اكبر خطرا ؟ . ومازلنا حتى اليوم نواجه هذا الموقف ، بل ربما كان الموقف اكثر خطرا . ان العالم قاس وانانى ومادى . وهو لا يشعر باى حساسية تجاه معاناة الدول الصغرى . بل ان اكثر الحكومات استنارة ، تلك الديمقراطيات التى يقودها زعماء رائعون ويمثلون شعوبا رائعة ، حتى هؤلاء لا يشغلون بالهم بمشاكل العدالة والعلاقات الدولية . وفي هذا الزمان ، الذى تركع فيه الدول الكبرى امام الابتزاز ، وتتخذ فيه القرارات على اساس سياسات الدول العظمى ، فانه لا يمكن ان يكون متوقعا منا دائما ان نأخذ بنصيحة هذه الدول ، ولذا فان علينا ان نمتلك القدرة والشجاعة على رؤية الاشياء على حقيقتها والتصرف بانفسنا على اساس غريزتنا الرئيسية في الحفاظ على انفسنا . ولذا فاننى مازلت اجيب على من يسألوننى « وماذا عن المستقبل ؟ » بقولى : انى اؤمن باننا سوف نحصل على السلام مع جيراننا ، لكننى على ثقة من ان احدا لن يصنع السلام مع اسرائيل الضعيفة . فلو لم تكن اسرائيل قوية ، فلن يكون هناك سلام .

اما رؤيتى لمستقبلنا ؟ فهى ان نكون دولة يهودية تستمر جماهير اليهود من كل انحاء العالم في الاستيطان والبناء فيها . ان تكون اسرائيل مرتبطة بجهد تعاونى مشترك مع جيرانها وان تظل ديمقراطية مزدهرة ومجتمعا يرتكز بقوة على العدل والمساواة .

الفهرس

صفحة

صفحة

الصحف التى تصدرها المؤسسة

- جريدة السياسى

صباح كل أحد

- جريدة تعاون الفلاحين

صباح كل ثلاثاء

- جريدة تعاون الرياضى

صباح كل جمعة

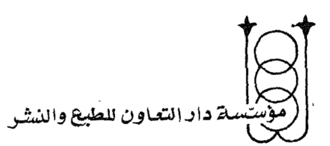
- جريدة تعاون الطلبة

صباح كل سبت

- المجلة الزراعية

أول كل شهر

رقم الأيداع ٤٧١٩ / ٧٩
الترقيم الدولى ٢ ـ ٦٩ ـ ٧٢٥٢ ـ ٩٧٧



مركز الدراسات الصحفية بمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر